

الكليم موسى بن عمران



من الرسالة إلى الخروج

الشيخ علي حسن غلوم

الشيخ
علي حسن غلوم

الكليم
موسى بن عمران

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

alwalaa.com

Email: alwalaa66@yahoo.com

الشيخ
علي حسن غلوم

الكليم

موسى بن عمران
من الرسالة
إلى الخروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥	• المقدمة بقلم المؤلف
١٩	١. مدخل
٢١	موضوعات هذا الفصل
٢١	ماذا جرى بعد المبعث
٢٣	لقاء الأخوين كما صوّرتة التوراة
٣١	ما آمن إلا ذرية من قوم موسى
٣٤	نتائج الفصل وخلاصته
٣٧	٢. في مواجهة فرعون
٣٩	موضوعات هذا الفصل
٤٠	حساسية اللقاء الأول بفرعون
٤٠	وصايا إلهية
٤١	اذهب أنت وأخوك بآياتي
٤٩	ولا تنيا في ذكري
٥١	فقلوا له قولاً لئنا لعله يتذكر أو يخشى
٥٢	فأتياه فقلوا إنا رُسولا ربك
٥٢	فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تُعذبهم
٥٢	قد جئناك بآية من ربك
٥٣	والسلام على من اتبع الهدى

- ٥٤ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى
- ٥٥ مضامين الحوار بحسب القرآن
- ٦٣ الإمام علي يصف المشهد
- ٦٤ وقفة مع السردية التوراتية للحدث
- ٧٠ من مبالغات القصّاصين
- ٨٤ متى كان الاجتماع، وأين؟
- ٨٩ اجتماع وتنازع
- ٩٢ نتائج الفصل و خلاصته
- ٩٥ • في مواجهة السحرة
- ٩٧ موضوعات هذا الفصل
- ٩٨ بداية المواجهة
- ٩٨ ما سبب خوف موسى؟
- ١٠١ ما كيفية السحر الذي قاموا به؟
- ١٠٥ صور تهويلية خيالية
- ١٠٩ وصف ثعبان موسى
- ١١٣ إيمان السحرة
- ١١٨ آية واحدة أم عدة آيات؟
- ١١٨ موقف فرعون
- ١٢٠ ردة فعل السحرة
- ١٢٣ هل كان السحرة مُكرهين على ممارسة السحر؟
- ١٢٤ هل نفّذ فرعون تهديداته؟
- ١٢٦ إيمان مجموعة من الشباب
- ١٢٨ نتائج الفصل و خلاصته

١٣١	• الإعداد لمؤامرة
١٣٣	موضوعات هذا الفصل
١٣٤	عقد الاجتماع
١٣٧	مؤمن آل فرعون
١٦٠	مؤمن آل فرعون في التوراة
١٦٠	مؤمن آل فرعون في الروايات
١٦٧	فرعون يأمر ببناء الصرح
١٧٤	إجراء وقائي ورسالي
١٨١	نتائج الفصل وخلاصته
١٨٣	• هامان
١٨٥	موضوعات هذا الفصل
١٨٥	هامان بين القرآن والكتاب المقدس
١٩٢	سفر إستير
١٩٦	الدقة في القرآن
٢٠٧	هامان في التراث الفرعوني
٢١٧	محاولة موريس بوكاي
٢١٩	نهاية هامان
٢٢١	نتائج الفصل وخلاصته
٢٢٣	• الآيات الإلهية
٢٢٥	موضوعات هذا الفصل
٢٢٦	سنوات الجذب
٢٢٨	عجائب الآيات
٢٣٢	آية الدم

٢٣٥	 آية الضفادع
٢٤٠	 آية البعوض أو القمليات
٢٤١	 آية الذُّباب
٢٤٩	 آية الوباء
٢٥٢	 آية الدَّمَامِل
٢٥٤	 آية البرَد
٢٥٩	 آية الجراد
٢٦١	 آية الظلام
٢٦٤	 آية موت الأَبكار
٢٧٠	 تحديد رأس السنة
٢٧٥	 تقديم القربان
٢٧٦	 التلطِخ بالدم
٢٧٧	 تناول اللحوم المشوية
٢٧٧	 حرق ما تبَقَّى من الذبائح
٢٧٧	 عيد الفصح
٢٨١	 مدَّة الآيات العشر
٢٨٥	 نتائج الفصل و خلاصته
٢٨٧	 • موسى والخَضِر
٢٨٩	 موضوعات هذا الفصل
٢٩٠	 مجموعة تساؤلات
٢٩١	 عرض أحداث اللقاء
٣٠٠	 الروايات وسبب التخطيط للقاء
٣٠٦	 آراء العلماء والمفسِّرين

٣٠٩	القول الأرجح عندي
٣١٢	الهدف من سرد القصة
٣١٥	إشكاليات وتسؤلات
٣١٦	موسى في القصة
٣١٩	العبد العالم في القصة
٣٢٨	أسئلة متفرقة
٣٣٣	مع العلامة الطباطبائي
٣٣٧	أعلمية العبد العالم
٣٤٥	خلاصة نتائج ميثلوجيا الخضر
٣٦٥	نتائج الفصل وخلاصته
٣٦٧	• الخروج
٣٦٩	موضوعات هذا الفصل
٣٧٠	مدخل لأحداث ووقائع الخروج
٣٧٢	جثمان النبي يوسف
٣٨٠	عدد بني إسرائيل
٣٨٦	المحطة الأولى، سُكُوت
٣٩٢	المحطة الثانية، إيثام
٣٩٩	المحطة الثالثة، فم الحيروث
٤٠٢	المواجهة والإغراق في القرآن
٤١١	الوصف التوراتي للمشهد
٤٢٥	المواجهة والإغراق في مرويات المسلمين
٤٢٩	أسطورة عدد بني إسرائيل
٤٣٠	أسطورة الماذيانة

٤٣٦	 أسطورة امتناع البحر
٤٣٩	 أسطورة الفلوق والنوافذ
٤٤٦	 أسطورة مَقْل البحر
٤٤٦	 أسطورة التمثيل بجثة فرعون
٤٤٧	 أسطورة العجوز وعظام يوسف
٤٥٤	 أسطورة ما بين الكلمتين
٤٥٥	 أساطير الثعلبي بالجملة
٤٥٩	 مسار الهجرة
٤٦٠	 احتمالات مسار الخروج
٤٦٧	 نظرية هوفمير
٤٧٦	 نظرية فريتز
٤٧٨	 تشابه الهجرتين
٤٨١	 توبة فرعون
٤٩٠	 نهاية المرحلة
٤٩٠	 نتائج الفصل وخلاصته
٤٩٣	 • مصادر الكتاب
٤٩٥	 المصادر العربية
٤٩٩	 المصادر الأجنبية
٥٠٠	 مواقع الإنترنت
٥٠١	 • صدر للمؤلف
٥٠١	 الكتب
٥٠٣	 تطبيقات الأجهزة اللوحية والهواتف المحمولة

بقلم المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

انتهيت في الجزء الأول من سيرة الكليم موسى بن عمران «عليه السلام» عند حدث البعثة حيث طور سيناء، وما جرى في تلك الليلة من تفاصيل نقلها القرآن الكريم في أكثر من سورة، بما في ذلك مشاهدته لآتي انقلاب العصا وتغيّر لون يده، وكذلك استحالة الماء دماً بحسب التوراة الحاضرة.

ويتكفل هذا الجزء بتناول الأحداث التي أعقبت هذا المشهد استجابةً لأمر الله «تعالى» بذهاب موسى إلى فرعون -بمعية أخيه هارون- وعرض الرسالة عليه مشفوعاً بالآيات التي سُدِّدَ بها، وما جرى بعد ذلك إلى أن حانت ساعة الخروج والهجرة من مصر إلى الأرض المباركة.. أرض كنعان.. فلسطين.

ويأتي هذا الجزء في ثمانية فصول:

تناول الفصل الأول منه لقاء موسى بأخيه هارون، وعرض الرسالة على بني إسرائيل وجاء الفصل الثاني خاصاً بتحليل مشهد أول لقاء جمع موسى وهارون من جهة فرعون والملأ من جهة أخرى.

أما الفصل الثالث فاختصّ بمشهد التحدي الذي جرى بين موسى والسحرة، ومآلات الهزيمة الفاضحة التي لحقت بهم أمام آية انقلاب العصا إلى ثعبان مبین. الفصل الرابع يناقش الهدف من الاجتماع الذي عقده فرعون بالملأ بعد فشل مواجهة السحرة، ودور مؤمن آل فرعون في محاولة إقناع فرعون والملأ بتغيير موقفهم من الرسالة.

وحيث تحدّث القرآن عن شخصيّة (هامان)، بينما غابت هذه الشخصية عن السردية التوراتية الخاصة بسيرة النبي موسى، وحضرت في أحداث قصة من قصص الكتاب المقدس وقعت بعد مئات السنين، فقد أثّرت إشكالية حول مدى صحة السردية القرآنية. لذا جاء الفصل الخامس معنياً بمناقشة هذا الموضوع وردّ الإشكال المطروح.

وقدّم الفصل السادس عرضاً مقارناً للآيات (الضربات) الإلهية التي تعاقبت على مصر بعد استكبار فرعون والملأ من حوله، وذلك بين ما جاء في القرآن الكريم وفي التوراة، ومحاولة بعض علماء البيئة والأحياء تفسير تلك الأحداث بصورة علمية.

وتحدّث في الفصل السابع من هذا الجزء عن مجريات أحداث اللقاء الذي تمّ بين النبي موسى وبين العبد العالم كما وُصِفَتْ في سورة الكهف، وأسباب اللقاء، مع مناقشة لمدى صحّة تحديد هذه الشخصية بكونه الحضر على ما هو المشهور.

وأما الفصل الثامن والأخير فقد اشتمل على عرضٍ لحدث الهجرة والخروج من مصر، بما في ذلك تنفيذ وصية النبي يوسف بإخراج جثمانه من مصر إلى أرض كنعان، ومناقشة مدّعى التوراة الحالية حول عدد من خرج مع النبي موسى، ومحاولة تحديد مسار الخروج، واسم وموقع البحر/اليم الذي انفلق وهلك فيه فرعون وجنوده، انتهاءً بمناقشة ادّعاء نجاة فرعون حين أعلن -عند الغرق- عن إيمانه بالإله الذي آمن به بنو إسرائيل.

ويمتاز هذا الجزء بعرض وتفسير ومحاولة تأويل آيات كثيرة عرّضت هذا المقطع من سيرة النبي موسى وبني إسرائيل، مما جعل البحث ثرياً بالمادّة القرآنية، علاوة على ما التزمْتُ به في الجزء الأول من منهج المقارنة بين السردية القرآنية وأخبار ومرويات المسلمين من جهة، وبين ما جاء في خصوص التوراة ثم في التراث الكتابي المدرashi والتلمودي من جهة أخرى، واعتماد أسلوب التحليل والتحقيق للوصول إلى أقرب النتائج إلى القبول في إطار المفردات التاريخية المذكورة في هذه المصادر، والبحث في الموروث اليهودي -على تنوّعه- عن مصادر وجذور الروايات الإسرائيلية التي غرّث كتب التفسير والحديث والتاريخ والتراث الإسلامي حول هذا المقطع من سيرة الكليم موسى بن عمران «عليه السلام»، فوقعْتُ -بمجد الله ومثّه- على ثروة معلوماتية بهذا الشأن تؤكّد صحّة ما قال به عدد من علماء المسلمين منذ أكثر من عشرة قرون عن مخاطر هذا الغزو الثقافي، حين حدّروا من مرويات كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وغيرهم من مسلمة أهل الكتاب، ولكنهم لم يُقدِّموا على الخطوة اللاحقة المهمّة الخاصّة بالبحث عن جذور ومصادر تلك الإسرائيليات واستخراجها من منابعها، ولهم العذر في ذلك بعدم توافرها بين أيديهم، وصعوبة تعلّم العبرية

في ذلك الزمان، وغير ذلك من العوامل التي حَجَرَت مصادر المعرفة اليهودية عن علماء المسلمين إلا ما ندر، علاوة على تعرّضهم للخداع والغش والتزوير من قِبَل بعض مسلمة أهل الكتاب فيما نقلوه لهم عن بعض مصادرهم بادّعاء أنها جاءت كما أخبرهم بها، مصداقاً لقوله «تعالى»: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعُضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦﴾^(١)، وقوله «سبحانه»: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ.... ٤٦﴾^(٢) وقوله «عزَّ اسمه»: ﴿... وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ.... ٤٦﴾^(٣).

وسيجد القارئ الكريم في بداية كل فصل النقاط التي سيتم تناولها وبحثها في هذا الفصل على وجه التحديد، كما وسيجد في نهاية الفصل خلاصة للنتائج التي تمّ التوصل إليها في صورة نقاط مختصرة أيضاً.

أَسْأَلُ اللَّهَ «سبحانه وتعالى» أن يتقبَّل هذا العمل بأحسن القبول، وأن يغفر لي زلاتي وأخطائي وقصوري في ما قدّمت، إنه سميع مجيب، وأكرّر شكري لكل مَنْ ساهم في تكامل هذا الجزء من سيرة الكليم موسى بن عمران خلال عرضه في محاضرات شهر رمضان لسنة ١٤٤٥ هـ، وكان نتاجه هذا الكتاب.

علي حسن غلوم علي

الكويت - ١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٤ م

١. سورة البقرة: ٧٦.

٢. سورة النساء: ٤٦.

٣. سورة المائدة: ٤٦.

١

مدخل

مدخل

• موضوعات هذا الفصل:

- البحث عن تفاصيل الأحداث التي أعقبت بعثة النبي موسى «عليه السلام» إلى ما قبل دخوله على فرعون للمرة الأولى منذ عودته إلى مصر.
- أين التقى موسى بأخيه هارون «عليهما السلام»؟ وماذا جرى في ذلك اللقاء؟
- عَرِّضْ لما جرى في اجتماع النبي موسى بشيوخ بني إسرائيل، ومدى تفاعلهم مع رسالته ودعوته وخطوته القادمة تجاه فرعون.

• ماذا جرى بعد المبعث ؟

- توقفنا في الجزء الأول من سيرة النبي موسى «عليه السلام» عند استعراض أحداث وتفاصيل مبعثه وهو في طريق عودته إلى مصر مع أهله... فماذا جرى بعد ذلك؟
- من الواضح من خلال سرد الآيات القرآنية أن أول إجراء اتخذته موسى «عليه السلام»

قبل الدخول على فرعون أن يلتقي بأخيه هارون، فالآيات القرآنية تحدّثت عن طلب موسى أن ينضم إليه أخوه هارون في حمل مسئولية الرسالة إلى فرعون وإدارة المرحلة القادمة: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٧﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٨﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٩﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٣٠﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٣١﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٢﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣٣﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٤﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٥﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٦﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٧﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٨﴾﴾^(١).

ولكن، هل تمّ ذلك في مدينة أواريس حيث يسكن بنو إسرائيل أم في منطقة أخرى؟ الآيات ساكتة عن ذلك.

واعتبر القرآن الكريم أن قبول هذا الطلب من قبل الله «تعالى» رحمة وهبة منه «سبحانه»: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِمَّن رَّحِمْنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾^(٢)، وفي ذلك يقول العلامة الطاهر ابن عاشور: (ومعنى هبة أخيه له: أن الله عزّزه به وأعانه به، إذ جعله نبياً وأمره أن يرافقه في الدعوة، لأن في لسان موسى حُبسة، وكان هارون فصيح اللسان، فكان يتكلم عن موسى بما يريد إبلاغه، وكان يستخلفه في مهمات الأمة. وإنما جعلت تلك الهبة من رحمة الله لأن الله رحم موسى إذ يسّر له أخاً فصيح اللسان، وأكمله بالإنباء حتى يعلم مراد موسى مما يبلغه عن الله «تعالى»)^(٣).

بالطبع، فإننا لا نملك تفاصيل قرآنية بهذا الخصوص، إذ أن كتاب الله المجيد لا

١. سورة طه: ٢٤-٣٦.

٢. سورة مريم: ٥٢-٥٣.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ١٢٧.

يهتمّ بمثل هذه الأمور الجانبية، ويركّز على المشاهد الخاصة بالرسالة وما يرتبط بها بشكل مباشر، ولكن في التوراة ما يتحدّث عن هذا اللقاء الذي يتم بعد غيبة امتدت قرابة ١٠ سنوات.

• لقاء الأخوين كما صوّرته التوراة:

يمكن بيان ما ذكرته التوراة الحاضرة بهذا الخصوص وفق النقاط التالية:

أولاً: أمر الله «تعالى» النبي هارون بأن يغادر المدينة ويذهب إلى البرية حيث يتواجد موسى بجانب جبل الطور: (٢٧) وَقَالَ الرَّبُّ لِهَارُونَ: «اذْهَبْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لاسْتِقْبَالَ مُوسَى». فَذَهَبَ وَالتَّقَاهُ فِي جَبَلِ اللَّهِ وَقَبَّلَهُ. ٢٨ فَأَخْبَرَ مُوسَى هَارُونَ بِجَمِيعِ كَلَامِ الرَّبِّ الَّذِي أَرْسَلَهُ، وَبِكُلِّ الْآيَاتِ الَّتِي أَوْصَاهُ بِهَا^(١). وإن صحّ هذا، فمن المفترض -على الأغلب- أن يكون الأمر قد صدر لهارون قبل أيام من وصول موسى إلى جبل الطور وتلقّيه كلام الله، لأن المسافة بين مدينة أواريس وجبل الطور أكثر من ٤٠٠ كم، والمسافر المُجَدّد بحاجة إلى قرابة الأسبوع لقطع هذه المسافة [انظر اللوحة رقم ١]. نعم، يمكن أن يقال أنّ الله «تعالى» طلب من موسى البقاء حيث هو عند جبل الطور، ثم صدر الأمر لهارون بالتحرك نحو ذلك المكان، فالتقيا بعد طول انقطاع.

وعلى الاحتمال الأول، فإنّ نبوة هارون سابقة على نبوة موسى «عليهما السلام»، لأنّ الله «تعالى» أمر هارون بالتحرك من أواريس قبل أن يُبعث موسى ويُكلّم من قبل الله عند جبل الطور. وأما على الاحتمال الثاني فهذا الفرض ممكن أيضاً، وإن لم يكن حتمياً، على خلاف ما هو حال الاحتمال الأول.

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٧-٢٨.



اللوحة رقم ١ : خريطة تبين المسار والمسافة بين جبل الطور ومدينة أواريس

ثانياً: عاد الأخوان إلى أواريس، وتمّ عقد اجتماع برؤساء (شيوخ) بني إسرائيل لعرض أمر الرسالة عليهم: (٢٩) ثُمَّ مَضَى مُوسَى وَهَارُونُ وَجَمَعَا جَمِيعَ شُيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٣٠. فَتَكَلَّمَ هَارُونُ بِجَمِيعِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى بِهِ، وَصَنَعَ الْآيَاتِ أَمَامَ عُيُونِ الشَّعْبِ^(١).

ولكن، لماذا كان هارون «عليه السلام» هو المتكلم، بينما من المفترض أن الرسول الذي تلقى كلام الله مباشرة هو موسى «عليه السلام»، ولذا فهو أنسب الناس لبيان ماهية الرسالة وحقيقتها ومصداقيتها؟

لربما كانت صعوبة النطق عند موسى «عليه السلام» تمثّل عائقاً في البيان في مثل

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٩-٣٠.

هذا الموقف الحساس الذي يريد من خلاله أن يُقنع شيوخ بني إسرائيل بالإيمان برسالته وأن يساندوه في الخطوة القادمة المتمثلة في دعوة فرعون للإيمان ولإطلاق بني إسرائيل... والتدلّج في الكلام قد يعطي انعكاساً سلبياً، ويثبّط من عزيمتهم، ويكون مخالفاً للغرض من الاجتماع.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى قد يقال بأنّ هؤلاء الشيوخ يعرفون هارون أكثر من معرفتهم بموسى، وثقتهم به أكبر، وعلاقتهم به أقوى، لاسيما إذا قلنا بأن نبوّته كانت سابقة على نبوة موسى، كما أنهم يعتبرونه واحداً منهم، على خلاف موسى الذي عاش في القصر، ومن الطبيعي أن تكون مصداقيّته عندهم - كني - أكبر من مصداقية موسى الذي كان قد ترك مصر منذ سنوات وانقطع عنهم. ولذا فإنّ مبادرته بالكلام تصرّف في محلّه، لاسيما وأنه يُعلن عن قيامه بدور المساند لرسالة أخيه، فهي تزكية منه له.

ولكننا ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب أن موسى كان يتدخّل لصالح بني إسرائيل في شبابه محاولاً رفع الظلم عنهم وتخفيف معاناتهم، وأنه قتل رجلاً بسبب ذلك مما اضطرّه إلى الهروب إلى مدين، فمن المفترض أن تكون له شعبية تدفعه ليكون هو المتحدث، لولا صعوبة النطق عنده.

وتساءلت بعض المصادر اليهودية أنه إذا كان هارون هو الأنسب للحديث مع شيوخ بني إسرائيل، فلماذا لم يُجعل هو القائد وهو المبعوث الرئيس لقيادة بني إسرائيل ودعوة فرعون؟ وأجابت عن ذلك بنقاط:

١. ضعف القدرة القيادية لدى هارون: يشهد على ذلك ما تحدّث عنه الإصحاح ٣٢ من سفر الخروج يقدّم لنا الإجابة على ذلك، فعندما كان موسى يتكلّم مع الله على جبل

سيناء، أصبح بنو إسرائيل الموجودون في المخيم قلقين وطالبوا هارون أن: (فَمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا)^(١). فاستسلم هارون للشعب، وصهر حليّ الذهب التي لديهم وحوّلها إلى عجل ذهبي. فبدأ بنو إسرائيل يعبدون الصنم وينسبون إليه كل أعمال الله. كما أنشأ هارون مذبحاً وأعلن عيداً. وكان هذا الإجراء بمثابة فشل قيادي كبير من جانبه. أفعاله أغضبت الله. كان الله غاضباً جداً لدرجة أنه هدّد بإهلاك الناس رداً على ذلك. تُظهر هذه القصة أن هارون كان ضعيفاً وغير قادر على قيادة بني إسرائيل.

٢. قدرات ومهارات النبي موسى: في المقابل، كان موسى قائداً قوياً في إيمانه وشخصيته، لقد كان متمسكاً بأفكاره ومتبنياته، فلم يحد عن الله، حتى عندما أصبح الشعب الذي كان يقوده مضطرباً، كما كانت لموسى كل الصفات المطلوبة والمناسبة تماماً للقيام بمسئولية القائد. لقد كان متواضعاً، ومتعاطفاً، وبطلاً لبني إسرائيل، كما كان يتمتع بالصبر والحكمة. وقد أدرك الله توافر هذه السمات في موسى، وقد بينها في جميع أنحاء الكتاب المقدس. ففي سفر العدد على سبيل المثال، يُشار إلى تواضع وحلم موسى على وجه التحديد: (وَأَمَّا الرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جِدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ)^(٢). إن القائد المتواضع الحليم هو بالضبط ما تحتاجه أمة بني إسرائيل في ذلك الوقت. لقد كانوا مُستعبدين وفي حالة كفاح من أجل البقاء، وكانوا بحاجة إلى شخص يغيّر حياتهم بشكل جذريّ، شخص يستمع إليهم، شخص يعمل معهم ويشعر بالتعاطف مع أوضاعهم. كان موسى هو ذلك الشخص. لقد حقّق مطالبهم، وأجاب على أسئلتهم، وكان الله إلى جانبه. لقد ساعدهم في تحريرهم من

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ١.

٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الإصحاح ١٢: ٣.

عبوديتهم وقادهم إلى مراعي أكثر خضرة، وقدّم لهم الأمل في حياة جديدة^(١).

وقصة العجل الذهبي وكيف تعامل النبي موسى «عليه السلام» مع القوم الذين انحرفوا عند عودته من لقاء الله نموذج واضح على قوة شخصيته وقدراته القيادية في تلك اللحظات، بحيث دمر العجل وأحرقه ونسفه وهو مصنوع من ذهب النساء وحليهن وتقبلهن خسارة ذلك الذهب دليل آخر على قوة شخصيته، لاسيما بلحاظ أن القوم كانوا -قبل قليل- يحتفلون عند هذا العجل ويعتقدون بألوهيته: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۚ﴾ ^(٩٣) قَالَ يَا ابْنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ بِقَوْلِي ۚ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۚ ^(٩٤) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۚ ^(٩٥) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۚ ^(٩٦) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ ^(٩٧).

ونحن نوافق على النقطة الثانية، إلا أننا دون أدنى شك لا نوافق على ما جاء في النقطة الأولى من اتهامات بحق النبي هارون «عليه السلام»، وقد برّاه القرآن الكريم من هذه التهم الباطلة، وهذا بحث سنتناوله بإذن الله «تعالى» في الجزء الثالث من سلسلة سيرة الكليم موسى بن عمران «عليه السلام».

وقد بيّن القرآن الكريم أن مقام النبوة والرسالة، وكذلك تفضيل الرسل على بعضهم

1. <https://www.ifcj.org/news/fellowship-blog/why-did-god-choose-moses>

البعض يأتي وفقاً لعلم الله وحكمته في ما له علاقة بالاصطفاء: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَنَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾^(١)، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٢٥٤﴾﴾^(٢).

وعلى كل حال، فإنَّ موقف هارون مع شيوخ بني إسرائيل -في جانب منه- يذكّرنا بموقف أبي طالب عمّ النبي «صلى الله عليه وآله» من الرسالة، ومواجهته كبار شخصيات قريش، كما ويذكّرنا بآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٦﴾﴾^(٣)، وبذا تكون مساندة هارون لموسى مشابهة لدور الإمام علي في مساندته للنبي في الرسالة، ولدور أبي طالب أيضاً في هذا السياق.

وحيث ذكرت التوراة أن موسى أتى بالآيات أمام شيوخ بني إسرائيل لتأكيد مصداقية رسالته، فلا بد أن المراد من هذه الآيات هي الآيات الثلاث التي ذكرت من قبل أثناء كلام الله مع موسى، وهي العصا وانقلابها إلى حية، وآية اليد حيث يتغيّر لونها، وآية انقلاب الماء دماً: (٩ وَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، وَلَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِكَ، أَتَنَكَّ تَأْخُذُ مِنْ مَّاءِ النَّهْرِ وَتَسْكُبُ عَلَى الْيَابِسَةِ، فَيَصِيرُ الْمَاءُ الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنَ النَّهْرِ دَمًا عَلَى الْيَابِسَةِ)^(٤).

١. سورة البقرة: ٢٥٣.

٢. سورة الإسراء: ٥٥.

٣. سورة الشعراء: ٢١٤.

٤. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٩.

فهل صدّقه رؤساء بني إسرائيل؟ النص التوراتي يجيب إجابة مثبتة: (٣١) فَأَمَنَ الشَّعْبُ....^(١). ويمكن تفهّم ذلك بلحاظ كونهم مضطهدين، وأنهم كانوا بانتظار من يخلصهم من الاضطهاد، ووجدوا الأمل في موسى وهارون وفي هذه الرسالة، لاسيما بلحاظ ما ذكرناه في الموسم الماضي من أن موسى كان فاعلاً في التدخل لمصلحتهم عندما كان في البلاط بمثابة الولد لفرعون، ونتذكّر قضية قتله الذي من عدوه وانقسام المجتمع إلى معسكرين، معسكر الذي من شيعة موسى والآخر من شيعة عدوه: (٣١) وَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ افْتَقَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ نَظَرَ مَذَلَّتَهُمْ، خَرُّوا وَسَجَدُوا^(٢).

وقد يكون للبُعد الديني أيضاً دور في ذلك، حيث ذكّرهم - كما تقول التوراة - بوصايا جدّهم الأكبر - يعقوب.. إسرائيل - حول توحيد الله، وهو ما تحدّث عنه القرآن الكريم في قوله «تعالى»: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣﴾^(٣).

ماذا جرى بعد ذلك؟ هل تم عرض الرسالة على عموم بني إسرائيل من قبل موسى وهارون، أو من قبل شيوخ بني إسرائيل؟ أم تم الاكتفاء بعرضها على الشيوخ والطلب منهم كتمان الأمر إلى ما بعد مواجهة فرعون؟

لربما يقال أن النص التوراتي السابق يفيد أن موسى وهارون عرضا أمرهما أمام كل

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٣١.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٣١.

٣. سورة البقرة: ١٣٢-١٣٣.

بني إسرائيل، وهو ما يُصطلح عليه في النص بعنوان (الشعب)، وأن ذُكر الشيوخ جاء بلحاظ أن الدعوة وُجّهت إليهم في المقام الأول، ليقوموا بدورهم بدعوة من ينتسبون وينتمون إليهم من بني إسرائيل.

ولذا جاء في النص التوراتي: (٣٠) فَتَكَلَّمَ هَارُونُ بِجَمِيعِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى بِهِ، وَصَنَعَ الْآيَاتِ أَمَامَ عُيُونِ الشَّعْبِ. ٣١ فَأَمَنَّ الشَّعْبُ...^(١)، لاسيما وأن قبول الرسالة من قبل بني إسرائيل سيشكل عامل ضغط مسبق على فرعون عند عرض الأمر عليه لاحقاً، وهي الخطوة الأهم في المشروع، إذ أن إيمان فرعون بالرسالة سيسهل المهمة كثيراً بلحاظ موقعه وسطوته في المجتمع المصري.

ولكن ربما يقال أن ذلك كان أمراً غير قابلٍ للتطبيق، بسبب كثرة عدد بني إسرائيل الذي -بإدعاء التوراة الحاضرة- قد بلغ ستمائة ألف رجل أو فرد، إلا أن الرقم مشكوك فيه، بل يمكن القول بأنه ادعاء غير صحيح، وناقشنا ذلك في الموسم الماضي وسنعيد مناقشته في الفصل الأخير من هذا الجزء من الكتاب.

كما قد يقال أن الحكمة تستدعي التدرّج في عرض الرسالة، بأن يتم العرض على شيوخ بني إسرائيل أولاً وكسب موافقتهم، ليكون قبول عامة الناس -لاحقاً- أيسر، وذلك وفقاً للنظام المسمى بالأسباط عندهم، وهو نظام يقابل النظام القبلي عند العرب، حيث تكون لشيوخ القبائل والعشائر مركزية وقوة، وكثيراً ما نشهد أن تغيّر مواقف أو متبنيات شيخ العشيرة أو القبيلة -حتى في البعد الديني- ينسحب على أفراد عشيرته أو قبيلته. وهكذا، فقد كان لشيوخ الأسباط تأثير بالغ في تغيّر مواقف وآراء ومتبنيات عامة (الشعب) الخاضعين لقيادتهم.

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٣٠-٣١.

• ما آمن إلا ذرية من قوم موسى:

وفي مقابل هذا الوصف التوراتي، فإنّ في القرآن الكريم آية تحظى مُجمل هذه التصورات، سواء قلنا بأن موسى وهارون عرضا أمرهما على الجميع أم على خصوص شيوخ بني إسرائيل، فبعد عرض الآيات لما جرى مع السحرة يقول «تعالى»: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣) (١).

قال العلامة الطباطبائي معلقاً على الآية الشريفة: (المراد بالذرية من قوم موسى بعض الضعفاء من بني إسرائيل دون ملئهم الأقوياء والشرفاء، والاعتبار يساعد على ذلك، فإنهم جميعاً كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، والعادة الجارية في أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء والأقوياء بأي وسيلة أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعية وجاههم القومي، ويتقربوا إلى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال والتظاهر بالخدمة ومراعاة النصيح والتجنب عما لا يرتضيه، فلم يكن في وسع الملأ من بني إسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى على بغيته، ويتظاهروا بالإيمان به. على أن قصص بني إسرائيل في القرآن أعدل شاهد على أن كثيراً من عتاة بني إسرائيل ومستكبريهم لم يؤمنوا بموسى إلى أواخر عهده، وإن كانوا يتسلّمون له ويطيعونه في عامة أوامره التي كان يُصدرها لبذل المساعي في سبيل نجاة بني إسرائيل لما كان فيها صلاح قوميّتهم وحرية شعبهم ومنافع أشخاصهم، فالإطاعة في هذه الأمور أمر، والإيمان بالله وما جاء به الرسول أمر آخر. ويستقيم على هذا معنى قوله: ﴿وَمَلِكِهِمْ﴾ (٢) بأن يكون الضمير

١. سورة يونس: ٨٣.

٢. أي: وليس من ملئه ليكون راجعاً إلى فرعون.

إلى الذرية، ويفيد الكلام أنّ الذرية الضعفاء كانوا في إيمانهم يخافون الملاء والأشراف من بني إسرائيل، فإنهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم أنفسهم، أو تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون وقومه ويطيّبوا أنفسهم فلا يضيقوا عليهم، وينقصوا من إيدائهم والتشديد عليهم.... فالمعنى - والله أعلم - فتفرّع على قصة بعثتهما واستكبار فرعون وملئه أنه لم يؤمن بموسى إلا ضعفاء من بني إسرائيل، وهم يخافون ملاءهم، ويخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم، وكان ينبغي لهم، ومن شأنهم، أن يخافوا، فإن فرعون كان يومئذ عالياً في الأرض مسلطاً عليهم، وإنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم، ويجاوز الحد في الظلم والتعذيب^(١).

هذا كله - بحسب القرآن الكريم - بعد موقعة السحرة، وانتصار رسول الله موسى «عليه السلام»... فكيف كان الوضع قبل ذلك؟ لاشك أن الإقبال على الرسالة كان أقلّ، ولربما كان منعماً إلا من المقرّبين منه، كأخته مريم على سبيل المثال، فلو كان شيوخ بني إسرائيل قد آمنوا بالرسالة كافة قبل دخول موسى وهارون على فرعون - كما تقول التوراة - لا تتبعهم - منطقياً - سائر أفراد بني إسرائيل، لأنّ نظامهم الاجتماعي كان قبلياً، وفي هذا النظام تكون كلمة مشايخ القبائل (الأسباط) مسموعة من قبل الغالبية التابعة، إن لم يكن من قبل الجميع.

بالطبع، فإنّ هذا لا يعني أن موسى لم يعرض رسالته على شيوخ بني إسرائيل أو على بعض قومه، فمن المنطقي أن يفعل ذلك، ولكن أن نقول بإيمان الشعب كلّ في ذلك الموقف كما جاء في التوراة الحاضرة فأمر آخر ويخالف ما جاء في القرآن الكريم.

ثم إنه قد لا يكون استعمال كلمة (الذرية) للدلالة على (بعض الضعفاء من بني

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٠، ص ١١٢-١١٣.

إسرائيل) كما قال العلامة الطباطبائي، بل للدلالة على أنّ المؤمنين بالرسالة كانوا من بين العنصر الشبابي، لأن الذرية تعني الأبناء، وهذا مشابه لما جرى على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث أن الذين آمنوا بالرسالة في المرحلة الأولى من الدعوة غلب عليهم العنصر الشبابي، ولعل هذا يعود إلى أن هذه الفئة من المجتمع تمتلك -ذاتياً- مقومات التمرد على الواقع والرغبة في التغيير بنسبة أكبر من فئة كبار السن والشيخوخة ويحلل علماء النفس والتربية الأسباب وراء ذلك -بصورة عامة- بأن فترة الشباب والمراهقة تتمظهر بصور مختلفة، من بينها التمرد على الأوامر والنواهي، وأحياناً -على العكس من ذلك- تبرز على شكل طاعة مفرطة للتعاليم الدينية، كما وتظهر من خلال الدخول بعمق وقوة في عالم السياسة، وسوء الظن في المجتمع وقياداته، وغير ذلك.

ولربما تكون أبرز هذه الرغبات على شكل الجنوح نحو التحرر والاستقلال، وهي حالة إيجابية وتساعد على النمو السليم، ولكن من الضروري أن يتم ذلك تحت إشرافٍ ما، لأنها إن لم تُضبط، فستكون من الخطورة بمكان.

والشاب -عادةً- يريد أن يكون أكبر مما يظنّه والده، وهذا بدوره يستدعي منه أن يبحث عن مساحة من الحرية، ولكن هذه الحرية قد تعرّضه إلى الخطر ما لم تكن منضبطة، فالحرية في نظر الشاب هي التخلص من القيود ومن إشراف المربين، في المقابل يعيش المربون -من الوالدين وغيرهم- القلق من مثل هذه الحرية التي قد يُساء استخدامها، فتبدأ عملية الضبط والمراقبة والتدخل مما يعني وقوع التصادم بين الطرفين، ودفع الشاب -أحياناً- إلى العصيان، والعداوة، واستخدام العنف.

الشاب يرغب في الاستقلال بشئونه، والتخلص من سلطة الوالدين أو المجتمع، وهذه

الرغبة قد تتطّرف وتدفع به إلى التمرد على القوانين والأوامر والعادات والتقاليد، ولذا يُعرّف البعض سنّ الشباب بأنه سنّ التمرد والمغامرة والعصيان، بل وقد يتصور بعض الشباب أن الاستقلال يعني العصيان على طول الخطّ، فإذا تحوّل ذلك إلى سلوك مستدام، فإنه سيعرّض الشاب إلى المخاطر والمزالق.

وهذه السّمة لهذه المرحلة العمرية لا تكون سلبية على الدوام، بل قد تكون في الاتجاه السليم، وذلك حين يستفيد منها الشاب في التمرد على أخطاء المجتمع، دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، شريطة أن يكون البديل بديلاً صالحاً ومتناغماً مع الفطرة السليمة والعقل والدليل. ومن هنا، كان الشباب وراء دعم الرسالات السماوية، بل والاستعداد للتضحية بالنفس في هذا الطريق، على خلاف الشيوخ وكبار السن ممّن يصعب عليهم التمرد على ما اعتادوا عليه وألفوه، وقد يتردّدون ألف مرّة قبل الإقدام على عملٍ يكلفهم حياتهم أو يسلبهم شيئاً من راحتهم أو مكتسباتهم.

• نتائج الفصل و خلاصته:

○ لم يتحدث القرآن الكريم عن الفترة الفاصلة بين بعثة النبي موسى وبين الدخول على فرعون بمعية النبي هارون، وأما التوراة فإنها تحدثت عن لقائهما عند جبل الطور حيث بُعث موسى «عليه السلام».

○ تحدثت التوراة أيضاً عن لقاء جمع موسى وهارون بشيوخ بني إسرائيل حيث عُرضت عليهم الرسالة السماوية، فأقبلوا عليها بإيجابية.

○ أما القرآن الكريم فإنه يشير إلى أنّ الذين آمنوا بموسى ذرية من قومه فقط، وهو ما يشير إلى الشباب أو الضعفاء من بني إسرائيل، وأنّ هذا تمّ بعد تحدي السحرة

لا قبل لقاء فرعون، ولو كان شيوخ بني إسرائيل قد آمنوا بالرسالة كافة كما تقول التوراة، لا تبّعهـم -منطقياً- سائر أفراد بني إسرائيل، لأن نظامهم الاجتماعي كان قبلياً، وفي هذا النظام تكون كلمة مشايخ القبائل (الأسباط) مسموعة من قبل الغالبية التابعة، إن لم يكن من قبل الجميع.

في مواجهة فرعون

في مواجهة فرعون

• موضوعات هذا الفصل:

- مناقشة سبب الاستعانة بالآيات في أوّل لقاء جمع موسى بفرعون بعد البعثة، على الرغم من أن لجوء الرسل إلى ذلك يأتي -عادةً- في زمن متأخّر.
- موقع السّحر في مصر القديمة.
- عرّض لدلالات الوصايا الإلهية التي وُجّهت لموسى وهارون عند لقائهما بفرعون
- توضيح أهم موارد الاختلاف بين السرديتين القرآنية والتوراتية حول اللقاء الذي جمع النبيين بفرعون.
- ماذا جرى في اللقاء الأول بين موسى وفرعون؟
- مناقشة ما جاء في مرويات المسلمين حول الحدث، ولاسيما تلك التي تضمّنت مبالغات كبيرة حول تفاصيل اللقاء، والخلفيات اليهودية لتلك المرويات.
- محاولة تحديد مكان وزمان اللقاء (يوم الزينة) الذي اتّفق عليه لتحديّ السحرة.

• حساسية اللقاء الأول بفرعون:

لا نملك تفاصيل لما جرى بعد اللقاء -أو اللقاءات- التي تمت في وسط بني إسرائيل، وكم مضى من الوقت إلى أن ذهب موسى وهارون معاً إلى فرعون استجابة لأمر الله، ويرشدنا القرآن الكريم إلى أن الله «سبحانه وتعالى» كان قد أوصى موسى وهارون بمراعاة مجموعة من الأمور التي قد تساعدهما في إنجاح المهمة، بلحاظ:

- (١) صعوبتها وحساسيتها كمهمة ترتبط بالغيب وتتحدى الموروث الوثني.
- (٢) شخصية المرسل إليه، لطغيانه وقوّته، وأعماله الإجرامية بحق بني إسرائيل.
- (٣) كَوْن موسى هارباً من حادثة القتل غير العمدي التي ألحقها بالذي هو من عدوّه
- (٤) لكون موسى ربيباً لهذا البلاط بعد التقاطه من الماء، وغيرها من العوامل.

• وصايا إلهية:

﴿اذهبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾^(١)، تناولنا في الموسم الماضي هذه الآيات، وكيف استجاب الله لموسى هذه الطلبات، ثم يتكرّر الأمر الإلهي بالذهاب إلى فرعون وذلك بعد أن رأى موسى آيتي العصا وتغيّر لون اليد: ﴿اذهبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٢٦﴾ اذهبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٧﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٢٩﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٣٠﴾ فَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ

الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾^(١). ويمكن إعادة صياغة هذه الوصايا وفق العناوين التالية:

• اذهب أنت وأخوك بآياتي:

لماذا الاستعانة بالآيات من أول لقاء على الرغم من أننا عندما نقرأ قصص معظم الأنبياء فإننا نجدهم لا يلجأون إلى ذلك إلا في خواتيم مساعيهم لإقناع الناس بمصداقيتهم في الرسالة الإلهية؟

لعل ذلك يعود إلى أمرين:

(١) طغيان فرعون

(٢) ما عهده فرعون -والمصريون عموماً- من استعمال السحر والشعوذة لغايات مختلفة، ترفيهية أو دينية أو طبية أو حياتية أخرى، ولربما بصورة يومية أو شبه يومية، وعليه، إذا أراد موسى أن يُقنع فرعون بارتباطه بالغيب، وأنه مرسل من قبل الله، فلا بد أن يلجأ إلى توظيف الآيات المبصرة (المعاجز المادية) من أول لقاء، فالذين عندهم مرتبط بالإيمان بالخوارق.

وهذا يجرّنا إلى الحديث عن موقع السحر في مصر القديمة... يقول الدكتور سليم حسن في موسوعته (مصر القديمة): (الإلهة «حكت» التي كانت تتقمّص ضفدعة، لها أهمّية عظيمة بصفقتها إلهة السحر وإلهة الولادة والبعث... والآلهة عند قدماء المصريين كائنات معيّنة معروفة اتخذ كل منها شكلاً ثابتاً باقياً لا يتغيّر، وقد انفصلت هذه الآلهة عن عالم الأشباح أو الأرواح التي يخطئها العدّ، وهذه الأرواح

أو الأشباح «الجن» تلعب دوراً هاماً عظيماً في مظاهر الديانة المصرية، وتبرز بدورها الهام في السحر الذي كان له تأثير خطير جداً في العقائد الدينية في كل عصور التاريخ في البلاد، ومن بين المظاهر العدة المحسوسة التي تتجلى فيها هذه الأرواح أو الأشباح المقدسة: الحيوانات، وهي إما منزلية أليفة تعيش مع الإنسان، وتقوم له بخدمات عظيمة لا تنقطع، أو متوحشة ضارية تفتك به، فيخاف شرّها وبأسها، وأهم حيوانات النوع الأول وأجدرها بالذكر الثور، والبقرة، والتيس، والكبش.

والظاهر أن الإله كان في العادة ينتخب ذكّر هذه الحيوانات ليقمّصه، وأحياناً كان الإله يقمّص بعض الطيور كالإوزة، كما نشاهد في حالة «جب» إله الأرض، فإنّ روحه تقمّصت إوزة. أما أهم حيوانات النوع الثاني فهو الأسد، والتمساح، وجاموس البحر، والثعبان السام، والأفعى.

وكان الإنسان يسعى لاتقاء خطر هذه الحيوانات والحشرات التي كان يقع بصره عليها في البر والبحر، والظاهر أنه كان يرجع سبب قوتها وفتكها بجنسه إلى أن الإله قد حلّ فيها، وأنه إذا استعطفها وقدم خضوعه وقرب إليها القربان، نجا من مآلها وشرورها، فمثلاً نرى الذئب يُعبد لأنّه كان يسكن البقاع الجبلية القريبة من الجبّانة، وكان يعيش على نبش القبور، فإذا قرب له الإنسان القرايين عدل عن أكل موتاه، وأكبر جبّانة من هذا النوع جبّانة أسيوط، كما كان يعبد ويقرب له القربان لسبب آخر هو ألاّ يسطو على غنم القوم، وهكذا كان الحال مع ابن آوى الذي كان يُعبد باسم الإله «أنوبيس»، «وبواوت» أو فاتح الطريق للملك في المعارك وفي الحياة الآخرة، وهو إله الحرب والصيد.

على حين أن الكلب يُعدّ حارساً للماشية، ولذلك كان يُقدّس. وكان هناك صنف آخر

من الحيوان مثل القطط وغيرها، كان لا يضرّ، ولكنه كان يُعبد؛ لأن فيه قوّة سحرية خاصّة وسريّة [انظر اللوحات من ٢-٥].

... وكان مَنْ يعرف هذه الأساطير والمعلومات التي لها مساس بالآلهة وطبائعهم يُصبح وفي يده قوة سحرية تمكّنه من أن يجعل الآلهة تحت سلطانه، ويجبرهم على خدمته لقضاء أغراضه السحرية... على أن السحر لم يعدم القيام بدور هام في تاريخ الديانة؛ إذ كان القوم يستعينون به على قضاء حاجاتهم، سواء أكان ذلك تجيزه الشرائع أم تحرّمه، وكان السحر في نظر عامة الشعب لا يتّصل بالأشباح العدّة التي تسكن في دنيا الأرواح فحسب، بل كان كذلك متّصلاً بالمعبودات المحليّة، وبخاصة الآلهة العظام؛ لأنّ الفضل في وصولهم إلى السلطان والنصر على الأعداء يرجع إلى فنونهم السحرية، وكان في ركاب هؤلاء الآلهة عدد عظيم من الخدم لا يختلفون في شيء عن الأشباح المخيفة، لا في طبيعتهم، ولا في أسمائهم ولا في شكلهم الظاهري؛ إذ هم في الواقع كانوا مجموعة من الحيوانات المختلفة الأنواع والأشكال إلى حدّ بعيد، وكانت معرفة صفاتها الخاصّة وأسمائها وأساطيرها، السلاح الرئيسي في علم السحر؛ إذ به يمكن الإنسان أن يجبرها ويقهرها على خدمته، وتأتي بنتائج لحسابه الخاص لها نفس التأثير الذي كان يصل إليه الإله بنفس الطرق، وقد بقي تراث هذه الاعتقادات في مصر إلى يومنا هذا في استخدام الجن وخدامها....

ورغم ما وصل إليه المصري من المدنية والرقّي، فإنّه استمر محافظاً على قصّ الأساطير العتيقة المهوشة، ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ المصري بطبعه كان محافظاً لا ينسى، فكان يحافظ على التقاليد القديمة مهما كانت سخيّة غير معقولة، وكان يستعملها في أغلب الأحيان في أمور السحر الذي كان من أهمّ ضروريات الحياة للمصري، ولا يهّمه



اللوحة رقم ٢ : الإله (أنوبيس) - ابن آوى



اللوحة رقم ٣ : (وبواوت) إله الحرب والصيد.



اللوحة رقم ٤ : تقديس الكلب



اللوحة رقم ٥ : عبادة القطط لقوتها السحرية

ما دام يصل إلى أغراضه أن يتّبع كل الطرق السحرية سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة^(١).

لاحقاً، يضيف الدكتور سليم حسن في الجزء الثالث من موسوعته عند الحديث عن تاريخ الدولة الوسطى ومدنيتها وعلاقتها بالسودان والأقطار الآسيوية والعربية، والحياة الدينية في عهد تلك الدولة: (... كان الاعتقاد في قوة تأثير السحر آخذاً في الانتشار، وكان بمثابة سلاح لا يخطئ في يد المتوفى، وسرى في النهاية أن السحري سود كل المعتقدات الجنائزية الأخرى... وإنه لمن الصعب أن يفهم العقل الحديث الذي لم يندمج في أفكار هؤلاء القوم الدينية وتاريخهم، كيف أن مرافق الحياة جميعها قد تسرب إليها الاعتقاد في السحر بحالة صيرته صاحب السيطرة على السعادة الشعبية، وكان ذلك ظاهراً على الدوام حتى في أبسط الأحوال المنزلية العادية؛ إذ صار من الأشياء التي يزاوها الإنسان بطبيعة حياته كالنوم أو تجهيز الطعام، فقد صار السحر يتألف من نفس الجو الذي كان يعيش فيه أهل الشرق قديماً.

وقد كانت الحياة المنزلية في الشرق قديماً غير ممكنة إلا بالالتجاء إلى نفوذ تلك العوامل السحرية الناجعة، التي كانت تُستعمل على الدوام، والتي لولا نفوذها لأبادت القوى المهلكة الخفية كل البشر كما كانوا يعتقدون، وبخاصة عند العامة.

ولمّا كان من الضروري استعمال هذه الطرق ضد الأمراض بخاصة؛ فإنّ الوسائل العادية المتعلقة بالحياة المنزلية والاقتصادية كانت توضع دائماً تحت حماية السحر، فكانت الأم لا يمكنها أن تهدئ من روع طفلها المتألم المريض وتجعله يضطجع طلباً للراحة إلا بعد الاستنجاد بالقوى الخفية لتقوم بتخليص هذا الطفل من المرض،

١. حسن: موسوعة مصر القديمة، ج١، ص ١٧٢-١٩.

ومن الحسد، ومن سلطان أشباح الشرّ السوداء التي كانت تنزوي في أحد أركان البيت المظلمة، أو التي كانت تتسلل من الأبواب المفتحة عندما يسدل الظلام خيامه فوق البيت حتى تدخل جسم هذا الطفل الصغير فتنتشر فيه. وكان من أشباح الشرّ الشيطان الذي يمكنه أن يتشكل في صورة محبوبة ثم يتقرب من المريض الصغير مُظهرًا له أنه في قدرته أن يشفيه من أوجاعه أو تخفيف آلامه^(١) [انظر اللوحات ٦-٨].

نعود مجدداً إلى قوله «تعالى»: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي...﴾، والسؤال: لماذا جاءت كلمة (آيات) بلفظ الجمع وهما آيتان، هل في ذلك دليل على صحة ما في الكتاب المقدس من أنها كانت ثلاث آيات؟

قال العلامة الطباطبائي في ذلك: (أمرهما أن يذهبا بآياته - ولم يؤت وقتئذ إلا آيتين - وعدٌ جميل بأنه مؤيدٌ بغيرهما وسيؤتاه حين لزومه، وأما القول بأن المراد هما الآيتان والجمع ربما يطلق على الاثنين، أو أن كلا من الآيتين ينحلّ إلى آيات كثيرة مما لا ينبغي الركون إليه)^(٢).

وقد يكون لما ذكرناه في الموسم الماضي عند الحديث عن بعثة موسى «عليه السلام»، فقد تمّ الإشارة عندئذ إلى وجود المزيد من الآيات التي سيرسلها الله «سبحانه وتعالى» في حال أنّ فرعون لم يتفاعل مع الرسالة إيجابياً، وذلك في قوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٣)، وفي قوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً

١. حسن: موسوعة مصر القديمة، ج٣، ص ٤٦٧-٤٧٤.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ١٥٣.

٣. سورة النمل: ١٢.



اللوحة رقم ٦ : ورقة برردى تشتمل على كتابة لتعاليم سحرية



اللوحة رقم ٧ : جدارية خاصة بالتعاليم السحرية



اللوحة رقم ٨ : عصا السحر بصورة أفعى، ولهذا ارتباط بأية انقلاب العصا

أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾^(١)، وهذا يتوافق مع ما جاء في نص سفر الخروج في سياق وصف ما جرى في هذا المشهد: (١٩) وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لَا يَدْعُكُمْ تَمْضُونَ وَلَا يَبِيدُ قُوَّةَ) أي ولو استعملتم القوة (٢٠) فَأَمْدُ يَدَيَّ وَأَضْرِبُ مِصْرَ بِكُلِّ عَجَائِبِي الَّتِي أَصْنَعُ فِيهَا) أي بالآيات المختلفة (وَبَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ)^(٢).

• ولا تنيا في ذكري:

قال ابن منظور في لسان العرب: (الْوَنَا: الْفَتْرَةُ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأُمُورِ. وَالتَّوَانِي وَالْوَنَا ضَعْفُ الْبَدَنِ)^(٣). وقال العلامة الطباطبائي تعليقا على هذا المقطع من الآية الشريفة:

١. سورة طه: ٢٢-٢٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٣، ١٩-٢٠.

٣. ابن منظور: لسان العرب، ج ٢٠، ص ٢٩٧.

(الأنسب للسياق السابق أن يكون المراد بالذكر الدعوة إلى الإيمان به «تعالى» وحده، لا ذكره بمعنى التوجه إليه قلباً أو لساناً كما قيل)^(١).

وأرى أن لا مانع من أن يكون المراد من هذه الوصية الإلهية عدم التراخي في ذكر الله لساناً وقلباً نظراً لصعوبة المهمة، فهذا الأمر يعطي قوة للقلب وطمأنينة للنفس وتسديداً في العمل، وهو ما نلاحظه في التوصيات الإلهية المتكررة للنبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» في المواطن الصعبة من قبيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ ١ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي السَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ٧ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩﴾^(٢)، ومن قبيل: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ١٠ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ١١ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ١٢﴾^(٣)، ومن قبيل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ١٣ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ١٤ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ١٥ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٦ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ١٧ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١٨﴾^(٤).

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ١٥٣.

٢. سورة المزمل: ١-٩.

٣. سورة الإنسان: ٢٤-٢٦.

٤. سورة غافر: ٥١-٥٦.

• فقولاً له قولاً لئناً لعله يتذكر أو يخشى:

الدعوة بالحسنى والكلمة الطيبة من قواعد العمل الرسالي وأساسياته، وقد قال «سبحانه»: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١)، وتزداد أهمية هذا الأمر بلحاظ جبروت فرعون وطغيانه كما تم التنبيه عليه في الآية التي سبقتها: ﴿ادْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(٢)، فمثل هذا الطاغوت لن يقبل أن يتم عرض الرسالة عليه بشقيها التوحيدي والخاص ببني إسرائيل بالكلمة القوية والتهديد والوعيد ولا بد من مداراته في البداية ومحاولة التأثير عليه بالأسلوب اللين لعله يستجيب، وقد تمّ تعليل ذلك في الآية بقوله «تعالى»: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٣) أى رجاءً لتذكره أو خشيته.

والتذكريعني الانتباه إلى حقائق الأمور والخروج من حالة الغفلة والقبول بمضمون الرسالة والالتزام بها، كما أن الخشية ضرورية لأنها من مقدمات القبول والإيمان، فالمعنى: لعله يتأثر بكلامكما ومضمون الرسالة ويخشى عواقب جرائمه وأفعاله وغضب الله «تعالى» عليه، فيؤمن أو يقترب من الإيمان، فيستجيب لبعض ما تعرضونه عليه من مطالب.

وقد يقال أنّ في تعبير الآية والتعليل الوارد فيها ما يدل على أن الله «تعالى» لم يكن يعلم مآلات الدعوة، وأن فرعون سيرفض. والجواب عن ذلك بحسب العلامة الطباطبائي: (هو قائم بمقام المحاوراة، لا به «تعالى» العالم بما سيكون)^(٤).

١. سورة النحل: ١٢٥.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ١٥٤.

ويبدو أنّ مراد العلامة الطباطبائي في الفقرة السابقة أن المطلوب منهما القيام بالدعوة وإبلاغ الرسالة، سواء أكان ذلك مؤثراً أم لا، فهكذا تقام الحجج على الناس، والله يعلم سلفاً أنّ فرعون لن يقبل، لاسيما بلحاظ أنه أخبرهما سلفاً بالتعزيز بمزيد من الآيات المبصرة... ولكنه أوصى موسى وهارون باعتماد القول اللين، لأن هذا الأسلوب هو الذي قد ينجح مع الشخص الذي يعيش الطغيان، لا الأسلوب الحشن ابتداءً، فالتعليل لبيان سبب التوصية بالقول اللين، لا لبيان خصوصية علم الله «تعالى» بمآلات الأمور من عدمه.

• فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ:

يوجّه الله «سبحانه» النبيين الكريمين إلى أن يكونا صريحين واضحين بأنّ هذا ليس تصرفاً شخصياً ليكون ناتجاً عن طمع بشيء من مال الدنيا، أو المنصب، أو الجاه، أو غير ذلك، بل هي رسالة إلهية خالصة، كُلفنا بها، وما على الرسول إلا البلاغ، وبما أنّ المرسل هو ربك، إذّا فالمرسل يريد لك الخير، لأنه المربي الذي يعتني بمربوبيه، والرسالة لصالحك، فلا تتخذ منها موقفاً سلبياً، ولا تعادي الذي يريد لك الخير.

• فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِبْهُمْ:

كذلك يجب أن تكون المطالب واضحة وصريحة وبلا خوف ولا تردّد، وهي من شقين: الشّق الأول، التوحيد... والشّق الثاني، خلاص بني إسرائيل.

• قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ:

من الطبيعي في مثل هذه المواقع عندما يدّعي شخص ما بأنه رسول من عند الله وأنه

يحمل رسالة ما، أن يُطالب بالحجة والدليل القاطع. من هنا، فقد أوصاهما الله «تعالى» بأن يخبراه بامتلاكهما مثل هذه الحجّة البينة، وأنها ليست مختلقة، وليست من قبيل السحر مثلاً، بل هي آية من عند الله «تعالى» الذي هو ربه.

وفي البين خصوصية لاستعمال كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ مكرراً في سياق الآيات، وذلك للدلالة على الربّ الحقيقي، وأنّ فرعون ليس هو الربّ كما كان يدّعي، وإلى أن هذه الرسالة موجّهة إليك -يا فرعون- لأن صاحبها -وهو ربُّك الحقيقي- يعتني بشأنك من مقام الربوبية الذي يستدعي أن يعتني الرب بمربوبيه، فلا تستغرب ذلك، ولا تستهجنه، ولا تُهمله، بل اعتبره أمراً إيجابياً، فالله يريد لك الخير بذلك. كما أنّ في تنكير كلمة ﴿آية﴾ سكوت عن العدد وإشارة إلى فخامة أمر الآية، وكبر شأنها، ووضوح دلالتها.

• والسلام على من اتّبع الهدى:

وهذه رسالة تطمين أخرى تتضمن صفحاً عما ارتكب فرعون من قبل إن تفاعل مع الرسالة بصورة إيجابية، فالقاعدة عند الله هي ضمان السلامة والأمن من غضبه وعقابه لكل من اتّبع الهدى، وكما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (الإسلام يجب ما قبله)، فكذلك في ما يخص شأن الكافرين على عهد موسى «عليه السلام»، فإن إيمانهم يجب ما قبله، ولا يحاسبون عليه فيعود الإنسان كيوم ولدته أمّه^(١).

ولذا نجد أنه لما قتل أسامة بن زيد رجلاً جاء بشهادة التوحيد في ساحة المعركة، وأولها زيد بأنها صدرت عنه لخلاص نفسه، فقتله، لأمه النبي بشدة، وكرّر لومه حتى تمنى أسامة أنه قد أسلم لتوّه كما روى هو بنفسه حيث قال: (بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ

١. ابن جمهور الإحسائي: عوالي اللثالي: ج ٢، ص ٥٤، ح ١٤٥.

«صلى الله عليه وسلم» في سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحَرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَذْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ «صلى الله عليه وسلم»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وسلم»: أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟ فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ^(١).

وقد أصبح هذا المضمون قاعدة فقهية تفيد أن إسلام الشخص يُسقط عنه ما ارتكبه قبل تشرفه بالإسلام في ما له علاقة بحقوق الله «تعالى»، فالكافر إذا ترك الواجبات وفعل المحرمات حال كفره ثم أسلم لم يُكَلَّفْ بقضاء العبادات الواجبة، ولم يؤاخذ بالمحرمات، كما لا يُقام عليه -بعد إسلامه- حد السرقة والزنا وشرب الخمر وغيرها مما ارتكبه قبل إسلامه، لأن الإسلام يجب ما قبله.

وأما صحة المعاملات، كالبيع والشراء والإجارة، وثبوت الضمانات، وبقاء الديون، فعلى حالها، لأن نطاق الجب هو حق الله، لا حق العبد.

• إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى:

يلاحظ -ابتداءً- استعمال أسلوب المبني للمجهول «أُوحِيَ» ونسبة ذلك إلى الوحي، كي لا يأخذ فرعون الأمر على أنه تهديد منهما له، كما أن التهديد غير المباشر بقول: «الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى» وليس (العذاب عليك) أوفق بمراعاة لين القول الموصى به من قبل.

والخلاصة أن الرسالة التي تم إبلاغها لفرعون كانت لينة ومتوازنة، فهي مزيج ما

١. صحيح مسلم، ح: ٩٦.

بين الوعد المباشر، والوعيد غير المباشر، ولذا اختلف أسلوب البيان بينهما. فالكلام عن الوعد بالأمن وحده لا يكفي، بل يحتاج إلى شيء من التخويف لعل فرعون يتأثر فعلاً بالرسالة، فقد تُسَوَّل له نفسه أن بإمكانه توفير الأمن ذاتياً من خلال توظيف ما لديه من ممتلكات وجنود وأتباع وامتداد وخيرات، فكان لابد من التخويف من العذاب ذي الطابع الغيبي الذي لا يُدْفَع بمثل هذه الإمكانيات التي بيد الإنسان مهما كبرت، لأن ذلك العذاب يأتي من الغيب، وهذا من الوحي لا من عند أنفسنا، وليس مجرد كلام للتخويف، بل حقيقة، فاحترز واشترِ مصلحتك.

• مضامين الحوار بحسب القرآن:

وهكذا، دخل موسى وهارون على فرعون، وخاطباه كما جاء في الوصايا الإلهية لهما، ونقل القرآن الكريم في أكثر من سورة ما دار بين الطرفين من حوار تحوّل بعد ذلك إلى تحدٍّ، وسأقوم في ما يلي بإعادة عرض الآيات الواردة في السور المختلفة ضمن محاور:

(١) الدعوة للإيمان بالله «سبحانه» ربّاً لا شريك له في الربوبية: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦).... قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ (١). وفي سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ (٢)، وفي سورة طه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ الَّذِي جَعَلَ

١. سورة الشعراء: ١٦-٢٨.

٢. سورة الأعراف: ١٠٤.

لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٤﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي التَّهَيُّ ﴿٥٥﴾ (١).

ويمكن أن يُستخلص من الآيات السابقة التالي:

أ- على الرغم من أن موسى وهارون أخبراه أنهما مُرسلان من قبل ربه، إلا أنه لم يعترف بذلك، لأنه كان يدعي أنه هو الرب الأعلى لمن تحت يديه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٢). هذا لا يعني أن فرعون لا يعترف بتعدد الآلهة والأرباب، ولكنه اعتبر نفسه رباً على قومه، وكان من عادة الوثنيين الاعتراف بآلهة وأرباب ورَفُضَ أخرى، ثم تغيير أربابهم، أو الإضافة عليها، وهكذا. كما أنهم يؤمنون بوجود وإمكانية حصول صراعات بين الآلهة فقد يتغلب إله على آخر فيتخذونه رباً ويتخلّون عن الرب السابق، وهكذا.

ب- بين موسى «عليه السلام» في ردّه عدّة صفات تلخّصت في كون ربهما هو: خالق كل شيء.. أعطى لخلقه كل ما يحتاجون إليه بما يتطلبه وجودهم وحياتهم.. هدى خلقه لما يحتاجون إليه من خلال الفطرة والغريزة والعقل وغير ذلك. والغاية من ذكر موسى لمجموعة من نَعَم الله «سبحانه» على خلقه، كي يتوجّه الناس إليه بالإيمان والعبادة، لا إلى سواه من الأرباب المزعومين، وليبيان أنّ هذه النعم آيات ودلائل واضحة على ألوهيته وربوبيّته بشرط أن يفكر الإنسان بتجرد وإنصاف وأن يكون جاداً في البحث عن الحقيقة، وسيرشده عقله إلى ذلك.

(٢) الدعوة للإيمان بأنهما مرسلان من عند الله: ففي حين أن الآيات السابقة تضمّنت

١. سورة طه: ٤٩-٥٤.

٢. سورة النازعات: ٢٤.

الدعوة إلى اتخاذ الله وحده رباً، تضمّنت أيضاً الدعوة للإيمان برسالة موسى وهارون معاً، وبيّن موسى أنه لن يفترى على الله شيئاً: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...﴾ (١٥) (١)، ولكنّ عجز فرعون عن الردّ دفعه تارة للاستهزاء، وتارة للتهديد، وهذا هو أسلوب المفلسين: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) ... قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩) (٢).

وقد أشكل فرعون على ادّعاء موسى الرسالة والنبوة بأمرين:

أولاً، نحن نعرف أصلك وفصلك.... ثانياً، كيف يكون مرتكب الجريمة رسولاً من ربه؟ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩) (٣).

وجاء رد موسى على الإشكالين بالتالي:

أولاً، أنا لا أفتخر بما صدر عني من قتل. ثانياً، لم يصدر ذلك عني عن قصد. ثالثاً، لم يكن ذلك الأمر مرضياً عند ربي، ولا جاء بأمرٍ منه. ورابعاً، فإنّ تربيتكم لي في القصر جاءت أساساً نتيجة استعبادكم لبني إسرائيل، ولولا قرار قتل الأطفال الذكور لما ألقيني والدتي في الماء ليكون مآل ذلك التقاطي من قبلكم وتربيتكم لي. وهل في استعبادكم وقتلكم الأطفال أية مفخرة لتستذكروه الآن بالمن؟ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٥٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا

١. سورة الأعراف: ١٠٥.

٢. سورة الشعراء: ٢٧-٢٩.

٣. سورة الشعراء: ١٨-١٩.

وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٦٢﴾ ﴿١﴾.

(٣) الدعوة للإيمان بالآخرة: وبعد الكلام عن توحيد الله وربوبيته والأصل الثاني المتمثل في النبوة والرسالة، عرّج على الأصل الثالث من أصول الإيمان والمرتبط بالإيمان بالبعث بعد الموت والحساب الأخروي: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ (٢). هذه المسألة كانت حاضرة في وعي المصريين، ولربما كان هذا هو السبب أننا لا نجد جدالاً واستهزاء من قبل فرعون بهذا الخصوص

نعم، كانت عقيدتهم بالآخرة مشوّهة بشكل كبير على مستوى الفكرة، وكذلك على مستوى التطبيق... أمّا على مستوى الفكرة، فقد اعتُبرت الحياة في الآخرة لفئة خاصة من الناس كالحكام وبعض الشخصيات، لأنهم القادرون على توفير شرائط العودة إلى الحياة مجدداً من خلال توفير متطلّبات الآلهة والكهنة ضمن مراسيم التحنيط والدفن وغير ذلك من أسباب يعتقدون أنها ستخلّصهم من الفناء أو المصير البائس، وتُحقّق لهم العودة إلى الحياة والخلود فيها منعمين. وأمّا الفقراء وضعفاء الحال فلا عزاء لهم.

وأما على مستوى التطبيق، فإن العطايا والرُشى المقدّمة للمسؤولين عن الدفن والحنيط وتهيئة كتاب الموتى وغير ذلك كانت هي التي تقرر مصير الإنسان الأخروي، بالإضافة إلى ما يقدّمه الإنسان من عملٍ في حياته الفعلية.

وهكذا أتمّ موسى وهارون عرض الأصول الإيمانية الثلاثة المتمثلة في التوحيد والنبوة والمعاد.

١. سورة الشعراء: ٢٠-٢٢.

٢. سورة طه: ٥٥.

٤) المطالبة بتحرير بني إسرائيل: وقد تضمن حوار موسى وهارون مع فرعون جانباً آخر يرتبط بتخليص بني إسرائيل من نير العبودية والاضطهاد، وهو ما بيّنته السور بالفاظ مختلفة:

﴿... فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١).

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢).

﴿... فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ...﴾^(٣).

٥) محاولة توريط موسى: لما أحسّ فرعون أنه بدأ يخسر في الحوار، لأنه ليس بخالق، وليس بيده أن يقدم للمخلوقات أجمع احتياجاتهم، ولا يعطي أسباب الهداية التكوينية للموجودات، لذا فقد عمد إلى تأجيج مشاعر الحضور ضد موسى وهارون وذلك بتوجيه السؤال الخبيث التالي: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾^(٤).

لقد أراد فرعون أن يُخرجهما من خلال السؤال عن موقف الأسلاف الذين كان المصريون يعتزّون بهم، وموسى وهارون -في الأساس- من الغرباء، ولم يكونا من أهل مصر، بل من بني إسرائيل الحلفاء السابقين للغزة (الهكسوس)، ولذا تساءل فرعون: هل كان الأسلاف -بحسب كلام موسى وهارون- على باطل وضلالة، ومصيرهم العذاب؟ وهل يُعقل أن كل الأسلاف بمن فيهم بناء الحضارة المصرية والحكماء على باطل وأنتم على حق؟ وكيف لم يهتدوا على مدى قرون متמادية إلى ما تدّعيانه؟

١. سورة الأعراف: ١٠٥.

٢. سورة الشعراء: ١٧.

٣. سورة الشعراء: ١٧.

٤. سورة طه: ٥١.

انتبه موسى إلى الشَّرْك الذي نصبَه له فرعون، فلم يُجِبْهُ إجابة مباشرة، بل أوْكلَ عِلْمَ ذلك إلى الله الذي يُثَبِّتُ كُلَّ شَيْءٍ يفعلُه الناس -بمن فيهم الأسلاف- في كتاب، ولا شيء يفوت الله، ولا يخفى عليه شيء، ولا يصيب علمه خلل، ولا يطرأ عليه تغير، ولا يُصيبه النسيان، فكل ذلك محفوظ عنده بالتمام والكمال ومُصان من أي نقصان أو ضياع أو تبدل أو تغيير أو تزيف: ﴿قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (٥٢) (١).

٦) الانتقال إلى عرض الآيات: بعد أن أفلس فرعون من الحوار ومحاولة التوريط والاحتقار والالتهام بالجنون وغير ذلك، طالب موسى بالآية (المعجزة) التي يُثَبِّت من خلالها أنه فعلاً مُرْسَل من قبل الرب، وأن له ارتباطاً بالغيب، وأنه مُسَدَّد من قبل ربّه. ويبدو من آية سورة الأعراف أن موسى «عليه السلام» بادر لذكر تأييده بالآية بعد أن وصلت الأمور إلى نقطة حرجية حيث هدد فرعون موسى بالسجن، فطلب منه فرعون أن يريه إياها: ﴿قَالَ لَبِنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٦١) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴿٣٣﴾ (٢).... ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ (٣٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴿٣٨﴾ (٣)..... ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا...﴾ (٥٦) (٤).

١. سورة طه: ٥٢.

٢. سورة الشعراء: ٢٩-٣٣.

٣. سورة الأعراف: ١٠٥-١٠٨.

٤. سورة طه: ٥٦.

ويلاحظ أن سورة الشعراء ذكرت انقلاب العصا إلى ثعبان، وليس إلى حية أو جانّ أي حية صغيرة أو نوع خاص من الحيات الصغيرة، كما مر معنا في الجزء الأول من الكتاب... بينما الثعبان: الحية العظيمة... ومع هذا، فإنّه ليس في البين تعارض، وقد تحدّثنا عن هذا الأمر في الجزء الأول من الكتاب، وأن ذلك لربما يكون تدرّجاً في حدوث الآية لموسى في المقام الأول، فانقلبت حية صغيرة لتخفيف تأثير الخوف عليه، ولكن بعد أن اطلّع على الآية وعرفها، انقلبت إلى ثعبان مبین أمام فرعون، لتكون الآية واضحة وبيّنة وقوية ومؤثرة. ولم يعط القرآن وصفاً لما انقلبت إليه العصا في المرّة الثالثة عند اجتماع السحرة، واكتفى بذكر ما فعلته: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) (١).

وحول آية اليد قال العلامة الطباطبائي في تفسيره: (الأخبار وإن وردت فيها أن يده «عليه السلام» كانت تضيء كالشمس الطالعة عند إرادة الإعجاز بها، لكن الآيات لا تقصّ أزيد من أنها كانت تخرج بيضاء للناظرين، إلا أنّ كونها آية معجزة تدلّ على أنها كانت تبيضّ ابيضاضاً لا يشكّ الناظرون في أنها حالة خارقة للعادة) (٢). وقد ناقشنا هذه الأقوال والأخبار في الموسم الماضي، ولم يتبيّن لنا صحتها.

وعلى كل حال، لقد قدّم موسى لفرعون الدليل على صحة رسالته من خلال آيتي العصا واليد، ومع هذا كانت ردّة فعل فرعون والملاّ من حوله سلبية ناتجة عن الاستكبار والعناد، وقد وصف القرآن الكريم ذلك بـ «صور مختلفة»:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ

١. سورة الشعراء: ٤٥.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ٨، ص ٢١٨.

أَرْضَكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٤﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٥﴾ (١).

﴿..... فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ (٢).

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ (٣).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (٤).

وخلاصة الفكرة أن فرعون وجد نفسه في ورطة كبيرة، ولا يريد أن يتحمل مسؤولية المواجهة لوحده، ولذا أظهر نفسه في مظهر المستشار الباحث عن المصلحة العامة. فطلب منهم أن يتشاوروا بشأن موسى وما جاء به، وكانت النتيجة أنهم أيّدوه في ادّعائه كذب موسى وأنه وساحر عليم وأنه متآمر. وفكرة المؤامرة تتلخص في أنّ موسى بدعوته هذه إنما يستهدف أمراً سياسياً يتمثل في إحداث إنقلاب، ومن

١. سورة الأعراف: ١٠٩-١١٢.

٢. سورة طه: ٥٦-٥٩.

٣. سورة الشعراء: ٣٤-٣٧.

٤. سورة يونس: ٧٦-٧٨.

ثم السيطرة على الحكم، ودعوته الدينية مجرد غطاء ووسيلة لجمع الأنصار من بني إسرائيل بحماسة دينية، ومآل هذا الانقلاب على الحكم طردكم من دياركم، كما كانت تجربتكم السابقة مع الهكسوس.

ثم أشاروا عليه بتأجيل الأمر إلى اجتماع آخر محدّد متفق عليه يتم أمام جمع كبير من الناس، وبصورة مواجهة ميدانية بين موسى وبين السحرة.

قَبِلَ فرعون هذا الرأي، وعرضه على موسى، فوافق، واختار عيداً من أعيادهم، أو مناسبة من مناسباتهم أطلق عليه في القرآن عنوان (يوم الزينة). ولربما أطلق عليه ذلك لأنّه كان من المناسبات التي كانوا يتزيّنون فيها ولربما يزيّنون فيها الساحات والأبنية وما إلى ذلك.

وكان المملأ قد طلبوا حشّر الناس من المدن المختلفة ليجتمعوا في موضع المواجهة المرتقبة. والحشر هو الإخراج عن المقر والإزعاج عنه إلى الحرب ونحوها. وكأنّه للدلالة على كثرة عدد الناس، وتنوّعهم من حيث الامتداد الجغرافي، بالإضافة إلى عنصر الإجبار على الحضور. كما طلب موسى «عليه السلام» أمراً آخر، وهو أن يكون الاجتماع المرتقب في وقت الضحى، أي وقت انبساط الشمس، لتكون الرؤية واضحة ولا يشك أحد في حقيقة ما سيجري.

• الإمام علي يصف المشهد:

وفي نهج البلاغة نصّ مروي عن الإمام علي «عليه السلام» يصف هذا اللقاء ببيان بديع: (وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ «عليهما السلام» عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِغُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ -إِنْ أَسْلَمَ- بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ

عِزِّهِ، فَقَالَ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ وَبَقَاءَ الْمُلْكِ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْفِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ «سُبْحَانَهُ» لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذَّهَبِ، وَمَعَادِنَ الْعِثْيَانِ^(١)، وَمَعَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أَجُورُ الْمُبْتَلَيْنِ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتْ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ «سُبْحَانَهُ» جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عِزَائِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ فَنَاعَةٍ تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غَيًّا، وَخَصَاصَةً تَمَلُّ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَدَى، وَلَوْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلُ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوُهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ، وَلَا مَنُوءَ عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتْ النِّيَّاتُ مُشْرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً، وَلَكِنَّ اللَّهَ «سُبْحَانَهُ» أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتْبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصَدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لَوَجْهِهِ، وَالْإِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالْإِسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ، أُمُورًا لَهُ خَاصَّةٌ لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ، وَكَلَّمَا كَانَتْ الْبُلُوى وَالْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتْ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ^(٢).

• وقفة مع السردية التوراتية للحدث:

الملاحظ في النص التوراتي أن المشهد السابق الذي عرضه القرآن الكريم قد انقسم إلى مشهدين وحدثين منفصلين، ففي المرة الأولى التي يجتمع فيها موسى وهارون

١. العثيان: الذهب.

٢. الشريف الرضي: نهج البلاغة، خ ١٩٢.

بفرعون لا يوجد في البين حوار طويل، ولا طلب لإطلاق بني إسرائيل بشكل كامل، بل بشكل مؤقت ولمدة ثلاثة أيام فقط ضمن مراسم دينية خاصة، كما لم يحدث حينذاك عرض للآيتين. وتذكر التوراة الحاضرة أن فرعون رفض التصديق، واعتبر أن هذه الإجازة المؤقتة تتعارض مع الحاجة لاستمرار العمل: (١) وَبَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ وَقَالَا لِفِرْعَوْنَ: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيُعِيدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ». ٢ فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لَا أَعْرِفُ الرَّبَّ، وَإِسْرَائِيلَ لَا أَطْلُقُهُ». ٣ فَقَالَا: «إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ التَّقَانَا، فَندَهَبُ سَفَرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذِيحٌ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا، لئَلَّا يُصِيبَنَا بِالْوَيْ أَوْ بِالسَّيْفِ». ٤ فَقَالَ لَهُمَا مَلِكُ مِصْرَ: «لِمَذَا يَا مُوسَى وَهَارُونُ تُبْطِلَانِ الشَّعْبَ مِنْ أَعْمَالِهِ؟ اذْهَبَا إِلَى أَثْقَالِكُمَا». ٥ وَقَالَ فِرْعَوْنُ: «هُوَذَا الْآنَ شَعْبُ الْأَرْضِ كَثِيرٌ وَأَنْتُمَا تُرِيحَانِيهِمْ مِنْ أَثْقَالِهِمْ» (١).

ثم يعقب اللقاء صدور أمر من فرعون بتشديد الأمور على بني إسرائيل، وتحميلهم مسئولية مضاعفة، إذ صار لزاماً عليهم أن يؤمنوا التبن أيضاً لصناعة اللّبن (الطوب) (٢) [انظر اللوحة رقم ٩]، بينما كان يتم توفيره لهم من قبل، ويجدونه كل يوم حاضراً عندهم بلا تكلف. وتضمن أمر فرعون أيضاً أن لا تؤثر هذه المسئولية الإضافية على عدد اللّبن الذي تتم صناعته من قبل بني إسرائيل، وأن يستمر الوضع كما كان عليه في السابق.

وقد اعتبر فرعون أن فترات الاستراحة والفراغ هي التي تسمح لبني إسرائيل بتداول

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٥: ١-٥.

٢. التبن عبارة عن أعلاف خضراء يتم خفض نسبة الرطوبة فيها بتجفيفها إلى نسبة ١٥٪ أو أقل من الرطوبة لئلا تتعفن، نظراً لعدم توفر العلف على مدار السنة، أو لئلا تستخدم في صناعة اللّبن، حيث يعمل التبن على تماسك اللّبن وتقليل حدوث الشروخ فيه.



اللوحة رقم ٩ : اللّين (الطوب) المصنوع من الطين والتبن

أمورهم والتفكير في طلب الإجازة والاحتفال بالعيد والاستماع إلى (تخريض) موسى وهارون، ولذا لا بد من أن يشغلوا أوقاتهم، ويتم إرهابهم إلى المستوى الذي لا جدون فيه مجالاً للتفكير بشيء، وهي السياسة التي ما زالت تُمارَس من قبل السلطات لإشغال الشعوب بعيداً عن التفكير في أوضاعهم والنقد والاحتجاج، وليكون همُّهم منصباً على لقمة عيشهم: (٦) فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُسَخَّرِي الشَّعْبِ وَمُدَبِّرِيهِ قَائِلًا: ٧ «لَا تَعُودُوا تُعْطُونَ الشَّعْبَ تِبْنًا لِصُنْعِ اللَّيْنِ كَأَمْسٍ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ. لِيَذْهَبُوا هُمْ وَيَجْمَعُوا تِبْنًا لَأَنْفُسِهِمْ. ٨ وَمِقْدَارَ اللَّيْنِ الَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَهُ أَمْسٍ، وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ تَجْعَلُونَ عَلَيْهِمْ. لَا تَنْقُصُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ مُتَكَايِلُونَ، لِذَلِكَ يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: نَذْهَبُ وَنَذْبَحُ لِإِلَهِنَا. ٩ لِيُثْقَلَ الْعَمَلُ عَلَى الْقَوْمِ حَتَّى يَشْتَغِلُوا بِهِ وَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَى كَلَامِ الْكَذِبِ»^(١).

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٥: ٦-٩.

ثم تتحدث التوراة عن تنفيذ أمر فرعون، إلا أن العمال عجزوا عن تقديم الكمية المقررة من اللبن، فعوقب رؤساء العمال على يد مسئولهم من المصريين: (١٤) فَضْرِبَ مُدَبِّرُو بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَقَامَهُمْ عَلَيْهِمْ مُسَخَّرُو فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ لَهُمْ: «لِمَاذَا لَمْ تُكْمَلُوا فَرِيضَتَكُمْ مِنْ صُنْعِ اللَّبَنِ أَمْسٍ وَالْيَوْمَ كَالْأَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ؟»^(١).

اشتكى رؤساء العمال إلى فرعون الأوضاع الجديدة التي تفوق طاقة الأيدي العاملة، مبدئين الندامة على ما تكلم به موسى وهارون، فلم يلتفت إليهم، وألقى باللائمة عليهم وطالبهم بالالتزام بالأوامر الجديدة: (١٥) فَأَتَى مُدَبِّرُو بَنِي إِسْرَائِيلَ وَصَرَّخُوا إِلَى فِرْعَوْنَ قَائِلِينَ: «لِمَاذَا تَفْعَلُ هَكَذَا بِعِبِيدِكَ؟ ١٦ اللَّبْنُ لَيْسَ يُعْطَى لِعِبِيدِكَ، وَاللَّبْنُ يَقُولُونَ لَنَا: اصْنَعُوهُ! وَهُوَذَا عِبِيدُكَ مَضْرُوبُونَ، وَقَدْ أَخْطَأَ شَعْبُكَ». ١٧ فَقَالَ: «مُتَكاسِلُونَ أَنْتُمْ، مُتَكاسِلُونَ! لِذَلِكَ تَقُولُونَ: نَذْهَبُ وَنَدْبِجُ لِلرَّبِّ. ١٨ فَالآنَ اذْهَبُوا اْعْمَلُوا. وَتَبْنِ لَا يُعْطَى لَكُمْ وَمِقْدَارَ اللَّبَنِ تُقَدِّمُونَهُ»^(٢).

اعتبر رؤساء العمال أن موسى وهارون هما المسئولان عن الوضع المساوي الجديد، وألقوا باللائمة عليهما: (١٩) فَرَأَى مُدَبِّرُو بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفُسَهُمْ فِي بَلِيَّةٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ لَا تُنْقِصُوا مِنْ لَبْنِكُمْ أَمْرَ كُلِّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ. ٢٠ وَصَادَفُوا مُوسَى وَهَارُونَ وَاقِفَيْنِ لِلْقَائِمِ حِينَ خَرَجُوا مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ. ٢١ فَقَالُوا لَهُمَا: «يَنْظُرُ الرَّبُّ إِلَيْكُمَا وَيَقْضِي، لِأَنَّكُمَا أَنْتَنُتُمَا رَايَحَتَنَا فِي عَيْنَيِ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ عِبِيدِهِ حَتَّى تُعْطِيَا سَيْفًا فِي أَيْدِيهِمْ لِيَقْتُلُونَا»^(٣).

هذا التعقيد في الأوضاع -بحسب التوراة الحاضرة- جعل موسى «عليه السلام» في موقف حرج، وصار يكلم الله «تعالى» بلهجة المحتج، مستنكراً النتائج العكسية

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٥: ١٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٥: ١٥-١٨.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٥: ١٩-٢١.

المرتبة على لقائه بفرعون استجابة لأمره «سبحانه»، دون أن يتدخل الرب للضغط على فرعون: (٢٢) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، لِمَذَا أَسَأْتَ إِلَى هَذَا الشَّعْبِ؟ لِمَذَا أَرْسَلْتَنِي؟ ٢٣ فَإِنَّهُ مُنْذُ دَخَلْتُ إِلَى فِرْعَوْنَ لَأَتَكَلَّمَ بِاسْمِكَ، أَسَاءَ إِلَى هَذَا الشَّعْبِ. وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ» (١).

بالطبع، ليس في القرآن الكريم ما يدل على مثل هذه الإساءة من موسى «عليه السلام» تجاه رب العالمين، وهو ما أكدنا عليه في الجزء الأول من الكتاب عند مقارنة القصة القرآنية بالأخرى التوراتية. ثم نتحدث التوراة عن صدور الأمر الإلهي لموسى بالذهاب مجدداً إلى فرعون الذي سوف يخضع للإرادة الإلهية بإطلاق بني إسرائيل، وبالقوة، ورغمًا عن أنفه: (١) فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «الآنَ تَنْظُرُ مَا أَنَا أَفْعَلُ بِفِرْعَوْنَ. فَإِنَّهُ بِيَدِ قُوَّةٍ يُطْلَقُهُمْ، وَبِيَدِ قُوَّةٍ يَطْرُدُهُمْ مِنْ أَرْضِهِ» (٢).

ويستمر كلام الله «تعالى» مع موسى «عليه السلام» بتجديد الوعد له ولبني إسرائيل بخلاصهم، وإعطائهم أرض كنعان ليتمتعوا بنعمها، وشريعة عظيمة يعملون بها: (٦) لِيَذَلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ. وَأَنَا أَخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَنْقَذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأَخْلَصُكُمْ بِذِرَاعِ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، ٧ وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهًا. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ. ٨ وَأَدْخِلُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَأَعْطِيَكُمْ إِيَّاهَا مِيرَاثًا. أَنَا الرَّبُّ» (٣).

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٥: ٢٢-٢٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٦، ١.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٦، ٨-١٠.

عاد موسى «عليه السلام» وكلّم بني إسرائيل ليطمئنهم، فنقل لهم كلام الله ووعده، فلم يلتفتوا إليه، لفقدانهم الأمل بالخلاص، وبسبب تعقد أوضاعهم بعد اللقاء الأول: (٩) فَكَلَّمَ مُوسَى هَكَذَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى مِنْ صَغَرِ النَّفْسِ، وَمِنْ الْعُبُودِيَّةِ الْقَاسِيَةِ^(١).

أمر الله «تعالى» موسى أن يدخل على فرعون مجدداً، ويكرّر طلبه بإطلاق بني إسرائيل، ولكن بصورة مطلقة، وليس بصفة مؤقتة، وإلا فإن الله سيعاقبه ويريه آيات قدرته: (٨) وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا: ٩ «إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائِلًا: هَاتِيَا عَجِيبَةً، تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرُ ثُعْبَانًا»^(٢).

هنا تختلف القصة التوراتية عن القرآنية، حيث لا نجد -في التوراة- أثراً لإظهار الآيتين في اللقاء الأول كما يندمج اللقاء الثاني بفرعون مع الاجتماع في يوم الزينة وحضور السحرة: (١٠) فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَعَلَا هَكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. طَرَحَ هَارُونَ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا. ١١ فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ. ١٢ طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثُعَابِينَ. وَلَكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَهُمْ. ١٣ فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ^(٣) فالتوراة تذكر أن الرب قد أخبر موسى سلفاً بأن فرعون لن يستجيب وسيبقى معانداً.

الاختلاف الآخر يتمثل في نسبة العصا إلى هارون، وأنه هو الذي يلقيها، بينما القرآن

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٦، ٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ٨-٩.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٠-١٣.

يكرّر ويؤكد على أن العصا كانت عصا موسى التي كان يحملها في سفره وتحولت إلى حية تسعى. كما أننا لا نجد أثراً لآية اليد، ولا اتفاقاً مسبقاً بين الطرفين على حشر الناس ضحى في يوم الزينة، ولا غير ذلك من تفاصيل مرّت معنا في السردية القرآنية.

• من مبالغات القصّاصين:

وكالعادة، فقد امتلأت كتب التاريخ والتفسير والحديث -عند التعرّض لهذا المشهد- بالقصص الموضوعة التي أقحمت شيئاً من الإسرائيليات مع العبث بنصوصها، وشيئاً من صور التهويل والمبالغة والأساطير استجابةً لأهواء القراء والمستمعين، أو لملء بعض الفراغات في السردية القرآنية بلحاظ أنّ القرآن الكريم يكتفي -عادةً- بأهم الأحداث، ويتعدّد عن الخوض في التفاصيل والوصف لكثير من الأمور، لخروج ذلك عن الغاية من التعرّض للحدث... ولكن المشكلة أن ملء الفراغ هذا لم يعتمد على مصدر صحيح أو خبر يُطمأنّ إليه. وفي ما يلي نماذج من ذلك:

١. الرواية الأولى من كتاب (قصص الأنبياء) للقطب الراوندي، وهو الكتاب الذي تحدّثنا عنه في الجزء الأول من سيرة النبي موسى، وأوضحنا هناك إشكالية اشتغال النسخة المتوفرة على الكثير من الأخبار الموضوعة من قبل القصّاصين، والإسرائيليات، وغير ذلك من الأساطير، وفيها تجرّؤ من حيث نسبة بعض منها إلى أئمة أهل البيت «عليهم السلام» زوراً وبهتاناً، كما أن كتاب الراوندي الموجود بين أيدينا يزعم أخذ بعض منها عن كتاب قصص الأنبياء للشيخ الصدوق، دون أن نجد لها أثراً هناك. والرواية هنا عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إنّ فرعون بنى سبع مدائن فتحصّن فيها من موسى^(١))، فلمّا أمره الله أن يأتي فرعون جاءه ودخل

١. وما أدراه أن موسى سيأتي إليه ليتحصّن منه؟

المدينة، فلما رآته الأسود بصبصت بأذنانها^(١)، ولم يأت مدينة إلا انفتح له حتى انتهى إلى التي هو فيها، فقع على الباب وعليه مدرعة من صوف ومعه عصاه، فلما خرج الأذن قال له موسى «عليه السلام»: إني رسول رب العالمين إليك، فلم يلتفت، فضرب بعصاه الباب فلم يبق بينه وبين فرعون باب إلا انفتح، فدخل عليه وقال: أنا رسول رب العالمين، فقال: ائتني بآية، فألقى عصاه، وكان لها شعبتان، فوقعت إحدى الشعبتين في الأرض، والشعبة الأخرى في أعلى القبة، فنظر فرعون إلى جوفها وهي تلتهب ناراً، وأهوت إليه، فأحدث فرعون^(٢) وصاح: يا موسى خذها. ولم يبق أحد من جلساء فرعون إلا هرب، فلما أخذ موسى العصا ورجعت إلى فرعون نفسه هَمَّ بتصديقه، فقام إليه هامان وقال: بينا أنت إله تُعبد إذ أنت تابع لعبد؟! واجتمع الملأ وقالوا: هذا ساحر عليم...^(٣).

٢. جاءت الرواية الأخرى في (مجمع البيان) للطبرسي، وبمثل ما في قصص الأنبياء للراوندي، مع بعض الإضافات -ولربما لمزيد من الإثارة- ولكنها مروية هذه المرة كالتالي: (عن أبي جعفر «عليه السلام» في حديث طويل قال: فلما رجع موسى «عليه السلام» إلى امرأته، قالت: من أين جئت؟ قال. من عند ربّ تلك النار. قال: فعدا إلى فرعون، فوالله لكأني أنظر إليه طويل الباع، ذو شعر، آدم، عليه جبة من صوف، عصاه في كفه، مربوط حَقْوُهُ بشريط^(٤)، نعله من جلد حمار، يَراكُها مِن ليف. فقبل لفرعون: إنّ على الباب فتى يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فرعون

١. بَصَصَ الْكَلْبُ : حَرَكَ ذَنْبَهُ طَمَعاً فِي شَيْءٍ.

٢. أَحَدَثَ الرَّجُلُ : تَغَوَّطَ.

٣. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ١٨٥. وسأعلّق عليها بعد ذكر بعض ما يشبهها من روايات.

٤. الْحَقْوُ: الْحَصْرُ، وهو وسط الإنسان فوق الورك.

لصاحب الأسد: خلّ سلاسلها، وكان إذا غضب على رجل خلاها فقطّعتة. فخلاها، ففرع موسى الباب الأول، وكانت تسعة أبواب^(١). فلما قرع الباب الأول، انفتحت له الأبواب التسعة. فلما دخل جعلن تبصبصن تحت رجله، كأنهن جراء. فقال فرعون لجلسائه: رأيتم مثل هذا قط؟! فلما أقبل إليه فقال: ﴿أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا وَلِيدًا﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(٢). فقال فرعون لرجل من أصحابه: قم فخذ بيده. وقال للآخر: اضرب عنقه، فضرب جبرائيل بالسيف حتى قتل ستة من أصحابه، فقال: خلّوا عنه. قال: فأخرج يده فإذا هي بيضاء قد حال شعاعها بينه وبين وجهه. فألقى العصا فإذا هي حية، فالتقمت الإيوان^(٣) بلحيّتها، فدعاه أن يا موسى أقلني إلى غد، ثم كان من أمره ما كان^(٤) [انظر اللوحة ١٠].

٣. الرواية الثالثة في كتاب (عرائس المجالس) للثعلبي، وقد بيّنا حال هذا الكتاب أيضاً في الجزء الأول من سيرة النبي موسى، وكيف أنه كتاب جامع للأساطير، ولربما زاد المؤلّف من عنده ما شاء، ففاق السابقين له في التفاصيل التي ما أنزل الله بها من سلطان، وبلا بيانٍ مرجعٍ يوثق به. وضمّن روايته التالية تحديداً لكيفية لقاء موسى بهارون عند عودته إلى مصر، والتوقيت الدقيق لذلك بالساعة واليوم والتاريخ القمري، وقصة الأسد مع موسى، والأرقام المبالغ فيها في أعداد الجند والحصون، وغير ذلك من التفاصيل العجيبة.

١. أي كانت الأسود محجوزة خلف تسعة أبواب، وهي تفصل بينها وبين موسى.

٢. الآيات من سورة الشعراء: ٢٠-١٨.

٣. إيوان كلمة فارسية الأصل، وهي تشير إلى قاعة أو مساحة مستطيلة، عادة ما تكون مقببة، ومحاطة بسور من ثلاث جهات، مع جهة مفتوحة بالكامل [انظر اللوحة ١٠].

٤. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٧، ص ٤٣٧.



اللوحة رقم ١٠ : من إيوانات الحرم الرضوي

قال الثعلبي وفق ما نقل عنه المجلسي في بحاره: (قال العلماء بأخبار الماضين: لما كَلَّم الله موسى وبعثه إلى مصر خرج ولا عِلْم له بالطريق، وكان الله «تعالى» يهديه ويدلّه، وليس معه زاد ولا سلاح ولا حمولة ولا شيء غير عصاه ومدرعة صوف وقلنسوة من صوف ونعلين، يظلّ صائماً، ويبيت قائماً، ويستعين بالصيد وبقُول الأرض حتى وَرَدَ مصر، ولما قرب مصر أوحى الله «سبحانه» إلى أخيه هارون يبشّره بقدوم موسى ويخبره أنه قد جعله لموسى وزيراً ورسولاً معه إلى فرعون، وأمره أن يمرّ يوم السبت لغرة ذي الحجة متنكراً إلى شاطئ النيل ليلتقي في تلك الساعة بموسى، قال: فخرج هارون وأقبل موسى «عليه السلام» فالتقيا على شطّ النيل قبل طلوع الشمس، فاتفق أنه كان يوم ورود الأسد الماء، وكان لفرعون أسدٌ تحرسه في غَيضةٍ محيطة بالمدينة من

حولها، وكانت ترد الماء غيباً^(١)، وكان فرعون إذ ذاك في مدينة حصينة عليها سبعون سوراً، في كل سور رساتيق وأنهار ومزارع وأرض واسعة، في ربض^(٢) كل سور سبعون ألف مقاتل^(٣)، ومن وراء تلك المدينة غيضة، تولى فرعون غرسها بنفسه وعمل فيها وسقاها بالنيل، ثم أسكنها الأسد، فنسلت وتوالدت حتى كثرت، ثم اتخذها جنداً من جنوده تحرسه، وجعل خلال تلك الغيضة طرقاً تُفضي من يسلكها إلى أبواب من أبواب المدينة معلومة، ليس لتلك الأبواب طريق غيرها، فمن أخطأ وقع في الغيضة فأكلته الأسد. وكانت الأسود إذا وردت النيل ظلت عليها يومها كلها ثم تصدر مع الليل، قال: فالتقى موسى وهارون يوم ورودها، فلما أبصرتهما الأسد مدت أعناقها ورؤوسها إليهما وشخصت أبصارها^(٤) نحوهما، وقذف الله «تعالى» في قلوبها الرعب، فانطلقت نحو الغيضة منهزمة هاربة على وجوهها تطأ بعضها بعضاً حتى اندست في الغيضة، وكان لها ساسة يسوسونها، وذادة يذودونها، ويسلطونها على الناس، فلما أصابها ما أصابها خاف ساستها فرعون، ولم يشعروا من أين أتوا، فانطلق موسى وهارون «عليهما السلام» في تلك الغيضة حتى وصلا إلى باب المدينة الأعظم الذي هو أقرب أبوابها إلى منزل فرعون، وكان منه يدخل ومنه يخرج، وذلك ليلة الإثنين بعد هلال ذي الحجة بيوم، فأقاما عليه سبعة أيام، فكلهما واحد من الحراس وزبرهما وقال لهما: هل تدريان لمن هذا الباب؟ فقال موسى «عليه السلام»: إن هذا الباب والأرض - كلها وما فيها - لرب العالمين، وأهلها عبيد له. فسمع ذلك الرجل قولاً لم يسمع مثله قط، ولم يظن أن أحداً

١. أي تشرب يوماً، وتدع الشرب في اليوم الذي يليه.

٢. ربض المدينة: ما حولها.

٣. أي ما مجموعه ٤,٩٠٠,٠٠٠ مقاتل!!!

٤. شخص البصر: اتسع دون أن يطرف.

من الناس يفصح بمثله، فلما سمع ما سمع أسرع إلى كبرائه الذين فوقه فقال لهم: سمعت اليوم قولاً وعانيت عجباً من رجلين هو أعظم عندي وأفزع وأشنع مما أصابنا في الأسد، وما كنا ليقدمنا على ما أقدمنا عليه إلا بسحر عظيم، وأخبرهم القصة فلا يزال ذلك يُداول بينهم حتى انتهى إلى فرعون.

وقال السدي بإسناده: سار موسى «عليه السلام» بأهله نحو مصر حتى أتاهها ليلاً فتضيّف أمّه^(١) وهي لا تعرفه^(٢)، وإنما أتاهم في ليلة كانوا يأكلون فيها الطّفيشل^(٣)، ونزل في جانب الدار، فجاء هارون، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمّه، فأخبرته أنه ضيف، فدعاه فأكل معه. فلما أن قعد، تحدّثا، فسأله هارون فقال: من أنت^(٤)؟ فقال: أنا موسى، فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه، فلما أن تعارفا قال له موسى: يا هارون انطلق معي إلى فرعون، فإن الله «عز وجل» قد أرسلنا إليه، فقال هارون: سمعاً وطاعة، فقامت أمهما فصاحت وقالت: أنشدكما الله أن لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما.

١. أي طلب منها أن تُضيّفه.

٢. وهل يعقل ذلك، وقد غادر مصر وهو على الأقل شاب؟ وعاد بعد قرابة العشر سنين فحسب.

٣. الطفيشل: هو ما يُعرف من صنف الحلويات باسم (البسبوسة)، ويُعدّ من أكلات اليهود السفارديم (الشرقيين)، ويُطلقون عليه اسم (تشبيشتي = טישפישטי = Tishpishti) ويصنع من السميد والعسل. وقد ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن حواراً دار بين معاوية وبين النعمان بن بشير الأنصاري، تضمّن من قبل معاوية نوعاً من التحرش بالأنصار، ومن بين ذلك الطعن في أكلهم الطفيشل، فرد عليه النعمان قائلاً: (وأما التمر والطفيشل، فإن التمر كان لنا، فلما ذقتموه شاركتمونا فيه. وأما الطفيشل، فكان لليهود، فلما أكلناه غلبناهم عليه) أي صار يُنسب إلينا لكثرة تناولنا له (كما غلبت قريش على السخينة) حساء من الدقيق والماء أو اللبن، وكانت قريش تُعير بهذه الأكلة لأنها من أكلات المجاعات.

٤. وهل يعقل ذلك، كيف لا يعرفه أخوه، وقد عاد بعد قرابة العشر سنين فحسب؟

فأتيا ومضيا لأمر الله «سبحانه» فانطلقا إليه ليلاً فأتيا الباب والتمسا الدخول عليه ليلاً، فقرعا الباب، ففزع فرعون وفتح الباب^(١)، وقال فرعون: من هذا الذي يضرب بابي هذه الساعة^(٢)؟! فأشرف عليهما البواب فكلمهما، فقال له موسى: أنا رسول رب العالمين، فأتى فرعون فأخبره وقال: إن ههنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: خرج موسى لما بعثه الله «سبحانه» حين قدم مصر على فرعون هو وأخوه هارون حتى وقفا على باب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٦)، فأذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا سنتين يغدوان إلى بابه ويروحان لا يعلم بهما ولا يجترئ أحدهما على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بطلان له يلعب عنده ويضحكه فقال له: أيها الملك، إن على بابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً غيرك، فقال: ببابي؟ أدخلوه، فدخل موسى ومعه هارون «عليهما السلام» على فرعون. قالوا: فلما أذن فرعون لموسى وهارون دخلا عليه فلما وقفا عنده دعا موسى بدعاء وهو: «لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم سبحان الله رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، اللهم إني أدركك في نحره، وأعوذ بك من شره، وأستعينك عليه، فاكفنيه بما شئت». قال: فتحوّل ما بقلبي موسى من الخوف أمناً، وكذلك من دعا بهذا الدعاء وهو خائف آمن الله خوفه، ونفّس كربته، وهوّن عليه سكرات الموت.

ثم قال فرعون لموسى: من أنت؟ قال: أنا رسول رب العالمين، فتأمله فرعون فعرفه

١. وهل غرفة نوم فرعون في القصر عند باب القصر؟

٢. وهل هذا تصرف عقلائي من موسى أن يأتي في مثل هذه الساعة ليدعوه إلى الله؟

فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾ معناه: على ديننا هذا الذي تعيبه، فقال موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠﴾ المخطئين، ولم أرد بذلك القتل ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي نبوة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾ ثم أقبل موسى يُنكر عليه ما ذكر فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي اتخذتهم عبيدًا تنزع أبناءهم من أيديهم تسترق من شئت، أي إنما صيرني إليك ذلك، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٢﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝٢٣﴾ قال فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ۝٢٤﴾؟ إنكاراً لما قال، قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ فقال فرعون: ﴿إِنْ رَسُولُكَ لَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم لَمَجْنُونٌ ۝٢٦﴾ يعني ما هذا بكلام صحيح إذ يزعم أن لكم إلهاً غيري، قال موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٧﴾ فقال فرعون لموسى: ﴿لَئِنْ اتَّخَذتِ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۝٢٨﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ۝٢٩﴾ تعرف به صدقي وكذبك، وحقي وباطلك، قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٠﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۝٣١﴾ فاتحة فاها قد ملأت ما بين سماطي فرعون، واضعة لحييها الأسفل في الأرض والأعلى في سور القصر حتى رأى بعض من كان خارجاً من مدينة مصر رأسها !!

ثم توجَّهت نحو فرعون ليأخذه فارفض^(١) عنها الناس وذعر عنها فرعون، ووثب عن سريره وأحدث حتى قام به بطنه في يومه ذلك أربعين مرة !!

وكان فيما يزعمون لا يسعل ولا يصدع ولا يصيبه آفة مما يصيب الناس، وكان يقوم

في أربعين يوماً مرة ! وكان أكثر ما يأكل الموز لكيلا يكون له ثُقل^(١) فيحتاج إلى القيام، وكان هذه الأشياء مما زَيَّن له أن قال ما قال، لأنه ليس له من الناس شبيهه.

قالوا: فلما قصَدته الحيَّة صاح: يا موسى، أنشدك بالله وحرمة الرضاع إلا أخذتها وكففتها عني، وإني أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت، ثم نزع يده من جيبه فأخرجها بيضاء مثل الثلج، لها شعاع كشعاع الشمس، فقال له فرعون: هذه يدك، فلما قالها فرعون أدخلها موسى جيبه ثم أخرجها الثانية لها نور ساطع في السماء تكلّ منها الابصار، وقد أضاءت ما حولها، يدخل نورها في البيوت، ويرى من الكوى من وراء الحجب، فلم يستطع فرعون النظر إليها، ثم ردّها موسى إلى جيبه ثم أخرجها فإذا هي على لونها الأول، قالوا: فهُمَّ فرعون بتصديقه فقام إليه هامان وجلس بين يديه فقال له: بينا أنت إله تعبد إذ أنت تابع لعبد؟! فقال فرعون لموسى: أمهلني اليوم إلى غد، وأوحى الله «تعالى» إلى موسى: أن قل لفرعون: إنك إن آمنت بالله وحده عمّرتك في ملكك ورُدِدْتَ شاباً طرياً، فاستنظره فرعون، فلما كان من الغد دخل عليه هامان فأخبره فرعون بما وعده موسى من ربه، فقال له هامان: والله ما يعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوماً واحداً، ونفخ في منخره، ثم قال له هامان: أنا أردك شاباً، فأتاه بالوسمة فخصّبه بها! فلما دخل عليه موسى فرآه على تلك الحالة هاله ذلك^(٢)، فأوحى الله «تعالى»: لا يهولتك ما رأيت، فإنه لم يلبث إلا قليلاً حتى يعود إلى الحالة الأولى.

١. لربما يقصد لكي لا يضطر للذهاب لقضاء الحاجة.

٢. يستخف الراوي بقول الناس إذ يصوّر للناس أن موسى لا يعرف الوسمة وقد تربّى في قصر فرعون، وقد رأى منذ طفولته أنواع وسائل التزيين والأصباغ التي يستعملها فرعون وغيره لتغيير مظهرهم إلى الأحسن.

وفي بعض الروايات أن موسى وهارون لما انصرفا من عند فرعون أصابهما المطر في الطريق، فأتيا على عجوز من أقرباء أمّهما، ووجه فرعون الطلب في أثرهما، فلما دخل عليهما الليل ناما في دارها وجاءت الطلب إلى الباب والعجوز منتبهة، فلما أحست بهم خافت عليهما، فخرجت العصا من صير^(١) الباب والعجوز تنظر! فقالتهم حتى قتلت منهم سبعة أنفس، ثم عادت ودخلت الدار! فلما انتبه موسى وهارون أخبرتهما بقصة الطلب ونكاية العصا منهم، فأمنت بهما وصدقتهما.

قالت العلماء بأخبار الأنبياء: إن موسى وهارون «عليهما السلام» وضع فرعون أمرهما وما أتيا به من سلطان الله «سبحانه» على السحر وقال للملأ من حوله: ﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾^(٢) أأقتلها؟ فقال العبد الصالح خربيل مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣) وقال الملأ من قوم فرعون: ﴿أَرَجُهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسُلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(٤) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ^(٥) وكانت لفرعون مدائن فيها السحرة عدة للأمر إذا حَزَّ به.

وقال ابن عباس: قال فرعون لما رأى من سلطان الله في اليد والعصا: إنا لا نغالب موسى إلا بمن هو مثله، فأخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغرماء، يعلمونهم السحر كما يُعلّم الصبيان الكتابة في الكتاب، فعلموهم سحراً كثيراً، وواعد فرعون موسى موعداً فبعث فرعون إلى السحرة فجاء بهم ومعهم

١. الصير: شق الباب.

٢. الآية الأولى هي الآية ٦٣ من سورة طه، والثانية ١١٠ من الأعراف... فكيف تكون تنمة لها؟

معلّمهم، فقالوا له: ماذا صنعت؟ فقال: قد علّمتهم سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمر من السماء، فإنه لا طاقة لهم به، ثم بعث فرعون الشرطي في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحراً إلا أتى به. واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون، فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، اثنان منهم من القبط وهما رأسا القوم، وسبعون من بني إسرائيل، وقال الكلبي: كانوا سبعين ساحراً غير رئيسهم، وكان الذي يعلمهم ذلك رجلين مجوسيين من أهل نينوى، وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفاً^(١)، وقال السدي: كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً، وقال عكرمة: سبعين ألفاً، وقال محمد بن المنكدر: ثمانين ألفاً! فاختر منهم سبعة آلاف، ليس منهم إلا ساحر ماهر، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار من أولئك السبعمائة سبعين من كبرائهم وعلماهم.

قال مقاتل: وكان رئيس السحرة أخوين بأقصى مدائن مصر، فلما جاءهما رسول فرعون قالاً لأُمّهما: دلّينا على قبر أبينا^(٢). فدلتّهما عليه، فأتياه فصاحا باسمه فأجابهما، فقالا: إن الملك وجّه إلينا أن نقدم عليه، لأنّه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح، ولهما عزّ ومنعة، وقد ضاق الملك ذرعاً من عزّهما، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لهما شيء، تلبع الحديد والخشب والحجر، فأجابهما أبوهما: انظرا إذا هما ناما فإنّ قدرتما أن تسلاّ العصا فسلاّها، فإنّ الساحر لا يعمل سحره وهو نائم، وإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر رب العالمين، ولا طاقة لكما بهما ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا، فأتياهما في خُفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدتهما

١. لاحظ القفزة الكبيرة في العدد من ٧٢ إلى ١٢ ألف ساحر! ثم ارتفع الآخرون على الرقم حتى يبلغ ثمانين ألفاً.

٢. عنصر إثارة جديد يدخل على القصة.

العصا)^(١). وسنعود لبقيّة تفاصيل الأحداث كما رواها الثعلبي عندما نتعرّض لموقف المواجهة بين النبي موسى والسحرة.

٤. تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي يكشف لنا أن المصدر الأصلي لروايات بَصْبِصَةِ الْأَسُودِ عبارة عن رواية إسرائيلية. قال القرطبي: (وكان فرعون استعبدهم أربعمئة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً. فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البوّاب على فرعون فقال: ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك منه. فدخلوا عليه وأدّيا الرسالة. وروى وهب) وهب بن منبّه اليهودي الأصل، جاء بهذه القصة، وسيتبيّن معنا بعد قليل من أين جاء بها، ثم تغلّغت في مصادر السنة والشيعة، بما في ذلك كتب تفسير القرآن الكريم (وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعاً من أسد ونمور وفهودٍ يتفرّج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهارون، فأسرعا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتُبصّبُ إليهما بأذنانها، وتُلصق خدودها بفخذيها. فعجب فرعون من ذلك)^(٢).

٥. ويؤكّد ذلك ما في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق، في وَصْفٍ ما جرى بعد أن ألقي موسى عصاه في مجلسه فتحولّت إلى ثعبان مبین، قال: (حُدِّثُ عَنْ وَهْبِ بْنِ مَنْبَهٍ الْيَمَانِيِّ^(٣))، قال: فمشى بضعاً وعشرين ليلة، حتى كادت نفسه أن تخرج^(٤))، ثم استمسك فقال للملئ: «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ» أي ما ساحر أسحر منه، «يُرِيدُ

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤١ - ١٤٨. نقلاً عن عرائس المجالس ص ١١٦-١١٨.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٦٤-٦٥.

٣. فالرواية من الإسرائيليات.

٤. أي مشى فرعون هرباً من الثعبان وما رأى.

أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ أَقْتُلْهُ؟ فَقَالَ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ - الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَكَانَ اسْمُهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ حَبْرَكُ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بِعَصَاهُ وَيَدِهِ! ثُمَّ خَوَّفَهُمْ عِقَابَ اللَّهِ وَحَذَرَهُمْ مَا أَصَابَ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ، وَقَالَ: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ، وَقَدْ وَهَنَهُمْ مِنْ سُلْطَانِ اللَّهِ وَمَا وَهَنَهُمْ: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾، أَيِ كَاثِرِهِ بِالسَّحَرَةِ لَعَلَّكَ أَنْ تَجِدَ فِي السَّحَرَةِ مَنْ جَاءَ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ..^(١).

ونجد جذور هذه الرواية الإسرائيلية حول الأسود وتصرفها الغريب، بل والمبالغة في حجم قصر فرعون وعدد الأبواب والجنود، وغيرها في التراث الأسطوري لليهود، كما يتبين معنا من خلال مطالعة كتاب (أساطير اليهود) لمؤلفه (لويس غينسبرغ) Louis Ginzberg (ت ١٩٥٣) وهو أمريكي ليتواني الأصل، درس التلمود في عدة مدارس حاخامية، كما درس الفلسفة والتاريخ واللغات الشرقية في ثلاث جامعات، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هايدلبرغ عام ١٨٩٨، وانتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٨٩٩. ومن عام ١٩٠٢ حتى وفاته، كان غينزبرغ أستاذاً للتلمود في المدرسة اللاهوتية اليهودية الأمريكية. أشهر أعماله تعليقه على التلمود الفلسطيني في ٣ مجلدات، و(أساطير اليهود) The Legends of the Jews المكوّن من ٧ مجلدات.

قام غينسبرغ في مشروعه هذا بجمع كل التراث اليهودي المتعلق بالكتاب المقدس، ثم تتبّع الأساطير في مصادرها، وأخرجها بعد ذلك في هذه الموسوعة.

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٤٠٧.

ذكر غينسبرغ في كتابه (أساطير اليهود) ما ترجمته: (توافق يوم ظهور موسى وهارون أمام فرعون مع ذكرى ميلاده، وقد أحاط به ملوك كثيرون، فقد كان حاكم العالم كله، وكانت هذه هي المناسبة التي جاء فيها ملوك الأرض إجلالاً له. عندما أعلن عن حضور موسى وهارون، استفسر فرعون عما إذا كان الشيخان قد أحضرا له تيجاناً، ولكنه تلقى رداً سلبياً، فأمر بعدم السماح لهما بالدخول إليه إلى أن ينصرف الآخرون الذين قدّروه. كان قصر فرعون محاطاً بجيش عظيم. وكان للقصر أربع مائة مدخل، مائة من كل جانب، يحرس كل منها ستون ألف جندي. لقد رُوعَ موسى وهارون من عرض القوة هذا، وكانا خائفين. ولكن ظهر الملاك جبرائيل وقادهم إلى القصر دون أن يُلاحظهم أحدٌ من الحراس، وأصدر فرعون عقوبة شديدة على الحراس الغافلين لأنهم سمحوا للشيخين بالدخول دون إذنه. تم فصلهم ووضع آخرين في أماكنهم. لكن الشيء نفسه حدث في اليوم التالي. كان موسى وهارون داخل القصر، ولم يتمكن الحراس الجدد من منع مرورهما. وسأل فرعون عبده: كيف يمكن للشيخين أن يدخلوا؟ فقالوا: لا نعلم! لم يدخلوا من الأبواب، لا بدّ أنهما سحرة. لم يكن القصر تحت حراسة الجنود فحسب، بل تم وضع أسدين عند كل مدخل، ولذا لم يجرؤ أحد على الاقتراب من الأبواب، ولم يتمكن أحد من الدخول حتى يأتي مروض الأسود ويقودها بعيداً. والآن أشار بلعام وجميع الكتبة المقدسين الآخرين في مصر بأن يطلق الحراس الأسود عند اقتراب موسى وهارون. لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. لم يكن على موسى سوى أن يرفع عصاه، فقفزت الأسود نحوه بفرح، وتبعته عند قدميه، وكانت تمرح مثل الكلاب أمام سيّدها عند عودته إلى المنزل)^(١).

1. <https://www.originalsources.com/Document.aspx?DocID=5L1Q57UG-8K6AUD9>

• متى كان الاجتماع، وأين؟

بحسب القرآن الكريم، فقد تم استدعاء السحرة من المدن المختلفة أملاً في تحقيق الانتصار على موسى وهارون «عليهما السلام» بعد الانبهار بالآيتين، ليكون ذلك مبرراً لإنزال العقوبة بهما: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۖ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَالِيمٍ ۝﴾^(١)، ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۖ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَالِيمٍ ۝﴾^(٢).

كما قام زبانية فرعون بحشد الناس للحضور في المكان والزمان المحددين تأييداً لفرعون والسحرة في محاولة للتأثير نفسياً على موسى وهارون ومن يتبعهما: ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾^(٣) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ۝﴾^(٤)، ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ۝﴾^(٥).

وهناك محاولات من قبل بعض قدماء المفسرين (أهل التأويل) لتحديد المراد من (يوم الزينة)، والمدينة أو الموقع الذي سيتم فيه الاجتماع لمشاهدة التحدي والمواجهة بين موسى والسحرة، ولكنهم لم يقدموا دليلاً واضحاً وحجة بيّنة على ادّعاءاتهم:

(١) في بحار الأنوار للمجلسي: (قالوا: ثم واعدوه يوم الزينة، وكان يوم سوق لهم، عن سعيد بن جبير، وقال ابن عباس: كان يوم عاشوراء، ووافق ذلك يوم السبت في أول

١. سورة الأعراف: ١١١-١١٢.

٢. سورة الشعراء: ٣٦-٣٧.

٣. سورة الشعراء: ٣٨-٤٠.

٤. سورة طه: ٦٤.

يوم من السنة، وهو يوم النيروز، وكان يوم عيد لهم يجتمع إليه الناس من الآفاق^(١).

والسؤال: هل للمصريين القدماء يوم نيروز؟ وهل يحتفلون فيه كيوم عيد؟

بحسب بعض المصادر الخاصة بتاريخ مصر القديمة، فإن الأعياد فيها تنقسم إلى:

١. أعياد رسمية: كانت تقام في أنحاء مصر كلها، ويحتفل بها الشعب مع الملك الذي يقوم بتوزيع الهدايا والعطايا، وتقام فيها الحفلات.

٢. أعياد محلية: أي خاصة بإقليم أو مدينة معينة تحتفل فيه بحدث معين يخصها.

٣. أعياد خاصة: وهي أعياد شعبية تتعلق بفئة معينة أو طائفة حرفية أو مناسبة معينة خاصة بمجموعة أو مكان معين، وتقتصر على هذه الفئة فقط دون باقي السكان

٤. أعياد دينية: وهي كثيرة جداً تكون خاصة بالآلهة أو بافتتاح معبد [انظر اللوحتين ١١-١٢].

٥. أعياد جنائزية: وهي أعياد لا تزال متوارثة في الصعيد إلى الآن، ومنها ذكرى الأربعين والسنوية، وأيضاً خروج الناس إلى المقابر لزيارة ذويهم من الموتى ومعهم الهدايا للآلهة التي كانت تُصنع من الشعير والزيت، وهذا الموروث لا يزال موجوداً.

٦. أعياد النصر: على الأعداء، وقد ترك كبار قادة الجيوش في عصر بداية الأسرة الثامنة عشرة مناظر ونصوصاً على جدران مقابرهم توضّح كيف أنهم احتفلوا بذكرى انتصارهم الحاسم على الهكسوس وما تم في أعيادهم من توزيع للهدايا والنياشين من قبل الحاكم، وكذلك العطايا التي مُنحت، كالأراضي الزراعية أو من الماشية وغيرها

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤٨.



اللوحة رقم ١١ : عيد إيت، لآلهة ثالث طيبة - آمون وموت وابنه خونسو



اللوحة رقم ١٢ : احتفال أقامه رمسيس الثاني لعيد إيت

٧. أعياد زراعية: تبدأ أول الأعياد الزراعية مع مجئ الفيضان، ثم يأتي بعد ذلك عيد وفاء النيل، حيث يرتفع الفيضان ارتفاعاً ملائماً. ومن الأعياد الزراعية أيضاً كان عيد الانقلاب الربيعي، وهو عيد (شم النسيم) حالياً، تقام فيه الاحتفالات الموسيقية المصاحبة للرقص وأكل السمك المملح (الفسيح)، والوزّ الأبيض، والبصل الأخضر [انظر اللوحين ١٣-١٤]. وهناك عيد الانقلاب الشتوي الذي كان يأتي بمناسبة حرث الأرض ونثر البذور. ومن الأعياد أيضاً عيد «وبت رنبت نفرت» ومعناه «افتتاح السنة» أي رأس السنة الزراعية، وكانوا يحتفلون به في يوم ١٧ يوليو من كل عام. وقد تغيّر الاحتفال برأس السنة إلى ١١ سبتمبر. وأُطلق على هذا العيد أيضاً اسم «ني- يارؤ» بمعنى «يوم الأنهار» الذي هو ميعاد اكتمال فيضان نهر النيل، الذي يعتبر السبب الأول في الحياة في مصر.

ومع احتلال الفرس لمصر بعد عصر النبي موسى بقرون، عرف المصريون الاحتفال بعيد (النوروز / النيروز) الفارسي، ويتشابه هذا العيد مع احتفالات المصريين ببداية الفيضان، ومن هنا تغيرت تسمية «وبت رنبت» إلى عيد «النوروز / النيروز» ومعنى التسمية بالفارسية «اليوم الجديد»، وهو العيد الذي كان يُمثل أول يوم في السنة الزراعية الجديدة.

وتؤكد المصادر التاريخية استمرار احتفال المصريين بالنوروز إلى العصور الوسطى، إذ ينقل المقرئزي (ت ١٤٤٢م) مظاهر الاحتفال برأس السنة المصرية في عصر المماليك، وأنه كان واحداً من الاحتفالات الكبرى التي يحتفل بها المصريون جميعاً، مسلمون ومسيحيون، كما كانت الدولة في العصر الفاطمي تحتفل على المستوى الرسمي بهذه المناسبة وذلك بتوزيع العطايا إلى جانب الاحتفالات الشعبية التي كانت تأخذ شكل



اللوحة رقم ١٣ : لوحة تمثل عيد شم النسيم



اللوحة رقم ١٤ : لوحة أخرى تمثل عيد شم النسيم

كرنفال شعبي كبير يخرج فيه الناس للمتنزهات العامة.

ويبقى أن نتساءل هل أراد ابنُ عباس من عاشوراء -في الرواية التي أشرنا إليها- خصوص العاشر من شهر محرم؟ أم عاشوراء اليهود، أي العاشر من شهر (تشري) العبري، الذي يعتقدون أنه اليوم الذي بدأت فيه الخليقة، ويسمونه يوم عاشور، و(يوم كيبور)، أي يوم الكفارة (تكفير)؟ ثم هل يتوافق يوم عاشوراء هذا -على فرض أنه العاشر من محرم- مع يوم رأس السنة المصرية في تلك السنة؟ ومن أين جاء ابن عباس بهذه المعلومة؟ هل هي مما ألقاه عليه كعب الأحبار أو غيره من مسلمة اليهود، أم أنه قول منسوب لابن عباس ولم يقل به؟ كل هذا محتمل.

(٢) في بحار الأنوار أيضاً: (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وكان اجتماعهم للميقات بالإسكندرية)^(١).

ولكن لو أردنا أن نقبل هذا القول، يبرز الإشكال التالي: ما الداعي للانتقال إلى الإسكندرية لعقد ذلك الاجتماع، والحال أن فرعون يسكن في العاصمة الجديدة (بر رع مسيس) [انظر اللوحة ١٥]، وهي مهية لمثل هذا الحشد؟ وما الدليل على ذلك؟

• اجتماع وتنازع:

في أجواء المواجهة، وقبيل البدء، سعى كل طرف أن يوظف العامل النفسي للتأثير على الطرف الآخر. فعندما اقترب السحرة من فرعون سألوه عن جائزتهم عند انتصارهم، فوعدهم فرعون بالجائزة المالية وبالمكانة والمنزلة الرفيعة لديه تشجيعاً لهم، وحثاً على إبراز كل ما لديهم من أساليب سحرية تهزم موسى وهارون: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤٨.



اللوحة رقم ١٥ : موقع الاسكندرية بالنسبة إلى بررعمسيس

قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ (١).

وفي المقابل، فقد أطلق موسى كلمات زعزعت مواقف بعض أفراد الصف الموالي لفرعون، وأفقدتهم الثقة بأنفسهم، وشككتهم في صحة ما سيقدِّمون عليه، وأوقعت الخلاف والنزاع فيما بينهم: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَارَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا التَّجْوَى ﴿٦٢﴾﴾ (٢).

قال العلامة الطباطبائي في بيان الآيات وتفسيرها: (التنازع والاختلاف إنما ظهر

١. سورة الأعراف: ١١٣-١١٤.

٢. سورة طه: ٦٠-٦٢.

بينهم عن موعظة وعظهم بها موسى، فأثّرت فيهم بعض أثرها، ومن شأنها ذلك، إذ ليست إلا كلمة حق ما فيها مغمض، وكان محصلها أن لا علم لكم بما تدعونه من ألوهية الآلهة وشفاعتها، فنسبتكم الشركاء والشفعاء إلى الله افتراء عليه، وقد خاب من افتري، وهذا برهان واضح لا ستر عليه ولا غبار^(١).

وبادر فرعون وأنصاره إلى التدخل عاجلاً لرفع هذا التنازع باتهام موسى وهارون بالدجل وتوظيف الدين لغاية سياسية، وأنهم يريدون لهم الانحراف عن نهجهم المقدس: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلٰى ۖ فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعٰى ۚ﴾^(٢).

قال العلامة الطباطبائي: (لما رأى فرعون وأياديه تنازع القوم -وفيه خزيهم وخذلانهم- أسروهم النجوى ولم يكلموهم فيما ألقاه إليهم موسى من الحكمة والموعظة، بل عدلوا عن ذلك إلى ما اتهمه فرعون بالسحر وطرح خطة سياسية لإخراج أمة القبط من أرضهم، ولا ترضى الأمة بذلك، ففيه خروج من ديارهم وأموالهم وسقوط من أوج سعادتهم إلى حضيض الشقاء، وهم يرون ما يقاسيه بنو إسرائيل بينهم. وأضافوا إلى ذلك أمراً آخر، أمر من الجلاء والخروج من الديار والأموال، وهو ذهاب طريقتهم المثل وسنتهم القومية التي هي ملة الوثنية الحاكمة فيهم قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وقد اشتد بها عظمهم ونبت عليها لحمهم، والعامّة تقدس السنن القومية وخاصة ما اعتادت عليها وأذعنّت بأنها سنن ظاهرة سماوية.

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ١٧٥.

٢. سورة طه: ٦٣-٦٤.

وهذا بالحقيقة إغراء لهم على التثبت و الاستقامة على ملة الوثنية لكن لا لأنها دين حق لا شبهة فيه فإن حجة موسى أوضحت فسادها وكشفت عن بطلانها، بل بعنوان أنها سنة مَلِيَّة مقدّسة تعتمد عليها مَلِيَّتهم وتستند إليها شوكتهم وعظمتهم، وتعتصم بها حياتهم، فلو اختلفوا وتركوا مقابلة موسى واستعلى هو عليهم كان في ذلك فناؤهم بالمرة. فالرأي هو أن يجمعوا كل كيد لهم، ثم يدعوا الاختلاف، ويأتوا صفاً حتى يستعلوا، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ۖ﴾.

فأكدوا عليهم القول بالتسويل أن يتحدوا ويتفقوا ولا يهنوا في حفظ ملتهم ومدنيتهم، ويكرّوا على عدوّهم كَرَّة رجل واحد، وشقّع ذلك فرعون بمواعيد جميلة وعدهم إياها كما يظهر من قوله «تعالى» في موضع آخر: ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُّا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِينَ ۖ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٤﴾^(١) ... وتقرّر البدء بالمواجهة، أمام الجماهير المحتشدة، سواء برغبة منها أم بالإجبار^(٢).

• نتائج الفصل و خلاصته:

○ أمر موسى من قبل الله بأن يعرض الرسالة على فرعون، وأن يستعين بالآيات المبصرة (المعاجز المادية) في ذلك اللقاء الأول الذي جمعهما، على الرغم من أن لجوء الرسل إلى ذلك يأتي -عادة- في مرحلة لاحقة.

○ من المحتمل أن يكون طغيان فرعون أحد أسباب الاستعانة بالآيات منذ البداية، كما أن موقعية السحر والشعوذة عند المصريين القدماء ومدخليتها في تفاصيل حياتهم، ولربما بصورة يومية أو شبه يومية، استدعى اللجوء إلى توظيف

١. سورة الشعراء: ٤١-٤٢.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ١٧٥-١٧٦.

- الآيات المبصرة من أول لقاء، فالدين عندهم مرتبط بالإيمان بالحوارق.
- أوصى الله موسى وهارون بمجموعة وصايا قبل دخولهما على فرعون، وأهمّها:
١. اعتماد الأسلوب اللين.
 ٢. المطالبة بإطلاق سراح بني إسرائيل والتوقف عن تعذيبه.
 ٣. توظيف الآيات المبصرة (المعاجز) لإقناع فرعون بمصادقية رسالتهم السماوية.
 ٤. إبلاغه رسالة تطمين بأن العذاب الإلهي إنما يصيب المكذب المعرض عن الحق عن مكابرة وجود.
- أعرض فرعون عن قبول الرسالة وكابر وجحد وعرض التحدي في يوم الزينة وذلك بالاستعانة بالسحرة.
- حيث كان للمصريين القدماء أعياد كثيرة، فلذا من الصعب الركون إلى أيّ من أقوال أهل التأويل في محاولتهم لتحديد المراد من يوم الزينة، وموقع الحدث أيضاً.
- اختلفت السردية التوراتية عن السردية القرآنية حول عدد لقاءات موسى وهارون بفرعون، ومجريات وتفاصيل الأحداث التي انتهت بقبول التحدي.
- تضمّنت مرويات المسلمين مبالغات كبيرة حول تفاصيل اللقاء، ولبعضها خلفيات في الموروثات اليهودية المختلفة.

في مواجهة السحرة

في مواجهة السحرة

• موضوعات هذا الفصل:

- ما الذي اتفق عليه السحرة قبل البدء في مواجهة النبي موسى؟
- عرض للآراء المختلفة حول طبيعة السحر الذي جاء به السحرة.
- إشكالات ابن قيم الجوزية حول التفسيرات العلمية لحيل السحرة، والرد عليها.
- الصور الأسطورية التي عكستها بعض المرويات في كتب المسلمين.
- وصف إيمان السحرة في القرآن الكريم، وخلق التوراة من الحديث عن إيمانهم، بل في تفاصيل الأحداث ما يدل على خلاف ذلك.
- ردّة فعل فرعون على إيمان السحرة، وموقفهم الصلب، ودلالات بعض ما نقله القرآن الكريم من عباراتهم.
- مناقشة ما أشار إليه القرآن الكريم من كون السحرة مُكرهين على السّحر.
- تأثير المشهد على مجموعة من شباب بني إسرائيل مما أدى إلى إيمانهم بالرسالة.

• بداية المواجهة:

توقفنا في الفصل السابق عند نقطة اتخذ قرار البدء بالمواجهة بين السحرة وموسى، وذلك بحضور الجماهير المحتشدة، سواء برغبة منها أم بالإجبار.

وهكذا، تواجه الطرفان في يوم الزينة، وبدأ السحرة ألأعييهم بمحاولة التأثير نفسياً على موسى وهارون والجماهير، وإظهار سيطرتهم على الأوضاع بالسماح لموسى بأن يبدأ هو العرض، كما أقسموا بعزة فرعون أنهم الغالبون:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا... ﴿١١٦﴾﴾^(١).

﴿فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿١١٧﴾﴾^(٢).

﴿... فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿١١٨﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿١١٩﴾﴾^(٣).

لا بد أن السحرة الذين قَدِموا من مدن مختلفة قد اتفقوا سلفاً على تكتيك المواجهة والحيل التي سيعتمدونها، كي لا يُفسد بعضهم على بعض ما خططوا له، وليكون تأثيرهم على الجماهير متناغماً وفي اتجاه واحد، لا يظهر معه أنهم متنافسون ومتنازعون فيما بينهم، بل خصمهم هو موسى وهارون فحسب.

• ما سبب خوف موسى؟

ولنا أن نتساءل عن سبب خوف موسى «عليه السلام» كما أخبرت بذلك الآية

١. سورة الأعراف: ١١٥-١١٦.

٢. سورة الشعراء: ٤٤.

٣. سورة طه: ٦٦-٦٧.

٦٧ من سورة طه، والمفترض أنه ابن القصر، وممارسة السحر وأمثال هذه الخدع كانت دارجة ومتكررة، بالإضافة إلى أنه عايش تجربة انقلاب العصا مرتين، وقد وعده الله بالغلبة، وقال له ولأخيه: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾^(١).

ولعل المسألة تعود إلى الطبيعة النفسية للنبي موسى كما نبهنا على ذلك أكثر من مرة، حيث أنه يتصف بشخصية انفعالية، ومن يكن هكذا يُحتمل أن يتصرف بهذه الصورة. وقد طرح الفخر الرازي عدّة احتمالات لتفسير ذلك، قال:

أحدها: أن ذلك الخوف إنما كان لما طُبِعَ الآدمي عليه من ضعف القلب، وإن كان قد علم موسى «عليه السلام» أنهم لا يصلون إليه وأن الله ناصره.

وثانيها: أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه، فيظنوا أنهم قد ساووا موسى «عليه السلام» ويشتبّه ذلك عليهم، وهذا التأويل متأكد بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾^(٢).

وثالثها: أنه خاف حيث بدأوا وتأخر اللقاء أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يُلقيه، فيدوموا على اعتقاد الباطل.

ورابعها: لعله كان مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي، فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل الوحي في ذلك الوقت، فيبقى في الحجالة.

وخامسها: لعله «عليه السلام» خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين، فلعل فرعون قد أعد أقواماً آخرين فيأتيه بهم، فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم،

١. سورة طه: ٤٦.

٢. سورة طه: ٦٨.

وهكذا، من غير أن يظهر له مقطع، وحينئذ لا يتم الأمر ولا يحصل المقصود^(١).

ثم نقل الفخر الرازي عن ابن عباس تفسيراً آخر لسبب الخوف، قال: (قال ابن عباس «رضي الله عنه»: ... ميلاً من هذا الجانب وميلاً من هذا الجانب فخيّل إلى موسى «عليه السلام» أن الأرض كلها حيات وأنها تسعى، فخاف).

وتحدّث الفخر الرازي أيضاً عن الطريقة التي من خلالها أزال الله الخوف من نفس موسى، قال: (ثم إنه «تعالى» أزال ذلك الخوف بالإجمال أولاً، وبالتفصيل ثانياً، أما الإجمال فقلوه «تعالى»: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾^(٢) ودلالته على أن خوفه كان لأمر يرجع إلى أن أمره لا يظهر للقوم، فأمنه الله «تعالى» بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ وفيه أنواع من المبالغة، أحدها: ذكر كلمة التأكيد وهي إن. وثانيها: تكرير الضمير. وثالثها: لام التعريف. ورابعها: لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة. وأما التفصيل فقلوه^(٣): ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ...﴾^(٤).

ولكن، لماذا قال له: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ...﴾^(٥)، ولم يقل مثلاً: (وألق عصاك)؟ هناك عدة إجابات محتملة:

١. تصغيراً لشأن العصا... ولكن لماذا يصغّر شأن العصا وهو بحاجة إلى ذهاب الخوف من نفسه؟ الجواب: لبيان أن ما سيجري من بطلان السحر هو بأمر الله وقدرته لا بالعصا.

١. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٨٢.

٢. سورة طه: ٦٨.

٣. سورة طه: ٦٩.

٤. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٨٣.

٢. تعظيماً لشأن العصا، أي لا تحفل بهذه العصي والحبال الكثيرة التي أخافتك، فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وأمر تلك العصي والحبال بسيط بالنسبة إليها.

٣. تذكير له بما جرى عند جبل الطور، فقد خاطبه حينذاك بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾... فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ ﴿١﴾؟ فكأنه يقول له: أتذكر كيف تحوّلت إلى حية حقيقية، وكيف خفت منها، كذلك الأمر هنا... هذه العصا ستبث الرعب في قلوبهم حين تتحول إلى ثعبان مبین يلقف عصيهم وحبالهم.

٤. ليس بالضرورة أن يكون الخطاب الإلهي لموسى قد توجّه إليه -فعلياً- بمثل هذه العبارة، بل هو أسلوب بياني قرآني باللغة العربية في حكاية الحدث، وقد لاحظنا مسبقاً اختلاف العبارات من سورة إلى أخرى في وصف الخطاب الواحد على الرغم من وحدة الحدث.

• ما كيفية السحر الذي قاموا به؟

وأياً كان الأمر، فإن ما جاءوا به من السحر لم يكن بسيطاً وساذجاً ليمّ اكتشاف ما فيه من خداع، وخفّة يد، ولربما بتوظيف بعض الخصائص الكيميائية والفيزيائية لبعض المواد، ومن خلال التأثير النفسي والبصري على الناس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١٦﴾ (٢).

قال المؤرخ اليعقوبي: (فأقاموا حيناً يعملون من جلود البقر حبلاً مجوّفة وعصياً مجوّفة، ويزوّنونها، ويصيرون فيها الزبيق، ثم أحموها المواضع التي أرادوا أن يلقوا فيها

١. سورة طه: ١٧، ٢٠-٢١.

٢. سورة الأعراف: ١١٦.

الجلال والعصي، ثم جلس فرعون، وأحضره، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم، فلما حمى الزبيق تحرك، ومشت الجبال والعصي^(١).

وقال ابن كثير: (وذلك أنهم أودعوها من الزبيق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يُخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جماعاً غفيراً وجمعاً كبيراً، فألقى كل منهم عصا وحبلًا حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً)^(٢).

وفي بحار الأنوار: (فألقوا حبالهم وعصيهم فإذا هي حيات كأمثال الجبال! قد ملأت الوادي، يركب بعضها بعضاً، تسعى)^(٣).

ولكن لابن قيم الجوزية رأي آخر، إذ رفض التفسيرات العلمية السابقة واحتمل إمكانية استعانة السحرة بالجن الشياطين، أو التأثير على بصر الناس بشكل مباشر، قال: (قال «تعالى» عن سحرة فرعون إنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٧٦﴾ فبيّن «سبحانه» أنّ أعينهم سُحِرَتْ، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الجبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حَرَكَتْهَا، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحرّكت بأنفسها، وهذا كما إذا جرّ من لا يراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصار والبساط ينجرّ، ولا ترى الجارّ له، مع أنه هو الذي يجرّه، فهكذا حال الجبال والعصي التبستها الشياطين فقلّبتها كتقلب الحية، فظنّ الراي أنها تقلّبت بأنفسها، والشياطين هم الذين يقلّبونها. وإما أن يكون التغيّر حدث في

١. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٣٥.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١٦٦.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤٩.

الرأي حتى رأى الحبال والعِصِيَّ تَتَحَرَّكُ وهي ساكنة في أنفسها، ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرَّف في نفس الرائي وإحساسه حتى يُريه الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرَّف في المرئي باستعانتة بالأرواح الشيطانية حتى يتصرَّف فيها. وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيتها مثل الزئبق وغيره حتى سعت فهذا باطل من وجوه كثيرة) وبدأ بعرض أسباب عدم قبول التفسيرات العلمية، وهي كالتالي:

١. لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس، ولا يُسمَّى ذلك سحراً بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال «تعالى»: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (١٦).

٢. لو كانت تحرَّكت بنوع حيلة - كما يقوله المنكرون - لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفى.

٣. لو كان ذلك بحيلة - كما قال هؤلاء - لكان طريقاً لإبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لا بتلاعها.

٤. مثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها حدّاق الصنّاع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والجزاء.

٥. لا يقال في ذلك «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ»، فإنّ الصناعات يشترك الناس في تعلّمها وتعليمها^(١).

١. ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، ج ٢، ص ٤٣٥.

ويبدو لي أن الإشكالات التي طرحها ابن القيم لا تصمد أمام النقد، فإنّ ما يحصل نتيجة الخدع الناشئة مثلاً عن التفاعلات الكيميائية والفيزيائية التي يجهلها الناس يمكن أن تُعتبر نوعاً من السحر والتخييل والخداع البصري، خاصة وأن حقيقة السحر وتعريفه مُختلف فيه، ومن أهل التحقيق مَنْ ينكر وجود سحر بمعنى التغيير أو التأثير في الحقائق الطبيعية بإرادة من الساحر، أو بالاستعانة بالجن والشياطين، ويفسّر ما يعتبره الناس سحراً من الأساس بأنه إما خداع بصري، أو خفة يد، أو تأثير عقلي من خلال بعض المهلوسات مثلاً، أو تأثير نفسي من خلال بعض الإيحاءات، أو ما شابه ذلك من الوسائل التي يوظفها (الساحر) لخدمة أغراضه التي يعتبرها الناس سحراً وتأثيراً وتغييراً حقيقياً.

وأما الحاجة إلى استخدام العصا لابتلاعها فكان بغرض الإتيان بآية مبصرة أملاً في أن يؤمن فرعون والملاّ والجماهير برسالة موسى وارتباطه بالغيب، ولو أبطل سحرهم بمجرد كشف طبيعة الخدعة الممارسة لما حقّق هذه الغاية، ولما صدّقه الناس في ادّعائه الرسالة من عند الله.

وادّعاء كفاية اللجوء إلى حدّاق الصنّاع فهو الذي جرى فعلاً، فقد لجأ فرعون إلى حدّاق هذه الصناعة، الذين كانوا يُطلقون على أنفسهم أنهم سحرة، وحقيقتهم أنهم من حدّاق الصنّاع في هذا المجال، وليس كل أحد بقادر على أن يصنع ما صنّعه، ولا أن يعرف أسرار صنّعتهم ويشترك في تعلّمها وتعليمها. ثم إن فرعون أراد أن يُفسد على موسى آية العصا باتهامه بأنه ساحر، كسحرته، ولذا تحدّاه بمن يحمل عنوان السحرة.

وأضيف هنا، إلى أن اتّخاذ العصي السحرية على هيئة الثعابين والحيات هو جزء من ممارسات السحرة في مصر القديمة، وتدّل على ذلك مجموعة من الجداريّات والرسومات

المثبتة في بعض البرديات، ويبدو من خلال ذلك أن العصي والحبال التي تم توظيفها لخداع الناس كانت على هذه الهيئة، وليست مجرد عصي وحبال مفتقدة للشكل والإيجاء المستهدف [انظر اللوحات ١٦-١٨].

• صور تهويلية خيالية:

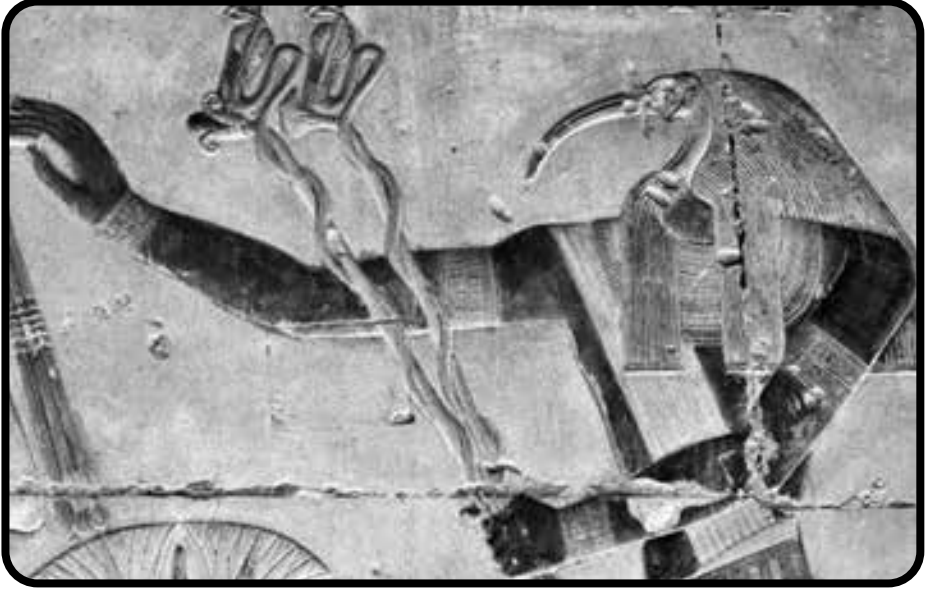
وأما مرويات المسلمين فقد قدّمت صوراً تهويلية خيالية لعدد السحرة والعصي والحبال ونوعية السحر الذي قاموا به، ومن نماذج ذلك:

١. تتمة خبر ابن إسحاق الذي ذكرناه في الفصل السابق وجاء به الطبري في تاريخه نقلاً عن روى عن وهب بن منبه اليماني، قال: (... وقد كان موسى وهارون خرجا من عنده حين أراهم من سلطان الله ما أراهم، وبعث فرعون مكانه في مملكته، فلم يترك في سلطانه ساحراً إلا أتى به؛ فذكر لي -والله أعلم- أنه جمع خمسة عشر ألف ساحر، فلما اجتمعوا إليه أمرهم أمره، فقال لهم: قد جاءنا ساحر ما رأينا مثله قط، وإنكم إن غلبتموه أكرمتمكم وفصلتكم وقربتكم على أهل مملكتي، قالوا: إن لنا ذلك عليك إن غلبناه! قال؟: نعم، قالوا: فعُدْ لنا موعداً نجتمع نحن وهو، فكان رؤوس السحرة الذين جمع فرعون لموسى: ساتور، وعادور، وحطحط، ومصفي؛ أربعة، وهم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله، فأمنت السحرة جميعاً...^(١).

٢. في بحار الأنوار للمجلسي نقلاً عن بعض الرواة: (كان فيهم اثنان وسبعون شيخاً قد انخنت ظهورهم من الكبر، وكانوا علماء السحرة، وكان رئيس جماعتهم أربعة نفر: سابور وعادور وحطحط ومصفا)^(٢).

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٤٠٧.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٥٠.



اللوحة رقم ١٦ : الإله (تحوت) مع عصي الشعبان. معبد سيتي الأول في أبيدوس



اللوحة رقم ١٧ : الكهنة يحملون عصا الشعبان. مقبرة سنوفر.



اللوحة رقم ١٨ : إلى اليمين: عصا الشعبان أمام الإلهة (سخت) سيدة الحرب،
إلى اليسار: الإله الجنائزي (نخبكاو) يحمل عصاتين على شكل شعبان.

٣. وفي بحار الأنوار أيضاً نقلاً عن بعض الرواة: (.... وكانوا قد جاؤوا بالعصي والحبال تحملها ستون بعيراً)^(١).

٤. وفي التفسير الكبير للفخر الرازي: (اختلفوا في عدد السحرة. قال القاسم بن سلام: كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد عصا وحبل. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً، مع كل واحد عصا وحبل، وقال وهب: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة: ثلثمائة من الفرس، وثلثمائة من الروم، وثلثمائة من الاسكندرية. وقال الكلبي: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، اثنان منهم من القبط، وسبعون

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤٨.

من بني إسرائيل، أكرههم فرعون على ذلك^(١).

٥. في كتاب (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) لمحمد الأمين الشنقيطي: (وقيل: كانوا مُجمَّعين على رئيس يقال له شمعون. وقيل: كان اسمه يوحنا^(٢)) معه اثنا عشر نقيباً، مع كل نقيب عشرون عريفاً، مع كل عريف ألف ساحر. وقيل: كانوا ثلاثمائة ألف ساحر من الفيوم، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلاثمائة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسعمائة ألف، وكان رئيسهم أعمى. وهذه الأقوال من الإسرائيليات، ونحن نتجنبها دائماً، ونقل من ذكرها، وربما ذكرنا قليلاً منها منبِّهين عليه^(٣)).

وهكذا نلاحظ أن كل واحد من القصّاصين وأمثالهم يزيد من كيسه ما يشاء من أرقام ليضخم العدد في نهاية المطاف إرضاءً لفضول القارئ أو المستمع، أو رغبةً في تحريف القصة لغرض في نفسه، أو سعيًا وراء كسب المال بدفع الناس للإقبال على قصصه والاسترزاق من وراء ذلك، وغيرها من الدواعي التي قد يحاسبهم الله عليها لافتراءهم وكذبهم إن كانوا قد قالوا ذلك عن علم وعمد.

وأحسن الفخر الرازي إذ علّق بعد نقل بعض الأقوال في الباب قائلاً: (واعلم أن الاختلاف والتفاوت واقع في عدد كثير، وظاهر القرآن لا يدلّ على شيء منه، والأقوال إذا تعارضت تساقطت)^(٤).

١. الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٨٣.

٢. يقول القرآن الكريم أن النبي (يحيى = يوحنا) هو أول من حمل هذا الاسم: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ سورة مريم: ٧، وقد ولد بعد هذه الأحداث بأكثر من ألف سنة، فكيف يكون اسم رئيس السحرة يوحنا؟

٣. الشنقيطي: أضواء البيان، ج ٤، ص ٣٦.

٤. الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٨٣.

• وصف ثعبان موسى:

تمالك موسى «عليه السلام» نفسه، وقبل أن يلقي عصاه، قام بدوره باستباق الحدث بإعلان غلبة الآية الإلهية على السحر: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٠﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨١﴾﴾^(١) فالهدف من الآية هداية الناس وتنبيههم إلى ما هم عليه من باطلٍ وفسادٍ رأيٍ وعملٍ، ليهتدوا إلى الصلاح... والآية حق، بينما السحر من الباطل، والباطل لا يمكن له أن يصمد أمام الحق. ثم إن الإتيان بالآيات من عمل المصلحين، والسحر من عمل المفسدين.

وهذا الإعلان الذي جاء به موسى «عليه السلام» يقابل المحاولة السابقة للسحرة للتأثير على الجماهير حين أقسموا بعزة فرعون أنهم الغالبون. فهو سعي من موسى للتأثير في الجماهير وفي فرعون والسحرة أنفسهم وتهيئتهم للوصول إلى النتيجة المرجوة، وهي الإيمان برسالته، فليست الغاية من الآيات الإلهية الفوز في المعارك وتسجيل النقاط على الطرف الآخر، بل هداية الناس إلى حقيقة التوحيد والنبوة والرسالة:

وهكذا، ألقى موسى عصاه، فإذا بها تتحول -مجدداً- إلى ثعبان حي مُبين، تحرك وقام بابتلاع العصي والحبال التي خُذع بها الحضور وحسبوها قد تحولت إلى كائنات حية متحركة. والملاحظ أن القرآن الكريم عند حديثه عن انقلاب العصا هذه المرة لم يذكر أنها تحولت إلى حية أو جان أو ثعبان، واكتفى بذكر ما قامت به:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٨٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ

وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ (١).
 ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
 حَيْثُ أَتَى﴾ (٦٩) (٢).
 ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُفُونَ﴾ (٤٥) (٣).

وننتقل الآن إلى مرويات المسلمين التي كرّرت تضخيم وتهويل الحدث بشكل خيالي كما فعلت بخصوص عدد السحرة وعدد الحبال والعصي وما جرى على يد السحرة:

١. في بحار الأنوار للمجلسي: (وألقى عصاه من يده فإذا هي ثعبان مبین، كأعظم ما يكون، أسود مُدْلَهْم، على أربع قوائم قصار غلاظ شداد) [انظر اللوحة رقم ١٩] (وهو أعظم وأطول من البُخْتِي) (٤)، وله ذَنْب يقوم عليه، فيشرف فوق حيطان المدينة، رأسه وعنقه وكاهله، لا يضرب ذنبه على شيء إلا حَظَمَه وقصمه، ويكسر بقوائمه الصخور الصُّم الصَّلاب، ويطحن كل شيء، ويضرم حيطان البيوت بنفسه ناراً، وله عينان تلتهبان ناراً، ومنخران تنفخان سموماً، وعلى مفرقه شعر كأمثال الرماح، وصارت الشعبتان له فماً سَعْتُهُ اثنا عشر ذراعاً (٥)، وفيه أنياب وأضراس، وله فحيح وكشيش وصرير وصريف، فاستعرضت ما ألقى السحرة من حبالهم وعصيتهم وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس، تسعى تلقفها وتبتلعها واحداً واحداً، حتى ما يُرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، وانهزم الناس فرعين هاربين منقلبين، فتزاحموا

١. سورة الأعراف: ١١٨-١١٩.

٢. سورة طه: ٦٩.

٣. سورة الشعراء: ٤٥.

٤. البُخْتِي: الإبل الخراسانية ذوات السنامين.

٥. أي قرابة ٦ أمتار.



اللوحة رقم ١٩ : من رسومات الكتاب المقدس، للفنان جيرارد هويت وآخرون
نُشر الكتاب في لاهاي عام ١٧٢٨م. ويلاحظ تصوير الشعبان بقوائم كما يُصوّر
التّنين في الشّقافة الصينية مثلاً.

وتضاغطوا ووطأ بعضهم بعضاً حتى مات منهم يومئذ في ذلك الزحام ومواطيء الأقدام خمسة وعشرون ألفاً، وانهزم فرعون فيمن انهزم منخوباً^(١) مرعوباً عازباً عقله، وقد استطلق بطنه في يومه ذلك عن أربعمئة جلسة! ثم بعد ذلك إلى أربعين مرة في اليوم واللييلة على الدوام إلى أن هلك^(٢).

٢. وفي نفس المصدر: (وخرج موسى «عليه السلام» راجعاً إلى قومه، والعصا على حالها حية تتبعه وتُبصّب حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألف ب صاحبه، والناس ينظرون إليها ينخزلون^(٣) ويتضاغطون، حتى دخل موسى عسكر بني إسرائيل وأخذ برأسها فإذا هي عصاه كما كانت أول مرة^(٤)).

٣. وفي التفسير الكبير للفخر الرازي: (قال ابن عباس «رضي الله عنه»: ... فلما قيل له: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ ألقى موسى عصاه فإذا هي أعظم من حيّاتهم، ثم أخذت تزداد عِظْماً حتى ملأت الوادي، ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القُبّة، ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا في المِيلين، والناس ينظرون إليها، لا يحسبون إلا أنه سحر. ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعاً^(٥)، فصاح بموسى «عليه السلام»^(٦)، فأخذها، فإذا هي عصا كما كانت^(٧)).

١. نخب: كان منزوع الفؤاد جباناً، والمنخوب: الجبان الذاهب القلب.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٤٩.

٣. انْخَزَلَ فلانٌ عن الأمر: ارتدَّ وَضَعَفَ.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٥٠.

٥. أي قرابة ٤٠ متراً.

٦. أي أن فرعون استنجد بموسى.

٧. الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٨٣.

• إيمان السحرة:

تحدّث القرآن الكريم -وبما لا يدع مجالاً للّبس والتشكيك- أن السحرة أعلنوا إيمانهم في تلك المواجهة، ليقينهم بأن ما جاء به موسى لا علاقة له بكل أنواع السحر التي عهدوها وتعلّموها، وأنه استطاع فعلاً أن يحوّل العصا الجامدة إلى كائن حي حقيقي، وليس مجرد خداع بصري، أو بتأثير نفسي أو عقلي، ولذا فقد أدركوا أنها آية من آيات الله «تعالى»، ودليل على صحة دعوى موسى بأنه رسولٌ من عند الله، وليس مفترياً على الله.

من هنا، بادروا إلى السجود تعبيراً عن التذلّل والخضوع لله «سبحانه»، الرب الذي دعا إليه موسى وهارون، وأعلنوا إيمانهم بالرسالة والرسول:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾^(١).

﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿١٢٣﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾^(٢).

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٨﴾﴾^(٣).

قال الفخر الرازي تعليقاً على المشهد الذي قدّمته الآيات الشريفة: (ونظرت السحرة

١. سورة الأعراف: ١١٧-١٢٣.

٢. سورة طه: ٦٩-٧٠.

٣. سورة الشعراء: ٤٥-٤٨.

فإذا هي لم تدع من حبالهم وعصيتهم شيئاً إلا أكلته، فعرفت السحرة أنه ليس بسحر، وقالوا: أين حبالنا وعصينا؟ لو لم تكن سحراً لبقيت، فخروا سجّداً وقالوا: ﴿أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨﴾.... وقد حُكي عن السحرة أنهم عند التلقّف أيقنوا بأن ما جاء به موسى «عليه السلام» ليس من مقدور البشر من وجوه:

أحدها: ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة.

وثانيها: زيادة عِظَمِهِ على وجه لا يتم ذلك بالحيلة.

وثالثها: ظهور الأعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها، ولا يتم ذلك بالحيلة.

ورابعها: تلقّف جميع ما ألقوه على كثرته، وذلك لا يتم بالحيلة.

وخامسها: عودُه خشبةً صغيرةً كما كانت، وشيء من ذلك لا يتم بالحيلة.

ثم بيّن «سبحانه وتعالى» أن ما صنعوا كيد ساحر، والمعنى أن الذي معك -يا موسى- معجزة إلهية والذي معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض^(١).

وهناك عدة ملاحظات بيانية وبلاغية ولغوية ترتبط بالبيان الإلهي لردّة فعل السحرة عندما تفاجأوا بانقلاب عصا موسى إلى ثعبان حقيقي، فبخصوص آيات سورة الأعراف قال العلامة ابن عاشور ما ملخصه:

١. سجود السحرة متأخّر عن مصيرهم صاغرين، ولكنه متأخّر بزمان قليل وهو زمن انقذاح الدليل على صدق موسى في نفوسهم، فإنهم كانوا أعلم الناس بالسحر فلا يخفى عليهم ما هو خارج عن الأعمال السحرية، فلذلك سجدوا.

١. الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٨٥.

٢. كان هذا خاصاً بهم دون بقية الحاضرين، فلذلك جيء بالاسم الظاهر دون الضمير لئلا يلتبس بالضمير الذي قبله الذي هو شامل للسحرة وغيرهم.

٣. الإلقاء مستعمل في سرعة الهوي إلى الأرض، أي لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريث ولا تردد.

٤. بُني فعل الإلقاء للمجهول لظهور الفاعل، وهو أنفسهم، والتقدير: (وَأَلْقَوْا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ) ^(١).

٥. قصدوا من قولهم ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(١٢٢) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٣﴾ الإعلان بإيمانهم بالله، لئلا يظن الناس أنهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادة القبط السجود لفرعون، ولذلك وصفوا الله بأنه رب العالمين بالعنوان الذي دعا به موسى «عليه السلام»، ولعلمهم لم يكونوا يعرفون اسماً علماً لله «تعالى»، إذ لم يكن لله اسم عندهم، وقد عُلم بذلك أنهم كفروا بإلهية فرعون.

٦. وزادوا هذا القصد بياناً بالإبدال من ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(١٢٢) قولهم ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ^(١٢٣) لئلا يُتوهم المبالغة في وصف فرعون بأنه رب جميع العالمين.

وعند مقارنة ما جاء في وصف الحدث بين سورتي الأعراف وطه، لاحظ ابن عاشور تقديم هارون على موسى في سورة طه: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ^(٧٠)، قال:

٧. تقديم هارون على موسى هنا وتقديم موسى على هارون في سورة الأعراف لا دلالة فيه على تفضيل ولا غيره، لأنَّ الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مطلق الجمع في الحكم

١. ولعله جيء بصيغة المبني للمجهول للإشارة إلى أن تأثير الآية الإلهية هو الذي أجبرهم على أن يسجدوا بهذه الصورة السريعة، ولو كان ذلك راجعاً إليهم لما سجدوا.

المعطوف فيه، فهم عرفوا الله بأنه ربّ هذين الرجلين فحكى كلامهم بما يدلّ على ذلك. ألا ترى أنه حكى في سورة الأعراف ١٢١ قول السحرة ﴿أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يحك ذلك هنا، لأن حكاية الأخبار لا تقتضي الإحاطة بجميع المحكي، وإنما المقصود موضع العبرة في ذلك المقام بحسب الحاجة.... ويجوز أن يكون تقديم هارون في هذه الآية من حكاية قول السحرة، فيكون صدر منهم قولان، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتباراً بكبر سنّه، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتباراً بفضلّه على هارون بالرسالة وكلام الله «تعالى»، فاختلفا العبارتين باختلاف الاعتبارين^(١).

ملاحظة: يبدو لي أن المسألة ترتبط بمراعاة النظم وإيقاع خواتيم الآيات الشريفة، ففي سورة الأعراف كانت الخواتيم بالنون: ١١٧: يَأْفِكُونَ، ١١٨: يَعْمَلُونَ، ١٩٩: صَاغِرِينَ، ١٢٠: سَاجِدِينَ، ١٢١: الْعَالَمِينَ، ١٢٢: مُوسَى وَهَارُونَ.... وفي سورة طه كانت الخواتيم بالألف المقصورة: ٤٣: طَغَى - ٤٤: يَخْشَى - ٤٥: يَظْفَى - ٤٦: وَأَرَى ٦٤: اسْتَعْلَى - ٦٥: أَلْقَى - ٦٦: تَسْعَى - ٦٧: مُوسَى - ٦٨: الْأَعْلَى - ٦٩: أَتَى - ٧٠: هَارُونَ وَمُوسَى.... إلخ

كل ما سبق بحسب القرآن الكريم، وأما السردية التوراتية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لإيمان السحرة بتاتا ضمن هذا المشهد، كما أنها تقدّم تحوّل عصا موسى (هارون) قبل عصي السحرة، ولا ذكر للحيال: (١٠) فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلَا هَكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِيبْدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا. ١١ فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ. ١٢ طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثُعَابِينَ. وَلَكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَهُمْ^(٢).

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ٥٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٠-١٢.

تكتفي التوراة بهذا القدر، ولا تقدم تفاصيل أخرى عما جرى بعد ذلك سوى عناد فرعون واستكباره وعدم رضوخه للحق المبين: (١٣) فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ^(١).

بل يبدو من تتمة السردية التوراتية أنهم استمروا على كفرهم ومساندتهم لفرعون الذي استمر في الاستعانة بهم: (١٩) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ.... لِتَصِيرَ دَمًا.... ٢٢ وَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ كَذَلِكَ بِسِحْرِهِمْ. فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ^(٢).

نعم، في أثناء حدوث الآيات، يعترف السحرة أن ما يأتي به موسى هو بفعل الله، وليس من فعل البشر: (١٩) فَقَالَ الْعَرَّافُونَ لِفِرْعَوْنَ: «هَذَا إِصْبَعُ اللَّهِ»^(٣).

ويتكرر حضورهم واستعانة فرعون بهم في الآيات اللاحقة التي سيشهدها فرعون، ومع هذا يستمر على كفره وطغيانه، وسنتعرض لهذه التفاصيل لاحقاً بإذن الله.

ويشرح (القُمص أنطونيوس فكري) خصوصية آية العصا وتحولها إلى حية دون أي نوع آخر من الكائنات الحية حيث قال: (الحية تشير عند المصريين للقوتين الإلهية والملوكية، وكان ملوك مصر يضعون حية على تيجانهم. وكون أن حية موسى أكلت باقي الحيات، فهذا رمز لتسلط الله على آلهتهم. وحية موسى هي حية حقيقية، وهي معجزة ظهرت فيها قوة الله، لكن حيات السحرة ما هي إلا خداعات وأوهام من الشياطين [فالشیطان قادر أن يظهر نفسه على هيئة ملاك نور لكي يخدع البسطاء

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٩-٢٢.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٩.

«٢كو١١:١٤»^(١) ولذلك فقد اختفت حيات السحرة أمام حيّة موسى، فكيف يقف الوهم أمام قوة الله الحقيقية = عصا هارون ابتلعت عصيهم. والعصا سُمّيت عصا الله، وعصا موسى، وعصا هارون^(٢).

• آية واحدة أم عدة آيات؟

ذكر السحرة - كما نقل عنهم القرآن الكريم- أنهم آمنوا من خلال (البيّنات) و(الآيات) على الرغم أن كل ما شاهدوه هو آية واحدة تمثّلت في انقلاب العصا إلى ثعبان ابتلع حبالهم وعصيهم... فكيف يصحّ ذلك؟ ففي سورة الأعراف: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا...﴾^(٣)، وفي سورة طه: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ...﴾^(٤).

قال العلامة الطباطبائي: (تلويح إلى أنهم عدّوا ما شاهدوه من أمر العصا آيات عديدة، كصيرورتها ثعباناً، وتلقّفها الحبال والعصي، ورجوعها ثانياً إلى حالتها الأولى، ويمكن أن يكون «من»^(٣) للتبويض، فيفيد أنهم شاهدوا آية واحدة وآمنوا بأن لله آيات أخرى كثيرة. ولا يخلو من بُعد)^(٤).

• موقف فرعون:

في هذا المشهد من المواجهة بين موسى وهارون من جهة، والسحرة من جهة أخرى،

١. الكتاب المقدس: العهد الجديد، رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١١: ١٤.
2. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/02-Sefer-El-Khoroug/Taf-seer-Sefer-El-Khroug__01-Chapter-07.html#1

٣. في قوله تعالى: ﴿... مِنَ الْبَيِّنَاتِ...﴾.

٤. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١٨٢.

يخبرنا القرآن الكريم عن الموقف الاستكباري والمعاند لفرعون:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾^(١).

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿١٢٦﴾﴾^(٢).

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٨﴾﴾^(٣).

ويمكن تلخيص ردّة فعله ضمن نقاط:

١. استنكار إيمانهم بموسى قبل الاستئذان منه والسماح لهم بذلك.
٢. اتّهامهم بالتآمر المسبق ضده بنفس ما اتهم به موسى.
٣. التّهمة سياسية في المقام الأول، وليست دينية، وهي ترتبط بمحاولة الانقلاب على الحكم وتسليمه لبني إسرائيل، أو لحلفائهم في الخارج.
٤. اتّهامهم بالاتفاق مع موسى «عليه السلام» على كيفية إخراج هذه (المسرحية) أمام الجماهير، وذلك بالاتفاق معه على نوعيّة السحر المقدّم من قبلهم، وما سيقدمه

١. سورة الأعراف: ١٢٣-١٢٤.

٢. سورة طه: ٧١.

٣. سورة الشعراء: ٤٩.

موسى ليغلبهم في الظاهر، بل واعتبار موسى الساحر الأكبر الذي علّمهم السحر فخضعوا له ولمؤامرتة. وقد يُستشف من التّهمتين أنّ السحرة كانوا من بني إسرائيل، لا من المصريّين، وإلا فما علاقة السحرة المصريين بموسى؟

٥. تهديد السحرة بالعقوبة المغلّظة المتمثلة في قطع الأيدي والأرجل بشكل متعاكس

٦. الوعيد بالصلب على جذوع النخل، مع التشديد والمبالغة في ذلك، من خلال:

(أ) الكيفية بشدّة الدقّ على الأعواد.

(ب) طول المدة التي قد تمتدّ إلى حدّ الموت، ولذلك قال: ﴿... وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ...﴾ فاستعمل حرف (في) وليس (على)، وذلك لبيان شدة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكّن الشيء الواقع في وعائه.

• ردة فعل السحرة:

عرض القرآن الكريم موقفاً عجبياً وصلباً من السحرة بعد تهديدهم بالعقوبات المغلّظة، وهو ما يثير تساؤلاً حول ما وراء هذا الموقف على الرغم من أنه لم يمض على إيمانهم سوى مدة زمنية وجيزة جداً، ولربما بضعة دقائق، كما أنهم ينتمون إلى طائفة تمتن واحدة من أزدل الأعمال وأخسّها.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾^(١).

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٢٧﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ

السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ (١).

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَنظُمُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَا أَنْ كُنَّا
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ (٢).

ما نقله القرآن من كلامهم يتضمّن:

١. الثّبات على الإيمان بالله وحده.
٢. الإيمان بالآخرة والحساب والثواب والعقاب وفقاً للمعتقد السليم.
٣. الإيمان بالرسول والرسالة من خلال الإيمان بآيات الله التي جاءتهم.
٤. تقديم كل ذلك على رضا فرعون.
٥. الاستعداد التام للوقوع تحت طائلة العقوبات التي هدّدهم بها فرعون.
٦. البصيرة بشأن الدنيا والآخرة، فالأولى زائلة دنيّة والثانية باقية.
٧. التطلّع إلى مغفرة الله «تعالى» بسبب ما قدّمت أيديهم من خطايا، ومن ذلك ممارستهم السحر.
٨. الإخلاص لله «تعالى» في موقفهم هذا في إعلان توبتهم ووقوفهم أمام جبروت فرعون ومخالفته.
٩. الاعتزاز بكونهم أوّل من آمن بموسى من خلال هذه المواجهة.
١٠. الدعاء لله بأن يثبّتهم ويصبرّهم في محنتهم القادمة.

١. سورة طه: ٧٢-٧٣.

٢. سورة الشعراء: ٥٠-٥١.

١١. الدعاء لله بأن لا يغادروا هذه الدنيا إلا وهم مسلمون.

١٢. اشتياقهم للموت ولقاء الله.

ولولا وضوح الآيات في أنّ إيمانهم تمّ بعد المنازلة، لقلنا بأن مجموع النقاط السابقة توجي للمتدبر وكأنها تؤيد اتهام فرعون لهم بأنهم متآمرون سلفاً مع موسى «عليه السلام»، وأنهم -بحسب فرعون- أعدّوا مشهداً تمثيلاً للتحدّي بين ما جاءوا به وما جاء به موسى لإقناع الناس بصدق رسالته. وإلا، فإنّ هذا العمق في المفاهيم، والثبات في الإيمان، والاستعداد للتضحية والتعذيب والموت بأبشع الطرق، والاجتماع على ذلك من قبلهم كلهم أمرٌ يعجب له الإنسان، وأتّى له أن يتحقق في لحظات، وبهذا المستوى؟

وقد ذهب ابن عاشور إلى أن ذلك كان بإلهام من الله «تعالى» لهم في تلك اللحظة الإيمانية الصادقة، قال: (وذكرهم الإسلام في دعائهم يدل على أن الله ألهمهم حقيقته التي كان عليها النبيون والصديقون من عهد إبراهيم «عليه السلام». والظاهر أن كلمة «مُسْلِمِينَ» تعبير القرآن عن دعائهم بأن يتوفاهم الله على حالة الصديقين، وهي التي يجمع لفظ الإسلام تفصيلها)^(١).

وإلى مثل ذلك أشار العلامة الطباطبائي في معرض تفسيره للآية الشريفة: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٢)، قال: (كلام بليغ في منطوقه، بالغ في مفهومه، بعيد في معناه، رفيع في منزلته، يغلي ويفور علماً وحكمة، فهؤلاء قوم كانوا قبل ساعة وقد ملأت

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٩، ص ٥٧.

٢. سورة طه: ٧٢.

هيبةُ فرعون وأبْهَتْهُ قلوبُهم، وأذَلَّتْ زِيناتُ الدنيا وزخارفُها التي عنده -وليسَتْ إلا أكاذيبَ خيالٍ وأباطيلَ وهمٍ- نفوسَهم، يسمّونه ربّاً أعلى، ويقولون حينما ألقوا حبالهم وعصيهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، فما لبثوا دون أن ظهرت لهم آياتُ الحق، فبهَرَتْ أَبْصَارَهم، فطاحت عند ذلك ما كانوا يرون لفرعون من عِزَّةٍ وسلطان، ولما عنده من زينة الدنيا وزخرفها مِن قَدَرٍ ومنزلة، وَغَشِيَتْ قلوبَهم فأزالت منها رذيلةَ الجبن والمَلَقِ واتباع الهوى والتولّهِ إلى سرابِ زينةِ الحياةِ الدنيا، ومكّنت فيها التعلّقَ بالحقِّ، والدخولَ تحت ولاية الله، والاعتزازَ بعِزَّتِهِ، فلا يريدون إلا ما أَرَادَهُ اللهُ، ولا يرجونَ إلا الله، ولا يخافونَ إلا الله «عَزَّ اسمُهُ»^(١).

• هل كان السحرة مُكرهين على ممارسة السحر؟

وفي ضمن كلامهم، أشار السحرة إلى أنهم كانوا مُكرهين من قبل فرعون على ممارسة السحر، فما معنى هذا؟ ألم يكونوا سحرة محترفين؟

من الواضح أنهم لم يكونوا مُكرهين مطلقاً على ممارسة السحر، بل بخصوص مواجهة موسى «عليه السلام»... فما السبب؟ قال العلامة الطباطبائي: (وفيه دلالة على أنهم أكرهوا عليه، إما حين حُشروا إلى فرعون من خلال ديارهم، وإما حين تنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى، فحُمِلوا على المقابلة والمغالبة)^(٢).

ولربما كانوا كارهين لذلك سلفاً، إما بسبب معرفتهم السابقة بموسى من خلال كونهم من بني إسرائيل، وقد عهدوه في ماضي شبابه قبل أن يهرب إلى مدين، وعرفوا إيمانه وشهامته ودفاعه عن قومه، وأنه لا يمكن أن يكون من طائفة السحرة

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ١٨٠.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ١٨١.

والمشعوذين والدجالين، أو من أصحاب المصالح الشخصية، أو لعلهم سمعوا كلاماً حول ما جرى في بلاط فرعون قبل المنازلة، وأدركوا من خلال انطباعات وكلمات الشهود أنّ ما جاء به موسى ليس من صنف أعمال السحرة، فأدركوا أو احتملوا أن في كلامه شيئاً من المصادقية.

• هل نفّذ فرعون تهديداته؟

هل عاقب فرعون السحرة لاحقاً ونفّذ وعيده؟ لا يوجد في القرآن الكريم ما يدلّ صراحةً على ذلك أو ما ينفيه، ولكنّ بعض المفسرين استفادوا من بعض الآيات ما يدل على انصرافه عن ذلك.

قال ابن عاشور: (وقد انخذل بذلك فرعون، وذهب وعيده باطلاً، ولعله لم يُحقّق ما توعدّهم به، لأنّ الله أكرمهم فنجّاهم من خزي الدنيا كما نجّاهم من عذاب الآخرة. والقرآن لم يتعرّض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه، للإخبار عن وقوع ما توعدّهم به فرعون، لأنّ غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة، وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلّبهم في إيمانهم بعد تعرّضهم للوعيد بنفوس مطمئنة، وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما قال في سورة النازعات: ٢٦ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾، باختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية. والظاهر أن فرعون أفحم لمّا رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يردّ جواباً^(١)).

ومن المنطقي أن يتدخل موسى وهارون في هذه اللحظات الحاسمة التي تحقّق فيه لهما النصر المبين وبحضور جماهيري كبير، وفي يوم عيد، ليطلبوا من فرعون أن لا

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٩، ص ٥٧.

ينفّذ العقوبة بحقّ السحرة، ولربما ساندتهما الجماهير الحاضرة التي من المفترض أنها تفاعلت مع المشهد المذهل الذي تحقق بما لم يُعهد له مثيل مطلقاً، ومن عادة الجماهير التفاعل مع المنتصر بشكل كبير وضغط، وهو ما لربما أخرج فرعون، فعاد عن قرار العقوبة المغلّظة بشأن السحرة.

وأما التوراة، فإنها تذكر أن السحرة (العَرَّافين) استمروا في خدمة فرعون، ولم يؤمنوا بموسى ورسالته، وأن فرعون وظّفهم في مواجهة الآيات التي جاء بها موسى «عليه السلام» لاحقاً كآيتي الجراد والضفادع وغيرهما، وأنهم كانوا يفعلون بسحرهم ما يضادّ وظيفة تلك الآيات، مما كان يشدّ من قلب فرعون ويدفعه نحو مزيد من الاستكبار، ويصوّر لعامة الناس أن ما يتحقق على يد موسى «عليه السلام» من آيات لا يعدو أن يكون سحراً كسحرهم، وأنه -على هذا- ليس رسولاً من عند الله، ولا مُسدّداً من الغيب بهذه الآيات!

ولاشك أنّ هذا التصوّر الذي تُقدّمه التوراة يتصادم مع حقيقة ومفهوم الآية التي يجب أن لا تكون مشابهة لفعل البشر، ولا أحد قادر على أن يأتي بمثلها، مهما تعلّم السحر أو عرف أسرار وقوانين العلوم الفيزيائية والكيميائية وغيرهما، ووظّفها في هذا الاتجاه، لأنه يُفترض بالآيات أن تكون دليلاً على صحة الرسالة، ومصادقية الرسول في قوله بأنّه مبعوث من قبل الله «تعالى»، وإلا لبطلت الغاية من الآيات، وكان الإتيان بها نقضاً للغرض، وكانت ذات مردود سلبي على الرسول نفسه.

وأما القرآن الكريم، فقد اكتفى ببيان دور السحرة عند هذا الحد، ولم يُطلعنا على المزيد من أحوالهم وما جرى لهم، ولا يوجد في القرآن أن أحداً -من نفس السحرة أو غيرهم- قد عارض الآيات، أو أبطلها، أو جاء بمثل لها، على خلاف ما ذكرت التوراة

• إيمان مجموعة من الشباب:

وهكذا انتهت المواجهة بين فرعون والملاً والسحرة من جهة ، وبين موسى وهارون من جهة أخرى، بانتصار الطرف الثاني انتصاراً مبهماً دفع السحرة للاعتراف بالهزيمة وإعلان الإيمان بالرسالة، وأثار فرعون بشدة مما دفعه للتهديد والوعيد دون أن يتغير موقف السحرة أو يؤثر فيه، بل زادهم صلابة وثباتاً.

وقد أعطى هذا النصر المبين دفعة قوية لفئة الشباب من بني إسرائيل للإيمان بالرسالة، والانضمام إلى حركة موسى وهارون الرامية للتخلص من العبودية لفرعون، والخروج من مصر، ومواجهة طغيان فرعون وجلاوزته وجبروتهم. وأما كبار السن، فإن القرآن الكريم يُوحى لنا بأنهم لم يتفاعلوا مع الحدث بالمستوى المطلوب، وكأنها صورة مقاربة لما عانى منه النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» في مكة، حيث تحمس عدد من شباب قريش للرسالة، بينما صد عنها غالبية المتقدمين سناً.

ولعلها -ضمنياً- رسالة مواساة للنبي بأن هذه هي سنة التاريخ في حركة الرسالات، فمن هم أكبر سنّاً يصعب عليهم هجران ما كانوا عليه، والتغاضي عن موروثاتهم وما اعتادوا عليه طوال حياتهم من معتقدات وعبادات وعادات وتقاليدهم، ليتحولوا إلى أخرى، لاسيما إذا كانت ستكلفهم الكثير وسيعانون من خلالها، كما هو الحال في قصة رسالة النبي موسى «عليه السلام» في مواجهة فرعون وطغيانه.

بل إن نفس هذه الفئة التي آمنت برسالة موسى أبدت أو ظهر منها الخوف من ردة فعل فرعون وجلاوزته بممارسة أنواع المطاردة والاعتقال والتعذيب إلى المستوى الذي يفوق التحمل، والقرآن الكريم يؤكد على الحقيقة الدموية لهذا الطاغوت لاستكباره وإسرافه في ارتكاب الجرائم بحق المستضعفين: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ

قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ (١).

وفي استعمال كلمة ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾ عطفًا على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ دلالة على أن المؤمنين بالرسالة كانوا يخافون أيضاً من ملأ بني إسرائيل، وهم كبار القوم وشيوخهم ومن يمالئ فرعون ويعمل تحت إمرته، وقد مرّ معنا أثناء استعراض كيفية تسخير فرعون لبني إسرائيل أنه قد عيّن على العمال المسخّرين منهم مجموعة من المسؤولين من قومهم، ثم جعل على هؤلاء المسؤولين على العمال مسئولين من المصريين أنفسهم. ولم يكن أولئك المسئولون من بني إسرائيل أقلّ عُنفًا من رؤسائهم المصريين تجاه العمال والمسخّرين. وقد ذكرنا من قبل أن إيمان مجموعة من فئة الشباب من بني إسرائيل فحسب يتعارض مع ما ذكرته التوراة من أن موسى عرض أمره على شيوخ بني إسرائيل وكبار قومه فصّدّقوا برسالته وآمنوا به ونصروه، وهكذا فعل سائر بني إسرائيل.

وعلى إثر التفاف الشباب حول موسى وإعلانهم الاستعداد للانضمام إلى حركته الرسالية، خاطبهم بلسان القائد الحريص عليهم وعلى نجاح حركته، مقدّمًا لهم مجموعة من الوصايا: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) (٢).

لقد طلب منهم التوكّل على الله «سبحانه» معلّقًا ذلك على أمرين، الإيمان بالله والتسليم له، وكأنه يقول لهم: ما دمتم مؤمنين بالله وأسلمتم أمركم إليه، فتوكّلوا عليه، ويأتي ذلك بلحاظ أن المحنة قادمة لا محالة، فرعون لن يتركهم وشأنهم، لاسيما وأنه

١. سورة يونس: ٨٣.

٢. سورة يونس: ٨٤.

يتهم موسى وهارون بتهم سياسية ترتبط برغبتهما في الانقلاب على الحكم، وطرد أهل مصر منها.

وكانت ردّة فعل الفئة التي آمنت بموسى إيجابية: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾^(١).

فهم يطلبون من الله «تعالى» أن لا يجعلهم في موقع الاستضعاف الذي يُغري المستكبرين لمزيد من القهر وممارسة التنكيل والتطاول عليهم، كما دعوا الله «سبحانه» أن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين وما يُمكن أن يلحقوه بهم من أذىً بليغ، قد يصل إلى حدّ ما هدد به فرعون السحرة بعد إيمانهم، ومن له طاقة بذلك؟

• نتائج الفصل وخلاصته:

○ بدأ السحرة أَلَاعِبَهُمْ بمحاولة التأثير نفسياً على موسى وهارون والجماهير، وإظهار سيطرتهم على الأوضاع إذ خيروا موسى بالبدء، كما أقسموا بعزة فرعون أنهم الغالبون سلفاً.

○ ما جاءوا به من السحر لم يكن بسيطاً وساذجاً ليسهل اكتشافه، ولربما وظّفوا بالإضافة إلى خفة اليد بعض الخصائص الكيميائية والفيزيائية لبعض المواد.

○ اعتبر ابن قيم أن ما أجراه السحرة لم يكن من أنواع خفة اليد أو توظيف الخصائص الكيميائية، بل إما استعانة بالجن أو تأثير مباشر على أبصار المشاهدين.

○ تضمّنت بعض المرويات في كتب المسلمين صوراً أسطورية ارتبطت بعدد السحرة وما أُلقي من حبال وعصي، والتصورات الخيالية لحجم وقوة ثعبان موسى.

- لم تتطرق التوراة إلى إيمان السحرة بعد هزيمتهم في المواجهة، كما تضمّنت السردية التوراتية اختلافات أخرى حول تفاصيل الحدث مقارنةً بما جاء في القرآن
- إيمان السحرة، وموقفهم الصلب -وفق الوصف القرآني- يستدعي التحليل والتوقّف عنده لفهم طبيعة هذا الانقلاب المذهل، وهل كان في البين -فعلاً- اتفاق مُسبق مع النبي موسى كما ادّعى فرعون ذلك، أم أن وراء المسألة أمراً آخر.
- من الآثار الإيجابية لمواجهة النبي موسى مع السحرة أن أقبلت مجموعة من شباب بني إسرائيل على الإيمان بالرسالة دون مَنْ هم أكبر منهم سناً، وهي صورة مقاربة لما عانى منه النبي الأكرم في مكة، حيث تحمّس عدد من شباب قريش للرسالة، بينما صدّ عنها غالبية المتقدّمين سناً.
- في القرآن الكريم ما يشير إلى أن فئة الشباب هذه آمنت وهي في حالة خوف من فرعون، ومن ملأ بني إسرائيل أيضاً.

الإعداد لمؤامرة

الإعداد لمؤامرة

• موضوعات هذا الفصل:

- ما الهدف من الاجتماع الذي عقده فرعون بالملأ بعد فشل مواجهة السحرة؟
- دور مؤمن آل فرعون - كما عرضه القرآن الكريم- في محاولة إقناع فرعون والملأ بتغيير موقفهم من الرسالة.
- غياب دور هذه الشخصية في السردية التوراتية.
- هل يمكن الوثوق بما جاء في بعض المرويات الإسلامية حول هذه الشخصية؟
- ما طبيعة الصرح الذي أمر فرعون ببنائه للاطلاع على إله موسى؟ وهل الصرح هو ما يُعرف باسم المسلات؟ وهل كان الغرض منه طلب الاعتكاف فيه كمحاولة من قبل فرعون للاهتداء إلى الله؟
- دلالات صدور الأمر الإلهي لبني إسرائيل ببناء البيوت واتخاذها قبلة.

• عقد الاجتماع:

يخبرنا القرآن الكريم أن اجتماعاً عُقد بعد انتهاء المواجهة مع السحرة، وفشل فرعون في بلوغ غايته في إفشال ما جاء موسى من أجله، حيث جمع فرعون مستشاريه وأعوانه ولربما كبار شخصيات قومه بما يُعبر عنهم القرآن بعنوان ﴿الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾^(١) دون بني إسرائيل، وقد أبدوا في ذلك الاجتماع قلقهم من المرحلة القادمة، ولجأوا إلى الأسلوب التحريضي رغبةً منهم في دفع فرعون لاتخاذ قرارات صارمة وحاسمة لاجتثاث جذور التمرد أو الثورة التي باتت تلوح في الأفق، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله «تعالى»: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ...﴾^(٢). فماذا كان رد فرعون؟ وما هو الإجراء الذي قرّر اتخاذه؟

لقد عاد إلى سيرته الأولى وإجراءاته السابقة التي من خلالها يقتل الذكور من المواليد، ويُبقي الإناث منهم على قيد الحياة، فقد أتت هذه الإجراءات أكلها من قبل، وأخضعت بني إسرائيل لسلطان فرعون، وجعلتهم يستمرّون في العبودية له، والرّضوخ لأوامره، وعمل السُّخرة في ظروف معيشية صعبة جداً، والخوف من الثورة أو التمرد عليه: ﴿.... قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾^(٣).

وفي استعمال كلمة ﴿سَنُقْتِلُ﴾ دلالة على المبالغة في القتل، ويمكن أن يتحقّق ذلك من خلال الكم والكيف معاً، ولذا يُقال مثلاً: (سأقتل فلاناً شرّ قتلة).

١. سورة الأعراف: ١٢٧.

٢. سورة الأعراف: ١٢٧.

٣. سورة الأعراف: ١٢٧.

ولا يذكر القرآن أكثر من ذلك بشأن هذا التهديد والوعيد والقرار الطاغوتي... هل أسعفته الظروف لفعل ذلك والعودة لارتكاب جرائمه المعهودة، أم تدخّلت يد الغيب فوراً من خلال الآيات المتتابعة التي تحقّقت على يد موسى «عليه السلام» -كالجراد والضفادع والدم- فأشغلته عمّا نوى، وأدخلت في قلبه الخوف من أن يُقدّم على ذلك؟ شخصياً أميل إلى الاحتمال الأول الذي قد تُرشد إليه الآية الشريفة الواردة على لسان بني إسرائيل من بعد ذكر هذا التهديد: ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا....﴾ (١٢٩) (١)، فمن شأن هذا الضعف، وهذا التملّل، وهذا الانكسار، أن يعرّض المشروع الرسالي برمّته إلى الفشل، فمثل هذه الحركة لا يمكنها أن تستمر وتحقّق أهدافها، بينما قاعدتها الجماهيرية تعيش مثل هذه الحالة، ولذا طلب موسى «عليه السلام» منهم الاستعانة بالله وأن يصبروا، كما شوّقهم إلى النتيجة الدنيوية المادية الكبرى التي يمكن أن يذوقوا حلاوتها إن هم صبروا وأكملوا المسيرة بثبات هذه النتيجة تتمثّل في أن يعطيهم الله الملّك من جديد إذ فقدوه بعد فترة من وفاة يوسف «عليه السلام»، كما أنهم سينالون حُسن ثواب الآخرة، حيث الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨) (٢).

لم يتأثر القوم بكلام موسى، ولذا عاد ليؤكد لهم أن الأمر بيد الله، ربهم الذي يعنيه شأنهم، ويريد لهم الخير، ولذا فإنه لن يتركهم وشأنهم، ولربما يشهدون في قادم الأيام انتصارهم على فرعون وأعوانه، إذ يهلك الله عدوّهم الأول، وتضعف سطوة

١. سورة الأعراف: ١٢٩.

٢. سورة الأعراف: ١٢٨.

الحُكْمَ الْفِرْعَوْنِي بِمَا يُمْكِّنُهُمْ مِنْ أَنْ يَعْلُوا شَأْنَهُمْ وَيَحْكُمُوا فِي الْأَرْضِ مُجَدِّدًا: ﴿قَالُوا أُؤْذِيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

وينبئهم موسى «عليه السلام» إلى أن هذا الاستخلاف ليس مطلقاً، بل هو مشروط بنجاح تجربتهم في الحكم، فإن ثبتوا على إيمانهم، وأحسنوا العمل وإدارة الأمور وجعلوا مشروع الحكم عملاً لوجه الله «تعالى»، ولصالح العباد، فإن الله سيسددهم ويمدّ لهم في الحكم وقطف ثمار التجربة الناجحة: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢)، وأما إذا أساءوا وكفروا وطغوا ووظفوا عناصر القوة في الملك والثروة في غير هذا الطريق، فإن الله «سبحانه» سيرفع عنهم هذا الاستخلاف، ولذا قال «تعالى» على لسان موسى: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٣). أي أن الاستخلاف في الأرض ليس نهاية المطاف، بل هو ابتلاء واختبار مجدّد في ظروف مختلفة، وهذا في حدّ ذاته إبطال لمزاعم الصهاينة اليوم من أن الله أعطاهم أرض فلسطين بنصّ القرآن الكريم، وأن هذا العطاء أبدي، لا يُبطله شيء، ولا يسلبه منهم أحد، والتوراة نفسها تكذبهم في ذلك: (٢٣) وَالْأَرْضُ لَا تُبَاغُ بَتَّةً، لِأَنَّ لِي الْأَرْضَ، وَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ وَنَزَلَاءُ عِنْدِي (٤).

(٢٥) إِذَا وَلَدْتُمْ أَوْلَادًا وَأَوْلَادَ أَوْلَادٍ، وَأَطْلُتُمْ الزَّمَانَ فِي الْأَرْضِ، وَفَسَدْتُمْ وَصَنَعْتُمْ

١. سورة الأعراف: ١٢٩.

٢. سورة الحج: ٤١.

٣. سورة الأعراف: ١٢٩.

٤. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الإصحاح ٢٥، ٢٣.

تَمَثَّالًا مَنَحُوتًا صُورَةً شَيْءٍ مَّا، وَفَعَلْتُمْ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ إِلَهُكُمْ لِإِعَاظِيهِ، ٢٦ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ أَنَّكُمْ تَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ الْأَرْضَ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكُوهَا. لَا تُطِيلُونَ الْأَيَّامَ عَلَيْهَا، بَلْ تَهْلِكُونَ لَا مُحَالَةَ. ٢٧ وَيُبَدِّدْكُمْ الرَّبُّ فِي الشُّعُوبِ، فَتَبْقُونَ عَدَدًا قَلِيلًا بَيْنَ الْأُمَمِ الَّتِي يَسُوقُكُمْ الرَّبُّ إِلَيْهَا^(١).

• مؤمن آل فرعون:

وفي البين احتمال أن تدخل مؤمن من آل فرعون في تلك الجلسة التشاورية، وتخوفه فرعون والملأ من سوء عاقبة مواجهة موسى قد دفع فرعون إلى التراجع عن تنفيذ تهديده ووعيده وقراره الطاغوتي بالتقتيل، وإن كان ذلك لا يعني أنه لم يتخذ إجراءات للتضييق على موسى وهارون وبني إسرائيل.

فقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه الشخصية ودورها في محاولة التأثير على فرعون والملأ، ولكننا لا نملك دليلاً على الظرف الزمني أو الحدث الذي دعاه للتدخل على وجه التحديد، فمن المحتمل أن يكون قبل أو أثناء هذه الأجواء التي نبحت فيها، وقد يكون في مرحلة زمنية لاحقة في أثناء توالي الآيات المبصرة (الضربات) كالدّم والضفادع والجراد، فكل هذا محتمل. والقدر المتيقن بحسب تسلسل الأحداث وفق ما عرضته سورة غافر، أن تدخله بدأ بعد أن اقترح فرعون قتل موسى والتخلص منه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ^(٢٦)﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ^(٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ^(٢٨) ﴿^(٢٩)﴾^(٢).

١. الكتاب المقدس: سفر التثنية، الإصحاح ٤، ٢٥-٢٧.

٢. سورة غافر: ٢٦-٢٨.

وقبل أن يطلب فرعون من هامان أن يبني له صرحاً لعله يرى الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا....﴾ (١).

وأحتمل أن هذا التدخل منه جاء بعد مشهد السحرة، ولعدة أسباب:

١. لم تكن الأحداث قبل ذلك قد دخلت في مراحل حاسمة، بل كانت محفوفة في بلاط فرعون، وما زال هناك ترقّب لما سيحدث في لقاء السحرة وتحديهم.
٢. وهذا المؤمن أيضاً -قبل موقعة السحرة- في حالة ترقّب، فلربما استطاع موسى أن يُقنع فرعون ويؤثر عليه، فلينتظر لتتضح الصورة أكثر ويتبيّن له إلى أين ستصل الأمور، وليست هناك حاجة ماسّة لكشف إيمانه.
٣. لربما هُزم موسى من قبل السحرة، فلماذا يقترح فرعون قتل موسى والأمور في بداياتها، لاسيما وأن من الممكن -بتصوّر فرعون- إفشال مشروع موسى دون حاجة إلى قتله وإثارة الأجواء من حوله.
٤. الآيات تتحدث عن أن هذا التدخل جاء وفي البين من قد آمن بموسى، ولذا تحدّث فرعون عن قتل أبنائهم، ولم يتحدث القرآن عن حدوث حالات من الإيمان قبل موقعة السحرة.

وعلى كل حال، فلنترك الآيات تصف لنا هذه الشخصية، وكيف حاول مساعدة موسى «عليه السلام» والتأثير على فرعون والملا من حوله بهدفين، الأول هدايتهم وتخليصهم من الشرك والكفر، والثاني إنقاذ النبي موسى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّن آلِ

فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾^(١).

يظهر من الآيات السابقة أن الرجل كان من القبط، أي من أهل مصر الأصليين، لا من بني إسرائيل، خلافاً لبعض المفسرين، والدليل على ذلك عدة أمور:

١. وصفه بأنه ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ بينما عندما وُصف قارون جاء الوصف كالتالي: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

٢. قوله: ﴿يَا قَوْمُ﴾ في مقام الرد على مؤامراتهم ضد الرسول والرسالة، فهم قومه.

٣. قوله: ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فلم يكن لبني إسرائيل ملك في ذلك الوقت.

ويبدو أن الرجل كان من خاصة فرعون وذا مكانة في البلاط الفرعوني، وإلا لما حضر وتكلم بهذه الجراءة. كما لم يكن القوم على علم بإيمانه، لكتمانه إيّاهم ذلك تقيّةً، وفي ذلك قال العلامة ابن عاشور: (وكان كتمه الإيمان متجدداً مستمراً تقيّةً من فرعون وقومه إذ علم أن إظهاره الإيمان يُضِرُّه ولا ينفع غيره)^(٣).

وقد احتمل البعض أن يكون هو نفس الشخص الذي حذّر موسى قبل هجرته إلى مدين من أن الملأ يأتمرون به ويريدون القضاء عليه على إثر قضية القتل غير العمدي التي جرت على يد موسى «عليه السلام» مما تناولناه في الجزء الأول من سيرة

١. سورة غافر: ٢٨.

٢. سورة القصص: ٧٦.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ١٢٨.

هذا النبي الكريم، حيث قال «سبحانه»: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٥﴾^(١).

وهذا محتمل، ولكن لا توجد إشارة في القرآن تؤيد هذا الادعاء، وأما الركون إلى الروايات والأخبار الخاصة بسير الأنبياء «عليهم السلام» فإن كثرة الموضوع منها والضعيف والمرسل يجعلنا لا نثق بمضامينها، ولا نؤسس عليها حقيقة تاريخية، بل تبقى الأمور في دائرة الاحتمالات لا أكثر.

والذي يبدو لي أن ذلك الرجل شخص مختلف عن مؤمن آل فرعون، إذ لم يوصف هناك بأنه مؤمن، ولا بأنه من آل فرعون، ولو كانا شخصية واحدة لربما كان الأنسب بالدقة القرآنية في الوصف أن يُذكر ذلك، لاسيما وأن الأمر يرتبط بمحدثين مختلفين تفصل بينها عشر سنوات تقريباً.

والغريب أن ابن عاشور قال عن الرجل الذي حذر موسى: (كان من بني إسرائيل كما هو صريح سفر الخروج)، ولكن سفر الخروج لم يُشير إلى وجود تحذير صادر من أحد، ففي الإصحاح الثاني من هذا السفر: (١١) وَحَدَّثَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامَ لَمَّا كَبِرَ مُوسَى أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى إِخْوَتِهِ لِيَنْظُرَ فِي أَثْقَالِهِمْ، فَرَأَى رَجُلًا مِصْرِيًّا يَضْرِبُ رَجُلًا عِبْرَانِيًّا مِنْ إِخْوَتِهِ، ١٢ فَالْتَفَتَ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ وَرَأَى أَنَّ لَيْسَ أَحَدًا، فَقَتَلَ الْمِصْرِيَّ وَطَمَرَهُ فِي الرَّمْلِ. ١٣ ثُمَّ خَرَجَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَإِذَا رَجُلَانِ عِبْرَانِيَّانِ يَتَخَاصِمَانِ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: «لِمَاذَا تَضْرِبُ صَاحِبَكَ؟» ١٤ فَقَالَ: «مَنْ جَعَلَكَ رَئِيسًا وَقَاضِيًا عَلَيْنَا؟ أَمْفَتَكِرٌ أَنْتَ بِقَتْلِي كَمَا قَتَلْتَ الْمِصْرِيَّ؟». فَخَافَ مُوسَى وَقَالَ: «حَقًّا قَدْ عُرِفَ الْأَمْرُ». ١٥ فَسَمِعَ فِرْعَوْنُ هَذَا

الْأَمْرَ، فَطَلَبَ أَنْ يَقْتُلَ مُوسَى. فَهَرَبَ مُوسَى مِنْ وَجْهِ فِرْعَوْنَ وَسَكَنَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَجَلَسَ عِنْدَ الْيَثْرِ^(١).

وبحسب القرآن الكريم، فقد كانت هذه الشخصية المؤمنة تُخفي إيمانها وتمارس (التقية) في وسط ملأ الطاغية فرعون، دون أن يقيدها ذلك عن تصعيد الموقف كلما ازدادت الأمور سخونة، واتجهت نحو اتخاذ القرار بقتل النبي موسى للتخلص من دعوته التي باتت تؤرق فرعون و(صقور) الملأ من حوله، وإلى المستوى الذي اضطر فيه هذا الرجل المؤمن في نهاية المطاف إلى أن يصرح بإيمانه، ليصدمهم بهذا الواقع لعله يدفعهم إلى إعادة النظر في مواقفهم المتشددة والمعاندة تجاه رسالة هذا النبي الكريم الذي جاء إليهم بأكثر من آية مُبصرة (معجزة مادية)، ومع هذا أصرّوا على الاستكبار وأخذوا منحي التصعيد لا منحي الإيمان والإقرار بالرسالة.

تَصِفُ الآيات من سورة غافر -وهي تستعرض قصة هذا الرجل المؤمن ودوره في نُصرة رسالة موسى- حالة من التدرّج في مواجهة الاتحاد الثلاثي المتمثل في (فرعون - هامان - قارون) لموسى «عليه السلام» ورسالته السماوية، وهي شبيهة بتدرّج قريش أيضاً في مواجهتها لرسول الله «صلى الله عليه وآله» ورسالته.

المستوى الأول من المواجهة تَمَثَّل في محاولة تسقيط شخصية الرسول باتهامه بما يُنفر الناس منه، على الرغم من الآيات التي جاء بها موسى والتي كانت قوية وواضحة، وعلى الرغم مما حقّقه بعض الآيات من هيمنة على الموقف وإذلال للقوم حتى عبّر عنها بالسلطان المبين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۖ إِلَى فِرْعَوْنَ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٢، ١١-١٥.

وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ (١).

المستوى الثاني من المواجهة تمثّل في إلحاق الأذى بالفئتين الأضعف من قوم موسى، أي الأطفال والنساء، قتلاً واستعباداً.

وقد واجه نبينا «صلى الله عليه وآله» في دعوته شيئاً من هذا القبيل، وذلك باستهداف المستضعفين من المؤمنين برسالته، كياسر وسمية وعمار وبلال وخبّاب وغيرهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ (٢).

يلاحظ أن الآية ٢٥ بدأت بهذه الجملة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾، وكأنها تريد أن تقول أن ردّة فعلهم برفع سقف المواجهة مع الرسالة لم تكن بسبب فشل موسى في الدعوة، أو لأنه جاء بما هو مستنكر، أو باطل، أو مُضِرّ، فقد جاءهم بالحق، ومن شأن من يأتيك بالحق أن تكون شاكراً له وممتناً على ما تفضّل به، لا أن تُواجهه بالأذى والتعسف.

ثم إن هذا الحق موصوف بأنه كان من عند الله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ ومن شأن ما هو من عند الله أن يكون حقاً خالصاً، وليس فيه باطل، لا في منطلقاته ولا أهدافه ولا مضمونه. وهذا يُعزّز ضرورة أن تكون ردّة فعلهم على ذلك إيجابية.

كما أن كون الحق من عند الله يستلزم الخضوع له بلحاظ العبودية لله «سبحانه»، لا التمرد والعصيان.

١. سورة غافر: ٢٣-٢٤.

٢. سورة غافر: ٢٥.

فهذه الجملة تتضمن استنكاراً ببيانٍ غير مباشر، وهي من روائع البيان القرآني من حيث الاختصار مع توجيه أكثر من رسالة ضمنية.

﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ الآية تشير إلى توافق التحالف الثلاثي على هذا الإجراء القاسي والوحشي على الرغم من أن أطفال ونساء الذين آمنوا مع موسى «عليه السلام» ليس لهم دخل مباشر في حركة الرسالة والمواجهة مع هذا التحالف، ومن المفترض أن تكون ردّة الفعل العنيفة موجّهة إلى شخص موسى وهارون «عليهما السلام» باعتبارهما حملة الرسالة، أو إلى الرجال الذين آمنوا معهما، ولكنّ القرار المتخذ كان على خلاف ذلك، ولعل السبب يعود إلى أن هذا الإجراء أشدّ إيلاماً، ويُتوقع أن يكون أقوى تأثيراً على المؤمنين وعلى الرسولين.

الأمر الآخر هو أن قارون كان من قوم موسى كما صرح القرآن بذلك: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾^(١)، فكيف قيل بأن يتخذ مثل هذا الإجراء بحقّ قومه؟ لعلّ الإجابة كامنة في نفس الآية حيث تضيف ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾، أي أن ثراءه الفاحش وتحالفه مع السلطة المتمثلة في فرعون وهامان دفعاه لقبول إيقاع تلك الجريمة بحقّ الأبرياء، بل والمشاركة فيها. ولعلّ في هذا إشارة ضمنية لتشابه آخر بين مسيرة الرسالتين والتحديات التي واجهتهما، وذلك بالإشارة إلى الدور السلبي لأبي لهب -عمّ النبي- الثري المتحالف مع قوى الطغيان والشر والشرك ضد رسول الله والمؤمنين معه، في صورةٍ مقارنةٍ لدور قارون.

ويلاحظ أيضاً أن الآية الشريفة عبّرت عن المؤمنين كالتالي: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وليس (آمنوا به) ولعل في ذلك إشارة إلى مساندتهم موسى «عليه السلام» في دعوته وليس مجرد الإيمان بالرسالة، وأن هذه المساندة كانت أشدّ إيلاماً للتحالف الثلاثي من مجرد إيمانهم، وهو الذي دفعهم لاتخاذ هذا القرار.

ويتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لماذا لم يُستهدف موسى وهارون بصورة مباشرة بدلاً من استهداف الأطفال والنساء؟

ولعلّ الجواب يتمثل في التخوّف الكامن في داخل فرعون خصوصاً -والتحالف الثلاثي عموماً- من أن يلحق بهم العذاب المدمر من الله غضباً وانتقاماً لرسوله، لاسيما بلحاظ تجارب سابقة للرسول مع أقوامهم، وهذا ما نستشعره في الآية اللاحقة التي يرتفع فيها منسوب المواجهة بعد فشل الإجراءات الأولين حيث يتحوّل الموقف هذه المرّة إلى اقتراح بقتل موسى «عليه السلام» ولكن مع حالة من الترقّب والتوجّس: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾^(١)، فهذا هو المستوى الثالث من المواجهة، والمستهدف فيه هذه المرة شخص موسى «عليه السلام»، وهو شبيه أيضاً بموقف قريش الذي تطوّر لاحقاً إلى التآمر لقتل النبي «صلى الله عليه وآله» والذي أدّى أولاً إلى لجوء بني هاشم إلى الشعب والتحصّن فيه حمايةً للنبي، ثم محاولة الاغتيال قبيل الهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢).

١. سورة غافر: ٢٦.

٢. سورة الأنفال: ٣٠.

وقد ساق فرعون المبرر لجريمته المقترحة: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ حيث يُظهر نفسه بمظهر الحريص على شعبه وإرثهم الديني وأوضاعهم الاجتماعية والأمنية والاقتصادية، ويضرب على الوتر العاطفي لعله يجد مساندة في موقفه الإجرامي المقترح.

ولعل هذا مؤشّر على ضعف موقف فرعون -وهو الذي كان يدّعي الألوهية ويتباهى بالملك والأنهار تجري من تحته: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾^(١)، إذ يسعى للمساندة الجماهيرية، ويعدّ سلفاً للمبرّر لاحتمال فشله أو ترتّب نتائج خطيرة على عدوانه على موسى «عليه السلام»، بأنه لم يتفرد بالقرار، وأن الجميع يتحمّلون تبعات ذلك.

وعلى إثر ذلك، خاطب موسى «عليه السلام» قومه من بني إسرائيل تطميناً لهم، وتسكيناً لإشفاقهم عليه من بطش فرعون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾^(٢) وكأنه يقول لهم: إني أعددت العدة لدفع بطش فرعون، والعدة هي العوذ بالله واللجوء إليه والاحتماء به من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وفي مقدمة هؤلاء المتكبرين فرعون.

إنّ ما يدفع فرعون وأمثاله للتجرؤ على ارتكاب هكذا جريمة هو التكبر وعدم الإيمان بالآخرة.

ولعلّ في ذكر خبر المؤمن من آل فرعون إشارة أخرى إلى وجه من أوجه التشابه بين حركة الرسالتين، وعناصر التحدي فيهما وعناصر القوة، فيكون الدور الذي قام

١. سورة الزخرف: ٥١.

٢. سورة غافر: ٢٧.

به أبو طالب عمّ النبي «صلى الله عليه وآله» مشابهاً لدور هذا المؤمن، وكلاهما يتّقيان قومهما بعدم إظهار الإيمان، وقد روي عن الإمام الحسن العسكري «عليه السلام» أنه قال: (إن أبا طالب كمؤمن آل فرعون يكتُم إيمانه)^(١).

ولربما كانت مقالة هذا المؤمن أوّل مظهر من مظاهر الاستجابة لقول النبي موسى «عليه السلام»: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾^(٢). حيث أيد الله موسى بهذا المؤمن وبموقفه الصلب، وهي رسالة ضمنية للنبي «صلى الله عليه وآله» بأن الله «تعالى» يراعه ما دام قد لجأ إليه، وأنه يستخر له أسباب النصر والحفظ والتأييد من حيث لا يحتسب الناس.

وقد استعمل الرجلُ المؤمنُ أسلوب الاستفهام الاستنكاري في محاولته تغيير موقف فرعون والملاّ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...﴾ وكأنه يقول: يقبح بكم أن تقتلوا نفساً لأنه يقول ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾، فكل ما قام به هو إبلاغ رسالة يعتقد بها، ولم يُجبركم على أن تؤمنوا به، ولم يأتِ ليسلبكم ملككم، ولا ليطالب بمال، ولكنه قال لكم قولاً، فاقبلوه أو ارفضوه ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ ومن المحتمل أن هذا ارتقاءً منه في المحاجة، حيث صرّح هنا بتصديق موسى بقوله ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وسبب هذا التصديق أنه جاء بالبيّنات، أي الحجج الواضحة في دلالتها على صدقه.

ولعله كشف إيمانه بالرسالة -أخيراً- لأن الأمور وصلت إلى وضع حرج، فاستدعت أن يُحدث مفاجأة من داخل البلاط، لأن تأثير الرسالة قد وصل إلى من هم حول فرعون وحاشيته. وهناك احتمال آخر وهو أنه أراد أن موسى إنما يدعو للإله الأعظم الذي تؤمنون به أيضاً، ولكنكم يُشركون معه غيره، وتدعون أن الشركاء هم الأرباب،

١. البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٥٨٣.

بينما موسى يخبركم أن الإله الأعظم هو نفسه الرب الذي يدير أمور الخلق، ويؤيد هذا الاحتمال: ﴿يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

وأضاف هذا المؤمن قائلاً: ﴿وَأَنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي فلنفرض أن موسى كاذب في ادعاء الرسالة وربوبية الله، فلماذا هذا الموقف العنيف الذي وصل إلى حد التفكير بقتله، بينما لن يضرّكم كذبه -المفترض- بشيء، لأنه لن يستطيع أن يلحق بكم ضرراً يُعتدّ به، ﴿وَأَنْ يَكُ صَادِقًا﴾ فكذبتموه واتخذتم منه موقف العداء ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾. ومن المحتمل أنه قدّم احتمال كذبه على احتمال صدقه زيادةً في التباعد عن ظنهم به الانتصار لموسى، حيث أراد أن يظهر المهتمّ بأمر قومه، وهذا يؤيد الاحتمال الثاني الذي ذكرناه لمعنى ﴿يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ثم أضاف -لزيادة طمأنة المستمعين- بأنه على فرض كذب موسى بهذا المستوى من الجراءة على الله، فإن الله لن يهديه ولن يؤيده ولن يتحقق على يديه شيء من التهديدات، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(١).

واحتمل بعض المفسرين أن الجملة معترضة بين كلام مؤمن آل فرعون في هذه الآية وفي الآيات اللاحقة، وليست من حكاية كلامه، وإنما هي تركية إلهية لهذا الرجل المؤمن إذ هداه الله إلى الحق، ولبيان أنه كان تقيّاً صادقاً، فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه.

﴿يَقُومُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٢).... من

١. سورة غافر: ٢٨.

٢. سورة غافر: ٢٩.

الآيات ٢٩-٤١ يتكرر نداءؤه لهم بعنوان ﴿يَقُومِ﴾ ٦ مرات، وذلك في الآيات (٢٩-٣٠-٣٢-٣٨-٣٩-٤١)، وهذا شبيه بالصورة التي نقلها القرآن الكريم من خطاب النبي إبراهيم «عليه السلام» لأبيه آزر بعنوان ﴿يَا أَبَتِ﴾ ٤ مرات من الآية ٤٢-٤٥، من سورة مريم أي في ٤ آيات متتاليات. وفي هذا دلالة على أمرين:

١. أنه كان -فعلاً- يخاف عليهم مما سيصيبهم فيما لو أصرّوا على استكبارهم وغيّهم
٢. اعتماده أسلوب الاستمالة العاطفية في محاولة منه للتأثير عليهم. فللعاطفة دور أحياناً في تغيير القناعات، وليس مردّ ذلك الحجة والقناعة الفكرية دائماً.

﴿يَقُومِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ غالبين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر وما تبعها من أراضٍ احتلّت من بلاد الشام. وفي هذا الكلام تذكيرٌ بنعمة الله عليهم، وتمهيد لتخويفهم من غضب الله، أي لا تغرّنكم عظمتكم وملّكم فإنهما مُعرّضان للزوال فيما لو غَضِبَ الله عليكم.

﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ استفهام إنكاري، والمعنى فلا نصّر لنا ولا مَهْرَب من القوة الإلهية القاهرة. وقد أدمج نفسه مع قومه في ﴿يَنْصُرُنَا﴾ و﴿جَاءَنَا﴾ في نتيجة ما قد يحصل، ليريهام أنه يتخوّف عليهم كما يتخوّف على نفسه، وأن المصيبة إن حلت لا تصيب بعضهم دون بعض.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ بين فرعون هنا سبب عزمه على قتل موسى، بأنه ما عرض عليهم ذلك إلا للمصلحة العامة لا الشخصية، لئلا يخسر الملاءم بميلهم وتأثرهم بكلام الرجل المؤمن! وهذا مجدّ ذاته علامة هزيمة من طاغوت بحجمه.

ووصفه اختياره بكونه ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٢٩) تعريض من فرعون بكلام الرجل المؤمن أنه كلام سفيه غير راشد.

ثم عاد مؤمن آل فرعون للمحاجة ومحاولة الإقناع: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾^(٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾^(٣١)^(١)، ولعل وجود (الواو) في بداية الكلام للإشارة بأن الرجل المؤمن لم يكن في معرض الرد على كلام فرعون، بل بصدد إتمام ما كان يتكلم به قبل أن يقاطعه فرعون.

﴿يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ عُبِّرَ عن (أيام الأحزاب) بالمفرد لأنه أراد الجنس، لا يومٌ معين، فالتقدير (مثل أيام الأحزاب)، والمراد بها أيام إهلاكهم، والعرب يطلقون اليوم على يوم الغالب ويوم المغلوب. والأحزاب يعني الأمم، لأن كل أمة حزبٌ، تجمعهم أحوال واحدة، وتناصرُ بينهم.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الدأب: العادة والعمل الذي يدأب عليه عامله، أي يلزمه ويكرّره. والتقدير: مثل حال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ممن دأبوا على الشرك بالله والعناد والاستكبار على رسل الله. وهذا يقتضي أن أهل مصر كانوا على علم بما حلّ بقوم نوح وعاد وثمود، فأما قوم نوح فكان طوفانهم مشهوراً، وأما عاد وثمود فلقرب بلادهم من البلاد المصرية، بل ولربما لاحتكاكهم بها من خلال التجارة والغزوات وما إلى ذلك.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي أن هذا الجزاء الدنيوي من الله عادل، لا يأتي

من فراغ. والتركيب الأصلي للجملة: (وما يريد الله ظُلماً للعباد) ولكن تم تقديم الفاعل ليصبح مبتدأ، والجملة الفعلية هي الخبر للدلالة على القصر، أي أنّ عدم إرادة الظلم للعباد مقصور على الله، وأما مَنْ سواه فيريدون ذلك.

﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُنْزَلُونَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾^(١)، فبعد التخويف والتذكير والتحذير من عقاب الدنيا المشابه لما حلّ بقوم نوح وعاد وشمود والذين من بعدهم، خوّفهم الرجل المؤمن وأنذرهم عذاب الآخرة، وهو ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي يوم القيامة والحساب حيث تتعدد النداءات من جهات مختلفة، ومن أمثلة تلك النداءات:

١. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢).
٢. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾^(٣).
٣. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٨.. وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾^(٤).
٤. ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ... وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

١. سورة غافر: ٣٢-٣٣.

٢. سورة القصص: ٦٥.

٣. سورة القصص: ٧٤.

٤. سورة الأعراف: ٤٨-٥٠.

٥. سورة الأعراف: ٤٣-٤٤.

هـ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَفْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١).

من بديع البلاغة ذكر الآخرة من خلال وصفه بكونه ﴿يَوْمَ أَلْتَنَادِ﴾، فمؤمن آل فلرعون قد كرّر ندائه لهم بقوله ﴿يَقُومِ﴾، وكأنه يقول: لا تنزعجوا من نداءاتي المتكررة، فهي محاولة مني أن أجتنبكم النداءات المفزعة في الآخرة.

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ أي ترجعون من حيث أتيتم، فراراً وهرباً من الجهة التي وردتم عليها، لأنكم ستجدون فيها ما تكرهون، وهل ينفعكم هروبكم هذا؟ ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي لن ينفعكم هذا الهروب والفرار، حيث لا يوجد شيء يمنعكم من الله وغضبه وما أعد لكم في ذلك اليوم.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الله لا يضلّ أحداً إلا أن يُصرّ ذلك الفرد على الضلالة، وحينها يسلب الله منه أسباب الهداية، فلا يجد إليها سبيلاً.

ويُكمل إنذاره ونصائحهُ بالتذكير بشيء من التاريخ الماضي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٢).

لقد كان مسكن النبي إبراهيم «عليه السلام» -جدّ النبي يوسف «عليه السلام»- في بلاد الرافدين، ثم خرج مهاجراً، وبحسب التوراة استقر لعدّة سنوات في (حرّان) التي تقع حالياً جنوب شرق تركيا، ثم هاجر إلى أرض كنعان حيث فلسطين، واستقر فيها، ثم هاجر إلى مصر بسبب الجذب ثم عاد إلى فلسطين، وفيها تُوفي ودُفن.

١. سورة غافر: ١٠.

٢. سورة غافر: ٣٤.

وبقي نسل النبي إبراهيم في هذه الأرض -وجلُّ أهلها من الكنعانيين- وحدث بحسب التوراة بعض المشاكل العائلية واضطر يعقوب إلى أن يرحل من مكان إلى آخر بين الأردن وفلسطين إلى أن استقر في منطقة صحراوية من فلسطين.

وحين جرى ما جرى ليوسف واستقرَّ في مصر، نقل أبويه وإخوانه إليها فاستقروا فيها: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٠٠﴾^(١)، وكان ذلك في أيام حكم الهكسوس المحتلين لمصر. وهكذا أصبح بنو إسرائيل (يعقوب) حلفاء للهكسوس في الحكم، وقد استمر حكمهم ١٠٠ سنة تقريباً، وقد قُدِّر ذلك من سنة ١٦٥٠ ق.م إلى ١٥٥٠ ق.م.

حتى إذا تم طرد (الغزة)، صار بنو إسرائيل من المغضوب عليهم، ووقعوا تحت اضطهاد المصريين على عهد فرعون موسى «عليه السلام»: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤﴾^(٢).

وتتحدث الآية عن قيام يوسف أثناء فترة مشاركته في السلطة بالدعوة إلى توحيد الله «سبحانه»، والإيمان باليوم الآخر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾، وهذا يعني أن دوره لم يقتصر على الجانب الإداري للبلاد، حين مكّنه الله من ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ

١. سورة يوسف: ١٠٠.

٢. سورة القصص: ٤.

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾^(١)، بل ونهض بمسئوليته الرسالية كنبى، تناغماً مع قوله «تعالى»: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢).

وهذا شيء متوقع، خاصة وقد وجدناه يدعو إلى ذلك وهو في السجن، ولم يخف من عاقبة الوشاية به، فكيف وقد أصبح في موقع قوي في الدولة؟ ﴿... دَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۖ﴾^(٣) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾^(٤).

وجاء كلام مؤمن آل فرعون هذا بعد أن رأى أنهم مصممون على تكذيب موسى، فارتقى في موعظتهم إلى اللوم على ما مضى، ولتذكيرهم بأنهم من ذرية قوم كذبوا يوسف لما جاءهم بالبينات، فمن هنا يكون تكذيبهم لموسى صاحب الدعوة المشابهة لدعوة يوسف أمراً متوقعاً. والبيّنات هي الدلائل البيّنة المظهرة أنه مصطفى من الله للإرشاد إلى الخير، ومن ذلك ما عبّر عنه القرآن بعنوان (تأويل الأحاديث):

١. ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٤).

١. سورة يوسف: ٥٦.

٢. سورة الحج: ٤١.

٣. سورة يوسف: ٣٧-٤٠.

٤. سورة يوسف: ٦.

٢. ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾ (١١) ﴿١﴾.

٣. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (٣٧) ﴿٢﴾.

٤. ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) ﴿٣﴾.

٥. ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾ (١١١) ﴿٤﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والبيّنات هي أنّ القدرة على تأويل الأحاديث وإنقاذ المجتمع المصري من الجذب من خلال الإجراءات الاقتصادية، قد نسبها يوسف كلها إلى الله، وقرن ذلك بتوحيده، ولذا كان على كل عاقل أن يتبع خطاه ويؤمن بالتوحيد، ولكن هذا لم يتحقق.

﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾: لقد كان القوم متردّدين في الإيمان بيوسف حال حياته، ولكنه لما تُوفي اعترفوا بفضلته ومكانته، كعادة الكثير

١. سورة يوسف: ٢١.

٢. سورة يوسف: ٣٦-٣٧.

٣. سورة يوسف: ٤٤-٤٦.

٤. سورة يوسف: ١٠١.

من الناس إلى يومنا هذا.. ومع هذا، لم يستجيبوا لمضمون رسالته في التوحيد، على الرغم من أن الأساس هو الارتباط بالرسالة لا بالرسول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١)، كأن القوم قالوا: لقد استرحنا من التردد، فإنه لن يأتي من يدعي الرسالة عن الله من بعد يوسف.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾^(٢) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ^(٣). يبدو أن هذا من كلام الله لا من كلام مؤمن آل فرعون، والفكرة هي أن هذا النموذج من الناس في موقفهم المعاند، لا يملكون الحجة، بل يجادلون بغير سلطان أتاهم، أي يجادلون جداً لمجرد التمويه وإسكات الخصم.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا النوع من الجدل والموقف المعاند ممقوت ومبغوض جداً من قبل الله ومن قبل المؤمنين.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٤) الطبع: الختم، فلا مجال لهدايته، والسبب هو الاستكبار والعناد والتجبر.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَوْمَ اتَّبَعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٥) خطاب آخر لمؤمن آل فرعون رتبته هذه المرة على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل، فسبيل الرشاد مجمل، وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس، ليسترعي أسماعهم إلى ما يقوله.

١. سورة آل عمران: ١٤٤.

٢. سورة غافر: ٣٤-٣٥.

٣. سورة غافر: ٣٨.

وكان فرعون قد سبقه لادّعاء أنه يهدي قومه سبيل الرشاد، وذلك في الآية ٢٩ من هذه السورة، وقد مرّت معنا: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، فكأنّ مؤمن آل فرعون يقول: لا تلتفتوا إلى ادّعاء فرعون بأن موقفه من موسى «عليه السلام» ورسالته هو الذي يهدي إلى سبيل الرشاد، بل إنّ ما سأقوله لكم هو الذي يمثّل ذلك... فما معالم سبيل الرشاد هذا؟

أ) ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾^(١) لقد آمن قدماء المصريين بالحياة بعد الموت، وقد طرحت هذا الموضوع في إحدى مواسم شهر رمضان وعرضته ضمن كتابي (في عمق التاريخ)، وبرديات (كتاب الموتى) على سبيل المثال شاهد على ذلك، وفيها مضامين عن المحاكمة الأخروية، ووسيلة النجاة في عالم الآخرة، والكتاب يسعى لأن يكون الدليل للميت لكي ينجو في آخرته، وذلك من خلال احتوائه على نص الدفاع عن النفس، ويُستى الاعتراف بالنفي: (السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق. لقد جئتك يا إلهي خاضعاً لأشهد جلالك، جئتك يا إلهي متخلياً بالحق، متخلياً عن الباطل، فلم أظلم أحداً، ولم أسلك سبيل الضالين، لم أحنث في يمين، ولم تضلني الشهوة فتمتد عيني لزوجة أحد من رحي، ولم تمتد يدي لمال غيري، لم أكن كاذباً، ولم أكن لك عاصياً، ولم أسع في الإيقاع بعيد عند سيده. إني يا إلهي لم أجمع ولم أبك أحداً، وما قتلت وما غدرت، بل وما كنت محرضاً على قتل، إني لم أسرق من المعابد خبزها، ولم أرتكب الفحشاء، ولم أدنس شيئاً مقدساً، ولم أغتصب مالاً حراماً، ولم أنتهك حرمة الأموات، إني لم أبغ قمحاً بثمن فاحش، ولم أغش الكيل. أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر. وما دمت بريئاً من الإثم، فاجعلني

يا إلهي من الفائزين^(١). وعلى الرغم من أهمية هذا المضمون، إلا أن الخلل يكمن في أن المفترض بهذا النص أن يخدع الإله أو الآلهة، بتصديق المضمون والادعاء وإن كان منافياً لحقيقة أعمال الميت السالفة في حياته... ويتم الخداع من خلال امتلاك الميت هذا النص بعد دفع الأموال للكهنة الذين آمنوا له الكتاب، ووضعوه في مقبرته على الجدار أو في برديات... وأما الفقير الذي لا يملك تأمين هكذا مبالغ، فسيكون مصيره الأخروي في مهب الريح.. وهذا من عبث أصحاب المطامع الكهنوتية، وهو ما نفاه القرآن بشكل قاطع:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٢).

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(٣).

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤).

ومن جهة أخرى، فقد شابت الخرافات والأساطير إيمانهم هذا، حيث صار كتاب الموتى مشتملاً على التعاويذ السحرية التي من شأنها أن (تُنقذ الميت) عند المحاكمة الأخروية. وعلى كل حال فإن الإيمان بالآخرة لم يكن أمراً غريباً بالنسبة إليهم، ولكنه كان بحاجة إلى ترشيد، ولذا قال:

1. https://ar.wikipedia.org/wiki/كتاب_الموتى

٢. سورة الكهف: ٤٩.

٣. سورة الحاقة: ١٨.

٤. سورة النور: ٢٤.

ب) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) فالعمل الصالح وحده لا يضمن النجاة، والإيمان وحده لا يتحقق دون عمل صالح، ولذا لا بد من الاقتران بينهما، كما أن نتاج العمل السيء هو العقوبة. وهذا العطاء الأخروي يتساوى فيه الذكر والأنثى، فلا تمايز على أساس الجنس، ولا نظرة دونية للأنثى بأنها أقل من الذكر إنسانية. وهذا العطاء الأخروي كبير ووافر وممتد، فقلوه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كناية على سعة الرزق ووفرته، كما قال «تعالى»: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢)، لا أنهم لا يحاسبون قبل دخول الجنة.

ج) ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾^(٣) فسبيل الجنة هو سبيل الرشاد، لا السبيل المؤدي إلى النار، وما يؤدي بالإنسان إلى النار.

د) ﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾^(٤) فتوحيد الله ربكم هو الركيزة الأولى لسلوك سبيل الرشاد، والنجاة في الآخرة، والفوز بالجنة.

هـ) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^(٥) إن ما تريدون مني أن أشارككم فيه برفض رسالة موسى، ومواجهتها، وقتل الرسول، جريمة عاقبتها وخيمة في الدنيا والآخرة.

و) ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٦) إن استعمال عقولكم والتدبر في قولي هذا، ثم تفويض الأمر إلى الله في قراركم يمثل

١. سورة غافر: ٤٠.

٢. سورة آل عمران: ٣٧.

ركيزة أخرى في سبيل الرشد. لقد كشف مؤمن آل فرعون كل أوراقه بعد أن كان يكتُم إيمانه، ولذا قال: ﴿... وَأُقَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٤٤﴾، بما يعني استعداده لتحمل مسئولية كلامه السابق والذي قد تترتب عليه العقوبة الشديدة من قبل فرعون أو المتعصبين من قومه كالكهنة وأمثالهم، توكلاً على الله «سبحانه» وتسليماً له ولجوءاً إليه.

﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝٤٥﴾^(١). وهكذا، حفظ الله «سبحانه» هذا العبد الصالح والشجاع، وأفشل مخطط أعدائه الذين أرادوا إلحاق الضرر به، وأنجاه من مكرهم، دون توضيح طبيعة ذلك المخطط، وكيفية التخلص منه، وما يتعلّق بذلك من تفاصيل، وإن كان من المحتمل أنه خرج مع النبي موسى «عليه السلام» ومن معه، لاسيما بلحاظ تمتة الآية ﴿وَحَاقَ﴾ أحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝٤٥﴾.

وذكر (آل فرعون) لا يعني استثناء فرعون منهم كما ذهب إلى ذلك البعض بلحاظ ما أخبر به الله في كتابه المجيد عن اللحظات الأخيرة من حياته: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ۝٩٢﴾^(٢)، بل جاء ذلك اختصاراً، وهو مشمول بالعذاب النازل عليهم... وسنتعرض لهذه المسألة في ختام الفصل الأخير.

١. سورة غافر: ٤٥.

٢. سورة يونس: ٩٠-٩٢.

• مؤمن آل فرعون في التوراة:

وقصة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون غير مذكورة في «التوراة» صراحة، ولكننا نجد في الإصحاح العاشر إشارة إلى وجود موقف داخل البلاط مخالف لموقف فرعون: (١) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ادْخُلْ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَإِنِّي أَغْلَظْتُ قَلْبَهُ وَقُلُوبَ عَبِيدِهِ لِيَكُنْ أَصْنَعُ آيَاتِي هَذِهِ بَيْنَهُمْ» ثم يذكر التهديد بآية الجراد (٤) فَإِنَّهُ إِن كُنْتَ تَأْتِي أَن تَطْلُقَ شَعْبِي هَا أَنَا أَجِيءُ غَدًا بِجَرَادٍ عَلَى ثُحُومِكَ، هُ فَيُعْطِي وَجَهَ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يُسْتَطَاعَ نَظَرُ الْأَرْضِ. وَيَأْكُلُ الْفُضْلَةَ السَّالِمَةَ الْبَاقِيَةَ لَكُمْ مِنَ الْبَرْدِ. وَيَأْكُلُ جَمِيعَ الشَّجَرِ الثَّابِتِ لَكُمْ مِنَ الْحَقْلِ. ٦. وَيَمْلَأُ بُيُوتَكَ وَبُيُوتَ جَمِيعِ عَبِيدِكَ وَبُيُوتَ جَمِيعِ الْمِصْرِيِّينَ، الْأَمْرَ الَّذِي لَمْ يَرَهُ آبَاؤُكَ وَلَا آبَاءُ آبَائِكَ مِنْذُ يَوْمٍ وَجِدُوا عَلَى الْأَرْضِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ». ثُمَّ تَحَوَّلَ وَخَرَجَ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ).

ثم يعقب ذلك بذكر ردة فعل مَنْ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ (عبيد فرعون) ولعله قريب من المراد في القرآن بعنوان (الملا): (٧) فَقَالَ عَبِيدُ فِرْعَوْنَ لَهُ: «إِلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا لَنَا فَخًا؟ أَطْلِقِ الرِّجَالَ لِيَعْبُدُوا الرَّبَّ إِلَهُهُمْ. أَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدُ أَنَّ مِصْرَ قَدْ خَرِبَتْ؟»^(١). والتعبير بالملا أقرب للواقع من تعبير عبيد، بلحاظ أن العبيد لا يملكون جرأة النطق بمثل هذا الكلام. ولا نستطيع الجزم بأن ما جاء في المقطع السابق إشارة إلى موقف مؤمن آل فرعون.

• مؤمن آل فرعون في الروايات:

عقد المجلسي في بحار الأنوار باباً بعنوان (أحوال مؤمن آل فرعون وامرأة فرعون)،

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ١-٧.

ضمّنه الآيات الشريفة التي تحدّثت عن قصته مع شيء من البيان والتفسير، ثم أعقب ذلك بمجموعة من الروايات التي تطرّقت لشخصيته وأحواله.

١) تفسير الإمام العسكري «عليه السلام»^(١)، الاحتجاج: بالاسناد إلى أبي محمد العسكري، عن آبائه، عن الصادق «عليهم السلام» قال: (كان حزيبيل) في هامش كتاب البحار [في نسخة «حزقيل»، وفي أخرى «خربيل»، في جميع المواضع] (مؤمن آل فرعون يدعو قوم فرعون إلى توحيد الله، ونبوة موسى، وتفضيل محمد رسول الله «صلى الله عليه وآله» على جميع رسل وخلق، وتفضيل علي بن أبي طالب «عليه السلام» والخيار من الأئمة على سائر أوصياء النبيين، وإلى البراءة من ربوبية فرعون، فوشى به الواشون إلى فرعون وقالوا: إن حزيبيل يدعو إلى مخالفتك ويعين أعداءك على مضادتك، فقال لهم فرعون: ابن عمي وخليفتي على ملكي وولي عهدي، إن فعل ما قلت قد استحق أشد العذاب على كفره نعمتي، فإن كنتم عليه كاذبين فقد استحققتم أشد العذاب لا يشارككم الدخول في مكانه، فجاء بحزيبيل وجاء بهم فكشفوه وقالوا: أنت تجحد ربوبية فرعون الملك وتكفر نعماءه؟ فقال حزيبيل: أيها الملك هل جربت علي كذبا قط؟ قال: لا، قال: فسلمهم من ربهم؟ فقالوا: فرعون، قال: ومن خالقكم؟ قالوا: فرعون هذا، قال: ومن رازقكم الكافل لمعايشكم والدافع عنكم مكارهكم؟ قالوا: فرعون هذا، قال حزيبيل: أيها الملك فأشهدك وكل من حضرك أن ربهم هو ربي، وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، ومصلح معاشهم هو مصلح معاشي، لا رب لي ولا خالق ولا رازق غير ربهم وخالقهم ورازقهم، وأشهدك ومن حضرك أن كل رب وخالق ورازق

١. لم تثبت نسبة التفسير إلى الإمام الحسن العسكري، وفيه الكثير من المضامين التي لا تناسب صدور الكتاب عنه عليه السلام.

سوى ربهم وخالقهم ورازقهم فأنا برئ منه ومن ربوبيته وكافر بإلهيته، يقول حزبييل هذا وهو يعني أن ربهم هو الله ربي، ولم يقل: إن الذي قالوا إنه ربهم هو ربي. وخفي هذا المعنى على فرعون ومن حضره وتوهموا أنه يقول: فرعون ربي وخالقي ورازقي، فقال لهم فرعون: يا رجال السوء ويا طلاب الفساد في ملكي ومريدي الفتنة بيني وبين ابن عمي وهو عضدي، أنتم المستحقون لعذابي لإرادتكم فساد أمري، وإهلاك ابن عمي والفت في عضدي، ثم أمر بالأوتاد فجعل في ساق كل واحد منهم وتداً وفي صدره وتداً. وأمر أصحاب أمشاط الحديد فشققوا بها لحومهم من أبدانهم، فذلك ما قال الله «تعالى»: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ﴾ يعني حزبييل ﴿سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ لما وشوا به إلى فرعون ليهلكوه ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهم الذين وشوا بحزبييل إليه لما أوتد فيهم الأوتاد ومشط عن أبدانهم لحومها بالأمشاط^(١).

وهل كانت دعوة موسى ومؤمن آل فرعون تتضمن فعلاً بالإيمان بنبوة نبينا «صلى الله عليه وآله» وإمامة الأئمة الاثني عشر من أهل بيته «عليهم السلام»؟ أعتقد أن هذا المقطع من الرواية -على أقل تقدير- من الموضوعات على لسان الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»، إن لم تكن الرواية برمّتها موضوعة على لسانه.

٢) تفسير علي بن إبراهيم: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال: كَتَمَ إيمانه ستمائة سنة، قال: وكان مجذوماً مكنعاً، وهو الذي قد وقعت أصابعه^(٢)، وكان يشير إلى قومه بيديه المكنوعتين ويقول: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. قوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ يعني مؤمن آل فرعون، فقال أبو عبد الله

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٦٠-١٦١.

٢. كنع يده: أشلها وأيبسها، ووقع الأصابع يأتي بسبب الجذام.

«عليه السلام»: والله لقد قطعوه إرباً إرباً ولكن وقاه الله أن يفتنوه في دينه»^(١).

من الواضح وقوع التعارض بين هذه الرواية والرواية السابقة، وكلاهما عن الصادق، «عليه السلام» فالأولى تشير إلى نجاة هذا المؤمن من وشاية آل فرعون، بينما تشير الثانية إلى تعرّضه للتعذيب، ونجاته من الكفر والرّدّة.

٣) قصص الأنبياء: (حزيبيل) جاء في هامش البحار: [في نسخة: «خربيل» في جمع الموارد] (هو مؤمن آل فرعون، أرسل فرعون رجلين في طلبه، فانطلقا في طلبه فوجداه قائماً يصلي بين الجبال، والوحوش خلفه، فأرادا أن يعجّلاه عن صلاته، فأمر الله دابة من تلك الوحوش كأنّها بغير أن تحول بينهما وبين المؤمن، فطردتهما عنه حتى قضى صلاته، فلما رآهما أوجس في نفسه خيفة وقال: «يا ربّ، أجري من فرعون فإنك إلهي، عليك توكلت وبك آمنت، وإليك أنبت، أسألك يا إلهي إن كان هذان الرجلان يريدان بي سوءً فسلب عليهما فرعون وعجل ذلك، وإن هما أراداني بخير فاهدهما» فانطلقا حتى دخلا على فرعون ليخبراه بالذي عايناه، فقال أحدهما: ما الذي نفعلك أن يقتل، فكنتم عليه، فقال الآخر: وعزّة فرعون لا أكنتم عليه، وأخبر فرعون على رؤوس الناس بما رأى وكنتم الآخر، فلما دخل حزيبيل قال فرعون للرجلين: من ربكما؟ قالوا: أنت، فقال لحزيبيل: ومن ربك؟ قال ربي ربهما، فظنّ فرعون أنه يعنيه ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾، وسرّ فرعون وأمر بالأول فصلب فنجّى الله المؤمن وآمن الآخر بموسى «عليه السلام» حتى قُتل مع السحرة»^(٢).

هناك مشكلتان في هذه الرواية، الأولى مصدرها، وهو كتاب قصص الأنبياء

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٦٢.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٦٢-١٦٣.

للراوندي بنسخته الموجودة بين أيدينا، وهو كتاب مليء بالافتراءات والأساطير، وقد بينت ذلك مراراً في كتابي هذا وسائر كتيبي... والثانية عبارة عن مجهولية مصدر الخبر (٤) ونقل المجلسي عن كتاب (عرائس المجالس): (قال الثعلبي: قالت الرواة: كان حزيبيل من أصحاب فرعون، نجاراً، وهو الذي نجر التابوت لأم موسى حين قذفته في البحر، وقيل: إنه كان خازناً لفرعون مائة سنة وكان مؤمناً مخلصاً يكتُم إيمانه إلى أن ظهر موسى «عليه السلام» على السحرة، فأظهر حزيبيل إيمانه، فأخذ يومئذ وقُتل مع السحرة صلباً، وأما امرأة حزيبيل فإنها كانت ماشطة بنات فرعون، وكانت مؤمنة. وروي عن ابن عباس أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: لما أُسري بي مرّت بي رائحة طيّبة، فقلت لجبرئيل: ما هذه الرائحة؟ قال: هذه ماشطة آل فرعون وأولادها كانت تمسّطها، فوقعت المشطة من يدها فقالت: بسم الله، فقالت بنت فرعون: أبي؟ فقالت: لا، بل ربّي وربّك وربّ أبليك، فقالت: لأخبرنّ بذلك أبي، فقالت: نعم، فأخبرته فدعا بها وبولدها وقال: مَنْ ربّك؟ فقالت: إنّ ربّي وربّك الله، فأمر بتّور من نحاس فأحى فدعا بها وبولدها، فقالت: إنّ لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنهما. قال: ذاك لك، لما لك علينا من حق، فأمر بأولادها فألقوا واحداً واحداً في التنور حتى كان آخر ولدها وكان صبيّاً مرضعاً، فقال: اصبري يا أمّاه إنك على الحق، فألقيت في التنور مع ولدها)^(١).

مجدداً، هناك أكثر من مشكلة في هذه الرواية، الأولى مصدرها، وهو كتاب عرائس المجالس للثعلبي، وهو أيضاً كتاب مليء بالافتراءات والأساطير، وقد بينت ذلك مراراً في كتيبي، والثانية هي مجهولية مصادر الأخبار والأقوال والمرويات، والثالثة وقوع الآية

(المعجزة) بنطق الصبي الرضيع بتلك الكلمات، وهو مجرد ادّعاء ليس عليه دليل ولا حُجّة، ولا يرجع إلى مصدر موثوق.

وأما في مصادر أهل السنة، فنجد على سبيل المثال الأقوال والروايات التالية:

(١) تفسير ابن كثير: (المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبلياً من آل فرعون. قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى. واختاره ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعّل لكلامه واستمعه، وكفّ عن قتل موسى «عليه السلام» ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة، لأنه منهم. وقال ابن جريج عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾^(١)، رواه ابن أبي حاتم. وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾^(٢)، فأخذت الرجل غضبة لله «عز وجل» و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾^(٣)، أي: لأجل أن يقول ربي الله)^(٤).

(٢) في تفسير الطبري خبر يكرّر جزئية تكلم ابن ماشطة بنات فرعون -وهو في المهد- والمفترض أنه ابن مؤمن آل فرعون أيضاً: (عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس،

١. سورة القصص: ٢٠.

٢. سورة غافر: ٢٦.

٣. سورة غافر: ٢٨.

٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٩٩.

قال: تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم «عليه السلام»^(١).

٣) تفسير القرطبي: (ذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب. وقيل: «شمعان»... وفي تاريخ الطبري «رحمه الله»: اسمه «خبرك». وقيل: «حزقيل»: ذكره الثعلبي عن ابن عباس وأكثر العلماء. الزمخشري: واسمه «سمعان» أو «حبيب». وقيل: «خربيل» أو «حزبيل». واختلف هل كان إسرائيلياً أو قبطياً، فقال الحسن وغيره: كان قبطياً. ويقال: إنه كان ابن عم فرعون، قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى «عليه السلام»، ولهذا قال: من آل فرعون، وهذا الرجل هو المراد بقوله «تعالى»: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى﴾^(٢) الآية. وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾^(٣) وروي عن النبي «صلى الله عليه وسلم» أنه قال: الصديقون: حبيب النجار مؤمن آل يس، ومؤمن آل فرعون الذي قال ﴿اتَّقُوا اللَّهَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ والثالث أبو بكر الصديق، وهو أفضلهم.... وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون، فلهذا لم يتعرض له بسوء. وقيل: كان هذا الرجل من بني إسرائيل يكتنم إيمانه من آل فرعون، عن السدي أيضاً^(٤).

وكما هو حال المرويات في كتب الإمامية، فإن هذه الأقوال والأخبار والمرويات لا تستند إلى دليل أكيد يطمأن إليه، وبينها تعارض واضح، ونقل عن القائل الواحد

١. الطبري: جامع البيان، ج ٧، ص ١٩١.

٢. سورة القصص: ٢٠.

٣. سورة القصص: ٢٠.

٤. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ١٥٢-١٥٣.

رأيان متعارضان. وأبسط مثال على التعارض بين الأقوال ما جاء حول اسم الرجل، والذي تردّد بين:

- | | | | |
|----------|----------|-----------|----------|
| ١. حزقيل | ٢. خرييل | ٣. حزبييل | ٤. سمعان |
| ٥. شمعان | ٦. حبيب | ٧. خبرك | |

• فرعون يأمر ببناء الصرح:

استمراراً للأخذ والردّ بشأن الموقف من النبي موسى «عليه السلام» ورسالته، يطلب فرعون من هامان أن يبني له بناء خاصاً، وقد ذكر هذا الحدث في القرآن مرتين:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمُوتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾^(١).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾^(٢)، وسنتحدث عن شخصية هامان هذا، وعن الإشكالات المطروحة بخصوصه في فصل لاحق، ولكن سنتوقف هنا عند طبيعة هذا البناء، والغاية منه.

الصرح المشار إليه في الآية الشريفة بمعنى القصر أو البناء المرتفع. وهنا احتمالان:

١. حيث أنّ الغالب في الآلهة أن تكون في السماء، كالشمس والقمر والزهرة، أو حيث قال موسى «عليه السلام» إن الإله الحق هو رب السموات، لذا أراد فرعون أن

١. سورة غافر: ٣٦-٣٧.

٢. سورة القصص: ٣٨.

يُفَنِّد ذلك بتهمة وسيلة للاطلاع على ما في السماء، ثم نَفَى عثوره على إله موسى... وغالبية المفسرين على هذا الرأي.

٢. الاحتمال الآخر طرحه ابن عاشور في تفسيره حيث احتمل أن يكون فرعون قد أمر ببناء ذلك الصرح لا لِقصد الارتقاء إلى السماء، بل ليخلو بنفسه ويعتزل عن الناس كما يفعل الكهنة عادة بغرض الرياضة الروحية، وليستمدّ الوحي من الربّ الذي ادّعى موسى أنه أَوْحَى إليه.

وعلى هذا يكون المراد من بلوغ الأسباب خصوص البلوغ الروحيّ بالارتقاء من خلال العزلة والرياضة الروحية، وليس جسدياً بالصعود إلى الأعلى. أي أنه أراد في هذه الأزمة الجدلية أن يتصدى بنفسه لرسالة موسى «عليه السلام» -دينياً- ليكون قوله الفصل في نَفَى وجود إله موسى، فيكون ذلك وسيلته لخداع الناس في نهاية المطاف.

والمراد من الإيقاد على الطين هو صناعة اللّين (الطابوق الطيني)، حيث كانوا يجعلون قوالب من طين يتصلّب إذا طُبَخ، وكانوا يخلطونه بالتبن ليتماسك قبل إدخاله التنور. وهذا الأسلوب في البناء ذُكر في الإصحاح الخامس من سفر الخروج من التوراة، وذُكر هناك أن بني إسرائيل كانوا يعملون في صناعة هذا اللين، وكان مطلوباً منهم أن يصنعوا كل يوم مقداراً معيّناً منها للاستفادة منها في تنفيذ المشاريع العمرانية، فإذا قصّروا عن الرقم المحدّد وقع العقاب [انظر اللوحات ٢٠-٢٣].

وبعد حوار دار بين موسى «عليه السلام» وفرعون، أصدر فرعون أمراً بمجرمان بني إسرائيل من الحصول على التبن ليُصعّب عليهم صناعة اللين، فيعاقب المسئولون المعيّنون من قبل السلطات، وكانوا من بني إسرائيل، ليعاقبوا بدورهم العمّال، فيكون



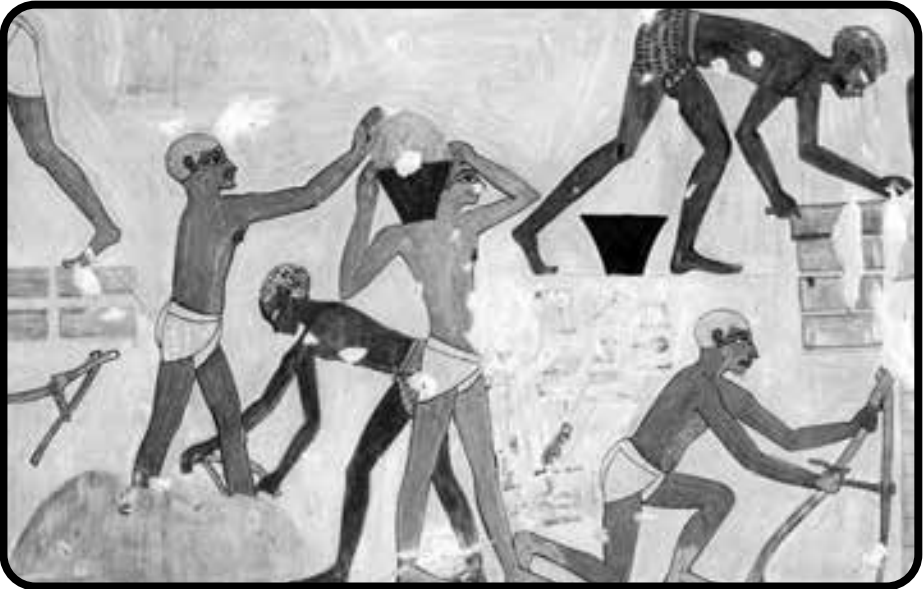
اللوحة رقم ٢٠ : من أبنية مصر القديمة، ويتّضح استعمال الطابوق الطيني



اللوحة رقم ٢١ : من آثار الطابوق الطيني في مصر القديمة



اللوحه رقم ٢٢ : لوحه جدارية توضّح كيفية صناعة الطابوق الطيني



اللوحه رقم ٢٣ : لوحه جدارية أخرى توضّح كيفية صناعة الطابوق الطيني

ذلك وسيلة ضغط، ولتأليبهم على موسى ورسالته.

تقول التوراة الحاضرة: (فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُسَخَّرِي الشَّعْبِ وَمُدَبِّرِيهِ قَائِلًا: «لَا تَعُودُوا تُعْطُونَ الشَّعْبَ تِبْنًا لِصُنْعِ اللَّبَنِ كَأَمْسٍ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ. لِيَذْهَبُوا هُمْ وَيَجْمَعُوا تِبْنًا لَأَنْفُسِهِمْ. وَمَقْدَارَ اللَّبَنِ الَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَهُ أَمْسٍ، وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسٍ تَجْعَلُونَ عَلَيْهِمْ. لَا تَنْقُصُوا مِنْهُ...») ونجحت خطة فرعون حيث صادف رؤساء العمال موسى وهارون: (فَقَالُوا لَهُمَا: يَنْظُرُ الرَّبُّ إِلَيْكُمَا وَيَقْضِي... أي كما نقول: (حسبي الله عليك)، وفي القرآن الكريم أنهم: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا...﴾ (١٢٩).

وعلى الرغم من صدور الأمر بتنفيذ المشروع، إلا أن فرعون استبق النتائج فقال: ﴿وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كُذِبًا﴾ كي لا يظن أحد أن دعوة موسى «عليه السلام» أوهنت منه يقينته بدينه وآلهته، حيث أن الانتهاء من الصرح سيستغرق وقتاً، فإذا لم يصرح بمثل هذا الكلام، فقد يستفيد الخصم من تنفيذ المشروع بتسويق أن فرعون لم يعد متيقناً من صحة معتقده.

وقد استعمل الظن في القرآن الكريم -في موارد متعددة- بمعنى العلم، لا الاحتمال الراجح، وذلك كما في قوله «تعالى»: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) (٢)، وقوله «تعالى»: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفْرُؤُوا كِتَابِيَةَ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي

١. سورة الأعراف: ١٢٩.

٢. سورة البقرة: ٤٥-٤٦.

مُلاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿٢٠﴾^(١)، وإنما عُبرَ عن العلم -في هذه الموارد- بالظن لأنه حاصل من خلال التفكير، لا من خلال الحس والتجربة المادية.

لذا فَإِنَّ قَصْدَ فرعون من قوله: ﴿وَإِنِّي لِأُظَنَّهُ كَذِبًا﴾ أنه متأكد من ذلك، ولكن تأكده هذا ناشئ من التفكير والبحث العقلي لا من خلال الأدلة المادية، ولذا فهو سيسعى للبحث عن الدليل المادي من خلال بناء هذا الصرح. وهذا أوفق بالاحتمال الأول من الغاية من صدور الأمر بالبناء.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي لم يكن فرعون صادقاً في البحث عن إله موسى من خلال بناء هذا الصرح، بل كان مخادعاً، وكان في قرارة نفسه أنه قد أحسن وأحكم هذه الخديعة، والواقع أنه إنما كان يخدع نفسه، وأن إصراره على الضلالة قاده إلى عدم الاهتداء، فمن يُضِلُّ الله فلا هادي له، وإنما جرى ذلك بسوء اختيار منه، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ أي هذا المشروع المخادع ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ خسران وهلاك.

وهل تمّ هذا البناء ونفذ فرعون ما أراد؟ لم يتحدث القرآن عن ذلك، وليس في التوراة ما يشير إلى مسألة طلب إقامة هذا الصرح من الأساس. واحتمل البعض أن المراد بهذا الصرح هو المسلات التي تُعرف بها مصر، لاسيما وأن رمسيس الثاني كان مهووساً بها، والكثير من المسلات الموجودة حالياً تعود إلى عصره، ولربما لُقّب فرعون موسى في القرآن بذي الأوتاد لهذا السبب، حيث تُشبه المسلات الأوتاد.

ولكن هذا الاحتمال غير سليم لجهات:

١. المسلات منحوتة من الحجر وليست بناءً من اللّين (الطوب = الطابوق الطيني)، بينما القرآن الكريم يصرّح بأنه بناء طيني الأصل.

٢. لا يمكن الصعود إلى الأعلى عبر المسلات ولا السكن والاستقرار فيها وفقاً للرأي الثاني للغرض من تشييد هذا الصرح، فهي غير مصمّمة لتكون قابلة لذلك، بينما القرآن الكريم يصرّح بأن الغرض منه هو الارتقاء إلى السماء.

٣. رمسيس الثاني وإن كان مهووساً بالمسلات، إلا أن بعض حكام مصر الذين كانوا من قبله، ومن بعده، أقاموا مسلات خاصة بهم، فهي مشيّدة لأغراض أخرى ترتبط بمعتقدات قدماء المصريين، ولا علاقة لها بالاطلاع على إله موسى، كما قال فرعون. ثم إن فكرة تسلّق فرعون لبرج أو سلّم للوصول إلى إله موسى، كما ذكر في القرآن، تتفق مع أساطير مصر القديمة، حيث يطلب الفرعون من الآلهة -أو الرجال- بناء سلّم أو برج من أجل الصعود والتحدث مع الآلهة.

يقول عالم المصريات السير «فليندرز بيتري» Sir Flinders Petrie في كتابه «الحياة الدينية في مصر القديمة» Religious Life In Ancient Egypt ما ترجمته: (تم التعبير عن الرغبة في الصعود إلى الآلهة في السماء من خلال إرادة ارتفاع السلم إلى الأعلى.... عندما أقبل الناس على عبادة الإله «رع»، ظهرت الرغبة في الانضمام إلى مجموعة من الآلهة الذين شكلوا حاشية «رع» في سفينته العظيمة في السماء)^(١).

وفي كتابه «السحر المصري» Egyptian Magic ينقل عالم المصريات «كريستيان جاك» Christian Jacq نصاً فرعونياً وترجمته كالتالي: (حال وقوفه أمام الآلهة،

1. Sir. F. Petrie, Religious Lie In Ancient Egypt, 1924, pp. 208-209.

يُظهر الفرعون سلطته. يأمرهم ببناء سلّم حتى يصعد إلى السماء. إذا لم يطيعوه، فلن يحصلوا منه على طعام ولا عطاءات. لكن الملك يأخذ احتياطاً واحداً. ليس هو نفسه -كفرد- من يتكلم، ولكنها القوة الإلهية: «لست أنا من يقول هذا لكم، بل الآلهة، إن السّحر هو الذي يحدث». عندما يُكمل الفرعون صعوده، والسّحر عند قدميه: «ترتعد السماء، وتهتز الأرض أمامي، لأنني ساحر، فأنا أملك السّحر». إنه هو أيضاً من يثبت الآلهة على عروشهم، مما يثبت أن الكون يعترف بكامل قوته^(١).

• إجراء وقائي ورسالي:

في مرحلة ما بعد المواجهة مع السحرة، أوحى الله «تعالى» لموسى وهارون بأن يشيّد بنو إسرائيل لأنفسهم بيوتاً وفق تصميم هندسي معين يتوافق مع الظروف المستجدة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وأرجع العلامة مكارم الشيرازي السبب في صدور هذا الأمر إلى أنّ بني إسرائيل كانوا في تلك المرحلة في صورة جماعة متشتتة خائفة مهزومة ومتطفلة وملوّثة بالشرك والأساطير، فلا مأوى لهم وليس لهم اجتماع مركزي، ولا برنامج معنوي بناء، ولا يمتلكون الشجاعة والجرأة اللازمة للقيام بثورة حقيقية. لذلك فإنّ موسى وأخاه هارون قد تلقوا مهمّة وضع برنامج في عدّة نقاط من أجل تطهير مجتمع بني إسرائيل، وخاصّة في الجانب الروحي، ويتلخّص في الآتي:

1. C. Jacq (Trans. J. M. Davis), Egyptian Magic, 1985, Aris & Phillips Ltd. & Bolchazy-Carducci Publishers: Chicago, p. 11.

٢. سورة يونس: ٨٧.

١. الاهتمام -أولاً- بمسألة بناء المساكن، وبمعزل عن مساكن المصريين، ليشعروا برابطة أقوى بهذه البلاد، ويخرجوا من حالة الإحساس بأن وجودهم وجود طارئ، فإن من شأن هذا الشعور بالانتماء أن يشجعهم على الدفاع عن أنفسهم. كما أن تأسيس هذه البيوت من شأنه أن ينقلهم من الحياة «الطفيلية» في بيوت المصريين إلى حياة مستقلة، ويحافظ على سرية مخططاتهم المستقبلية في مواجهة فرعون وجنده

٢. أن يبنوا بيوتهم متقاربة وبحيث يقابل بعضها البعض الآخر. لأن القبلة في الأصل بمعنى حالة التقابل، وإطلاق كلمة «القبلة» على ما هو معروف اليوم إنما هو معنى ثانوي لهذه الكلمة. ومن شأن ذلك أن يدفع إلى تجمع وتمركز بني إسرائيل، ويمكنهم من وضع المسائل الاجتماعية -عامّة- قيد البحث والتحقيق، وأن يجتمعوا مع بعضهم البعض لأداء المراسم الدينية، وأن يضعوا الخطط اللازمة للتحرر من نير فرعون وجنده

٣. التوجه إلى العبادة، وخاصّة الصلاة التي تُحرّر الإنسان من عبودية العباد، وتربطه بخالق كل القوى والقدرات، وتغسل قلبه وروحه من لوث الذنوب، وتُحيي فيه الشعور بالاعتماد على النفس، وعلى قدرة الله.

٤. إن هذه المهمة أوكلت إلى موسى باعتباره قائداً، ولغرض تخليص بني إسرائيل من أشكال الخوف والضعف التي كانت من إفرازات سنين العبودية والذلّة الطويلة، وكي يُربي وينمي فيهم الإرادة والشهامة والشجاعة، وذلك عن طريق بشارة المؤمنين بالفتح والنصر النهائي، وبلطف الله ورحمته^(١).

ولربما يضاف إلى ما ذكره العلامة مكارم الشيرازي بأن هذا التلاحم الداخلي في طريقة هندسة الأحياء الخاصّة ببني إسرائيل سيؤثر إيجاباً في مواجهة القرار الذي

١. مكارم الشيرازي: الأمثل، ج ٦، ص ٤٢٤-٤٢٥.

أصدره فرعون بقتل الأطفال الذكور. فمثل هذا الإجراء سيؤثر بيئة أكثر أمنًا وسرية أمام محاولات اكتشاف جنس كل مولود، واختطافه من أهله إن كان ذكراً، وفي إخفاء المواليد، وأمثال ذلك من إجراءات احترازية ودفاعية. كما ولعل ذلك يأتي في إطار وقائي لتجنب الآيات المهلكة التي ستعم البلاد ويراد تجنب بني إسرائيل من آثارها، أو عزلهم عنها في بيئة ومحيط اجتماعي خاص.

وهناك احتمال آخر لفهم الآية الشريفة، وهي تصميم أحياء بني إسرائيل بحيث يكون مكان العبادة في المركز، وتلتف بيوت الأسباط الاثني عشر حوله، كما حصل لاحقاً عند خروجهم من مصر، واتخاذهم خيمة الاجتماع بيتاً لله، كما جاء في التعاليم الواردة في الإصحاح الثاني من سفر التثنية من التوراة [انظر اللوحتين ٢٤-٢٥].

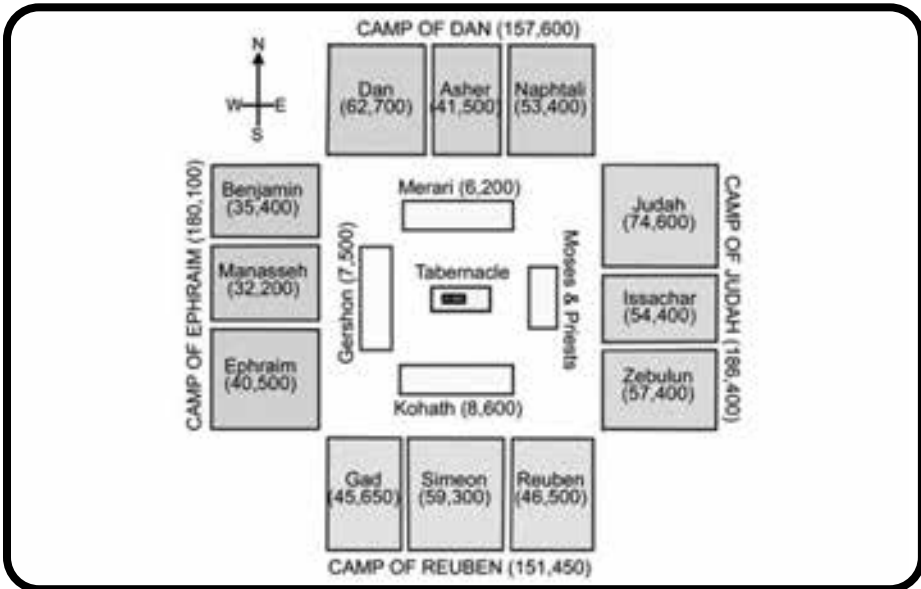
وهي صورة شبيهة بتصميم مدينة الكوفة في بدء تأسيسها، حيث عمدوا إلى تأسيس الجامع، ومن ثم قامت كل قبيلة باتخاذ حي لها في جهة من الجهات المحيطة بالمسجد. وللعلامة الطباطبائي التفاتة لطيفة في هذا المقام تختلف عما طرحه العلامة مكارم الشيرازي عندما ذكر أن بني إسرائيل كانوا يعيشون حياة طفيلية في بيوت المصريين، قال: (والمعنى: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذوا لقومكما مساكن من البيوت في مصر، وكأنهم لم يكونوا إلى ذاك الحين إلا كهيئة البدويين يعيشون في الفساطيط، أو عيشة تُشبهها...) (١).

ويساعد على هذا الاستنتاج نفس التعبير الوارد في الآية: ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾، فمن معاني كلمة (تبوأ) التوطن: (تبوأ المكان/ تبوأ بالمكان: توطّنه، نزله

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٠، ص ١١٥. والفساطيط جمع فسطاط، وهو بيت الشعر الذي يتخذه البدو العرب وغيرهم مسكناً متقللاً لهم في الصحراء، ويكون مفتوحاً من الجهة الأمامية بشكل كامل.



اللوحة رقم ٢٤ : خيمة الاجتماع ومن حولها الأسباط



اللوحة رقم ٢٥ : خيمة الاجتماع ومن حولها الأسباط

وأقام به^(١)، وهذا يعني أنهم كانوا قبل ذلك في حالة من عدم الاستقرار، وانتقلوا إلى حالة التوطن عندما صدر الأمر الإلهي واتخذوا البيوت بعد أن كانوا يعيشون في الفساطيط، على خلاف ما هو متوقع، وعلى عكس المطلب المتكرر من قبل موسى «عليه السلام» الذي كان يصر على فرعون أن يطلق قومه للخروج والهجرة من مصر وهل كان هذا وضعهم منذ قدومهم إلى مصر على عهد يوسف؟ هذا بعيد جداً بلحاظ قوله «تعالى»: ﴿.. وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ...﴾^(٢)، فالخروج من حالة (البدو) إلى التمدن تستدعي التوطن باتخاذ البيوت المبنية لا استمرار المعيشة في الفساطيط التي إنما تُتخذ بيوتاً بلحاظ الرغبة في عدم الاستقرار وسهولة الانتقال من موضع إلى آخر بحثاً عن الكلاً والماء. ومن المحتمل أن بني إسرائيل بعد تبدل أحوالهم بسقوط دولة الهكسوس، قد أُجبروا على وضع غير مستقر، ل يتم استعبادهم وتوظيفهم في المشاريع المختلفة من قبل المصريين وفي مناطق متعددة من البلاد بحسب ما تستدعيه الحاجة، فأراد الله «تعالى» لهم أن يقوموا ببناء مساكن ثابتة وفق التخطيط المذكور وللأهداف التي أشرنا إليها من قبل. ولعل هذا يؤيد ما سنذكره من طول المدة التي استقرّوا فيها بمصر بعد مواجهة السحرة وخلال فترة توالي الآيات الإلهية المدمّرة، إذ ليس من المنطقي أن يُطلب منهم البناء الذي سيأخذ وقتاً ويكلف أموالاً ثم يفاجأون بعد أسابيع قليلة بالأمر بالخروج والهجرة من مصر.

وأعقب هذا الأمر الإلهي باتخاذ البيوت -بحسب سياق الآيات الشريفة- أن قام

١. معجم اللغة العربية المعاصر، مادة (بوأ).

٢. سورة يوسف: ١٠٠.

موسى «عليه السلام» بالدعاء على فرعون وملئه، واستجاب الله «تعالى» له: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾^(١). وتحديد توقيت صدور هذا الدعاء في سلسلة الأحداث غير معلوم على نحو الدقة، ولكن من المحتمل جداً أنه جاء بعد توالي الآيات وإصرار فرعون وأعدائه على الكفر والعناد، حيث نجد أن دعاء موسى «عليه السلام» يتضمن طلب الشد على قلوبهم، أي أن تقسو قلوبهم ويربط عليها ربطاً لا ينشرح للحق، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وحيث أن الطمس هو وقوع التغير على نحو الاندثار والفناء والزوال، فسيكون معنى ﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي افنها - يارب - وأزلها.

قال العلامة الطباطبائي: (فمعنى الآية: وقال موسى - وكان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون وملئه وبقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال والإضلال كما يدل عليه سياق كلامه في دعائه: ربنا إنك جازيت فرعون وملأه على كفرهم وعتوهم جزاء السوء، فآتيتهم زينةً وأمواً في الحياة الدنيا، ربنا إرادة منك لأن يضلوا من اتبعهم عن سبيلك، وإرادتك لا تبطل، وغرضك لا يلغو. ربنا آدم على سخطك عليهم واطمس على أموالهم وغيرها عن مجرى النعمة إلى مجرى النقرة، واجعل قلوبهم مشدودة مربوطة، فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفاً لا ينفعهم الإيمان، وهو زمان يرون فيه العذاب الإلهي).

وهذا الدعاء من موسى «عليه السلام» على فرعون وملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم، وعلمه أنه لا يترقب منهم في الحياة إلا أن يضلوا ويضلوا، كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝﴾

إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾^(١)، وحاشا ساحة الأنبياء «عليهم السلام» أن يتكلموا على الحرص^(٢) والمظنة في موقف يشافهون فيه رب العالمين جلّت كبرياؤه وعز شأنه.....

ولم يكن في الدعاء ما يدل على مسألة الفور أو التراخي في القضاء عليهم بالعذاب. وعلى ذلك جرى أيضاً سياق الآية الدالة على القبول والإجابة وكذا الآية المخيرة عن كيفية إنجازه.

وقد نقل في المجمع^(٣)، عن ابن جريج: أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة: قال: وروي ذلك عن أبي عبدالله «عليه السلام» ورواه^(٤) عنه «عليه السلام» في الاحتجاج، وكذا في الكافي، وتفسير العياشي، عن هشام بن سالم عنه «عليه السلام»، وفي تفسير القمي، عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عنه «عليه السلام»^(٥).

ووعده الله «تعالى» موسى استجابة دعائه، وهو ما أخبرت به الآية اللاحقة، شريطة أن يستمر هو وأخوه في هذا الطريق مع الحفاظ على الاستقامة وعدم الانحراف والتلكؤ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾^(٦).

ويؤكد تحقق هذا الوعد الإلهي ما جاء في سورة أخرى حول مصير فرعون وما كان يتمتع به من مال الدنيا وزينتها: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا

١. سورة يونس: ٨٨.

٢. الحرص: الكذب أو الظن.

٣. أي تفسير مجمع البيان للطبرسي.

٤. أي الطبرسي في كتابه الاحتجاج.

٥. الطباطبائي: الميزان، ج ١٠، ص ١١٦-١١٧.

٦. سورة يونس: ٨٩.

بِآيَاتِنَا وَكَأْنُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾^(١).

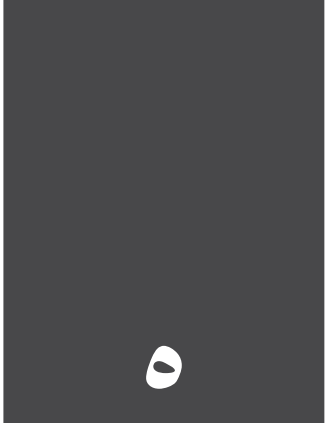
• نتائج الفصل و خلاصته:

- بعد فشل مواجهة السحرة، عقد فرعون اجتماعاً بالملأ بغرض التآمر على موسى وبني إسرائيل، والبحث عن مخرج من الورطة الكبيرة التي أوقع نفسه فيها.
- اقترح فرعون أن يقتل الذكور من أبناء بني إسرائيل للضغط على موسى، وتأليب قومه عليه.
- لم يوضح القرآن الكريم هوية الرجل المؤمن الذي حاول التأثير على فرعون والملأ ليؤمنوا بموسى ورسالته، ولكن ظاهر الآيات أنه كان من أهل مصر، وذا نفوذ في البلاط الفرعوني، وقد اضطر في نهاية المطاف أن يُفصح عن إيمانه.
- دور مؤمن آل فرعون شبيه بدور أبي طالب عم رسول الله في الدفاع عن الرسول والرسالة، وممارسة التقية.
- لم تتعرض التوراة للحديث عن هذه الشخصية، وإن أشارت إلى وجود نوع من المعارضة لفرعون صدرت عمّن أسمتهم (عبيد فرعون).
- المرويات الإسلامية متعارضة في التفاصيل التي حملتها حول هذه الشخصية، من قبيل الاسم، والانتماء، وطبيعة الدور الذي قامت به.
- أمر فرعون هامان أن يبني له صرحاً مُشيداً من اللّين، والغرض من ذلك بحسب

التعبير القرآني هو الاطلاع على إله موسى، وقد اقترح ابن عاشور أن يكون مراده من ذلك خوض تجربة (روحية) بالاعتزال في ذلك الصرح في محاولة لاكتشاف (إله موسى)، وعلى هذا، فليس من الضروري أن يكون ذلك الصرح خارق الارتفاع.

○ وفي مقابل هذا الرأي، فإن غالبية المفسرين على أن الغاية من هذا البناء المرتفع هي رغبة فرعون في التأكيد على عدم وجود (إله موسى)، وذلك عن طريق اعتلاء الصرح المرتفع في السماء.

○ بعد مواجهة السحرة، والتأمر على موسى وبني إسرائيل، صدر الأمر الإلهي لبني إسرائيل بأن يشيّدوا لأنفسهم بيوتاً وأن يتخذوها قبلة، ولعل في ذلك إشارة إلى طول مدة المرحلة المقبلة في المواجهة مع فرعون، على خلاف ما يظهر من التوراة، وإلى تأسيس بني إسرائيل لمجتمعهم الخاص، بهدف تحقيق الترابط الاجتماعي فيما بينهم، ونشر وترسيخ الحالة الإيمانية، ومحاولة الدفاع عن أنفسهم وحماية أطفالهم الذكور من القتل وفقاً لما هدّد به فرعون من قبل.



هامان

هامان

• موضوعات هذا الفصل:

- مقارنة بين هامان في القرآن الكريم، وهامان في الكتاب المقدس.
- ادّعاء وقوع القرآن الكريم في إشكالية الخلط بين شخصيتين عاشا في زمنين مختلفين، ومكانين متباينين تماماً.
- ما هي الردود على هذه الإشكالية؟
- كيف كانت نهاية هامان بحسب القرآن الكريم؟

• هامان بين القرآن والكتاب المقدس:

جاء ذكر «هامان» في القرآن ٦ مرات، في ثلاث سور قرآنية، هي القصص والعنكبوت وغافر، ومقروناً في كل مرة بذكر فرعون، وفي مرتين من المرات الست اقترن ذكر قارون بذكره أيضاً، وذلك وفق البيان التالي:

(١) سورة القصص: ﴿وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٦) (١).

(٢) سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) (٢).

(٣) سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨) (٣).

(٤) سورة العنكبوت: ﴿وَعَادًا وَثُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) (٤).

(٥) سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤١) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٤٢) (٥).

١. سورة القصص: ٦.

٢. سورة القصص: ٧-٨.

٣. سورة القصص: ٣٨.

٤. العنكبوت: ٣٨-٤٠.

٥. غافر: ٢٣-٢٤.

٦) سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾^(١).

ولكن عندما نعود إلى الكتاب المقدس فإننا لن نجد حديثاً عن شخصية في البلاط الفرعوني تحمل هذا الاسم ضمن سيرة النبي موسى «عليه السلام» أو في العهد القريب منه، بل سنجد شخصية هامان حاضرة في قصة مدوّنة في سفر «إستير»^(٢)، والتي تعود أحداثها إلى ما بعد عهد النبي موسى بقرابة تسعة قرون، وفي منطقة جغرافية بعيدة تماماً عن مصر، وهي مدينة (شوش) الواقعة في إيران حالياً، وضمن تفاصيل وأحداث لا علاقة لها بموسى وفرعون!

هذه المقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس دفعت ببعض المستشرقين إلى القول بأن النبي «صلى الله عليه وآله» قد وقع في خطأ تاريخي فاحش -حين صدرت عنه هذه الآيات القرآنية بحسب زعمهم- نتيجة خلطه بين أسماء الشخصيات والأحداث والأزمنة، ولربما بسبب سوء الحفظ عن ظهر غيب لما تلقاه عن بعض الأخبار والرهبان خلال فترة شبابه مما استرجعه خلال فترة دعوته للإيمان بنبوته.

الدكتور «آدم سيلفرشتاين» Adam Silverstein -وهو زميل كلية «كوينز» بنيويورك ومحاضر أبحاث جامعية في كلية الدراسات الشرقية بجامعة أكسفورد- في بحث صدر عام ٢٠٠٨ تحت عنوان «انتقال هامان من الجاهلية إلى الإسلام» Haman's Transition from The Jahiliyya to Islam، والمنشور لصالح

١. غافر: ٣٦-٣٧.

٢. سنتعرض للقصة لاحقاً.

كلية العلوم الإنسانية في الجامعة العبرية في القدس^(١)، يذكر أن الأب «لودوفيكو ماراشي» Ludovico Marracci «ت ١٧٠٠م» هو أول باحث قام بالتعرض إلى هذه المسألة والمقارنة بين هامان القرآن وهامان الكتاب المقدس.

والأب «ماراشي» راهب إيطالي من روما، وكاهن الاعتراف الخاص بالبابا «إنوسنت» الحادي عشر، والمختص في مجال القرآن في عصور ما قبل العصر الحديث. ونقل «سيلفرشتاين» عنه نصاً يتهم فيه النبي «صلى الله عليه وآله» أيضاً باقتباس قصة برج بابل من التوراة وإقحامها في قصة موسى وفرعون حيث قال «تعالى»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٢).

إلا أنه يبدو أن القاضي «بيدرو دي لا كافاليريا» Pedro de la Cavalleria قد سبق ماراشي بقراءة ٢٥٠ سنة في طرح هذه الإشكالية في عمل أنجزه عام ١٤٥٠م وبعنوان «حماسة المسيح ضد اليهود والمسلمين والكفار»، Christ's Zeal Against Jews, Saracens, and Infidels ونُشر في البندقية في عام ١٥٩٢، وتضمن في البين كلاماً مسيئاً للنبي «صلى الله عليه وآله»^(٣).

ومثل «ماراشي» و«دي لا كافاليريا» قام المستشرق الإنجليزي «جورج سيل» George Sale «ت ١٧٣٦م»، الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية سنة ١٧٣٤ م، ومؤلف (القاموس العام) The General Dictionary بإثارة هذه الإشكالية معتبراً أنه من المستحيل إقناع المسلمين بأن محمداً قد ارتكب خطأ في ذلك بحسب زعمه.

1. Silverstein: Haman's Transition from The Jahiliyya to Islam, p287.

٢. سورة غافر: ٣٦.

3. www.islamic-awareness.org/quran/contrad/external/haman

وأشار شيخ المستشرقين الألمان «ثيودور نولدكه» Theodor Nöldeke «ت ١٩٣٠م» إلى أن أكثر اليهود جهلاً لن ينسب وزير الملك الفارسي هامان ليكون وزيراً لفرعون أما الباحث الكلداني «هرمز منغنا» الشهير بـ «ألفونس منغنا» Alphonse Mingana «ت ١٩٣٧م»، وهو يستعرض «المفارقات» القرآنية -بحسب زعمه- في قصة بني إسرائيل فقد قال أنّ من الطبيعي أن يُصاب قاريء القرآن -من المسيحيين واليهود- بالدهشة حين يجد فيه أن هامان كان وزيراً لفرعون وليس للامبراطور الأخميني أحشويروش (= أجزركسيس الكبير = زركسيس = Assueru).

واعتبر المستشرق البلجيكي «هنري لامنس» Henri Lammens «ت ١٩٣٧م» والمتخصص في التاريخ الإسلامي أن هذه المقولة في القرآن بمثابة -مفارقة تاريخية صارخة- وأنها جاءت نتيجة «للخلط بين هامان وزير الملك أحشويروش، وبين وزير فرعون موسى»^(١).

وعلى خطاهم سار الألماني «جوزيف هوروفيتز» Josef Horovitz «ت ١٩٣١م»، والأمريكي «تشارلز كتلر توري» Charles Cutler Torrey «ت ١٩٥٦م»، و«آرثر جيفري» Arthur Jeffery «ت ١٩٥٩م».

وجاء في «موسوعة الإسلام» The Encyclopaedia Of Islam تحت عنوان «هامان»: (اسم شخص يربطه القرآن بفرعون، نتيجة خلط -لم يمكن تفسيره إلى الآن- مع شخصية وزير الملك أحشويروش في سفر إستير من الكتاب المقدس)^(٢).

1. www.islamic-awareness.org/quran/contrad/external/haman

2. Encyclopaedia Of Islām: A Dictionary Of The Geography, Ethnography And Biography Of The Muhammadan Peoples, 1936, Volume III, E. J. Brill: Leyden & Luzac & Co.: London, pp. 244-245.

وتعود الموسوعة لتكرار ذات الادعاء تحت عنوان «فرعون»^(١).

وبالعودة إلى بحث الدكتور آدم سيلفرشتاين نجده يشير إلى الخطأ الذي وقع فيه المؤرخون المسلمون نتيجة ما اعتبره «مغالطة» التي وقع فيها القرآن بالخلط بين هامان وزير الملك أحشويروش وبين وزير فرعون موسى، مستشهداً بكلام المؤرخ المسلم المطهر ابن طاهر المقدسي «ت ٣٥٥ هـ» حيث قال: (وسمعت القصاص يزعمون أن فرعون كان من أهل بلخ) مدينة صغيرة في أفغانستان (وهامان من سرخس) مدينة تاريخية في تركمنستان وتقابلها في إيران مدينة تحمل ذات الاسم (وأنها أول من حمل بزر البطيخ إلى مصر، فزرعا وتمولاً واستوليا على المقابر، لا يدعان ميتاً يُقبر إلا بجعل) أي مقابل ثمن (ثم ملك فرعون واستوزر هامان، والله أعلم)^(٢).

علماً بأن المقدسي عَقَّب كلامه هذا مباشرة بقوله: (وقد قلت لك في غير موضع من هذا الكتاب أنّ ما من هذه الأقاصيص والأخبار فاستمعها وأعرض عنها، ولا تشتغل بالاعتلال بها) بحث عللها ومحاولة تفسيرها (وطلب المخرج لمعانيها، لأنها لا توجب علماً ولا عملاً)^(٣)، ولكن سيلفرشتاين لم يُشر إلى ذلك.

ثم نقل سيلفرشتاين -وبشكل مختصر- قصة أخرى عن كتاب (المبتدأ في قصص الأنبياء) لمحمد بن عبدالله الكسائي «ت ٣٥٠ هـ» وفيها أن فرعون موسى -قبل أن يصبح فرعوناً- قامر في بعض الأيام، فخسر كل شيء، بما في ذلك قميصه الذي يرتديه، وبقي في خَلْقٍ لا يستره؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك؛ فهرب حتى صار إلى قرية

1. p. 917.

٢. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٣، ص ٨١-٨٢.

٣. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٣، ص ٨٢.

من قرى مصر؛ وتتوالى مغامراته إلى أن وقع في قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر ويطلب أرباب الجنائز بشيء، ويُظهر أنه يأمر بذلك بإذن الملك؛ ففعل ذلك مدة حتى اجتمع له مال عظيم؛ واتَّخذ له أعواناً، فماتت ابنةُ الملك؛ فحُمِلت إلى المقبرة، فتعلَّق بها أعوان فرعون على العادة لأخذ الإتاوة؛ فاتَّصل الخبر بالملك؛ فأمر بإحضاره وأراد قتله؛ فقَصَّ عليه قصَّته، وفدى نفسه بما جمعه من المال؛ فعُظِّم عند الملك، وأقرَّه على عمله؛ ثم ما لبث أن استولى على الحكم، وأتاه إبليس وسجد بين يديه، وسَمَّاه إلهاً ورباً، ثم سجد له هامان والوزراء والملوك والأعوان وغيرهم؛ وبعث إلى أسباط بني إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له؛ قاصدين السجود لله «تعالى» لا لفرعون.

وأضاف الكسائي أن فرعون كان يعبد الثور، والقبط يعبدون الأصنام، وبنو إسرائيل يعبدون الله؛ فبلغه ذلك، فأحضر عبَّادهم وقال: قد بلغني أنكم مطيعون لي في الظاهر، مخالفون لي في الباطن، فاسجدوا لي. فأبوا ذلك، وكان فيهم جماعة من أولاد يوسف ويهوذا، فقتلهم، ثم قتل خلقاً كثيراً، وتبعه الباقون وأسروا الإيمان؛ ثم إن فرعون استعبد الناس ووضع عليهم الخراج الكثير، وشقَّ عليهم في الأعمال^(١).

واعتبر سيلفرشتاين أن بعض تفاصيل هذه القصة دليل على وقوع الخلط عند المؤرخين المسلمين بين قصة إستير وهامان -وهي القصة التي سنذكرها لاحقاً في المقدمة الأولى- وبين قصة فرعون موسى وهامان، وأن سبب هذا الخلط هو القرآن نفسه.

ويأتي هذا من سيلفرشتاين على الرغم من أن الكسائي إنما ينقل هذه القصة عن

١. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ٣٣٤-٣٣٥. نقلاً عن كتاب المبتدأ في قصص الأنبياء «عليهم الصلاة والسلام».

وهب بن منبّه اليهودي، فمن الذي دخل على الخط ليُحدث مثل هذا الخلط لدى المؤرّخين المسلمين؟

ومن أجل استيضاح هذه المسألة وردّ هذه الشبهة عن القرآن الكريم، نحن بحاجة إلى استعراض بعض المقدمات التمهيدية، ومن ثمّ الانتقال إلى النتيجة، علماً بأن وقوع بعض المؤرخين المسلمين كالمقدسي والكسائي، بل وبعض المفسّرين، في أخطاء تاريخية فادحة لا يتحمّل القرآن وزرها، لأنهم سقطوا -أحياناً- في حبائل القصاصين ومسلمة أهل الكتاب ممن تعمّدوا تزيف الحقائق أو وضع الأساطير أو خلط المعلومات، وهو ما أكدت عليه في هذا الكتاب أكثر من مرة، كما أن بعض المفسرين والمؤرخين -على الرغم من عدم اطلاعهم المباشر على كتب اليهود والنصارى وجهلهم باللغة العبرية والآرامية- كانوا حذرين أحياناً ومنتهيين إلى ما قام به رواة الإسرائيليات والمسيحيات والقصص الأسطورية، ويشيرون من وقت لآخر إلى هذه النقطة، ويحدّثون من الاغترار بمروياتهم، ويذكرون أنهم إنما يأتون بها للمعرفة والعرض لا للتصديق بمضامينها والأخذ بها.

• سفر إستير:

يذكر قاموس الكتاب المقدس أن إستير -وليس هذا اسمها الأصلي بل اسمها «هدّسة» أي شجرة الآس- كانت فتاة إسرائيلية جميلة، وهي ابنة أبيجائل من ذرية «سبط» بنيامين ابن النبي يعقوب. تبيّنت في صغرها، فأحضرها ابن عمّها مردخاي -الذي تبناها- إلى شوشن (= سوسة = سوس) التي كانت عاصمة المملكة الفارسية في القرن الخامس قبل الميلاد.

وأما اسمها الآخر «إستير» فقد اختلف في أصله، بين أن يكون من أصل هندي

قديم، ومعناه «سيدة صغيرة»، ثم انتقل إلى الفارسية وأصبح معناه كوكب أو نجم، وبين أن يرجع إلى أصل أكادي-أي من العراق القديم- وهي كلمة «أشتار = عشتار» ويقابلها في العبرية «عشتاروت = عشتاروث»، وبالإنجليزية ستار Star.^(١)

وفي كتاب التفسير التطبيقي للكتاب المقدس نجد أن قصة إستير تبدأ في ٤٨٣ ق.م. بعد مرور ١٠٣ سنوات على سبي نبوخذ نصر لليهود، وبعد مرور خمس وخمسين سنة على قيادة «زربابل» لأول مجموعة من المسييين للعودة إلى أورشليم «= القدس»^(٢).

عاشت إستير في مملكة فارس، حيث كان والدها من بين المسييين الذين لم يرغبوا في العودة إلى ديارهم التي سُبوا منها، رغم أن الملك الفارسي كورُش كان قد أصدر مرسوماً يسمح لهم بذلك. لقد كان المسييون من اليهود يستمتعون بقسط وافر من الحرية في الدولة الفارسية، وبقي الكثير منهم فيها، لأنهم كانوا قد أسسوا أعمالاً ناجحة، أو لأنهم خافوا من مخاطر رحلة العودة إلى الوطن.

وتعاقب الملوك على عرش فارس بعد كورُش، وكان أحشويروش خامس ملوك فارس «٤٨٦-٤٦٥ ق.م» وقصره الشتوي في مدينة شوشن من إقليم خوزستان حالياً. وتحدثت القصة عن أنه أقام وليمة لكبار الشخصيات، وإذ لعبت الخمر برأسه، أمر أن تُحضّر زوجته الملكة «وشي» كي يرى الرجال جمالها الرائع. وحيث رفضت الملكة ذلك، نبذها الملك وأمر بأن يبحثوا له من بين فتيات مملكته من يمكن لها أن تكون الملكة الجديدة، فتمّ اختيار إستير من بين كل الفتيات، ونُصبت ملكة في عام ٤٧٩ ق.م. دون أن يعلم الملك أنها يهودية من بني إسرائيل، وصار ابن عمها مردخاي حاجباً له.

1. st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/01_A/A_242.html

٢. مجموعة محررين: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ١٠٥٣.

هنا يبرز اسم هامان في القصة، وهو هامان بن همدان الأجاجي، والذي استطاع أن يكسب ثقة الملك بشكل كبير، دون أن توضح القصة سبب ذلك: (وَبَعْدَ ذَلِكَ رَفَعَ الْمَلِكُ أَحْشَوِيرُوشَ مِنْ مَقَامٍ وَعَظْمَةٍ، وَجَعَلَ مَرْتَبَتَهُ فَوْقَ مَرَاتِبِ جَمِيعِ رُؤَسَائِهِ الْآخَرِينَ، فَصَارَ جَمِيعُ رِجَالِ الْمَلِكِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَ بَابِ الْمَلِكِ يَنْحَنُونَ وَيَسْجُدُونَ لِهَامَانَ بِمُوجِبِ أَمْرِ الْمَلِكِ. أَمَّا مُرْدَخَايُ فَأَبَى أَنْ يَنْحَنِيَ أَمَامَهُ وَيَسْجُدَ لَهُ)^(١) ومنذ تلك اللحظة بدأ الصراع بين الرجلين، لاسيما بعد أن اكتشف هامان الأصل اليهودي لمردخاي.

وبحسب بعض شارحي الكتاب المقدس فإن هامان من نسل ملك قبيلة العماليق العربية، ولذلك لُقِّب بالأجاجي، نسبة إلى «أجاج» ملك العماليق الذي تهاون الملك الإسرائيلي طالوت «= شاول» في قتله، فقطعه النبي صموئيل^(٢)، ومن جهة أخرى فإن مردخاي نفسه من ذرية والد طالوت. من هنا اعتُبر أن العداء بين هامان الأجاجي ومردخاي الإسرائيلي يعود بجذوره إلى مئات السنين.

إلا أن شرّاحاً آخرين للكتاب المقدس خطأوا هذه المعلومة، معتبرين أن لقب أجاجي ليس نسبةً لملك العماليق، بل لمقاطعة فارسية تحمل ذات الاسم. وعلى كل حال، وفي أجواء هذا الصراع، عمل هامان على أن ينتقم لنفسه، لا بقتل مردخاي فحسب، بل بإبادة كل اليهود في كل أنحاء الإمبراطورية.

ومن خلال بعض الدسائس، أقنع هامان الملك بما كان يدور في رأسه، وأصدر أمراً -كتبه هامان- يتضمن إبادة كل اليهود في الإمبراطورية الفارسية، بما في ذلك الساكنين بعيداً في ديارهم. وكان هذا القرار كفيلاً بإبادة اليهود، إلا أن تدخل الملكة

١. الكتاب المقدس: سفر إستير، الأصحاح ٣، ١-٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر صموئيل الأول، الأصحاح ١٥، ٨ - ٣٣.

إستير لحماية بني ملتها حال دون ذلك، إذ أقنعت الملك -وهو تحت تأثير الحمرة- أنه ما لم يكن من الممكن إلغاء أمر الإباداة، فليصدر الملكُ إذنًا لليهود بأن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يردّوا الاعتداء الواقع عليهم إن شاءوا ذلك. ولم تكتفِ الملكة بذلك، بل حرّضت على هامان، فأمر الملك بقتله مصلوباً، ووهبها كل ممتلكاته.

يقول سفر إستير: (وَجَمَعَ الْيَهُودُ فِي مَدْنِهِمْ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ دِيَارِ الْمَلِكِ أَحْشَوِيرُوشَ لِيَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ضِدَّ السَّاعِينَ لِإِيْدَائِهِمْ، فَلَمْ يَجْزُوا أَحَدٌ عَلَى مُجَابَهَتِهِمْ لِأَنَّ الرُّعْبَ مِنْهُمْ هَيَمَنَ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَقَامَ رُؤَسَاءُ الْأَقَالِيمِ وَالْحُكَّامُ وَالْوُلَاةُ وَوُكَلَاءُ الْمَلِكِ بِمُسَاعَدَةِ الْيَهُودِ خَوْفًا مِنْ مُرْدَخَايَ، لِأَنَّهُ أَصْبَحَ يَتَمَتَّعُ بِنُفُوذٍ عَظِيمٍ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ، وَدَاعَ صَيْتُهُ فِي كُلِّ الْأَقَالِيمِ، بَعْدَ أَنْ تَزَايَدَتْ شُهْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ. وَقَهَرَ الْيَهُودُ جَمِيعَ أَعْدَائِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ بِالسَّيْفِ وَأَهْلَكُوهُمْ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا شَاءُوا، فَأَبَادُوا فِي الْعَاصِمَةِ شُوشَنَ خَمْسَ مِئَةِ رَجُلٍ. كَمَا قَتَلُوا فَرَشَنْدَاثًا وَدَلْفُونََ وَأَسْفَاثًا، وَفُورَاثًا وَأَدَلْيَا وَأَرِيدَاثًا، وَفَرَمَشْتَا وَأَرِيسَايَ وَأَرِيدَايَ وَبِزَاثًا، وَهُمْ عَشْرَةُ أَبْنَاءِ لِهَامَانَ بْنِ هَمْدَاثَا عَدُوِّ الْيَهُودِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوا إِطْلَاقاً عَلَى النَّهْبِ)^(١).

ولم تكتفِ إستير بما سبق، بل طلبت من الملك أن يصلب أبناء هامان العشرة، فكان لها ما طلبت.

وتختتم قصة إستير وهامان كالآتي: (ثُمَّ اجْتَمَعَ الْيَهُودُ الْمُقِيمُونَ فِي الْعَاصِمَةِ شُوشَنَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ أَيْضاً مِنْ شَهْرِ آدَارَ، وَقَتَلُوا ثَلَاثَ مِئَةِ رَجُلٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَى النَّهْبِ. كَمَا تَأَزَّرَ الْيَهُودُ الْبَاقُونَ الْمُنتَشِرُونَ فِي أَقَالِيمِ الْمَلِكِ وَدَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَرَاخُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفاً مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوا

١. الكتاب المقدس: سفر إستير، الأصحاح ٩، ٢-١٠.

عَلَى النَّهْبِ. حَدَثَ هَذَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ آذَارَ، وَاسْتَرَأَوْا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْهُ، حَيْثُ احْتَفَلُوا فِيهِ شَارِبِينَ فَرِحِينَ^(١).

من خلال العرض السابق، نجد أن كل التفاصيل المتعلقة بالزمن والمكان الذي عاش فيه هامان الأجاجي هذا، وما جرى له من أحداث، غير متوافقة مع شيء مما تحدّث عنه القرآن حول هامان، وأن الأجاجي لا يمت بصلة إلى هامان الذي يتحدث عنه القرآن بوصفه أحد معاو尼 فرعون الذي عاصره النبي موسى «عليه السلام».

• الدقة في القرآن:

مما يجب أن نأخذه بعين الاعتبار ونحن نناقش هذه المسألة، أن بعض المستشرقين في حين أنهم يحاولون أن يصفوا موارد من القرآن بأنها «مفارقات وأخطاء تاريخية فادحة» نجدهم يتغافلون عن الدقة في القرآن والتي تتعارض فيها المعلومة مع ما في الكتاب المقدس، بينما تتوافق مع المعطيات التاريخية.

من أمثلة ذلك أن الله «سبحانه وتعالى» عندما يعرض قصة النبي يوسف «عليه السلام» فإنه لا يعبر عن حاكم مصر بعنوان «فرعون» على الرغم من أن هذا هو اللقب الذي يشتهر به حكامها، بل ونجد أن التوراة الحاضرة تتحدث عن حاكم مصر على عهد النبي يوسف «عليه السلام» بعنوان «فرعون».

قال «تعالى»: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ... وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّلَاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ... قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ

١. الكتاب المقدس: سفر إستير، الأصحاح ٩، ١٥-١٧.

جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٦﴾ ... كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... ﴿٧٦﴾ ﴿١﴾.

أما في التوراة فنجد أن حاكم مصر على عهد النبي يوسف يسمى فرعون: (فَقَالَا لَهُ: «حَلُمْنَا حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعْبَرُهُ». فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ: «أَلَيْسَتْ لِلَّهِ التَّعَابِيرُ؟ قُصَا عَلَيَّ». فَقَصَّ رَئِيسُ السُّقَاةِ حُلْمَهُ عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «كُنْتُ فِي حُلْمِي وَإِذَا كَرْمَةٌ أَمَامِي. وَفِي الْكَرْمَةِ ثَلَاثَةُ قُضْبَانٍ، وَهِيَ إِذْ أَفْرَحَتْ طَلَعَ زَهْرُهَا، وَأَنْضَجَتْ عَنَاقِيدُهَا عِنَبًا. وَكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي، فَأَخَذْتُ الْعِنَبَ وَعَصَرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ، وَأَعْطَيْتُ الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ». فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: «هَذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلَاثَةُ الْقُضْبَانِ هِيَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيَرُدُّكَ إِلَى مَقَامِكَ، فَتُعْطِي كَأْسَ فِرْعَوْنَ فِي يَدِهِ كَالْعَادَةِ الْأُولَى حِينَ كُنْتَ سَاقِيَهُ..... وَحَدَّثَ مِنْ بَعْدِ سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى حُلْمًا: وَإِذَا هُوَ وَقِفٌ عِنْدَ النَّهْرِ، وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحْمِ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ، فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الْأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، فَأَكَلَتْ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِينَةِ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ. ثُمَّ نَامَ فَحَلَمَ ثَانِيَةً: وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلٍ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلٍ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا. فَأَبْتَلَعَتْ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّمِينَةَ الْمُمْتَلِئَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ، وَإِذَا هُوَ حُلْمٌ. وَكَانَ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ نَفْسَهُ انْزَعَجَتْ، فَأَرْسَلَ وَدَعَا جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَجَمِيعَ حُكَمَائِهَا. وَقَصَّ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ حُلْمَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُعْبَرُهُ لِفِرْعَوْنَ. ثُمَّ كَلَّمَ رَئِيسَ السُّقَاةِ

فِرْعَوْنَ قَائِلًا: أَنَا أَتَذَكَّرُ الْيَوْمَ خَطَايَايَ^(١).

وعلى الرغم من تشابه القصة في المصدرين في تفاصيلها إلى حد كبير، إلا أن القرآن الكريم يُكرّر عنوان «الملك» دون فرعون على الرغم من أن الحديث عن حاكم مصر، وما ذاك إلا لحقيقة تاريخية هي أن العصر الذي دخل فيه يوسف أرض مصر كان عهد حُكم مَنْ يُعرفون باسم الهكسوس، وهم غزاة جاءوا من صحراء بلاد الشام، وقيل الجزيرة العربية، وقيل غير ذلك، ولعلمهم كانوا من الأموريين، فأسقطوا حكم فرعون ذلك الوقت، واستمروا في حكم مصر قرابة القرنين، ولذا فإن حاكم مصر لم يكن فرعوناً، بل ملكاً من ملوك الشعب الذي احتل مصر، وقد تحدثت عن الأموريين ضمن بحث «ديار النبي لوط» في الجزء الأول من كتابي (في عمق التاريخ).

ومن أمثلة الدقة القرآنية الحديث عن ادعاء فرعون الألوهية، قوله «تعالى»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٢)، إذ أننا لو عدنا إلى النقوش المثبتة على جدران مقبرة الوزير المصري رخميرع (= رخ مي رع) وزير «تحتمس الثالث» والتي تحتوي على حجرتين وتعتبر بمثابة سجلات تاريخية لحقبة طويلة من تاريخ الأسرة الثامنة عشر؛ بالإضافة إلى توصيف مظاهر الحياة والشعائر الدينية والحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة، فسنجد في ضمنها ما ترجمته: (ماذا يمثل ملك مصر العليا؟ ماذا يمثل ملك مصر السفلى؟ إنه الإله الذي بإرادته توهب الحياة للناس. إنه هو الأب والأم لجميع الرجال؛ وحده لا مثيل له)^(٣).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، من الأصحاحين ٤٠-٤١.

٢. سورة القصص: ٣٨.

3. K. Sethe, Urkunden Der 18. Dynastie: Historisch-Biographische Urkunden, 1909, Volume IV, J. C. Hinrichs'sche Buchhandlung: Leipzig, IV 1077, 17-18.

هذا يبيّن أن المسؤولين في مصر القديمة اعتبروا فرعون الإله الأعلى، وهذا يشير - بشكل غير مباشر - إلى مقولة فرعون للملأ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. ويضيف رخميرع أيضاً أن لدى حاكم مصر صفات إلهية مثل العلم الكلي حيث لا يخفى عليه شيء، وأنه أبداع في الخلق.

وقارن الآثاري العراقي د. طه باقر في كتابه «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: حضارة وادي النيل» بين صورة الملك في العراق القديم وبين صورة فرعون مصر في المعتقدات والأعراف السائدة آنذاك، حيث قال أن الملكية في العراق القديم وإن كانت مقدّسة وأصلها من الآلهة، إلا أن الذي كان يتقلّدها من البشر كان بشراً اعتيادياً، وقد يُقدّس لأنه يحمل حملاً مقدّساً أو وظيفة مقدّسة، ويقابل ذلك في مصر أن الذي يتقلّد الملوكية من البشر كان إلهاً نفسه، هذا هو جوهر الاختلاف في الأصل النظري للملوكية في كلتا الحضارتين. فالفرعون كان إلهاً بالتجسيد Incarnate God منذ ولايته للعهد. وإذا كان الملك في حضارة وادي الرافدين مفوضاً من قبل الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة ليجمع علاقات البشر منسجمة مع قوى فوق الطبيعة، فإنّ الملك في حضارة مصر كان من مجمع الآلهة، أي أنه إله نزل وتجلّس في الفرعون ليحكم الناس، ولما كان رأس المجتمع المسئول عن إدارته إلهاً، فإن شعور هذا المجتمع بالضمان في هذه الحياة إنما هو شعور الاطمئنان. لقد عبد المجتمع الملك بصفته إلهاً لضمان الانسجام بينه وبين قوى الطبيعة.

ونجد انعكاس ألوهية الملك واضحة في التعبير الفني في مصر حيث الملك يُمثّل في المشاهد الحربية وحده على الغالب بدون جيش، كما في تمثيل صفحة الملك «نارمر»، وفي منحوتة «طوطمس الثالث» في الكرنك.

ويضيف الدكتور طه باقر أن فكرة ألوهية الفرعون تتضمن بالتجسيد جيلين من الفراعنة، فإنَّ اعتلاء الملك الجديد للعرش يعني اندماج قوى الملك الراحل بالملك الجديد، ويستمر الملك الميت في حكم البشر الأموات، إلا أنَّ الملك الميت يصير بالتجسيد بمثابة الإله أوسيريس، أما الملك الذي يخلف الملك الميت فيصير الإله «هورس ابن أوسيريس = حورس بن أوزيريس» الذي أعقب أباه وصار ملكاً أيضاً. كما أنَّ الملك الجديد يتجسّد أيضاً بالإله الشمس «رع» أو يصير ابنه، وهكذا تستمر الدورة وكان الفرعون - بحسب الدكتور طه باقر - يُسمّى في كثير من النصوص باسم الإله «نيتجير» Netjer أو «الإله الخير الطيّب». وقد صار شخص الملك بسبب ألوهيته مشحوناً بالقدسية بالنسبة إلى البشر الآخرين من ناحية الاقتراب منه ومخاطبته، فكانوا لا ينطقون باسمه، بل يشيرون إليه بصفات التعظيم كصاحب الجلالة، وأنهم صاروا يشيرون إليه في عهد الإمبراطورية منذ السلالة الثامنة عشرة باسم الفرعون، أي البيت العظيم، وهي الكنية التي أُطلقت على جميع ملوك مصر^(١).

وحيث أن حاكم مصر على عهد النبي موسى «عليه السلام» كان من السلالة التاسعة عشرة، فإنَّ عنوان «فرعون» كان لقباً له، دون حاكم مصر على عهد النبي يوسف «عليه السلام» والذي لم يكن مصريّ الأصل، وسبق عهده حكم الأسرة الثامنة عشرة التي جاءت بعد حكم الهكسوس، وبالتالي لم يكن لقب فرعون قد ابتُكر بعد، وهذا يزيد التأكيد حول ما ذكرناه مسبقاً من دقّة القرآن في التمييز بين الحاكمين من حيث اللقب.

وأما اتّهام النبي بأنّه خلط ما بين برج بابل وبين قصة طلب فرعون من هامان

١. باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: حضارة وادي النيل، ص ١٨٣-١٨٥.

أن يبني له صرحاً لعله يطلع إلى إله موسى، فهو مجرد اتهام باطل وناتج عن الجهل بمعطيات تاريخ مصر الفرعونية.

وقد مرّت معنا في الفصل السابق مقولة عالم المصريات السير «فليندرز بيتري» Sir Flinders Petrie في كتابه «الحياة الدينية في مصر القديمة» Religious Life In Ancient Egypt حيث قال ما ترجمته: (تم التعبير عن الرغبة في الصعود إلى الآلهة في السماء من خلال إرادة ارتفاع السلم إلى الأعلى.... عندما أقبل الناس على عبادة الإله «رع»، ظهرت الرغبة في الانضمام إلى مجموعة من الآلهة الذين شكّلوا حاشية «رع» في سفينته العظيمة في السماء)^(١)، وهو ما يعني أن فكرة تسلّق فرعون لبرج أو سلّم للوصول إلى إله موسى، تتفق مع أساطير مصر القديمة. يطلب الفرعون من الآلهة -أو الرجال- بناء سلم أو برج من أجل الصعود والتحدث مع الآلهة.

وهكذا وجدنا في كتاب «السحر المصري» Egyptian Magic لعالم المصريات «كريستيان جاك» Christian Jacq نصاً فرعونياً وترجمته كالتالي: (حال وقوفه أمام الآلهة، يُظهر الفرعون سلطته. يأمرهم ببناء سلّم حتى يصعد إلى السماء. إذا لم يطيعوه، فلن يحصلوا منه على طعام ولا عطاءات. لكن الملك يأخذ احتياطاً واحداً. ليس هو نفسه -كفرد- من يتكلم، ولكنها القوة الإلهية: «لست أنا من يقول هذا لكم، بل الآلهة، إن السّحر هو الذي يتحدث». عندما يُكمل الفرعون صعوده، والسّحر عند قدميه: «ترتعد السماء، وتهتز الأرض أمامي، لأنني ساحر، فأنا أملك السّحر». إنه هو أيضاً من يثبّت الآلهة على عروشهم، مما يثبت أن الكون يعترف بكامل قوته)^(٢).

1. Sir. F. Petrie, Religious Lie In Ancient Egypt, 1924, pp. 208-209.

2. C. Jacq (Trans. J. M. Davis), Egyptian Magic, 1985, Aris & Phillips Ltd. & Bolchazy-Carducci Publishers: Chicago, p. 11.

مما سبق يتّضح أن فكرة صعود فرعون إلى السماء للوصول إلى الآلهة في مصر القديمة فكرة موجودة بشكل مستقل عن القصة التوراتية لبرج بابل، وأن اتهام النبي بالخلط مجرد اتهام باطل وبلا أساس، بل إن الدليل يعضد النص القرآني، بل وشاهد آخر على دقة القرآن وأن مصدره سماوي وليس من صنع محمد «صلى الله عليه وآله».

هذه الدقة القرآنية -مثلاً- لا تلقى عناية من قبل المستشرقين والمتأثرين بهم والذين يحاولون البحث عمّا يسمّونه الأخطاء والتعارضات والمفارقات في القرآن الكريم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وقد استعرضت بعضاً منها في الجزء الأول من كتابي (في عمق التاريخ) ضمن بحث قصص النبي سليمان وعزير وغير ذلك، وأشارت هناك إلى بعض الردود الخاصة بالإشكاليات المطروحة حول بعض قصص القرآن الكريم.

ثم إن بعض المستشرقين -عند الحديث عن بعض الشخصيات أو الأحداث- يخلطون بين ما جاء في القرآن الكريم وبين بعض ما جاء في الروايات ومقولات المفسرين والمؤرخين، ليؤهموا القارئ غير المطلع أنّ القرآن متوافق مع تلك الروايات والمقولات والقصص، والحال أن الأمر مخالف لذلك تماماً، وأن القرآن بريء من كثير منها، بل ولربما يعارضها صراحةً.

ولو أن القرآن كان من تأليف نبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، وأنه أخذ معلوماته من كتب اليهود والنصارى، وأنه وقع في أخطاء تاريخية نتيجة الوهم والخلط في المعلومات، لما وجدنا مثل هذه الدقة في المعلومة والتي تلتقي مع الحقيقة التاريخية، وتفترق عن النص التوراتي الذي وقع كاتبه أو مترجمه في الخطأ أو عدم الدقة.

تبقى هنا نقطة لا أودّ تفويتها، حيث ذكر الدكتور طه باقر أن الملك في حضارة وادي

الرافدين يُعدّ مفوضاً من قبل الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة. فلعل هذا المعتقد القديم الراسخ في حضارات عراق ما قبل الإسلام هو منطلق مقولة الغلاة الذين برزوا في الوسط الشيعي في العهد العباسي الأول، وادّعوا أن الإمام واسطة الفيض الإلهي، وأنّ الخلق يُرزقون من خلاهم.

وقد روى الشيخ الصدوق^(١) في كتابه «عيون أخبار الرضا» عن ياسر الخادم قال: (قلت للرضا «عليه السلام»: ما تقول في التفويض؟ فقال: إن الله «تبارك وتعالى» فوض إلى نبيه «صلى الله عليه وآله» أمر دينه فقال: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾^(٢) ﴿٧﴾ فأمّا الخلق والرزق فلا. ثم قال «عليه السلام»: إن الله «عز وجل» خالق كل شيء وهو يقول «عز وجل» ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُكُمْ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣).

وقال الدكتور عبد الرسول الغفار في كتابه «شبهة الغلو عند الشيعة»: (يُقسّم التفويض إلى فرعين رئيسيين: أولاً، تفويض أمر الخلق والرزق. ثانياً، تفويض أمر الدين والسياسة. ثم لكل فرع قسمان، القسم الأول، التفويض -المطلق- بالمعنى الأعم. القسم الثاني، التفويض -المقيّد- بالمعنى الأخص. هذا القسم من كلا الفرعين مختص بالله وحده لا شريك له، حيث هو المشرّع الأساس والأول وهو الخالق والصانع ومبدع كل شيء -الكائنات وكل الموجودات- لذا فإن أمر العباد ومآلهم إليه «سبحانه» فهو اللطيف الخبير والبصير، له الأمر من قبل ومن بعد. من مصاديق القسم الأول من

١. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ص ٣٢٦.

٢. سورة الحشر: ٧.

٣. سورة الروم: ٤٠.

الفرع الأول هي: الراقية والخالقية والإهداء والإظلال، والإحاطة، والإماتة، والإحياء والابتلاء - بالمرض - والإشفاء... إلخ، وغير ذلك من خصوصيات الرب الخالق الواحد الفرد الصمد .

قال «تعالى» في شأن الرزق: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) (١).

وقوله «تعالى»: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ (٥٩) (٢).

وقوله «تعالى»: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٠) (٣).

وقوله «تعالى»: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ...﴾ (٦١) (٤).

وهناك عشرات الآيات لا منازع فيها أن الرازق هو الله «سبحانه وتعالى».

وقال «تعالى» في شأن الخالقية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ (٦٢) (٥).

وقوله «تعالى»: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٦٣) (٦).

وقوله «تعالى»: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ...﴾ (٦٤) (٧).

١. سورة الذاريات: ٥٨.

٢. سورة الروم: ٤٠.

٣. سورة الشورى: ١٩.

٤. سورة يونس: ٣١.

٥. سورة البقرة: ٢١.

٦. سورة الرحمن: ١٤.

٧. سورة الأنعام: ١.

وقوله «تعالى»: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٢٩) ﴿١﴾.

وقوله «تعالى»: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (٣٣) ﴿٢﴾.

وقوله «تعالى»: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٢) ﴿٣﴾.

وقوله «تعالى»: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٢) ﴿٤﴾.

آيات كثيرة «٣٠٠» مورد في الخلق والإيجاد. وقال «تعالى» في شأن الهداية والضلالة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ﴾ (٢٧) ﴿٥﴾.

وقوله «تعالى»: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (٥٦) ﴿٦﴾. والآيات كثيرة جداً في هذا الباب.

وفي الإحاطة، قال «تعالى»: ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٣) ﴿٧﴾.

وفي الإمامة والإحياء قال «تعالى»: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨) ﴿٨﴾.

وقوله «تعالى»: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

١. سورة البقرة: ٢٩.

٢. سورة الأنبياء: ٣٣.

٣. سورة الملك: ٢.

٤. سورة الفرقان: ٢.

٥. سورة الرعد: ٢٧.

٦. سورة القصص: ٥٦.

٧. سورة الطلاق: ١٢.

٨. سورة الدخان: ٨.

مَاءَ طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لَّتُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ (١).

وأما في الابتلاء والإشفاء قوله «تعالى»: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ (٢).

هذه جملة من الآيات في بعض الموارد لبعض الخصوصيات التي انفرد بها الله «سبحانه» دون سائر خلقه، وهناك خصوصيات كثيرة في أمر التفويض؛ التفويض بالمعنى المطلق أو الأعم بحيث هي ثابتة للمولى دون غيره في أمر الخلق والرزق والأحياء والابتلاء والإهداء والإضلال ... إلخ. أما القسم الأول من الفرع الثاني «تفويض أمر الدين بالمعنى الأعم» فهو كذلك من مختصات الله «سبحانه وتعالى»، لأن هذا القسم من التفويض يراد به التشريع. والتشريع بالمعنى الأعم أو المطلق يكون من مختصات الباري «سبحانه». قال «تعالى»: ﴿... لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا ...﴾ (٤٨) (٣).

وقوله «تعالى»: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ...﴾ (١٨) (٤).

وقوله «تعالى»: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ (١٣) (٥).

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ...﴾ (٦١) (٦).

١. سورة الفرقان: ٤٨-٤٩.

٢. سورة الشعراء: ٧٨-٨٢.

٣. سورة المائدة: ٤٨.

٤. سورة الحجاثية: ١٨.

٥. سورة الشورى: ١٣.

٦. سورة الشورى: ٢١.

أما الأخبار الدالة على أن هذا التفويض من مختصات الله «تعالى» فهي كثيرة نذكر منها: روى الصدوق بإسناده عن بريد بن عمير بن معاوية الشامي قال: [عن بريد عمير بن معاوية الشامي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا بمرور فقلت له: يا بن رسول الله، روي لنا عن الصادق جعفر بن محمد «عليهما السلام» قال: إنه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، فما معناه؟ قال: من زعم أن الله يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله «عز وجل» فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه «عليهم السلام» فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك. فقلت له: يا بن رسول الله فما أمر بين أمرين؟ فقال: وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه..... إلخ^(١).

التفويض الذي ورد -والنهي عنه- هو ذلك التفويض في أمر العباد والخلق والرزق وغير ذلك التي هي من مختصات الله «تعالى» وما ورد من الأحاديث في أمر التفويض الذي فوض الله به نبيه أو الأئمة «عليهم السلام» إنما هو في أمر الدين، أي وكلّ لهم بيان أحكام الحلال والحرام والمندوب والمكروه، وإنهم أمّناء الله على دينه، فيحلّلون ما أحلّ الله، ويجرّمون ما حرم الله «تعالى»^(٢).

• هامان في التراث الفرعوني:

في ضمن الموارد الكثيرة التي عرض فيها القرآن الكريم تفاصيل قصة النبي موسى «عليه السلام» مع فرعون، نجد أن هامان يمثّل شخصية ثانوية، يظهر أحياناً في بعض التفاصيل، ويغيب في كثير من المشاهد والمواقع، ولكنه يبرز في تلك الموارد كشخصية

١. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١١٤.

٢. الغفار: شبهة الغلو عند الشيعة، ص ١٦٣-١٦٧.

ذات مقام وصاحب قرار، ولنلاحظ دلالة استعمال كلمة ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ الواردة في قوله «تعالى»: ﴿وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١)، وقوله «تعالى»: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾^(٢).

وَأَنَّ موسى كان مرسلًا إلى هامان -ضمنًا- كما كان مرسلًا إلى فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ^(٤)، وَأَنَّ العقاب الدنيوي حين نزل بفرعون نزل بهامان أيضاً: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾^(٥) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ^(٦)

ثم إن القرآن الكريم يجعله في مصاف فرعون وقارون «الثري جداً» ويحمل الثلاثة مسئوليتهم الدنيوية والأخروية في مواجهة الرسالة الموسوية.

ولكن الإشكال الذي يطرحه البعض -مع كل هذه الحقائق القرآنية- يتمثل في أننا لا نجد ضمن ما تمّ العثور عليه من آثار فرعون -وهي كثيرة جداً- ما يدلّ على وجود شخص يحمل اسم «هامان»، لا سيّما في عصر الأسرة التاسعة عشرة التي من المفترض أن يُمثّل جانباً منها عصر النبي موسى.

ولعل أساس الخلل في عملية البحث أنها كانت في اتجاه البحث عن شخص يحمل هذا الاسم، بينما من الأنسب أن نبحث عن شخص يحمل هذا اللقب، تماماً كما أن

١. سورة القصص: ٦.

٢. سورة القصص: ٨.

٣. سورة غافر: ٢٣-٢٤.

٤. سورة العنكبوت: ٣٩-٤٠.

الاسم المقترن معه في القرآن هو فرعون، وهو ليس اسم شخص بل لقب ملكي... أي أن علينا أن نبحث عن موقع قيادي متقدّم في البلاط الفرعوني ويتم نعت من يتقلّده بلقب «هامان».

في «موسوعة القرآن» Encyclopaedia Of The Qur'an تساءل الباحث أ. هـ. جونز A. H. Johns عمّا إذا كان عنوان «هامان» في العربية بمثابة صدى تعريبي لكلمة «ها-أمين» Ha-Amen في اللغة المصرية القديمة، والتي تمثل لقب الكاهن المصري الأعلى، والذي يحتل المرتبة الثانية في سلّم الأهمية بعد الفرعون^(١).

هذا التساؤل وإن لم يقدم دليلاً يمكن الاعتماد عليه لتأكيد الفكرة وتحويلها من مجرد احتمال إلى رأي قاطع، أو شبه قاطع، إلا أنه فتح الباب لبعض الباحثين كي يتقدّموا خطوات في هذا الاتجاه في محاولة منهم للوصول إلى نتيجة يمكن أن تساهم في جلاء الصورة. وهذا ما قام به الباحثون على موقع Islamic Awareness على الإنترنت حيث اعتبروا أن عملية التحقق هذه تستدعي الأخذ بعين الاعتبار القرائن من القرآن نفسه، حيث قدّم كتاب الله ثلاث صفات رئيسة لهذه الشخصية:

١. شغل منصباً كبيراً بدرجة كافية ليتم ذكره مع فرعون مراراً وتكراراً.
٢. تم تكليفه بمشروع بناء مهم للغاية، مشيراً إلى أنه يمتلك الأقدمية والمهارة اللازمة لإتمام المهمة.

٣. تصريح فرعون المتضمّن قوله: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۖ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ

1. A. H. Jones, "Hāmān", in J. D. McAuliffe (Ed.), Encyclopaedia Of The Qur'an, 2002, Volume II, op. cit., p. 399.

عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾^(١) يرتبط باللاهوت المصري القديم، ومن المناسب أن يُعيّن فرعون شخصاً للقيام بهذه المهمة بحيث يكون محيطاً بمسائل العقيدة المصرية القديمة أيضاً، أي أن يكون نوعاً من الكهنة البنّائين. لذلك يمكننا أن نتوقع أن يكون هامن المذكور في القرآن ذا علاقة بعملية البناء بالإضافة إلى الأنشطة الكهنوتية.

ويضيف الباحثون في هذا الموقع أننا حيث نأخذ بعين الاعتبار هذه النقاط الهامة الثلاث، فإن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو عن أي فترة من تاريخ مصر القديمة يجب أن نبحث كي نتوصل إلى الشخصية التي ذُكرت في القرآن بعنوان هامن. لقد أوضحت الدراسة التي قام بها الموقع حول تحديد هوية فرعون في زمن موسى أن هذه هي الفترة الزمنية المرتبطة برعمسيس الثاني، أي ما بين ١٢٧٩ - ١٢١٣ ق.م.

معجم المصطلحات المصرية القديمة الذي يحمل عنوان Ägyptischen Götter Und Götterbezeichnungen في نسخته المحدثّة والشاملة، يتضمّن أسماء الآلهة المصرية القديمة والعناوين الدينية المرتبطة بها، ونجد فيه معلومات مثيرة للاهتمام تحت عنوان الإله المصري القديم «هامن» HMN ومن بينها أن هذا المصطلح يستخدم كعنوان لشخص يُطلق عليه «هم-نتر» hm-ntr... فمن هو هذا الشخص؟ كلمة «هم-نتر» في المصرية القديمة تعني حرفياً «خادم الإله» أو «عبد الإله» حيث «h m = عبد أو خادم؛ ntr = إله». وبمعنى آخر فإن «هم-نتر» كاهن ذكر، في مقابل «همت-نتر» التي تدل على كاهنة أنثى^(٢).

١. غافر: ٣٦-٣٧.

2. J. P. Allen, Middle Egyptian - An Introduction To The Language And Culture Of Hieroglyphs, 2010, Cambridge University Press: Cambridge (UK), pp. 44, 58, 65.

وهذا يعني أن «هامن» في مصر القديمة كان يستخدم لقباً لكاهن في معبد خاص بالإله «هامن» نفسه. ولكن، حيث أن الإله «هامن» كان إلهاً صغيراً في مصر القديمة، ومحلياً أيضاً، فقد اعتُبر أنه من المستبعد جداً حينئذ أن يكون الكاهن الخاص به هو المقصود بهامان المذكور في القرآن الكريم.

ومع ذلك، فإن هذه المعلومة التي قدّمها المعجم تترك لنا دليلاً مثيراً للاهتمام حين ترشدنا إلى أن كاهن المعبد في مصر القديمة يمكن أن يحمل لقباً مطابقاً لاسم الإله الخاص بذلك المعبد.

في زمن رعمسيس الثاني ثالث حكام الأسرة التاسعة عشرة، وهو العصر الذي نبحث فيه عن هامان المذكور في القرآن، فإن الإله المصري القديم «آمون» أو «إمن» Amun IMN، قد خُصّص له معبد كبير في الكرنك، وفي ذلك يقول عالم الآثار البريطاني «كينيث كيتشن» Kenneth Kitchen: (وقفت الآلهة العظيمة للدولة على رأس مصر، كرامة لفرعون. كان أشهرهم آمون، إله الهواء وصاحب القوى الخفية للتوالد والخصوبة، والمستوطن في طيبة. وكإله للإمبراطورية، كان هو مانح النصر للفراعنة المحاربين... إليه -أي آمون- تنتمي كل المعابد العظمى في طيبة)^(١).

هل حمل الكهنة في معبد آمون في مصر القديمة لقباً يتضمن في جزء منه اسم الإله آمون؟ الجواب... نعم.

حيث يذكر معجم المصطلحات المصرية القديمة الذي يحمل عنوان Lexikon Der Ägyptischen Götter Und Götterbezeichnungen تحت اسم الإله

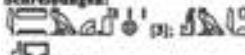
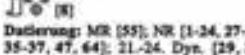
1. K. A. Kitchen, Pharaoh Triumphant: The Life And Times Of Ramesses II, King Of Egypt, 1982, Aris & Phillips Ltd.: Warminster (England), p. 159.

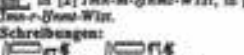
المصري القديم «إمن» أن النقوش المصرية القديمة وأوراق البردي وغيرها من الأدبيات تذكر أن كلمة «إمن» تدخل في تركيب أسماء الكهنة أصحاب المراتب المختلفة.

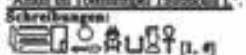
والمثير أيضاً دخول هذه الكلمة في تركيب عنوان أحد المعماريتين وأحد النحاتين وأحد المغنين. قد تكون هذه الفئات من الناس -بمن فيهم الكاهن الأكبر لهذا المعبد- مرتبطة بالإله المصري القديم «إمن» من خلال دورهم في بناء معبد آمون وإنشاد الترانيم الخاصة به.

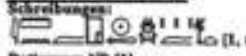
وباختصار، يمكن القول أنه تم استخدام كلمة «إمن» في الألقاب، ليس فقط للفئة الكهنوتية، ولكن أيضاً لأولئك المشاركين في البناء. واستخدام اسم الإله «إمن» في العنوان الذي يحمله شخص، هو كاهن ومهندس معماري في نفس الوقت يُعدّ أمراً مثيراً للاهتمام، حيث يبدو أنه يضيف قيمةً إلى الفرضية التي نحاول إثباتها، ومن هنا علينا الاستعانة بالبُعد الصوتي والمعجمي لكلمة «إمن». فكيف كان يُلفظ اسم الإله «إمن»؟ الهيروغليفية المصرية القديمة والتي لا تحتوي على حروف العلة لن تكون ذات فائدة كبيرة، على خلاف الكتابة المسمارية التي تتضمن الحروف المتحركة، وهذا ما نجده في نص معاهدة التحالف التي تمّت بين ملك الحثّيين «حاتّوسيليس الثالث» وبين رعمسيس الثاني، وكُتبت بالنقش المسماري وتضمّنت نقش الحروف المتحركة، مما مكّننا من معرفة كيفية نُطق كلمة «إمن» في المصرية القديمة حيث كُتبت هكذا: «أمانا» [انظر اللوحة ٢٦].

وحيث مرّ بنا أن فرعون كان بمثابة الوريث التجسّدي للخالق وصورته الحيّة على الأرض، فإنّ هذا الجانب من الألوهية الملكية كانت حاصلة أيضاً للكاهن الأكبر -على الأقل- أثناء أداء الطقوس الكهنوتية، بل تطوّرت هذه الفكرة لاحقاً، فقد كان

Tmn-m-Tp-rwt: "Amun in Karnak".
Schreibungen:
 (3);  (8)
Datierung: MR [55]; NR [1-24, 27-28, 35-37, 47, 64]; 21.-24. Dyn. [29, 32, 40, 50]; Kuschitzeit. [33-34, 52, 53-54, 61]; Saitenzeit. [38, 43, 60, 62]; Spät. [30-31, 44, 65]; gr.-röm. 2e [25-26, 39, 41-42, 45-46, 48-49, 56, 59, 63]; unklar [51, 57-58].
Funktionen:
A. Als Besitzer von Heiligtümern:
a) Ein Tempel (*hwt-nr*) des *Tmn-m-Tp-rwt* [9, 35, ähnlich 47].
b) Montheubot restauriert die Umschlingung seines Tempels [34].
c) Erwähnung seines Altars (*wfww*) [63].
B. In Titeln:
a) *Ein Ancestrat* (*hwt-nr* *hwt* *n* *mnw* *nb*) [16].
b) Ein *hwt-nr*-Priester [63].
c) Ein *hwt-nr* *hwt-nr*-Priester [25, 30-31, 39, 41, 44-46, 48-49, 51, 56-60, 62].
d) Ein *w'b*-Priester [8, 14], ein *w'b*-*hwt-nr*-Priester [13, 18], ein *w'b*-*hwt-nr*-Priester [15].
e) Ein *hwt-nr*-Priester [29, 32, 42-43, 50, 52-54, 65], ein *hwt-nr*-*hwt-nr*-Priester [12, 22-23], ein *hwt-nr*-Priester [40, 41], ein *hwt-nr*-Priester [33].
f) Ein *hwt-nr*-Priester [19, 21].
g) Eine Sängerin (*hwt-nr*) [11, 17, 36].
h) Ein Bildhauer (*hwt-nr*) [16].
i) Erwähnung der Priester seines Tempels [55].
C. Sonstige:
a) Mut ist die Milchige im Himmel (*hwt-nr*) vor ihrem Vater *Tmn-m-Tp-rwt* [20].
b) Er wird zusammen mit (*Amun*) und *Pth*-*hwt-nr* angerufen [37].

Tmn-m-Tp-rwt: "Amun vom Ramesseum".
In [2] *Tmn-m-Tp-rwt*, in [4] *Tmn-m-Tp-rwt*.
Schreibungen:
 (1);  (5)
Datierung: NR [1-6].
Funktionen: a) Ein *hwt-nr*-Priester (*hwt-nr*) [4].
b) Ein *hwt-nr*-Priester [1, 6].
c) Eine *w'b*-*hwt-nr*-Priesterin [2].
d) Ein *hwt-nr*-Priester [3].
Belegstellen: [1] Pyramiden Wien: KRI III, 358, 13 und 15, 359, 1; [2] TT 148: KRI VI, 92, 8; [3] Statue CG 42158: KRI VI, 526, 2; [4] Statue CG 42158: KRI VI, 526, 4; [5] oBerlin P.10664: KRI VII, 165, 2; [6] Uschebükanten Leiden AH 2: Amun, in: OMRO 74, 1994, 51, Nr. 6.

Tmn-m-Tp-rwt: "Amun im Haus des Amenhotep III.".
Schreibungen:
 (1, 4)
Datierung: NR [1].
Funktionen: Ein *hwt-nr*-Priester [1].
Belegstellen: [1] Statue Strasbourg 1599: Clés, Champs d'Haubert, 96.

Tmn-m-Tp-rwt: "Amun im Haus des Amenhotep III.".
Schreibungen:
 (1, 4)
Datierung: NR [1].
Funktionen: Ein *w'b*-Priester [1].
Belegstellen: [1] Statue Berlin 19777, ABR II, 393 = LK IV, 1503, 9.

اللوحة رقم ٢٦: وظائف مختلفة من اسم الإله المصري «إمن» المذكورة في كتاب:
Lexikon Der Ägyptischen Götter Und Götterbezeichnungen

«حَرْحُور» كبير كهنة آمون الذي عاش في الفترة المبكرة من الأسرة العشرين قد أصبح قوياً لدرجة أنه كان في الواقع الحاكم الفعلي لمدينة طيبة، ولذا تم تصويره وهو يرتدي تيجان مصر، وهو الشيء الذي كان مخصصاً حصرياً للفراعنة. في وقت ما خلال فترة حكمه بدأ «حَرْحُور» في الإصرار على أن الإله آمون كان يوجّه في أمور الدولة وأنه ككاهن لآمون كان المفضل من قبل الإله كحاكم لمصر العليا والسفلى، وقائداً أعلى للجيش.

وقد كانت لرعمسيس الثاني إنجازات كثيرة لصالح الإله آمون، ووُجد منقوشاً تحت تمثال رعمسيس الثاني: (لقد قمت بإنجازات لخدمة آمون، وأشرفتُ عليها بنفسِي قربةً لربي. لقد صنعت له هيكلًا) مَعْبداً يُطلق عليه اسم (رعمسيس - مريامون - الذي يسمع الصلوات، وذلك في البوابة العليا لمقام آمون. وقمت بنصب مسلات من الجرانيت فيه، وقد اقتربت قممها من السماء، وجعلت أمامها شُرْفَة حجرية، أمام طيبة، والمَرَج، والحدائق المزروعة بالأشجار)^(١) [انظر اللوحة ٢٧].

وقد يَطرح البعض إشكالاً مفاده أن فرعون -بصفته حاكماً للبلاد- كان يحمل عنوان الكاهن الأكبر للإله آمون ولباقي الآلهة، فكيف يزاحمه في هذا المنصب شخص آخر؟ في الواقع أن حَمَلَ رعمسيس الثاني لقب الكاهن الأكبر كان صِفَةً شرفية، أما على المستوى العملي، فقد كان أحد المختصين من الكهنة هو الذي يقوم بدور الكاهن الأكبر فيما له علاقة بالمراسم الدينية والاحتفالات وغير ذلك من الشؤون المناطة بهذا المقام. تماماً كما تُعتبر ملكة بريطانيا اليوم رئيسة الكنيسة، وهو عنوان شرفي فقط. وبالجمع بين هذه المعطيات، مع ما ذكرناه سابقاً من خصوصيات استقيناها من القرآن حول شخصية هامان، فإن احتمالية كون «هامان» نسخة معرّبة من «أمانا» المصرية القديمة ستتعرّز أكثر، تماماً كما أن كلمة فرعون المستعملة في القرآن للدلالة على حاكم مصر على عهد موسى هي نسخة معرّبة للكلمة المصرية القديمة «برعا»، وهو اللقب المستخدم للإشارة إلى حاكم مصر من عصر الدولة الحديثة وما بعدها. ولنبحث الآن في التاريخ المصري القديم المعاصر لرعمسيس الثاني، عن كاهن جمع

1. Elizabeth Froid, Biographical Texts From Ramessid Egypt, 2007, op. cit., pp.41-42.



اللوحة رقم ٢٧ : وجهها المسلة الجرانيتية أمام تمثال رمسيس الثاني في الكرنك

في ذلك العصر بين مهمته وبين دور المعماري البّناء؟

من خلال مراجعة كتاب البروفيسور كيتشن الذي ذكرناه مسبقاً، يتبيّن لنا أن من بين سبعة كهنة كبار عاصروا رعمسيس الثاني، فقط اثنان منهم أُطلق عليهم صفة «رئيس الإنشاءات»، وهما الكاهن الأعظم للإله آمون واسمه «بَاك إن خُونُس = بَاك إن خُونُسو»... ووزير الوجه البحري والكاهن الأكبر للإله أوزيريس «بارع حتب الأول». وبينما لا نجد نصّاً يتحدّث عن إنجازات البناء التي قام بها «بارع حتب الأول» بأمر فرعون، فإننا أمام عدة نصوص تتحدث عن إنجازات «بَاك إن خُونُس» العظيمة، والذي يُعدّ أحد أكبر المهندسين المعماريين في مصر القديمة، حيث بدأت مسيرته في عهد الملك سيتي الأول، والد رعمسيس الثاني. انضمّ إلى كهنة معبد آمون، وصار كبير

كهنته لمدة ٢٧ عاماً على الأقل، وقد خدم رعمسيس الثاني طوال فترة حكمه. ويشتهر «بَاكْ إِنْ خُونُس» بإشرافه على بناء معبد آمون في الكَرْنَك، وهو الهيكل «المعبد» الأكبر الذي تم إنشاؤه في مصر على الإطلاق، ويتألف من محيط واسع يحتوي على معبد آمون بالإضافة إلى العديد من المعابد الفرعية للآلهة الأخرى.

مثل هذا البناء الضخم والخاص بالإله آمون ليس أمراً مفاجئاً على الإطلاق، فقد تنامت عبادة الإله آمون خلال فترة حكم الأسرة الثامنة عشرة - باستثناء عهد أخناتون - وتدرّجت شهرة عبادته وانتشارها حتى صار الإله الرئيس لمصر وإله الدولة الراعي لها على عهد الأسرة التاسعة عشرة التي ينتمي إليها رعمسيس الثاني، وحصدت الدعوة لعبادته وتقديم الثروات والقرايين له من الثروات ما حصدت.

ومن هنا يبدو من المنطقي جداً أن يكلف فرعون كبير مستشاريه الدينيين والبناء الأكبر «بَاكْ إِنْ خُونُس» بمهمة بناء مبنى ديني يتناسب مع هذا الصعود الكبير لهذا الإله [انظر اللوحة ٢٨]. وبمنظرة أخرى نستطيع القول أنّ من المنطقي أيضاً أن يطلب رعمسيس الثاني من «بَاكْ إِنْ خُونُس» الذي كان رئيس كهنة آمون بالإضافة إلى شغله منصب رئيس البناء والتعمير أن يقوم بتشديد الصرح العظيم الذي يريد من خلاله إثبات بطلان كلام النبي موسى، وصحة ألوهية الإله آمون والمعتقدات المرتبطة به والتي يتحمّل «بَاكْ إِنْ خُونُس» رعايتها ككاهن أكبر لمعبد آمون.

وهذا يقودنا في نهاية المطاف إلى القول بأنّ هذا الكاهن وكبير المعمارين على عهد فرعون موسى - باحتمال كبير - هو «هامان» الذي تحدّث عنه القرآن الكريم، وأنه شخصية حقيقية، وأن هذا لقبه، وأنه لا يوجد خلط بين هامان المصري وهامان صاحب ملك فارس الذي عاش بعده بأكثر من تسعة قرون.



اللوحة رقم ٢٨ : تمثال الكاهن البنّاء (باك إن خونس) والمحتمل أن هامان

• محاولة موريس بوكاي:

في مقابل هذا الجهد العلمي لرفع الإشكال، عمل الدكتور الفرنسي موريس بوكاي^(١) Maurice Bucaille (ت ١٩٩٨)، على تقديم ردّ آخر من خلال بحثه الخاص، والذي قدّمه في كتابه (موسى وفرعون) Moise et Pharaon حيث ذكر أنه قام بكتابة كلمة هامان باللغة الهيروغليفيه، وعرضها على أحد المختصين في تاريخ مصر القديمة. ولضمان تجرّد البحث، لم يذكر بوكاي لذلك المختص أن هذه الكلمة وردت في القرآن،

١. درس بوكاي الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية والقرآن الكريم، وكانت له اهتماماته بدراسة التاريخ المصري القديم، وتعلم الهيروغليفيه، وله بعض المؤلفات.

بل أخبره أنها وردت في وثيقة عربية قديمة يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي. وبحسب الدكتور بوكاي، فقد جاء ردّ ذلك المختص كالتالي: (يستحيل أن تردّ هذه الكلمة في أية وثيقة عربية في القرن السابع؛ لأن رموز الكتابة باللغة الهيروغليفية لم تكن قد حُلّت آنذاك).

أضاف الدكتور بوكاي أن هذا المختص اقترح عليه مراجعة (قاموس أسماء الأشخاص في الامبراطورية الحديثة) لمؤلفه (أللامند رانك)، وهذا ما قام به فعلاً، فوجد أن هذا الاسم، هامان، مُثبت في القاموس، ومدوّن باللغة الهيروغليفية وما يقابلها من الألمانية، علاوة على ترجمتها بعنوان (رئيس عمّال مقالع الحجر)، مما يدلّ على أن هذا اللقب كان يُطلق في ذلك العهد على المسئول الذي يتولى إدارة المشاريع الإنشائية الكبيرة. وقام الدكتور بوكاي باستنساخ تلك الصفحة من ذلك القاموس، وقام بعرضها على صاحبه المختص، ثم فتح له ترجمة القرآن الكريم بالألمانية، وأراه اسم هامان فيه، مما جعله يندهش ويختار الصمت.

يقول الدكتور بوكاي أنه لو جاء ذكر اسم هامان في أي كتاب قبل القرآن، أو لو جاء ذكره في الكتاب المقدس لكان المعترضون على حق، ولكن لم يرد هذا الاسم في أي نصّ قبل نزول القرآن الكريم، بل ورد فقط على الأحجار الأثرية لمصر القديمة وبالخط الهيروغلوفي.

إن ورود هذا الاسم في القرآن بهذا الشكل المذهل لا يمكن تفسيره إلا بأنه معجزة -والكلام لبوكاي- وليس ثمة أي تعليل آخر... أجل، إن القرآن أعظم معجزة^(١).

1. <https://islamstory.com/ar/artical/24344>.

• نهاية هامان:

بالعودة إلى القرآن الكريم، يمكننا القول بأن نهاية هامان كانت كارثية، ويبدو أنه غرق مع فرعون موسى حين كان يطارد بني إسرائيل، ولنلاحظ الآيات التالية: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٣٩ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ (١).

إذا قسّمنا أنواع العذاب المذكورة في الآيات السابقة، وهي أربعة: «الحاصب - الصيحة - الخسف - الإغراق» على الأقوام والشخصيات المختلفة، ومجموعهم خمسة: «عاد - ثمود - قارون - فرعون - هامان»، فسنجد ما يلي:

١. قوم عاد أهلكوا بالحاصب، وهي الريح التي ترمي بالحصاء والحصى الصغار، وقيل: الحاصب الريح المهلكة في البر، بينما القاصف الريح المهلكة في البحر: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ (٢).

٢. قوم ثمود أهلكوا بالصيحة: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..... ۝٦١ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٦٢﴾ (٣).

١. سورة العنكبوت: ٣٨-٤٠.

٢. سورة الحاقة: ٦-٧.

٣. سورة هود: ٦١-٦٧.

وفي مورد آخر: ﴿وَالْيَ تُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..... ﴿٧٣﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾^(١).

٣. قارون بالخسف: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ..... ﴿٧٦﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴿٨١﴾﴾^(٢).

٤. فرعون عن طريق الغرق: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾^(٣).

فما هو مصير هامان من بين هذه الصور من العذاب المذكورة في الآيات وقد ورد اسمه ضمن المعذبين بها؟

إنَّ من المنطقي أن يُقال أنه لاقى ذات المصير الذي لاقاه سيده فرعون حين أُغرق في الماء وهو يُطارد موسى وبني إسرائيل، وهذا ما يفسّر لنا كيفية توزيع الأنواع الأربعة من العذاب على خمسة أقوام وشخصيات. وإذا رجعنا إلى ما ذكر حول نهاية الكاهن الأكبر وكبير البنّائين على عهده «باك إن حُونُس»، فإنّ المصادر المصرية القديمة تذكر أنه مات بالقرب من فرعون، وهذا في حدّ ذاته يمثل قرينة أخرى تزيد من قوة الاحتمال المفترض بأن «باك إن حُونُس» ليس سوى هامان^(٤).

وإن لم يَقتنع البعض بهذه النتائج التي تمّ التوصل إليها، مع وجود كل هذه الإشارات

١. سورة الأعراف: ٧٣-٧٨.

٢. سورة القصص: ٧٦-٨١.

٣. سورة يونس: ٩٠.

4. www.islamic-awareness.org/quran/contrad/external/haman

والقرائن والتشابهات بين النص القرآني والمعطيات الآثارية، فيمكن على الأقل القول بأن الاتهام الذي أطلقه بعض المستشرقين القدماء والمعاصرين بحق النبي «صلى الله عليه وآله» بأنه أخطأ في ذكر «هامان» ضمن القصة القرآنية يُعدُّ تهمَةً غير علمية، ولا يمكنها أن تصمد أمام النقد وقائمة الاحتمالات المنطقية في قراءة التاريخ.

• نتائج الفصل و خلاصته:

○ تحدث القرآن الكريم عن هامان كشخصية عاصرت النبي موسى، وكان معاوفاً لفرعون في تصديهِ للرسالة. وأما الكتاب المقدس، فإنه تعرّض لشخصية مختلفة تماماً تحمل ذات العنوان، ولكنه عاش بعد تسعة قرون تقريباً من عهد موسى، وفي مدينة (سوسن=شوش) الإيرانية.

○ تشابه الاسمين دفع ببعض المستشرقين إلى طرح إشكالية مفادها وقوع القرآن في خطأ تاريخي قاتل عند إعادة تقديمه -بحسب زعمهم- لقصص الكتاب المقدس ○ النظرية الأولى في الرد على هذه الإشكالية تقترح أن من المحتمل أن يكون الكاهن البتاء (باك إن خونس) هو هامان الذي يشير إليه القرآن الكريم، وأن اللقب جاء بلحاظ انتسابه إلى الإله المصري القديم (آمون).

○ أما الدكتور الفرنسي موريس بوكاي فقد أشار إلى أن الكتابات الهيروغليفية تؤكد وجود شخصية معاصرة لرمسيس الثاني حملت عنوان (هامان) على وجه التحديد، وأنها ترجمة لمنصب رئيس عمّال مقالع الحجر، أي الشخص المسئول عن إدارة المشاريع الإنشائية الكبيرة، وأن هذا اللقب مُثبّت في (قاموس أسماء الأشخاص في الامبراطورية الحديثة).

الآيات الإلهية

الآيات الإلهية

• موضوعات هذا الفصل:

- عرض مقارن للآيات الإلهية التي تعاقبت على مصر بعد استكبار فرعون والملأ من حوله، وذلك بين ما جاء في القرآن الكريم وفي التوراة.
- ما هي الآيات التي ذُكرت في القرآن والتوراة، وما هي الآيات التي تفرّد بها القرآن من جهة، والتوراة من جهة أخرى؟
- ما خصوصية تلك الآيات بالنسبة إلى المعتقدات المصرية القديمة؟
- عرض لمحاولة بعض علماء البيئة والأحياء تفسير تلك الآيات بصورة علمية.
- ما هي الإجراءات التي طُلب من بني إسرائيل اتخاذها قبيل الهجرة والخروج من مصر بعد وقوع الآيات؟ وما علاقة ذلك بتحديد رأس السنة العبرية؟
- نقاش حول المدة التي استغرقتها الآيات المتعاقبة؟

• سنوات الجذب:

بموازاة الأمر الإلهي بإقامة البيوت واتخاذها قبلة، فقد وجّه الله «تعالى» رسائل تحذيرية وعقابية لفرعون وأعوانه ليكفّوا عن إيذاء بني إسرائيل، وليؤمنوا بالرسالة، أو أن لا يقفوا على الأقل حجر عثرة أمام مشروع موسى وهارون في جانبيه الرسالي، والجانب الآخر الخاص بتخليص بني إسرائيل من نير العبودية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣٠) (١).

والسنون جمع سنة، وهي القحط والجذب، وحيث أن اعتماد مصر على الزراعة اعتماد كبير ورئيس، لذا جاء التنبيه الإلهي من خلال الإضرار في أهم مصدر اقتصادي عندهم لعلهم يتذكرون أنهم أضعف من مواجهة المشيئة الإلهية، وأن عليهم العودة إلى الله «تعالى» والكف عن الاستكبار والطغيان وقتل الأطفال وقهر من تحت أيديهم من بني إسرائيل.

وهكذا نقصت المحاصيل الزراعية بشكل كبير. وقد اعتبر بعض المفسرين أن هذا النقص آية أخرى تختلف عن آية الجذب (الأخذ بالسنين) ولربما نتجت عنه وعن عوامل أخرى كالآفات والأوبئة ونزول البرد بأحجام كبيرة فدمّر المحاصيل والنباتات والشجيرات، كما ورد في التوراة.

ويبدو أن هذا الأمر امتدّ لأكثر من موسم دون أن يؤتي بنتيجة، وإلا لم يكن ليؤثّر بالشكل المطلوب، ولكن حيث أن القوم كانوا غارقين في الاستكبار، لذا فإنهم بدلاً من الاعتراف بالخطأ، لجأوا إلى تفسير الأمر بصورة عكسية: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ (١).

لقد اعتبروا أن موسى ومن معه قد جلبوا النَّحْسَ والشرَّ للبلاد، وأن الآلهة قد غضبت بسببهم! والحقيقة أنهم يجلبون الشر لأنفسهم بإصرارهم على الكفر والعناد والطغيان وارتكاب الجرائم، ولذا سينالون العقاب من الله بسبب ذلك، فهذا هو الذي يجب عليهم الخوف والتشاؤم منه. كما أنهم اعتبروا أن ما جرى نوع من ممارسة السحر من قبل موسى، وليس لما جرى علاقة بآية إلهية ورسالة سماوية، لذا فإنهم سيصرون على موقفهم ولن يتزحزحوا عنه قيد أنملة. وحيث لم تأتِ هذه الآية (أو الآيات) بنتيجة، لذا ستنقل الرسائل الإلهية والعقوبات الدنيوية إلى مرحلة أخرى فيها من عجائب الآيات ما هو أشد وأبلغ.

وليس لآية (الأخذ بالسنين) ذكر في التوراة ضمن ما سردته من أحداث أعقبت المواجهة مع السحرة، ولكن إذا قلنا بأن (نقص الثمرات) آية منفصلة عنها، فلربما تكون اختصاراً لما فصلت التوراة الحديث عنه ضمن (ضربتي=آيتي) الآفات ونزول البرد مما دمر الزرع والمحاصيل.

وقد أكدت عدة أبحاث أجريت على مدى عقود أن عهد رمسيس الثاني شهد سنواتٍ من تغير المناخ حيث عم الجفاف والجذب لسنوات. ومن بين من أشار إلى ذلك ما جاء في مقال نُشر في مجلة التايم بعنوان (هل صرَّبت الأوبئة العشر مصرَ بالفعل؟):

Did the 10 Plagues of Egypt Really Happen?

أشار المقال إلى أن الأبحاث التي أجريت في عام ٢٠١٠ على الصواعد - وهي رواسب تتشكل من الكالسيوم أثناء هطول الأمطار - كشفت عن وجود فترة جفاف قرب نهاية حكم الفرعون رمسيس الثاني، ووفقاً لعالم المناخ أوغوستو مانجيني فإنه يمكن لهذا التغيير أن يؤدي إلى جفاف نهر النيل وإبطاء تدفقه بشكل كبير. واعتبر هذا الباحث أن ما شهدته مصر لاحقاً من آيات متعلقة بالصفادع والقمل والجراد وغير ذلك كلها من تبعات ونتائج سنوات الجفاف والجذب هذه^(١). وسنتحدث عن أوجه هذا التفسير عند التطرق إلى الآيات التي جرت على يد موسى «عليه السلام».

• عجائب الآيات:

مع إصرار فرعون ومن معه على موقفهم، وتحديهم الحق بالعناد والاستكبار بقولهم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، توالى الآيات المشتملة على صنوف العذاب الدنيوي على فرعون وقومه. ويذكر القرآن الكريم أن عدد آيات موسى تسعة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ....﴾^(٣). فهل تشمل آية العصا واليد والأخذ بالسنين ونقص الثمرات مما مر معنا؟ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾^(٤).

هذا النص القرآني اشتمل على خمس آيات (الطوفان - الجراد - القمل - الضفادع - الدم)، وإذا أضفنا عليها الآيات الأربع التي ذكرناها آنفاً، صارت تسع آيات.

1. <https://time.com/5561441/passover-10-plagues-real-history>

٢. سورة الأعراف: ١٣٢.

٣. سورة الإسراء: ١٠١.

٤. سورة الأعراف: ١٣١.

وأما إذا قلنا بأن الجذب ونقص الثمرات آية واحدة، فمن الممكن اعتبار شقّ البحر هي الآية التاسعة التي عاينها فرعون وجنوده، ومع هذا لم يتراجعوا، بل أصرّوا على العبور فأغرقوا، فكانت آخر آية لهم.

وقيل أن ما تحدّث عنه التوراة حول الطاعون وما أعقبه من موت الأبقار هو الآية التاسعة وإن لم يُذكر صراحةً في القرآن ولكنه نتيجة طبيعية لتلك الآيات الخاصة بالدم والقمل والضفادع.

وقيل أن الآية التاسعة هي الطمس على الأموال والشّدّ على القلوب: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾^(١). وبرأيي أن الأرجح اعتبار شقّ البحر هو الآية التاسعة.

وأما التوراة فإنها ذكرت عشر آيات أعقبت تحوّل العصا إلى أفعى، وهي كالتالي:

١. (١٧). هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا^(٢)
٢. (٢). ... فَهَا أَنَا أَضْرِبُ بِجَمِيعِ ثُخُومِكَ بِالضَّفَادِعِ. ٣. فَيَفِيضُ النَّهْرُ ضَفَادِعَ^(٣).
٣. (١٦). ... مُدَّ عَصَاكَ وَأَضْرِبْ ثُرَابَ الْأَرْضِ لِيَصِيرَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ^(٤).
٤. (٢١). هَا أَنَا أَرْسِلُ عَلَيْكَ وَعَلَى عِبِيدِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى بُيُوتِكَ الدُّبَانَ، فَتَمْتَلِئُ

١. سورة يونس: ٨٨-٨٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٧.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢.

٤. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ١٦.

يُبُوْثُ الْمِصْرِيِّينَ دُبَانًا. وَأَيْضًا الْأَرْضُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا^(١).

٥. (٣). فَهَذَا يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَى مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ، عَلَى الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجَمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَاءً ثَقِيلًا جَدًّا^(٢).

٦. (٩).... فَيَصِيرُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ دَمَامِلٌ طَالِعَةٌ يَبْثُورُ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ^(٣).

٧. (٢٥). فَضَرَبَ الْبَرْدُ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ جَمِيعَ مَا فِي الْحَقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. وَضَرَبَ الْبَرْدُ جَمِيعَ عُشْبِ الْحَقْلِ وَكَسَرَ جَمِيعَ شَجَرِ الْحَقْلِ^(٤).

٨. (٤)... هَا أَنَا أَجِيءُ غَدًا بِجَرَادٍ عَلَى ثُحُومِكَ، هُوَ فَيُعْطِي وَجْهَ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يُسْتَطَاعَ نَظَرُ الْأَرْضِ^(٥).

٩. (٢٢). فَكَانَ ظَلَامٌ دَامِسٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. ٢٣ لَمْ يُبْصِرْ أَحَدٌ أَخَاهُ، وَلَا قَامَ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ^(٦).

١٠. (٢٩) فَحَدَّثَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ أَنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضٍ مِصْرَ، مِنْ بَكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بَكْرِ الْأَسِيرِ الَّذِي فِي السَّجْنِ، وَكُلَّ بَكْرِ بَهِيمَةٍ. ٣٠ فَقَامَ فِرْعَوْنُ لَيْلًا هُوَ وَكُلُّ عَبِيدِهِ وَجَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ. وَكَانَ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي مِصْرَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيْتٌ^(٧).

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢١.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٣.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٩.

٤. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٢٥.

٥. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٤.

٦. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٢٢.

٧. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٢٩.

فإذا أضفنا آية العصا إليها صارت ١١ آية، وإذا أضفنا آية اليد أيضاً صارت ١٢ آية، وهذه إحدى موارد الاختلاف بين ما جاء في القرآن الكريم حول الآيات (الضربات) وما جاء في التوراة، وستتضح معنا فوارق أخرى تدريجياً.

وعند مقارنة الآيات في السرديتين -مع استثناء آيتي العصا واليد- ستلتقيان في أربعة عناوين هي التالية: الجراد / الضفادع / القمل / الدم. ولم تذكر التوراة الطوفان، بينما ذكرت الدمامل / موت كل مولود بكر / الظلام الدامس / البرد / البعوض / الوباء. وسنذكر لاحقاً أن ما تُرجم إلى (بعوض) قد يكون هو ذاته (القمل).

ولم تتحدث الآيات القرآنية عن تفاصيل هذه الآيات، وما جرى قبلها وبعدها إلا في صورة إشارة إجمالية جاءت كالآتي: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنَكْشِفَ عَنَّْا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۚ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾^(١).

وأعقب ذلك الإشارة إلى هلاك فرعون وجنوده في اليم عند ملاحقة موسى ومن خرج معه: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾^(٢).

وأما التوراة فقد قدّمت وصفاً تفصيلياً للأحداث واستغرقت عدة إصحاحات من سفر الخروج. فبعد الانتهاء من عرض قصة السحرة، وإصرار فرعون على موقفه، توالى سرد الآيات العشر -وأولها آية الدم- على أنها بدأت في صبيحة اليوم التالي للمواجهة، وهذا في حدّ ذاته يخالف ظاهر سياق الآيات القرآنية التي تحدثت أولاً عن أخذهم

١. سورة الأعراف: ١٣٤-١٣٥.

٢. سورة الأعراف: ١٣٦.

بالسنين ونقص الثمرات، والذي لربما استغرق عدة سنوات أو عدة مواسم زراعية، ثم عرّجت على الآيات الخمسة وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

• آية الدم:

جاء في التوراة: (١٤). ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَلْبُ فِرْعَوْنَ غَلِيظٌ. قَدْ أَبَى أَنْ يُطْلَقَ الشَّعْبَ. ١٥ إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ. إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ، وَقِفْ لِلِقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ. وَالْعَصَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ حَيَّةً تَأْخُذُهَا فِي يَدِكَ. ١٦ وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلًا: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي فِي الْبَرِّيَّةِ. وَهُوَذَا حَتَّى الْآنَ لَمْ تَسْمَعْ. ١٧ هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: بِهَذَا تَعْرِفُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ: هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا. ١٨ وَيَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَيَبْتِئُ النَّهْرُ. فَيَعَاظِ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ». ١٩ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى أَنْهَارِهِمْ وَعَلَى سَوَاقِيهِمْ، وَعَلَى آجَامِهِمْ، وَعَلَى كُلِّ مُجْتَمَعَاتِ مِيَاهِهِمْ لِيَتَصِيرَ دَمًا. فَيَكُونُ دَمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ فِي الْأَخْشَابِ وَفِي الْأَحْجَارِ». ٢٠ فَفَعَلَ هَكَذَا مُوسَى وَهَارُونُ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. رَفَعَ الْعَصَا وَضَرَبَ الْمَاءَ الَّذِي فِي النَّهْرِ أَمَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عُيُونِ عِبِيدِهِ، فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ دَمًا. ٢١ وَمَاتَ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَأَنْتَنَ النَّهْرُ، فَلَمْ يَقْدِرِ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ. وَكَانَ الدَّمُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ).

ثم نتحدث السردية التوراتية عن أن سحرة فرعون استطاعوا أن يحولوا الماء إلى دم تماماً كما فعل موسى من خلال ضربة العصا... أي استطاعوا أن يُبطلوا الآية الإلهية لا شك أن هذا يتعارض مع الغاية من الآية الإلهية، فلمفترض أن يكون الناس

عاجزين -على الأقل في ذلك الزمان- عن الإتيان بمثلها، وإلا لبطل الدليل على صحة الرسالة. وهذا تماماً ما تشير إليه التوراة حيث تذكر أن قيام السحرة بتحويل الماء دماً أقنع فرعون أن موسى غير صادق في مدّعه بكونه رسولاً من عند الله: (٢٢) وَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ كَذَلِكَ بِسِحْرِهِمْ. فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ. ٢٣ ثُمَّ انْصَرَفَ فِرْعَوْنُ وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَلَمْ يُوجِّهْ قَلْبُهُ إِلَى هَذَا أَيْضًا. وهذا من موارد الاختلاف بين السردية القرآنية والأخرى التوراتية حول ذات الموضوع.

وبحسب التوراة فقد استمرت الآية سبعة أيام: (٢٥) وَلَمَّا كَمُلَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ مَا ضَرَبَ الرَّبُّ النَّهْرَ^(١).

وتشير التوراة إلى أن المصريين اهتموا إلى طريقة للحصول على الماء النقي، وبذا خففوا عن أنفسهم أثر الآية الإلهية: (٢٤) وَحَفَرَ جَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ حَوَالِي النَّهْرِ لِأَجْلِ مَاءٍ لِيَشْرَبُوا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ مَاءِ النَّهْرِ^(٢).

وهذا أيضاً يتعارض مع الغاية من الآية الإلهية، إذ المفترض أن يبقوا عاجزين عن مواجهتها، لا أن ينجحوا في الالتفاف عليها، وإلا كيف تكون آية وعلامة على سماوية الرسالة وصحة دعوى الرسول صاحب الرسالة؟

وأما القرآن الكريم فإنه يقدم صورة مختلفة تماماً -كما مر معنا- بما يحفظ وظيفة الآيات الإلهية، حيث يذكر أن لجوء فرعون وقومه إلى موسى لكي يدعو الله بزوال الآية هو الذي خلّصهم من آثارها المهلكة: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنِ كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزُ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٤-٢٥.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ٢٤.

بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾^(١). ولكن المشكلة أنهم كانوا غير صادقين في وعودهم، وسرعان ما يتراجعون عنها بعد أن تمر فترة من الزمن، وتستقرّ أمورهم ويتخلصون من آثار الآية التي عانوا منها: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوءِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾^(٢).

وقد أشرنا من قبل إلى مقال مجلة التايم حول أثر التغير المناخي في ظهور الآيات التي تحققت على يد موسى «عليه السلام». حيث يذكر عالم الأحياء (ستيفان بفلوجماخر) Stephan Pflugmacher المتخصص في علم السموم البيئية المائية أنّ هذه الظروف مهيأة لنمو بكتيريا *Oscillatoria Rubescens*، ويطلق عليها الناس اسم (طحالب الدم البرغندية). وتضيف المجلة أن عالم الأوبئة (جون س. مار) كتب مقالاً صحفياً عام ١٩٩٦ ونُشر في صحيفة نيويورك تايمز يقول فيه إن الطحالب الحمراء كان من الممكن أن تمتص الأوكسجين من الممرات المائية في مصر، وتقتل الأسماك وتحوّل المياه إلى اللون الأحمر^(٣).

أضيف على ما ذكرته التايم أن موت تلك الأسماك أدّى إلى تعفّنها وصدور الرائحة المنتنة، وعدم قابلية الاستفادة من المياه سواءً للشرب أو لغير ذلك، وهذه الظاهرة تعرف باسم (المد الأحمر). في سنة ٢٠١٤م -على سبيل المثال- استفاق سكان بلدة صينية فوجدوا أن لون النهر الذي يمر وسط البلدة تحول فجأة إلى الأحمر الداكن، على الرغم من أن قريتهم لا تعاني من التلوث. وكان لون النهر طبيعياً في حوالى الساعة الخامسة

١. سورة الأعراف: ١٣٤.

٢. سورة الأعراف: ١٣٥.

3. <https://time.com/5561441/passover-10-plagues-real-history>

صباحاً بتوقيت بكين، وبعد مضي ساعة واحدة تحوّل إلى الأحمر الداكن وبدأت تنبعث منه رائحة غريبة دون معرفة السبب وراء ذلك.

وعلى العموم فإنّ التفسير السابق الذي نقلته التايم سيستمر معنا في تفسير سائر الآيات المذكورة في التوراة. ومثل هذه التفسيرات -إن قبلناها- فلن تعني أن ما جرى قد خرج عن كونه آية من الآيات، إذ أنّ وقوعها في زمن يحدّده النبي موسى وفي تراتبية معينة هو في حدّ ذاته دليل على ارتباطه بالغيب ولا مانع من أن تتحقق الآيات -إلهياً- بتوظيف الأدوات والوسائل الطبيعية ولكن بصورة يعجز الإنسان -على الأقلّ- في ذلك الزمان- أن يحقّق مثلها، ولكن يبقى أن ظاهر القرآن الكريم يدلّ على أن الماء قد تحوّل إلى دم حقيقي، لا أنه اصطبغ أو تغيّر إلى لون أحمر، وهكذا الأمر بالنسبة إلى النص التوراتي بحسب ظاهر عباراته.

• آية الضفادع:

من حيث الترتيب -بحسب التوراة- تأتي هذه الآية (= الضربة) بعد آية الدم التي استمرت لمدة سبعة أيام، وجاء وصفها كالتالي: (٢٥) وَلَمَّا كُمِلَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ مَا ضَرَبَ الرَّبُّ النَّهْرَ ١ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ادْخُلْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: أَطْلِقْ شَعِي لِيَعْبُدُونِي. ٢ وَإِنْ كُنْتَ تَأْتِي أَنْ تُطْلِقَهُمْ فَهَا أَنَا أَضْرِبُ جَمِيعَ تُحُومِكَ بِالضَّفَادِعِ. ٣ فَيَفِيضُ النَّهْرُ ضَفَادِعَ. فَتَصْعَدُ وَتَدْخُلُ إِلَى بَيْتِكَ وَإِلَى مَخْدَعِ فِرَاشِكَ وَعَلَى سَرِيرِكَ وَإِلَى بُيُوتِ عِبِيدِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَإِلَى تَنَانِيرِكَ وَإِلَى مَعَاجِنِكَ. ٤ عَلَيْكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَبِيدِكَ تَصْعَدُ الضَّفَادِعُ». ٥ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: مَدِّ يَدَكَ بِعَصَاكَ عَلَى الْأَنْهَارِ وَالسَّوَاقِي وَالْآجَامِ، وَأَصْعِدِ الضَّفَادِعَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ»^(١). وفعل هارون ما أمر به،

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٧، ٢٥، والإصحاح ٨، ١-٥.

(فَصَعِدَتِ الضَّفَادِعُ وَعَطَّتْ أَرْضَ مِصْرَ) ^(١).

وكما تمكّن السحرة «العرافون» من مواجهة آية الدم بالإتيان بمثلهما، وأبطلوا دلالتهما على كونها من آيات الله، فإنهم نجحوا في آية الضفادع: (٧) وَفَعَلَ كَذَلِكَ الْعَرَّافُونَ بِسِحْرِهِمْ وَأَصْعَدُوا الضَّفَادِعَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ) ^(٢).

وبذا امتلأت مصر بالضفادع بشكل مزعج ومؤذي. وفي تنمة بحث وتحليل عالم الأوبئة «جون س. مار» - كما نقلت عنه مجلة التايم - حول أثر التغيّر المناخي في ظهور الآيات التي تحققت على يد موسى «عليه السلام»، ذكر أنه بسبب تلك الطحالب ونقص الأوكسجين، قفزت الضفادع خارج الماء بحثاً عن الطعام، وهو ما يفسّر هجوم الضفادع في كل مكان، وبأعداد ضخمة غير مسبوقة. واحتمل أحد الباحثين أيضاً أن موت الأسماك المفترسة والكائنات البحرية المختلفة التي تتغذى على صغار الضفادع ويبوضها بسبب نقص ظاهرة المد الأحمر ونقص الأوكسجين لمدة أسبوع متواصل قد أدّى إلى تنامي أعداد الضفادع بشكل كبير على خلاف دورة حياتها التي كانت تنتهي بافتراسها، أو القضاء عليها وهي ما زالت أجنة في بيوضها.

ولربما جيء بالضفدعة كآية من آيات موسى «عليه السلام» في مصر بسبب أن أهلها كانوا يتخذون «حِكْت / حِقْت» إلهة للخصوبة، ويعتقدون أنها هي التي تنفخ الروح في البشر عند ولادتهم، وتُمثّل على هيئة ضفدع أو امرأة برأس ضفدع. وتعود بداية عبادتها إلى عصر الأسرات المبكرة على الأقل. كان اسمها جزءاً من أسماء بعض أفراد الأسرة الثانية البارزين المدفونين في حلوان، مثل الأمير «نسوحقت».

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٦.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٧.

وغالباً ما يُعتقد أن تماثيل الضفادع المصنوعة في العهود المبكرة من تاريخ مصر هي تماثيل لهذه الإلهة المزعومة. وتعتبر «حقت» زوجة «خنوم» الذي كان يشكل أجساد الأطفال الجدد على دولاب الفخار الخاص به... فهو يشكل البعد الجسدي المادي في الإنسان، وهي تنفخ فيه الروح [انظر اللوحات ٢٩-٣٢].

كما ومن المحتمل أن تماثيل الضفدع التي تُمثل «حقت» كانت ترتديها النساء أثناء المراحل الأخيرة من الحمل لضمان سهولة الولادة.

فكأن هذه الآية تقول لهم أن ما اتخذتموه إلهة تهب الحياة إنما هو مخلوق من مخلوقات الله، إله موسى، وهو تحت القدرة الإلهية وتصرفها. إن الخالق للبعد الجسدي المادي للإنسان هو الله «سبحانه»، وهو الذي (ينفخ فيه الروح) ويهب الحياة أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾^(١). كما أن ما وقع بسببها من أذى كبير من المفترض أن يغيّر نظرهم تجاهها كإلهة محبوبة ويُتقرب إليها بشأن الخصوبة والولادة والعودة إلى الحياة بعد الممات.

وبحسب التوراة، وبعد أن ضاق فرعون والمصريون ذرعاً بالضفادع، تم استدعاء موسى وهارون طلباً للخلاص منها: (٨) فَدَعَا فِرْعَوْنُ مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالَ: «صَلِّ يَا إِلَهِكَ لِتَرْفَعَ الضَّفَادِعَ عَنِّي وَعَنْ شَعْبِي فَأُطْلِقَ الشَّعْبَ لِيَذْجُوا لِلرَّبِّ». ٩ فَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: «عَيْنِي لِي مَتَى أَصِلِّي لِأَجْلِكَ وَلِأَجْلِ عِبِيدِكَ وَشَعْبِكَ لِقَطْعِ الضَّفَادِعِ عَنْكَ وَعَنْ بُيُوتِكَ. وَلَكِنَّهَا تَبْقَى فِي النَّهْرِ». ١٠ فَقَالَ: «غَدًا». فَقَالَ: «كَفُولَكَ. لِيَكُنِّي تَعْرِفُ أَنَّ لَيْسَ مِثْلَ الرَّبِّ إِلَهًا». ١١ فَتَرْتَفِعُ الضَّفَادِعُ عَنْكَ وَعَنْ بُيُوتِكَ وَعَنْ عِبِيدِكَ وَشَعْبِكَ،



اللوحة رقم ٢٩ : خنوم (للجسد) وحقت (للروح) ورننوت (للغذاء)



اللوحة رقم ٣٠ : خنوم يصنع الطفل من الفخار وحقت (حكمت) تهيه الحياة



اللوحة رقم ٣١ : تميمة (حقت) مصنوعة من العقيق من المملكة القديمة



اللوحة رقم ٣٢ : خاتم وعليه ضفدع رمز الإلهة حقت

وَلَكِنَّهَا تَبْقَى فِي النَّهْرِ» ١٢ ثُمَّ خَرَجَ مُوسَى وَهَارُونُ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ، وَصَرَخَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ مِنْ أَجْلِ الضَّفَادِعِ الَّتِي جَعَلَهَا عَلَى فِرْعَوْنَ، ١٣ فَفَعَلَ الرَّبُّ كَقَوْلِ مُوسَى. فَمَاتَتِ الضَّفَادِعُ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْأُورِ وَالْحُقُولِ. ١٤ وَجَمَعُوهَا كَوْمًا كَثِيرَةً حَتَّى أَتَتْتِ الْأَرْضُ. ١٥ فَلَمَّا رَأَى فِرْعَوْنُ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ الْفَرْجُ أَغْلَظَ قَلْبُهُ وَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ^(١).

• آية البعوض أو القمليات:

الكلمة المستعملة في النص التوراتي هي צְבִיִּים وتُلْفَظُ (كَيْنَم)، وهي جمع لكلمة צְבִי وهو (كَيْنَا) وتُطْلَقُ على القمل والقمليات، أي الحشرات الطفيلية عديمات الأجنحة وهي قرابة ٥٠٠٠ نوع. وقد تمت ترجمة الكلمة ببعض النسخ الإنجليزية من التوراة إلى:

١. Lice : قملة

٢. Gnat : بعوضة

٣. Sciniph : حشرة قارصة

وأما في ترجمة التوراة إلى العربية في عدة نسخ، فقد تم استعمال كلمة (بعوض) في مقابل كلمة צְבִיִּים العبرية، بينما في الترجمة الفارسية المعاصرة والقديمة للتوراة فقد استعملت كلمة (پشه)، والتي تعني بحسب (لغتنامه دهخدا): بعوض - بق - برغش. ويلاحظ أن الكلمة العبرية المستعملة هي ذات الكلمة التي تُستعمل في الفارسية وتُلْفَظُ (كَنَّ) للدلالة على القمل والقراد وغيرها من الحشرات الطفيلية التي تلتصق بجسد الإنسان أو الحيوانات وتعيش عليها وتمتصّ دمها. ولذا، فقد تكون هذه الآية

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٨-١٥.

المذكورة في التوراة هي ذاتها المذكورة في القرآن الكريم تحت عنوان (القُمَّل). وجاءت تفاصيل هذه الآية في التوراة كالآتي: (١٦) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: مَدَّ عَصَاكَ وَاضْرِبْ تُرَابَ الْأَرْضِ لِيَصِيرَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ». ١٧ فَفَعَلَ كَذَلِكَ. مَدَّ هَارُونَ يَدَهُ بِعَصَاهُ وَضَرَبَ تُرَابَ الْأَرْضِ، فَصَارَ الْبُعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ. كُلُّ تُرَابِ الْأَرْضِ صَارَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ^(١).

وتتحدث التوراة بعد ذلك عن فشل السحرة (العرّافين) في الإتيان بمثل هذه الآية على خلاف ما جرى بخصوص الآيتين السابقتين، ولذا اعترفوا بأن هذا من صنع الله، وليس بسحر من فعل البشر: (١٨) وَفَعَلَ كَذَلِكَ الْعَرَّافُونَ بِسِحْرِهِمْ لِيُخْرِجُوا الْبُعُوضَ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا. وَكَانَ الْبُعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ. ١٩ فَقَالَ الْعَرَّافُونَ لِفِرْعَوْنَ: «هَذَا إِصْبَعُ اللَّهِ». وَلَكِنْ اشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ^(٢).

وتتمّة لتفسير عالم الأوبئة (مار) الذي أشرنا إليه من قبل، فإنّ موت الضفادع التي تأكل الحشرات أدى إلى انتشارها - على أنواعها - وبشكل جنوني، ومنها القمليات (أو البعوض) والذباب والجراد مما ذكره النص التوراتي بالتدريج^(٣).

• آية الذُّباب:

نتيجة إصرار فرعون على الاستكبار، وامتناعه عن تحرير بني إسرائيل، ورفضه التصديق بالرسالة، تتحدث التوراة عن تهديد وُجّه لفرعون في محاولة أخرى لردعه قبل وقوع الآية: (٢٠) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «بَكَّرْ فِي الصَّبَاحِ وَقِفْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ. إِنَّهُ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ١٦-١٧.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ١٨-١٩.

3. <https://time.com/5561441/passover-10-plagues-real-history>

يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ. وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي. ٢١ فَإِنَّهُ إِنْ كُنْتُ لَا تُطْلِقُ شَعْبِي، هَا أَنَا أُرْسِلُ عَلَيْكَ وَعَلَى عَبِيدِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى بُيُوتِكَ الدُّبَّانَ، فَتَمْتَلِئُ بُيُوتُ الْمِصْرِيِّينَ دُبَّانًا. وَأَيْضًا الْأَرْضُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا^(١).

وتضمن التهديد أيضاً بياناً بأن هذه الآية لن تُصيب أرض جاسان ومن يسكن فيها من بني إسرائيل، ليتأكد فرعون أن الأمر إلهي، وإلا فإن الحشرات حين تنتشر بقوة، لا تميز بين منطقة وأخرى، وبين قومية وأخرى. ويبدو أن المراد من أرض جاسان هنا خصوص المدينة القديمة التي كان يسكن فيها بنو إسرائيل، وهي أواريس في مقابل المدينة الجديدة برعمسيس: (٢٢) وَلَكِنْ أُمَيِّرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَرْضَ جَاسَانَ حَيْثُ شَعْبِي مُقِيمٌ حَتَّى لَا يَكُونَ هُنَاكَ دُبَّانٌ. لِكَيْ تَعْلَمَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ فِي الْأَرْضِ. ٢٣ وَأَجْعَلُ فَرْقًا بَيْنَ شَعْبِي وَشَعْبِكَ. غَدًا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ^(٢).

وحيث لم يستجب فرعون هذه المرة أيضاً، جرت الآية كما أخبر بها: (٢٤) فَفَعَلَ الرَّبُّ هَكَذَا، فَدَخَلَتْ دُبَّانٌ كَثِيرَةٌ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَبُيُوتِ عَبِيدِهِ. وَفِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ خَرَبَتْ الْأَرْضُ مِنَ الدُّبَّانِ^(٣).

وكان وقع الآية شديداً على فرعون، فالذباب - كما لا يخفى - مزعج جداً عندما يكون بمثل الكثرة الموصوفة، وهو ناقلٌ للأمراض، ويمكن ليرقاته أن تتواجد في الطعام فتفسده.

إن الإنسان من الضعف بمكان بحيث يعجز أحياناً عن مواجهة كائنات صغيرة

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢٠-٢١.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢٢-٢٣.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢٤.

ضعيفة في نفسها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾^(١).

ومع هذا، يأتي فرعون فيدعي الربوبية والألوهية لنفسه، وهو عاجز عن مواجهة هذا الكائن الضعيف! فلتكن هذه الآية دليلاً آخر على عجز فرعون، وعلى عجز الآلهة التي يتوسل بها هو ومن كان على دينه من أجل الخلاص من غزوة الذباب، وعلى أن إله موسى وحده هو القادر على ذلك، بل وهو على كل شيء قدير.

لقد ضجَّ فرعون، ولم يلجأ هذه المرة إلى السحرة كما فعل من قبل، حيث أنهم أعلنوا عجزهم أمام آية البعوض (القمليات)، ولم يجد أمامه من حلَّ سوى أن يلجأ إلى موسى وهارون: (٢٥) فَدَعَا فِرْعَوْنُ مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالَ: «اذْهَبُوا اذْجُبُوا لِإِلَهِكُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ»^(٢)، وفي وصف قريب من قوله «تعالى»: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٥﴾﴾^(٣).

ولربما كانت خصوصية هذه الآية أنها جاءت لتكشف مرة أخرى بطلان معتقدات المشركين الذين خصَّصوا إلهاً معيناً لطرد الذباب، كما آمنت بذلك شعوب أخرى مجاورة لهم، ومن بينها الإله المختلق (بعل زبوب)، أي سيد الذباب، أو (بعل زبول) أي سيد المزبلة، وكان مقدساً عند الكنعانيين، ويقال أن كلمة (زبوب/زبول) إضافة من قبل

١. سورة الحج: ٧٣-٧٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢٥.

٣. سورة الأعراف: ١٣٤.

بني إسرائيل بنحو الإهانة، وأنه نفس الإله بعل المعروف [انظر اللوحة ٣٣]، حيث أن المعتقدين بالوهية بعل كانوا يُقدّمون اللحم في المعابد عند أقدام (الإله) فيتجمّع عليه الذباب بأعداد ضخمة، وينتن، لذا أطلقوا عليه إله وسيد الذباب. وقد جاء ذكره في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾^(١).

ومن المحتمل أن تكون القرية القريبة من القدس والمعروفة باسم (دير الدّبان) أي الذباب، شاهداً على صحة وجود إله خاص بالذباب عند قدماء الكنعانيين، بادعاء أن هذا الدير كان بالأصل معبداً وثنياً، لاسيما وأن في القرية مواقع أثرية قديمة، تحتوي على أساسات وأبنية مُهدّمة تعود إلى أزمنة بعيدة. وفي المقابل فهناك من يرى أن كلمة (دُبّان) تشير إلى (دُبّان) نتيجة لكثرة الذّباب فيها [انظر اللوحات ٣٤-٣٦].

وأما في مصر نفسها، فقد كانت الإلهة خِبري (خِبر / خِبر رع) في الديانة المصرية القديمة مرتبطة بخنفساء الجعل (خنفساء الروث) وتُمثّل الخلق والبعث. وقيل أنها كانت الإلهة الخاصة بالحشرات، والتي تشمل الذباب، وأن آية الذباب جاءت لبيان عجزها عن الرّد -بالإضافة إلى عجز السحرة- لتكشف بذلك بطلان معتقدات القوم. ولكنني لم أجد في المصادر التاريخية ما يدل على أن الإلهة خبري كانت إلهة للحشرات، وإن كانت بنفسها تمثّل واحدة منها [انظر اللوحة ٣٧].

وكان هناك تقدير خاص للذباب لدى قدماء المصريين، إذ إنها كانت تمثل أحد أرفع الأوسمة التي تمنح للجنود العظام، والمحاربين العتاة، تقديراً لجهودهم العسكرية ودورهم في الحرب [انظر اللوحة ٣٨].



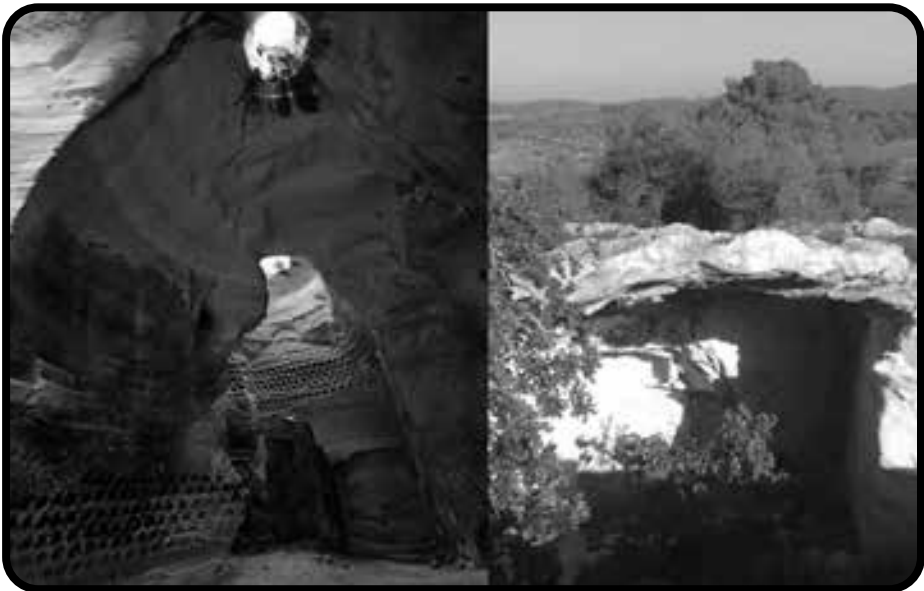
اللوحة رقم ٣٣ : الإله بعل الذي أشار إليه القرآن الكريم في قصة النبي إلياس



اللوحة رقم ٣٤ : خارطة توضح موقع دير الدبّان بالنسبة إلى مدينة القدس



اللوحة رقم ٣٥ : من آثار دير الدبان



اللوحة رقم ٣٦ : من آثار دير الدبان



اللوحة رقم ٣٧ : الإله خبري المجنح على متن سفينة (من كتاب الموتى)



اللوحة رقم ٣٨ : وسام الذبابة الذهبية

وتُعدّ الملكة (أياح حتب) التي عاشت في نهاية عصر الأسرة السابعة عشرة، وزوجة الملك (سقن رع تاعا الثاني)، ووالدة كل من (كامس) و(أحمس)، أول من حاز على وسام "الثلاث ذبابات" تقديراً لجهودها في دحر الهكسوس عن مصر، إذ أنها دفعت زوجها لمحاربتهم، فلقى حتفه في المعركة لتدفع بابنها كامس، والذي لاقى حتفه هو الآخر في سن العشرين، لتكمل المعركة ضد الهكسوس مع أحمس نجلها الأصغر، والذي نجح في تحرير مصر منهم، وهو ما دعاه لمنحها وسام الذبابة الذهبية تقديراً لجهودها العسكرية [انظر اللوحة ٣٩].

وعلى كل حال، لم يقبل موسى بالعرض الذي قدّمه فرعون، وعلّل رفضه بأنه إذا ذبح عَجَلاً أو كبشاً أو غير ذلك مما يقدسه المصريون، فسيتهمونه بأنه يتعمّد التعدي على آلهتهم، مما يعرضه للمخاطر: (٢٦) فَقَالَ مُوسَى: «لَا يَصْلَحُ أَنْ نَفْعَلَ هَكَذَا، لِأَنَّا إِنَّمَا نَذْبَحُ رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا. إِنْ ذَبَحْنَا رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ أَمَامَ عُيُونِهِمْ أَفَلَا يَرْجُمُونَنَا؟ ٢٧ نَذْهَبُ سَفَرٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا كَمَا يَقُولُ لَنَا»^(١).

وافق فرعون على طلب موسى «عليه السلام» وإن كان يرفضه من قبل، وما ذاك إلا لمقدار ما بات يعانيه من آثار هجوم الذباب على كل شيء. بل إن فرعون -بكل جبروته وعناده- طلب من موسى وهارون أن يدعوا الله له! (٢٨) فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «أَنَا أَظْلِقُكُمْ لَتَذْبَحُوا لِلرَّبِّ إِلَهُكُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَلَكِنْ لَا تَذْهَبُوا بَعِيدًا. صَلِّيًا لِأَجْلِي»^(٢).

واستجاب الله دعاء موسى وهارون لرفع هذه الآفة المهلكة والمزعجة، إلا أن فرعون ما لبث أن عاد إلى سيرته الأولى: (٣١) فَقَعَلَ الرَّبُّ كَقَوْلِ مُوسَى، فَارْتَفَعَ الدُّبَابُ عَنْ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢٦-٢٧.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٢٨.



اللوحة رقم ٣٩: الملكة أياح حتب وأوسمتها، ومن بينها الثلاث ذبابات

فِرْعَوْنَ وَعَبِيدِهِ وَشَعْبِهِ. لَمْ تَبْقَ وَاحِدَةٌ. ٣٢ وَلَكِنْ أَغْلَظَ فِرْعَوْنُ قَلْبَهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَيْضًا فَلَمْ يُطْلِقِ الشَّعْبَ^(١). وقد أكد القرآن الكريم هذا الموقف السلبي والجاحد حيث قال «تعالى»: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوءِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾^(٢).

• آية الوباء:

وحيث نكث فرعون الوعد وعاد إلى سيرته الأولى، أمر الله «تعالى» موسى أن يخبر فرعون بنزول الآية اللاحقة في الغد، وهي آية الوباء: (٣) فَهَا يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَىٰ مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ، عَلَىٰ الْحَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَاءً ثَقِيلًا جِدًّا^(٣).

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٨، ٣١-٣٢.

٢. سورة الأعراف: ١٣٥.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٣.

وكما كان الأمر بالنسبة إلى الذباب، فإن هذا الوباء لن يصيب إلا مواشي المصريين فحسب، كنوع من العقاب، وللدلالة على مصداقية الآية، وإلا لعمّ البلاء الجميع: (٤) وَيُمَيِّزُ الرَّبُّ بَيْنَ مَوَاشِي إِسْرَائِيلَ وَمَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ. فَلَا يَمُوتُ مِنْ كُلِّ مَا لَبِثِي إِسْرَائِيلَ شَيْئًا. ٥ وَعَيْنَ الرَّبِّ وَقْتُاً قَائِلاً: «غَدًا يَفْعَلُ الرَّبُّ هَذَا الْأَمْرَ فِي الْأَرْضِ»^(١).

وقد تم تفسير وقوع الوباء بأنه نتيجة طبيعية لما جرى من قبل من انتشار بعض أنواع الحشرات، ومنها الذباب القادر على نقل العديد من الأمراض، مثل الكوليرا والتيفوئيد والدوسنتاريا والسالمونيلا والتراخوما وغيرها. واعتبر بعض الباحثين أن الذباب المشار إليه في الآية السابقة لربما كان خصوص ما يُعرف بالعربية باسم (صَيْدَن) أو ذباب اللحم، واسمه العلمي: Sarcophaga من فصيلة: Sarcophagidae [انظر اللوحة ٤٠]. هذا النوع من الذباب يتغذى على اللحم، وتضع أنثاه بيوضها في جثث الحيوانات، ويمكنها نقل العديد من الميكروبات المسببة للأمراض المختلفة إلى الحيوانات الأخرى، وكذلك إلى البشر، والتي يمكن أن تؤدي بدورها إلى أمراض تتراوح بين القرحة الجلدية (النفخ)، والكوليرا، والسالمونيلا، والديدان الطفيلية إلى الجذام وغيرها من الأمراض والأوبئة: (٦) فَفَعَلَ الرَّبُّ هَذَا الْأَمْرَ فِي الْغَدِ. فَمَاتَتْ جَمِيعُ مَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ. وَأَمَّا مَوَاشِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَمُتْ مِنْهَا وَاحِدٌ. ٧ وَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَإِذَا مَوَاشِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَمُتْ مِنْهَا وَلَا وَاحِدٌ^(٢).

اعتُبرت هذه الضربة موجهة ضد الإله (أبيس / آبيس / هب) الممثل في صورة ثور أو عجل، وكان يرمز إلى الخصوبة.

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٤-٥.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٦-٧.



اللوحة رقم ٤٠ : ذباب اللحم، واسمه العلمي Sarcophaga

فقد أهلك هذا الوباء الماشية، بما في ذلك الشيران والعجول، ولم تستطع حماية نفسها منه [انظر اللوحة ٤١].

وكان لهذا المعبود تأثير قوي في مصر، وعلى بني إسرائيل أيضاً، بحيث أنهم على الرغم من كل الآيات التي عاينوها، لم يستطيعوا فك أنفسهم من الاعتقاد بالوهيته! قال «تعالى»: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يُهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨).

وقال «سبحانه»: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا



اللوحة رقم ٤١: الإله (أبيس / آبيس / هب) الممثل في صورة ثور أو عجل

قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾^(١).

وعلى الرغم من قوة هذا الوباء وآثاره، إلا أن فرعون أصرّ على موقفه الاستكباري
والجاحد: (٧) وَلَكِنْ غَلْظَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يُطْلِقِ الشَّعْبَ^(٢).

• آية الدّاممل:

أصيبت الماشية بالوباء فهلك قسمٌ منها، ولم يرتدع فرعون، فكان المصريون والبهائم
هدف الآية التالية المتمثلة في الإصابة بالدمامل: (٨) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ:

١. سورة البقرة: ٩٢-٩٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٧.

«خُذَا مِלءَ أَيْدِيكُمَا مِنْ رَمَادِ الْأَثُونِ، وَلْيَذَرَّهُ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ أَمَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ، ٩ لِيَصِيرَ غُبَارًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. فَيَصِيرَ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ دَمَامِلٌ طَالِعَةٌ بِبُثُورٍ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ»). وأصيب السحرة (العرّافون) أنفسهم بهذا الوباء، وكانوا عاجزين أمامه: (١١) وَلَمْ يَسْتَطِيعِ الْعَرَّافُونَ أَنْ يَقْفُوا أَمَامَ مُوسَى مِنْ أَجْلِ الدَّمَامِلِ، لِأَنَّ الدَّمَامِلَ كَانَتْ فِي الْعَرَّافِينَ وَفِي كُلِّ الْمِصْرِيِّينَ^(١).

وفي التفسير الذي قدّمناه من قَبْلُ في توالي هذه الآيات، قيل أن هذه الدمامل هي من تبعات انتشار الذباب والبعوض أو القمليات، مما أدّى إلى انتشار الطفيليات وأمثالها لينتهي المطاف إلى الإصابة بدمامل وتقرّحات جلدية، قد تكون -بحسب هذا التفسير- متمثلة في مرض (الرُّعَامُ / الرُّعَالُ / أو داء الخيل) Glanders، وهو مرض معدي يصيب الخيل والبغال والحمير، وسببه جرثومة بكتيرية تدعى Burkholderia Mallei وتنتقل عبر الأغذية والمياه الملوثة، ويمكن لهذه الجرثومة أن تصيب الإنسان، ولذا تُصنّف على أنها ناقل لمرض حيواني المنشأ. ويصيب الرعام الإنسان عند التلامس المباشر مع الحيوان المصاب أو الاستنشاق.

وبما أن الرعام مرض مميت، ولسهولة انتقاله، فقد تمّ استعماله من قبل ألمانيا كسلاح بيولوجي إبان الحرب العالمية الأولى، فأصابوا به الكثير من الخيول والبغال الروسية بما أثر بشكل كبير على قوافل القوات والإمدادات، وكذلك على حركة المدفعية، التي كانت تعتمد على هذه الدواب.

كما زادت الإصابات البشرية في روسيا بعد الحرب إثر هذا الهجوم الجرثومي. أما في الحرب العالمية الثانية فقد قام اليابانيون بنشر هذا المرض بين السجناء والمدنيين

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٨-١١.

والخيول [انظر اللوحتين ٤٢-٤٣]. واعتُبرت هذه الضربة موجّهة للإلهة إيزيس، إلهة السحر والشفاء ومعطية الحياة، إذ عُرفت بقواها السحرية، وأنها أمهر من مليون إله [انظر اللوحة ٤٤].

مجدّداً، أصّر فرعون على موقفه المعاند والمكابّر، ولذا صار على موعد مع آية أخرى، وتحذير آخر وتهديد أكبر وصل إليه عن طريق موسى «عليه السلام»: (١٢) وَلَكِنْ شَدَّدَ الرَّبُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى. ١٣ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «بَكَّرْ فِي الصَّبَاحِ وَقِفْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي. ١٤ لَأَتِي هَذِهِ الْمَرَّةَ أُرْسِلُ بِجَمِيعِ ضَرْبَاتِي إِلَى قَلْبِكَ وَعَلَى عَبِيدِكَ وَشَعْبِكَ، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي كُلِّ الْأَرْضِ»^(١).

• آية البرد:

الآية اللاحقة التي هدد بها فرعون ولم يتزحزح عن موقفه، تتمثل في البرد المدمر للمحاصيل الزراعية، والمهلك لعدد مما تبقى من الأنعام، بل وللبشر أيضاً، وذلك بلحاظ حجمه وقوة سقوطه وتأثيره: (١٨) هَا أَنَا غَدًا مِثْلَ الْآنِ أُمْطِرُ بَرْدًا عَظِيمًا جِدًّا لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي مِصْرَ مُنْذُ يَوْمِ تَأْسِيسِهَا إِلَى الْآنِ. ١٩ فَالآنَ أُرْسِلُ أَحْمِ مَوَاشِيكَ وَكُلَّ مَا لَكَ فِي الْحَقْلِ. جَمِيعُ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ الَّذِينَ يُوجَدُونَ فِي الْحَقْلِ وَلَا يَجْمَعُونَ إِلَى الْبُيُوتِ، يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْبَرْدُ فَيَمُوتُونَ»^(٢). [انظر اللوحتين ٤٥-٤٦].

وإذ يقرن جمع من أهل مصر أن موسى «عليه السلام» صادق في ما يقول، وأن ما يأتي به من الوعيد والإنذار لا بد وأن يتحقق، لذا فقد هرب هؤلاء من البرد القادم لا محالة:

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ١٢-١٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ١٨-١٩.



اللوحة رقم ٤٢ : الدمامل المنتشرة بسبب الرُّعام (داء الخيل)



اللوحة رقم ٤٣ : الدمامل المنتشرة بسبب الرُّعام (داء الخيل)



اللوحة رقم ٤٤ : إيزيس المجنحة على تابوت رمسيس الثالث من القرن ١٣ ق.م
وإلى اليمين تميمة (تيت) أو (عقدة / أنشودة إيزيس) للشفاء وحماية الجسد

(٢٠) فَالَّذِي خَافَ كَلِمَةَ الرَّبِّ مِنْ عِبِيدِ فِرْعَوْنَ هَرَبَ بِعَبِيدِهِ وَمَوَاشِيهِ إِلَى الْبُيُوتِ. ٢١
وَأَمَّا الَّذِي لَمْ يُوجِّهْ قَلْبَهُ إِلَى كَلِمَةِ الرَّبِّ فَتَرَكَ عَبِيدَهُ وَمَوَاشِيَهُ فِي الْحَقْلِ^(١).

وحانت ساعة نزول البرد بأمر الله، وبإشارة من موسى كما أمره ربه: (٢٣) فَمَدَّ مُوسَى
عَصَاهُ نَحْوَ السَّمَاءِ، فَأَعْطَى الرَّبُّ رُعُودًا وَبَرَدًا، وَجَرَتْ نَارٌ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَمْطَرَ الرَّبُّ بَرَدًا
عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. ٢٤ فَكَانَ بَرْدٌ، وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ فِي وَسْطِ الْبَرْدِ^(٢). شَيْءٌ عَظِيمٌ جِدًّا لَمْ
يَكُنْ مِثْلُهُ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ مُنْذُ صَارَتْ أُمَّةً. ٢٥ فَضَرَبَ الْبَرْدُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ جَمِيعَ
مَا فِي الْحَقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. وَضَرَبَ الْبَرْدُ جَمِيعَ عُشْبِ الْحَقْلِ وَكَسَّرَ جَمِيعَ شَجَرِ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٢٠-٢١.

٢. النار بسبب التأثير المحرق للصواعق والبروق.



اللوحة رقم ٤٥ : حبات برد كبيرة وخطيرة لو نزلت على الكائن الحي



اللوحة رقم ٤٦ : تأثير حبات البرد الكبيرة على هذه المركبة

الحُفْل. ٢٦. إِلَّا أَرْضَ جَاسَانَ حَيْثُ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا بَرْدٌ).

لم يجد فرعون مهرباً من أن يتذلل لموسى هذه المرة، ويقرّ مجدداً بالخضوع للآية الإلهية، طالباً منه أن يسأل ربه الخلاص من هذا العذاب النازل، وبأنه على أتم الاستعداد لتلبية الأمر الإلهي بإطلاق بني إسرائيل والسماح لهم بمغادرة مصر: (٢٧) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالَ لَهُمَا: «أَخْطَأْتُ هَذِهِ الْمَرَّةَ. الرَّبُّ هُوَ الْبَارُّ وَأَنَا وَشُعْبِي الْأَشْرَارُ. ٢٨. صَلِّ يَا إِلَهِي الرَّبِّ، وَكَفِّ حُدُوثَ رُغُودِ اللَّهِ وَالْبَرْدِ، فَأُطْلِقْكُمْ وَلَا تَعُودُوا تَلَبُّثُونَ»).

واستجاب موسى لفرعون، وقرّر الخروج للدعاء والتوسّل أملاً في توقّف البرد والنار (البرق والصواعق)، وإن أخبره سلفاً بأنه يشكّ في كونه صادقاً في وعده: (٣٣) فَخَرَجَ مُوسَى مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ وَبَسَطَ يَدَيْهِ إِلَى الرَّبِّ، فَأَنْقَطَعَتِ الرُّغُودُ وَالْبَرْدُ وَلَمْ يَنْصَبِ الْمَطَرُ عَلَى الْأَرْضِ^(١).

وصدق موسى في حدسه المبتني سلفاً على ما أخبره به الله «تعالى» من أن فرعون لن يستجيب للآيات، وأنه يأتي بها إتماماً للحجة، ولعلّ في البين من يرتدع: (٣٤) وَلَكِنْ فِرْعَوْنُ لَمَّا رَأَى أَنَّ الْمَطَرَ وَالْبَرْدَ وَالرُّغُودَ انْقَطَعَتْ، عَادَ يُخْطِئُ وَأَغْلَظَ قَلْبُهُ هُوَ وَعَبِيدُهُ. ٣٥ فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يُطْلِقْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ عَنْ يَدِ مُوسَى^(٢).

وكما أشرنا من قبل إلى التفسيرات التي قدّمها أحد علماء البيئة، فإنّ عالم الأحياء الدقيقة (سيرو تريفيساناتو) Siro Igino Trevisanato مؤلف كتاب (طاعون مصر: علم الآثار والتاريخ والعلوم: نظرة إلى الكتاب المقدس)، The Plagues

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٢٣-٣٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٩، ٣٤-٣٥.

of Egypt: Archaeology, History, and Science Look at the Bible

اعتبر أنَّ ما جرى على يد موسى من آيات، كان في الواقع نتيجة ثورة بركانية وقعت في جزيرة «سانتوريني» الواقعة في جنوب اليونان (حوالي ١٦٢٠-١٦٠٠ قبل الميلاد)^(١)، وأن الرياح حملت الرماد البركاني إلى مصر في وقت ما خلال فصل الصيف، وأن الأحماض السامة الموجودة في الرماد البركاني اشتملت على معدن الزنجفر Cinnabar، الذي حوّل لون النهر إلى اللون الأحمر الشبيه بالدم. ومن المحتمل أن تكون الحموضة المتراكمة في الماء قد دفعت الضفادع إلى القفز والبحث عن المياه النظيفة. وأن من الممكن أن تضع الحشرات بيوضها في أجسام الحيوانات الميتة وعلى أجساد الناجين من البشر، مما أدى إلى ظهور اليرقات ثم الحشرات البالغة.

ومن ثمّ، كان من الممكن أن يؤثر الرماد البركاني الموجود في الغلاف الجوي على الطقس، حيث تهطل الأمطار الحمضية فتصيب أجساد الناس وتسبب الدمامل. كما أن تلوث العشب بهذه المواد السامة أدى إلى تسمّم الحيوانات التي أكلته، وأدت الرطوبة الناتجة عن البرد النازل إلى توقّر الظروف المثالية لتكاثر الجراد. ويمكن للانفجارات البركانية أيضاً أن تفسّر الظلام الممتدّ لعدة أيام بحسب التوراة الحاضرة، وأنه وسط كل هذا الدمار، كان من الممكن التضحية بالأطفال الأبقار كقرايين للآلهة لتتوقف عن معاقبتهم، بما يفسّر -بحسبه- الآية الأخيرة لموتهم.

• آية الجراد:

مجدّداً، يأمر الله «تعالى» موسى «عليه السلام» -بحسب النص التوراتي- أن يذهب إلى فرعون حاملاً رسالة إنذار وتهديد إن لم يستجب للأمر بإطلاق بني إسرائيل:

١. بالطبع فإن هذا التاريخ لا يناسب المقطع الزمني الذي حدّده كعصر للنبي موسى.

٤؛ فَإِنَّهُ إِنْ كُنْتَ تَأْتِي أَنْ تُطْلِقَ شَعْبِي هَا أَنَا أَجِيءُ عَدَاً بِجَرَادٍ عَلَى تَحُومِكَ، ٥ فَيُعْطِي وَجَهَ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يُسْتَطَاعَ نَظَرُ الْأَرْضِ. وَيَأْكُلُ الْفُضْلَةَ السَّالِمَةَ الْبَاقِيَةَ لَكُمْ مِنَ الْبَرْدِ. وَيَأْكُلُ جَمِيعَ الشَّجَرِ الثَّابِتِ لَكُمْ مِنَ الْحَقْلِ. ٦ وَيَمْلَأُ بَيْوتَكَ وَبُيُوتَ جَمِيعِ عِبِيدِكَ وَبُيُوتَ جَمِيعِ الْمِصْرِيِّينَ، الْأَمْرُ الَّذِي لَمْ يَرَهُ آبَاؤُكَ وَلَا آبَاءُ آبَائِكَ مِنْذُ يَوْمٍ وَجَدُوا عَلَى الْأَرْضِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ». وتغيّر موقف الملأ -أي عبید فرعون بحسب تعبير التوراة- هذه المرة إذ طالبوا بالاستجابة للأمر الإلهي على الرغم من أنهم كانوا محرضين ومعاندين من قبل: (٧ فَقَالَ عَبِيدُ فِرْعَوْنَ لَهُ: «إِلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا لَنَا فَحَا؟ أَطْلِقِ الرَّجَالَ لِيَعْبُدُوا الرَّبَّ إِلَهُهُمْ. أَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدُ أَنَّ مِصْرَ قَدْ خَرِبَتْ؟»).

استجاب فرعون لقولهم، وأرجع موسى وهارون، وسألهما: (٨..... وَمَنْ هُمُ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ؟). ٩ فَقَالَ مُوسَى: «نَذْهَبُ بِفِتْيَانِنَا وَشُيُوخِنَا. نَذْهَبُ بِبَنِينَا وَبَنَاتِنَا، بِغَنَمِنَا وَبَقَرِنَا، لِأَنَّ لَنَا عِيدًا لِلرَّبِّ»^(١).

رفض فرعون ذلك، واشترط أن يخرج موسى بالرجال فقط، وهو ما رفضه موسى وهارون بدورهما، مما أغضب فرعون، فطردهما! ولعل فرعون قد خاف أن يتخذ موسى وهارون الخروج للتعبد والاحتفال بالعيد بعيداً عن المدينة وسيلة للهروب من مصر. وبدأت آية الجراد بهبوب ريح (شرقية) استمرت يوماً وليلة، حملت معها الجراد بكميات مهولة: (١٤ فَصَعَدَ الْجَرَادُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ، وَحَلَّ فِي جَمِيعِ تَحُومِ مِصْرَ. شَيْءٌ ثَقِيلٌ جِدًّا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ جَرَادٌ هَكَذَا مِثْلَهُ، وَلَا يَكُونُ بَعْدَهُ كَذَلِكَ، ١٥ وَعُطِيَ وَجَهَ كُلِّ الْأَرْضِ حَتَّى أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ. وَأَكَلَ جَمِيعَ عُشْبِ الْأَرْضِ وَجَمِيعَ ثَمَرِ الشَّجَرِ الَّذِي تَرَكَهُ الْبَرْدُ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ أَخْضَرُ فِي الشَّجَرِ وَلَا فِي عُشْبِ الْحَقْلِ فِي

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٤-٩.

كُلُّ أَرْضِ مِصْرَ»^(١) [انظر اللوحتين ٤٧-٤٨]. وحيث لم يكن أمر آفة الجراد جديداً على مصر، لذا فقد كان قدماء المصريين يتقربون إلى الإلهة (إيزيس) لاعتقادهم بأنها الحامية من هذه الآفة. فجاءت آية الجراد مؤكدة مرة أخرى عجز هذه الإلهة المزعومة عن رد الأمر الإلهي، وأن حمايتها لأرض مصر من الجراد ليست سوى أوهام وأساطير باطلة [انظر اللوحة ٤٩].

ومع عجز فرعون عن فعل شيء أمام هذه الآفة الرهيبة، استنجد بموسى وهارون معتذراً إليهما ومتذللاً، وطالباً -مرة أخرى- أن يدعوا الله ربهما أن يخلصه من آفة الجراد التي اعتبرها بمستوى الموت. استجاب الله «تعالى» لدعاء موسى وهارون، ودفع الجراد بهبوب ريح جاءت من الاتجاه المعاكس: (١٩) فَردَّ الرَّبُّ رِيحًا غَرْبِيَّةً شَدِيدَةً جِدًّا، فَحَمَلَتِ الْجُرَادَ وَطَرَحَتْهُ إِلَى بَحْرِ سُوفَ^(٢). لَمْ تَبَقْ جَرَادَةٌ وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ تَحُومِ مِصْرَ^(٣).

وحيث رجع فرعون إلى سابق حاله بعد الخلاص، رفض الاستجابة لإطلاق بني إسرائيل مما عرّضه لحلول آية أخرى مخيفة ستستمر لثلاثة أيام، وهي آية الظلام.

• آية الظلام:

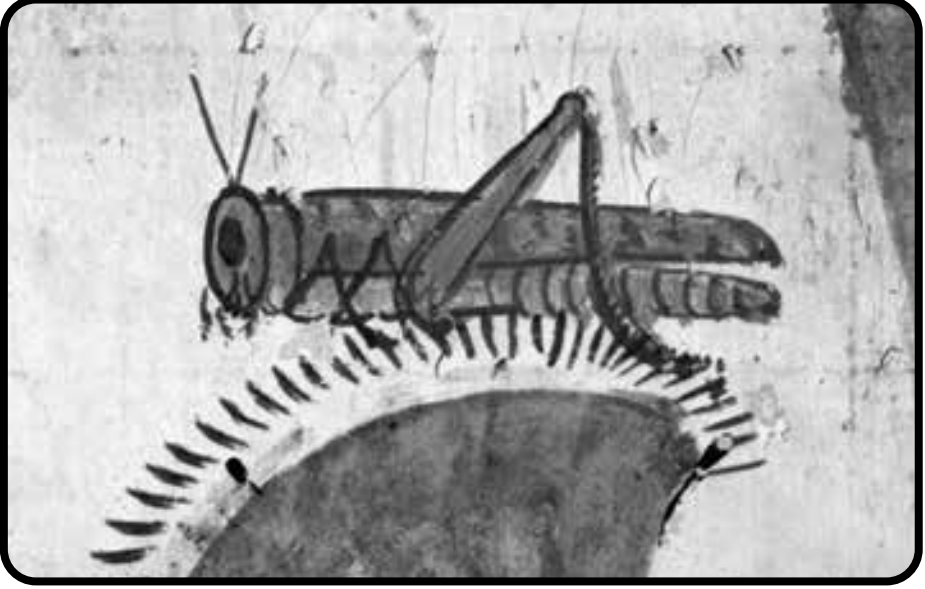
تقول التوراة: (٢١) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ ظَلَامٌ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، حَتَّى يُلْمَسَ الظَّلَامُ»^(٤). وهكذا، فعل موسى ما أمر به، فحلّ الظلام الدامس ليل نهار، وبصورة غير مسبقة مما عطل الحياة في المدينة تماماً: (٢٣) لَمْ يُبْصَرْ أَحَدٌ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ١٤-١٥.

٢. وقع الاختلاف بين الباحثين حول المراد من بحر سوف هو البحر الأحمر أم مستنقع مائي كبير جداً كان يقع إلى الشرق من دلتا مصر؟ وسنناقش هذه المسألة ضمن بحث خروج موسى من مصر.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ١٩.

٤. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٢١.



اللوحة رقم ٤٧ : لوحة في مقبرة حورمحب تعود إلى القرن ١٥ ق.م



اللوحة رقم ٤٨ : هكذا يغزو الجراد الحقول الزراعية فلا يُبقي ولا يذر



اللوحة رقم ٤٩ : الإلهة إيزيس الحامية من آفة الجراد

أَحَاهُ، وَلَا قَامَ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. وَلَكِنْ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ لَهُمْ نُورٌ فِي مَسَاكِينِهِمْ^(١).

تنازل فرعون هذه المرة عن شَرْطِهِ، وَقَبِلَ أَنْ يَخْرُجَ كُلُّ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ لِلتَّعْبَدِ وَالْإِحْتِفَالِ، شَرِيطَةً أَنْ يَتْرَكُوا أَنْعَامَهُمْ وَرَاءَهُمْ رَهِينَةً لِيُضْمَنَ عَوْدَتَهُمْ: (٢٤) فَدَعَا فِرْعَوْنُ مُوسَى وَقَالَ: «اذْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ. غَيْرَ أَنَّ غَنَمَكُمْ وَبَقَرَكُمْ تَبْقَى. أَوْلَادُكُمْ أَيْضًا تَذْهَبُ مَعَكُمْ»^(٢).

رفض موسى الشرط معللاً ذلك بأنه بحاجة إلى تقديم ذبائح تكون قرايين إلى الله ضمن مراسيم العبادة والاحتفال بالعيد: (٢٥) فَقَالَ مُوسَى: «أَنْتِ تُعْطِي أَيْضًا فِي أَيْدِينَا

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٢٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٢٤.

دَبَائِحَ وَحُرَقَاتٍ لِنَصْنَعَهَا لِلرَّبِّ إِلَهِنَا، ٢٦ فَتَذْهَبُ مَوَاشِينَا أَيْضًا مَعَنَا. لَا يَبْقَى ظِلْفٌ. لَأَنَّنَا مِنْهَا نَأْخُذُ لِعِبَادَةِ الرَّبِّ إِلَهِنَا. وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ بِمَاذَا نَعْبُدُ الرَّبَّ حَتَّى نَأْتِيَ إِلَى هُنَاكَ»^(١). أي لن يتضح عدد القرايين التي ستُقدَّم إلى أن يصلوا إلى الموضع المحدد، ومن ثم سيأتي الأمر بتقديم القرايين بأعداد محددة.

وكعادته، رفض فرعون، وأصرَّ على موقفه، وطرد موسى مهدداً بأنه إن رآه مجدداً فسيفتله. وقد عرَّضه موقفه هذا للمعاناة تحت وقع آيةٍ أخيرة قاصمة الظهر.

• آية موت الأبقار:

أخبر الله «تعالى» موسى «عليه السلام» بأن هذه ستكون الآية الأخيرة التي ستُجبر فرعون على إطلاق بني إسرائيل وبشكل نهائي ودون قيد أو شرط: (١) ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ضَرْبَةً وَاحِدَةً أَيْضًا أَجْلِبْ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مِصْرَ. بَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ مِنْ هُنَا. وَعِنْدَمَا يُطْلِقُكُمْ يَطْرُدُكُمْ طَرْدًا مِنْ هُنَا بِالتَّامِّ»^(٢).

وحيث أن بني إسرائيل سيرحلون عن مصر، لذا فهم بحاجة إلى مؤونة السفر، وشيء من الذهب والفضة ليكون بمثابة رأس مال لتكوين أنفسهم بعد الاستقرار خارج مصر، لاسيما وأنهم قد عملوا على مدى سنوات وسنوات بلا أجر يُذكر... من هنا، أمر الله «تعالى» موسى «عليه السلام» أن يحثهم على طلب ذلك من المصريين: (٢) تَكَلَّمْ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ أَنْ يَطْلُبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ صَاحِبِهِ، وَكُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ صَاحِبَتِهَا أَمْتَعَةً فَضَّةً وَأَمْتَعَةً ذَهَبًا»^(٣). وبما أن ذلك لن يحدث بصورة تلقائية، لذا فقد كان للتدخل

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ٢٥-٢٦.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١١، ١.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١١، ٢.

الإلهي دوره في استجابة المصريين لطلب بني إسرائيل: (٣) وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. وَأَيْضًا الرَّجُلُ مُوسَى كَانَ عَظِيمًا جَدًّا فِي أَرْضِ مِصْرَ فِي عُيُونِ عَبِيدِ فِرْعَوْنَ وَعُيُونِ الشَّعْبِ^(١).

لقد تكوّنت لموسى - في نظر أهل مصر - سمعة قويّة بعد كل تلك الآيات المتتاليات، وجعلته شخصاً مُهاباً ومسموع الكلمة. وأمر الله «تعالى» نبيه أن يُخبر فرعون وأهل مصر وبني إسرائيل بأمر الآية الأخيرة التي ستُهْلِكُ كل بَكر من البشر والأنعام، ولكنها لن تمسّ بني إسرائيل بشيء، وأن ساعة تحقّق هذه الآية هي منتصف الليلة التي سيتمّ تحديدها، وبعدها سيغادر هو مع قومه، ولن يمسه سوء، وسيخضع فرعون والمصريّون لأمر الله: (٤) وَقَالَ مُوسَى: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِنِّي نَحْوَنُصِفُ اللَّيْلَ أَخْرُجُ فِي وَسْطِ مِصْرَ، ٥ فَيَمُوتُ كُلُّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بَكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بَكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلَفَ الرَّحَى، وَكُلُّ بَكْرِ بَهِيمَةٍ. ٦ وَيَكُونُ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُ أَيْضًا. ٧ وَلَكِنْ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُسْتَنُّ كَلْبٌ لِسَانَهُ إِلَيْهِمْ، لَا إِلَى النَّاسِ وَلَا إِلَى الْبَهَائِمِ. لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ وَإِسْرَائِيلَ. ٨ فَيَنْزِلُ إِلَيَّ جَمِيعُ عَبِيدِكَ هَؤُلَاءِ، وَيَسْجُدُونَ لِي قَائِلِينَ: اخْرُجْ أَنْتَ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِينَ فِي أَثْرِكَ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَخْرُجْ». ثُمَّ خَرَجَ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ فِي حُمُومِ الْعَظَبِ^(٢).

كما وتحدث التوراة عن أن الله «تعالى» أوحى لموسى تعليمات خاصة تشريعية وإجرائية تتعلق بالحدث الخطير والمفصلي الذي هو على وشك الوقوع عند منتصف

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١١، ٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١١، ٤-٨.

الليل وما بعد ذلك، وسنتحدث عن هذه الإجراءات بعد الانتهاء من استعراض مجريات الأحداث عند منتصف تلك الليلة المحددة في النص، والتي ستأتي بعد ١٤ يوماً من بداية صدور الأمر.

(٢٩) فَحَدَّثَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ أَنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بَكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بَكْرِ الْأَسِيرِ الَّذِي فِي السَّجْنِ، وَكُلَّ بَكْرِ بَهِيمَةٍ. ٣٠ فَقَامَ فِرْعَوْنُ لَيْلاً هُوَ وَكُلُّ عَبِيدِهِ وَجَمِيعِ الْمِصْرِيِّينَ. وَكَانَ صَرَاحٌ عَظِيمٌ فِي مِصْرَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيْتٌ. ٣١ فَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ لَيْلاً وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمْ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا، وَادْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ. ٣٢ خُذُوا غَنَمَكُمْ أَيْضًا وَبَقَرَكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ وَادْهَبُوا. وَبَارِكُونِي أَيْضًا»^(١).

ونتيجة الرعب الذي ملأ قلوب المصريين، ولخوفهم بأن هذا الموت سيعم الجميع، بادروا للطلب من بني إسرائيل أن يغادروا مصر بسرعة، فسبحان مغيّر الأحوال: (٣٣) وَأَلَحَّ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى الشَّعْبِ لِيُطْلِقُوهُمْ عَاجِلًا مِنَ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: «جَمِيعُنَا أَمْوَاتٌ». ٣٥ وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. طَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَمْتَعَةً فَضَّةً وَأَمْتَعَةً ذَهَبٍ وَثِيَابًا. ٣٦ وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عَيُونِ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارَوْهُمْ. فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ^(٢).

وهنا تعبيران متعارضان يتراوحان بين الإغارة والسلب، وهو ما استدعى من شراح التوراة البيان، ومن بينهم (القمص أنطونيوس فكري) الذي أشار إلى عدة نقاط، من بينها أن:

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٢٩-٣٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٣٣-٣٦.

١. الله هو الذي أمرهم أن يطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب. ولم يكن ذلك على سبيل السلف، فهم لم يقولوا سنرده، فلو كانوا قالوا سنرده لاعتُبر سرقة^(١).
٢. لم يكن هذا الأمر لموسى هو الأول، بل كان هذا وعد الله لإبراهيم أولاً (ثُمَّ لُأَمَّةٌ لِّيَ يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلَاكِ جَزِيلَةٍ)^(٢).
٣. وهذا ما قاله الله لإبراهيم (تَسْلُكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ. فَيَذُلُّونَهُمْ)^(٣). إذاً، فإن الله يعطيهم هذا الذهب أجراً مقابل عبوديتهم التي استمرت أكثر من ٢٠٠ سنة للمصريين والتي كانت بلا أجر ولا مقابل.
٤. في الآية ٣٦ من الإصحاح ١٢ من سفر الخروج قيل: (وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَغَارُوهُمْ. فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ). سلبوا = هذه تقال في الحروب. فالمنتصر يأخذ من المهزوم أسلاباً وغنائم. وهنا كانت حالة حرب بين موسى وفرعون، خرج منها موسى منتصراً وأخذ هو وشعبه الأسلاب والغنيمة^(٤).
- وفي تفسير آخر، أن النسوة من بني إسرائيل كنَّ يأخذن المجوهرات والملابس ليرتديها أبنائهن وبناتهن. فالنساء اللاتي لم يتمكنَّ من كسوة أطفالهن بشكل مناسب خلال فترة العبودية، سيلبسن -الآن- أطفالهن أرقى الملابس في يوم حصولهن على الحرية. وبهذه الطريقة سوف يسلمن ويهزمن مضطهدين المصريين^(٥).

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١١، ٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ١٥، ١٤.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ١٥، ١٣.

4. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/02-Sefer-El-Khoroug/Tafsir-Sefer-El-Khroug__01-Chapter-11.html

5. <https://www.bibleref.com/Exodus/3/Exodus-3-22.html>

ومن خلاصة ما جاء في التفسيرين السابقين نفهم أن المسألة لم تكن مسألة إعارة كما حاولت العبارة التوراتية أن تُخَفَّف من وطأة ما جرى، بل كان الأمر متعلّقاً باسترداد حقوق العمالة والاسترقاق، والحصول على ما اعتُبر (غنيمة حرب)، وهو ما يعبر عنه في اللغة العربية بكلمة (السلب) أيضاً.

وقد عملت غالبية الترجمات الإنجليزية على التخفيف من حدة مدلول التعبير الوارد في الآية ٣٦ من الإصحاح ١٢ وذلك من خلال التغيير في مدلول العبارة وعدم الالتزام بالترجمة الدقيقة للكلمات، فالآية بالعبرية كالتالي: **וַיְהִי כִּי נָתַן אֲתֵיחַן הָעַם בְּעֵינֵי מִצְרַיִם וַיִּשְׁאַלּוּם וַיַּנְצִלוּ אֶת־מִצְרַיִם**^(١). وكلمة (ينצלوا) تُرجمت إلى العربية لتدلّ على السلب، والنص العربي يقول: (٣٦) **وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عَيْنِ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارَوْهُمْ. فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ**، بينما جاءت بعض الترجمات إلى الإنجليزية كالتالي:

١. في نسخة الملك جيمس (King James Version (KJV 1900 تم استعمال كلمتي (Spoiled-Lent) (أعاروا - أفسدوا):

And the LORD gave the people favour in the sight of the Egyptians, so that they lent unto them such things as they required. And they spoiled the Egyptians^(٢).

٢. في نسخة الملك جيمس الجديدة (The New King James Version (NKJV تم استعمال كلمتي (Plundered-Granted) (وهبوا - نهبوا):

And the LORD had given the people favor in the sight of the

1. <https://www.hebrewoldtestament.com/B02C012.htm>

2. <https://www.hebrewoldtestament.com/B02C012.htm>

Egyptians, so that they granted them what they requested. Thus they plundered the Egyptians^(١).

٣. في النسخة الإنجليزية القياسية English Standard Version تم استعمال كلمتي (Plundered-Let them have) (سمحوا لهم - نهبوا):

And the LORD had given the people favor in the sight of the Egyptians, so that they let them have what they asked. Thus they plundered the Egyptians^(٢).

٤. في نسخة الترجمة الحية الجديدة NLT (New Living Translation) تم استعمال كلمتي (Stripped-Gave) (أعطوا - جردوا):

The LORD caused the Egyptians to look favorably on the Israelites, and they gave the Israelites whatever they asked for. So they stripped the Egyptians of their wealth^(٣)!

٥. في نسخة إصدار القرن الجديد NCV (New Century Version) تم استعمال كلمتي (Stripped-Gave) (أعطوا - أخذوا):

The LORD caused the Egyptians to think well of them, and the Egyptians gave the people everything they asked for. So the Israelites took rich gifts from them^(٤).

1. <https://biblehub.com/exodus/12-36.htm>

2. <https://biblehub.com/exodus/12-36.htm>

3. <https://biblehub.com/exodus/12-36.htm>

4. <https://www.bible.com/bible/105/EXO.12.36.NCV>

ننتقل الآن إلى ما أشرت إليه مسبقاً من أن التوراة تتحدّث عن صدور أمر إلهي بالعمل بتعليمات تشريعية وإجرائية زامنت الآية العاشرة والخروج من مصر، على أن يتمّ اتخاذ هذا اليوم عيداً عبر الأجيال: (١٢) فَإِنِّي أَجْتَازُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَأَضْرِبُ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. وَأَصْنَعُ أَحْكَامًا بِكُلِّ آلِهَةِ الْمِصْرِيِّينَ. أَنَا الرَّبُّ. ١٣ وَيَكُونُ لَكُمْ الدَّمُ عَلَامةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ، فَلَا يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلَاكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ. ١٤ وَيَكُونُ لَكُمْ هَذَا الْيَوْمُ تَذْكَارًا فَتُعِيدُونَهُ عِيدًا لِلرَّبِّ. فِي أَجْيَالِكُمْ تُعِيدُونَهُ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً^(١).

هذا اليوم هو عيد الفصح الذي أشرنا إليه من قبل، وله مراسيم خاصة، وستُذكر إحدى هذه المراسيم في النص الذي سيأتي معنا لاحقاً عند التوقف للحديث عن هذا العيد. أما التعليمات التشريعية والإجرائية التي زامنت الآية العاشرة والخروج من مصر، فهي كالآتي:

• تحديد رأس السنة:

جاء ذكر رأس السنة أو ראש השנה (رُوش هَشَنَه) في أجواء أحداث الهجرة والخروج من مصر: (١) وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَائِلًا: ٢ «هَذَا الشَّهْرُ يَكُونُ لَكُمْ رَأْسَ الشُّهُورِ. هُوَ لَكُمْ أَوَّلُ شُهُورِ السَّنَةِ»^(٢).

عند اليهود، هناك ٤ رؤوس للسنة:

١. رأس السنة الكنسيّة: ١ نيسان.

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ١٤-١٥.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ١.

٢. رأس السنة المدنية: ١ تشرى.

٣. رأس السنة الحيوانية: ١ أيلول.

٤. رأس السنة الزراعية: ١٥ شباط.

○ رأس السنة الكنسية: كان نيسان هو الشهر القمري الأول في التقويم اليهودي، وكانت بدايات الأشهر تُعيّن وفقاً لرؤية الهلال. ولكن في سنة ٣٥٩م، اتخذ الحاخامات قراراً يجعل التقويم اليهودي مزيجاً من الشهور القمرية والشمسية معاً، بحيث يحافظ كل شهر على موقعه -تقريباً- خلال الفصول المختلفة، بخلاف ما لو تم الاعتماد على الأشهر القمرية فحسب حيث تدور ضمن الفصول كما هو الحال بالنسبة إلى التقويم الهجري الإسلامي، حيث يمكن أن يبدأ شهر محرم في الشتاء، ثم يبدأ في الربيع ثم في الصيف فالخريف وهكذا.

ومع اتخاذ الحاخامات القرار الخاص بدمج الشهور القمرية والشمسية معاً، صارت بداية كل شهر من أشهر التقويم العبري تتقدّم أو تتأخر ضمن أيام معدودة فحسب. ولذا فإن بداية شهر نيسان العبري عندهم يمكن أن يقع في نهايات شهر مارس أو بدايات شهر أبريل من كل عام.

كما وتغيّرت رأس السنة عند اليهود، حيث انتقلت من الأول من نيسان وأصبحت الأول من (تشرى)، والذي كان سابع الأشهر في التقويم العبري، وشهر تشرى هذا قد يقع في نهايات شهر سبتمبر أو بدايات شهر أكتوبر. من هنا، صار الأول من نيسان يُعرف باسم رأس السنة الكنسية، بينما صار الأول من تشرى هو رأس السنة المدنية ويرتبط تاريخ الأول من نيسان بذكرى خروج (هجرة) بني إسرائيل من مصر، وقد

تم تحديده في النص التوراتي السابق بعنوان رأس السنة، ويتم الاحتفال في هذا العيد الذي يمتد سبعة أيام بما يُعرف بعنوان (عيد الفصح / بيسح)، وله مراسيم خاصة ترتبط بأحداث الخروج، وستناولها لاحقاً. واعتبار الهجرة من مصر بداية السنة عند اليهود يقابل اتخاذ هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين إلى المدينة المنورة بداية لرأس السنة وعنواناً لها، فيقال السنة الهجرية.

○ رأس السنة المدنية: كما ذكرت قبل أسطر، فإنه تم اتخاذ هذا اليوم بعنوان رأس السنة العبرية وفق التقويم الحالي، ويوصف بأنه رأس السنة المدنية، وهو عيد من أهم الأعياد عند اليهود ويستمر ليومين.

أُطلق على هذا اليوم في التوراة اسم (يوم تروعه)، ويبدأ اليهود بحاسبة أنفسهم والتوبة طوال عشرة أيام ابتداء من رأس السنة، كما يطلب اليهود من أصدقائهم وعائلاتهم وزملائهم أن يغفروا لهم التجاوزات والإساءات التي ربما ارتكبوها تجاههم في العام السابق، ومن المعتاد أيضاً زيارة قبور الأقرباء، ويطلق على هذه الأيام اسم (أيام التوبة العشرة) לשבת ימי תשובה وتُلفظ Aseret Y' mei Teshuvah.

تنتهي مراسيم العشرة أيام بعيد الغفران ويعرف بالعبرية باسم (يوم كيפור) די' כפור وتُلفظ Yom Kippur، ويصوم فيه اليهود من غروب الشمس إلى غروب شمس اليوم التالي. واليوم الذي يسبق يوم الغفران (٩ تشري) يُقام فيه احتفال صغير، ويُطلق على آخر وجبة يتم تناولها خلال النهار قبل هذا الصيام اسم (سعودة همافسكت) סעודת מצוה وتُلفظ seudah ha'mafseket أي الوجبة النهائية والفاصلة بين أيام التوبة وبين الصيام، وجاء في التلمود في رسالة برخوت: (من أكل وشرب في التاسع من تشري، اعتبرته التوراة كأنه صام التاسع والعاشر معاً). وهناك تقاليد خاصة

بالاحتفال بعيد يوم كيبور، وتبدأ بالنفخ بقرن الكبش (شوفار)، والذكر والدعاء والصلاة، وارتداء الشال، وغير ذلك [انظر اللوحتين ٥٠-٥١].

بالإضافة إلى الامتناع عن الطعام والشراب وارتداء الأحذية الجلدية، لا يُسمح لليهود بممارسة العلاقات الجنسية خلال هذا الصيام، ولا وضع مستحضرات التجميل أو غسل أي جزء من الجسم سوى الأصابع والعينين^(١).

ولا يزال بعض اليهود الأرثوذكس يلتزمون بعادة كابروت/تكفير الخطايا כפרות وتُلفظ Kapparot وذلك في اليوم السابق ليوم الغفران. في هذه الطقوس، يتم التلويح بدجاجة حيّة بيضاء اللون فوق رؤوس أفراد الأسرة، ثلاث مرات، مع تلاوة بعض الأدعية والابتهالات من (المزامير / الزبور) لتنتقل الذنوب من الفرد إلى الدجاجة، ثم تُذبح الدجاجة ويُعطى لحمها للجمعيات الخيرية [انظر اللوحة ٥٢]. في الآونة الأخيرة، تم تغيير هذا التقليد من قبل البعض حتى يتم الحصول على المال بدلاً من لحم الدجاج، حيث يتم ربط العطية المالية في منديل والتلويح بها بدلاً من الدجاجة^(٢).

○ رأس السنة الحيوانية: يرتبط هذا التاريخ برأس سنة زكاة الأنعام، وقد يقع -وفق التقويم الحديث- في شهر أغسطس أو سبتمبر من كل عام.

○ رأس السنة الزراعية: ويعرف باسم عيد الشجرة اليهودي، ويرتبط بزكاة الغلات والثمار. يصادف ١٥ من شهر شباط حسب التقويم العبري، وقد يقع في شهر يناير أو فبراير من كل عام.

وعلى كل حال، فإنّ ما جاء في النصّ التوراتي السابق يرتبط برأس السنة الدينية

1. Robinson, George: Essential Judaism, p98-99.

2. Robinson, George: Essential Judaism, p 99.



اللوحة رقم ٥٠ : النفخ بقرن الكبش (شوفار) يوم رأس السنة



اللوحة رقم ٥١ : ارتداء الشال والتجمع للصلاة احتفالاً برأس السنة



اللوحة رقم ٥٢ : التلويع بالدجاج الأبيض ٣ مرات مع تلاوة المزامير / الزبور

(الكنسية)، وذلك في الأول من شهر نيسان، والتي تمثل ذكرى هجرة بني إسرائيل من مصر. وهذا هو أول تشريع وإجراء يرتبط بالخروج، ويستتبعه الإجراء الثاني وفق ما جاء في النص التوراتي.

• تقديم القربان:

الإجراء الثاني الذي أُلزم به بنو إسرائيل أن يقدموا قرباناً من الأغنام، فلكل بيت خروف أو ماعز ابن سنة، وإن عجز صاحب البيت عن ذلك، فليشارك البيتان في واحد: (٣) كَلَّمَ كُلَّ جَمَاعَةٍ إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ: فِي الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ يَأْخُذُونَ لَهُمْ كُلُّ وَاحِدٍ شَاةً بِحَسَبِ بُيُوتِ آبَاءِ، شَاةً لِلْبَيْتِ^(١). ٤. وَإِنْ كَانَ الْبَيْتُ صَغِيرًا عَنْ أَنْ يَكُونَ

١. وهو إجراء مشابه لأضحية المسلمين في العاشر من شهر ذي الحجة حيث عيد الأضحي، مع اختلاف يوم الذبح.

كُفُّوا لِنَشَاةٍ، يَأْخُذُ هُوَ وَجَارُهُ الْقَرِيبُ مِنْ بَيْتِهِ بِحَسَبِ عَدَدِ النُّفُوسِ. كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أَكْلِهِ تَحْسِبُونَ لِلنَّشَاةِ. ٥ تَكُونُ لَكُمْ شَاةٌ صَحِيحَةٌ ذَكَرًا ابْنُ سَنَةٍ، تَأْخُذُونَهُ مِنَ الْخَرْفَانِ أَوْ مِنَ الْمَوَاعِزِ^(١). وَأَنْ يَبْقَوْهَا عِنْدَهُمْ ١٤ يَوْمًا ثُمَّ تُذَبِّحَ فِي الْمَسَاءِ: (٦) وَيَكُونُ عِنْدَكُمْ تَحْتَ الْحَفِظِ إِلَى الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ. ثُمَّ يَذْبَحُهُ كُلُّ جُمْهُورٍ جَمَاعَةً إِسْرَائِيلَ فِي الْعَشِيِّ^(٢). وَالْإِبْقَاءُ ١٤ يَوْمًا بِلِحَازٍ أَنْ الْمُدَّةَ بَيْنَ الْإِنْذَارِ مِنَ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ (مَوْتَ الْأَبْكَارِ) إِلَى تَحَقُّقِهَا عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ اسْتَغْرَقَ هَذَا الْعِدَدُ مِنَ الْأَيَّامِ.

• التلطيخ بالدم:

الإجراء الثالث يتمثل في استعمال دم الذبائح في تلطيخ قوائم أبواب بيوتهم والعوارض العلوية لتمييزها عن بيوت سائر الناس: (٧) وَيَأْخُذُونَ مِنَ الدَّمِ وَيَجْعَلُونَهُ عَلَى الْقَائِمَتَيْنِ وَالْعَتَبَةِ الْعُلْيَا فِي الْبُيُوتِ الَّتِي يَأْكُلُونَهُ فِيهَا.... ٢٢ وَخُذُوا بَاقَةَ زُوفَا وَاعْمِسُوهَا فِي الدَّمِ الَّذِي فِي الطَّسْتِ وَمُسُوا الْعَتَبَةَ الْعُلْيَا وَالْقَائِمَتَيْنِ بِالدَّمِ الَّذِي فِي الطَّسْتِ^(٣). وَيَأْتِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ طَلَبَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَلْطَخُوا قَوَائِمَ أَبْوَابِ بَيْوتِهِمْ وَالْعَتَبَةَ الْعُلْيَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا الْأَبْكَارُ، كَيْ لَا يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ، إِذْ يُمَيِّزُونَ بَيْوتَهُمْ بِذَلِكَ عَنْ بَيْوتِ الْمَصْرِيِّينَ.

و الزُوفَا / الزُوفَى / أسنان داود: نبات موطنه الأصلي حوض البحر الأبيض المتوسط. يعتبر من النباتات التي تنمو في المستنقعات المالحة في أماكن كثيرة من العالم. ذُكر

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٦.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٧ و٢٢.

في (الكتاب المقدس) بِعَهْدَيْهِ تسع مرات، ضمن الكلام عن التطهير [التعقيم] من البرص الذي قد يشمل الجذام أو الأمراض الجلدية عموماً، ومن الأوبئة، وحتى في البعد الديني حيث استعمل للتطهير والتوبة من الخطيئة وضمن الطقوس الدينية، بما يشبه دور الحرم عند بعض المسلمين. كان يستخدم في شكل حزم صغيرة يمكن أن تحمل السوائل في داخلها للرش، ولذا طلب من بني إسرائيل استعمال هذا النبات في تلطيف الأبواب بالدم [انظر اللوحة ٥٣].

• تناول اللحوم المشوية:

الإجراء الرابع تناول لحم الذبائح بعد أن تُشوى ومن دون عناية كبيرة في إعدادها، وأن يكونوا في نفس الوقت في وضعية استعداد للمغادرة والسفر على عجل: (٨) وَيَأْكُلُونَ اللَّحْمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَشْوِيًّا بِالنَّارِ مَعَ فَطِيرٍ عَلَى أَعْشَابٍ مُرَّةٍ يَأْكُلُونَهُ. ٩ لَا تَأْكُلُوا مِنْهُ نِيبًا أَوْ طَبِيخًا مَطْبُوخًا بِالْمَاءِ، بَلْ مَشْوِيًّا بِالنَّارِ. رَأْسُهُ مَعَ أَكَارِعِهِ وَجَوْفِهِ.... ١١ وَهَكَذَا تَأْكُلُونَهُ: أَحْقَاؤُكُمْ مَشْدُودَةٌ، وَأَخْذِيَّتُكُمْ فِي أَرْجُلِكُمْ، وَعَصِيَّتُكُمْ فِي أَيْدِيكُمْ. وَتَأْكُلُونَهُ بِعَجَلَةٍ. هُوَ فِصْحٌ لِلرَّبِّ^(١).

• حرق ما تبقى من الذبائح:

الأجراء الخامس أن يتم التخلص مما تبقى من الذبائح عن طريق إحراقها بالنار: (١٠) وَلَا تُبْقُوا مِنْهُ إِلَى الصَّبَاحِ. وَالبَاقِي مِنْهُ إِلَى الصَّبَاحِ، تُحْرِقُونَهُ بِالنَّارِ^(٢).

• عيد الفصح:

كلمة (فصح) وبالعبرية (بيسخ / بیسخ / Pesach / פֶּסַח / وكذلك بسخة)

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٨-١١.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ١٠.



اللوحة رقم ٥٣ : نبتة الزُّوفا / الزُّوفَى / أسنان داود

تعني عبور، وذلك لارتباط الحدث بعبور اليم والنجاة من ملاحقة فرعون واضطهاده لهم. ويحلّ عيد الفصح في منتصف شهر نيسان العبري، أي عند اكتمال القمر الأول، ويختلف مواعده من سنة إلى أخرى، وهو يتردّد بين أواخر مارس وشهر أبريل، وذلك بلحاظ ما ذكرناه من قبل من أن التقويم العبري الحالي يعتمد على الأشهر القمرية والشمسية معاً. وكان يطلق على شهر نيسان شهر أبيب، أي شهر الربيع^(١)، ولذا نجد أن سفري العدد والتثنية عندما يتحدثان عن التعاليم الخاصة بهذا العيد، فإنه يتم ذكر شهر أبيب.

وتتحدث التوراة عن تشريع مرتبط بالعيد المشار إليه في النص السابق، وهو عيد الفصح، وهذا التشريع يتعلّق بالمخبوزات، ولذا تُعرف الأيام الخاصة بهذه المراسيم

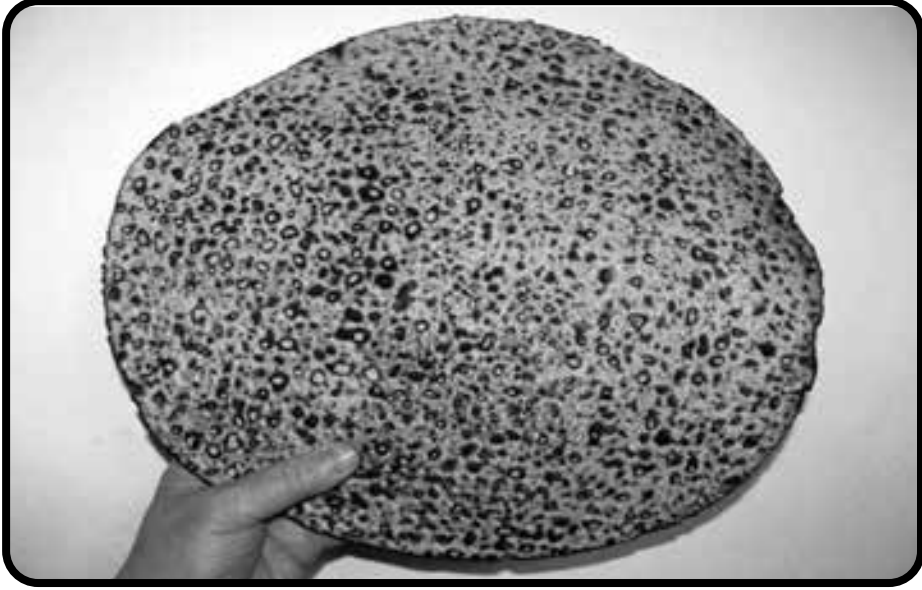
١. ومنه يأتي اسم مدينة (تل أبيب)، أي تل الربيع.

باسم أيام/عيد الفطير. فحيث أن بني إسرائيل أمروا بالخروج من مصر على عجلة، وحيث عاشوا لفترة في الصحراء، لذا فإنهم لم يُخَمَّرُوا العجين، ومن المعلوم أن استعمال الخميرة يجعل المخبوزات طرية وشهيّة ومنتهخة [انظر اللوحة ٥٤].

ولاستذكار حادثة الخروج (الهجرة) بما فيها من معاناة، لذا فقد أمروا بحسب هذا النص التوراتي- أن يعيشوا نوعاً من التقشف والتشبه بوضع أسلافهم في تلك المناسبة ومراسيم الفطير (بالعبرية ماثساة *מַתְסָה*) هذه تبدأ من مساء اليوم الرابع عشر من شهر نيسان، (ليلة ١٥) وتنتهي مساء اليوم الحادي والعشرين منه، (ليلة ٢٢): (١٥) «سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُونَ فَطِيرًا. الْيَوْمَ الْأَوَّلَ تَعْزِلُونَ الْخَمِيرَ مِنْ بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَكَلَ خَمِيرًا مِنَ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ إِلَى الْيَوْمِ السَّابِعِ تُقَطِّعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ إِسْرَائِيلَ. ١٧ وَتَحْفَظُونَ الْفَطِيرَ لَأَنِّي فِي هَذَا الْيَوْمِ عَيْنِهِ أَخْرَجْتُ أَجْنَادَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَتَحْفَظُونَ هَذَا الْيَوْمَ فِي أَجْيَالِكُمْ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً. ١٨ فِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ، فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، مَسَاءً، تَأْكُلُونَ فَطِيرًا إِلَى الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ مَسَاءً. ١٩ سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَجُودُ خَمِيرٌ فِي بُيُوتِكُمْ. فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَكَلَ مُحْتَمِرًا تُقَطِّعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ، الْغَرِيبُ مَعَ مَوْلُودِ الْأَرْضِ. ٢٠ لَا تَأْكُلُوا شَيْئًا مُحْتَمِرًا. فِي جَمِيعِ مَسَاكِينِكُمْ تَأْكُلُونَ فَطِيرًا»^(١).

وعليهم -في اليومين الأول من شهر نيسان العبري والسابع منه- أن يعقدوا مجلساً دينياً ضمن الوصف التالي: (١٦) وَيَكُونُ لَكُمْ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مُحْفَلٌ مُقَدَّسٌ، وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مُحْفَلٌ مُقَدَّسٌ. لَا يُعْمَلُ فِيهِمَا عَمَلٌ مَا إِلَّا مَا تَأْكُلُهُ كُلُّ نَفْسٍ، فَذَلِكَ وَحْدَهُ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ١٥-٢٠.



اللوحة رقم ٥٤ : فطير الفصح

يَعْمَلُ مِنْكُمْ^(١). وقد تكرر ذكر هذه التشريعات في سفر العدد والثنية من التوراة أيضاً ضمن تفاصيل عديدة.

وتذكر التوراة أنه لم تسنح لبني إسرائيل الفرصة لتخمير العجين، بسبب استعجالهم في الخروج، ولذا أكلوا الخبز بلا خميرة: (٣٩ وَخَبَزُوا الْعَجِينَ الَّذِي أَخْرَجُوهُ مِنْ مِصْرَ خُبْزَ مَلَّةٍ فَطِيرًا، إِذْ كَانَ لَمْ يَخْتَمِرْ. لَأَنَّهُمْ طَرَدُوا مِنْ مِصْرَ وَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَتَأَخَّرُوا، فَلَمْ يَصْنَعُوا لَأَنْفُسِهِمْ زَادًا)^(٢). ومن هنا، نجد اليهود يعملون خبزاً بلا تخمير ضمن مراسيم الاحتفال بهذه المناسبة.

ولم يرد ذكر لشيء من هذه التشريعات والوصايا ضمن ما عرضه القرآن من قصة

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ١٦.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٣٩.

خروج موسى وبني إسرائيل من مصر، بل انتقل العرض القرآني للأحداث من الكلام عن الآيات الإلهية والموقف المعاند من قبل فرعون، إلى الحديث عن غرقه في اليم عند ملاحقة بني إسرائيل: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦) (١).

• مدّة الآيات العشر:

من غير الواضح -بحسب السردية التوراتية- كم استغرقت الآيات العشر من وقت، واختلفت كلمات المفسرين اليهود والنصارى حول ذلك:

○ القمص تيموثاوس ميلاد^(٢): يمكننا أن نستنتج الفترة التي استغرقتها هذه الضربات، وربما بدأت مع فيضان النيل^(٣) وامتدت حتى شهر أبيب (أبريل) الذي تم فيه الخروج. وقرائن ذلك أن الضفادع تظهر بكثرة في شهر سبتمبر، وأن ضربة البرد كانت والشعير كان مسبلاً (أصبح سنابل) والقمح كان متأخراً وهذا يناسب شهر يناير. أما الجراد، فإن أسرابه تحل بمصر أحياناً في مارس. وليس هذا معناه أن هذه الضربات كانت مجرد ظواهر طبيعية، ولكن الله أظهر قوته الخارقة فيها بلا شك^(٤).

١. سورة الأعراف: ١٣٦.

٢. مؤسس جمعية "جنود المسيح" لتقديم التعليم الكنسى في مراكز وقرى سوهاج بمصر. شرح وفسر الكتاب المقدس كاملاً عدة مرات خلال فترة خدمته بشكل منتظم.

٣. يبدأ فيضان النيل في شهر أغسطس من كل عام وهو البداية الحقيقية للسنة المائية الجديدة، ويوليو نهاية السنة المنصرمة، وهذه دورة طبيعية مهمة في مصر منذ العصور القديمة، وتعني أنّ النيل يمتلئ بالكم الكافي من المياه كل عام ثم يفيض على جانبي النهر.

4. <https://www.stmark-kw.net/ShowPageWide.aspx?pageid=8f1fa720-bc7c-462a-8724-0f0352175abb>

د. القس. منيس عبد النور^(١): لا شك أن تلك الضربات العشر، استغرقت أشهراً طويلة، إلى أن جاءت الذروة في إهلاك الأبقار^(٢).

○ جيم موسلي^(٣) Jim Moseley : من المحتمل أن الضربات استغرقت حوالي ٤٠ يوماً، من الأحد ١٠ فبراير حتى ليلة الجمعة ٢٢ مارس ١٤٤٦ ق.م. حدّد الكتاب المقدس المدة التي استمرت فيها بعض الضربات دون أخرى. كما حدد الفترة الزمنية بين الضربات دون أخرى، لذلك، من الممكن أن تكون الفترة الزمنية الإجمالية أطول قليلاً، لكنها لا يمكن أن تكون أقصر بكثير.... تأمل في هذه الضربات الرهيبة التي وقعت مثل ضربات المطرقة في غضون ٤٠ أو ٥٠ يوماً على أمة مصر العظيمة وتركتها في حالة من الخراب واليأس التام^(٤)!

إلا أنّ ظاهر ما جاء في السردية القرآنية يدلّ على خلاف ذلك، وأن المسألة استغرقت مواسم زراعية متعددة إلى أن حان وقت الهجرة والخروج من مصر:

١. فبعد أن تحدثت الآيات عن واقعة السحرة وإيمانهم، انتقلت لبيان القرار الذي اتُّخذ من قبل فرعون بممارسة القتل من جديد بحق الذكور من مواليد بني إسرائيل:

١. قس مصري، وهو راعي كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية. ألّف وترجم أكثر من مائة كتاب باللغة العربية حول الكتاب المقدس وشؤون العقيدة المسيحية. وشارك في إعداد قاموس الكتاب المقدس. [2.https://call-of-hope.com/new/site/pages/itemFormat.php?lang=ara&-section=books&item=7140ara&format=xml](https://call-of-hope.com/new/site/pages/itemFormat.php?lang=ara&-section=books&item=7140ara&format=xml)

٣. باحث ومحاضر في الكتاب المقدس، وكتب أكثر من ٣٢ فصلاً كمقرّر دراسي في هذا المجال. وله مؤلفات عديدة حول أسفار التوراة والأنجيل. له موقع متخصص بهذا الشأن على شبكة الإنترنت. [4.https://thebiblehistoryguy.com/blog/f/how-long-did-the-ten-plagues-in-egypt-last](https://thebiblehistoryguy.com/blog/f/how-long-did-the-ten-plagues-in-egypt-last)

﴿.... قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١).

ثم جاءت آية الجفاف ونقص الماء والجذب بما أضرّ بالمحاصيل وحياة المصريين على أكثر من صعيد، ولا بد أن هذا أخذ مداه حتى أثمر، ولم يقتصر على موسم زراعي واحد مثلاً، لاسيّما بلحاظ التعبير الوارد في الآية الشريفة للدلالة على ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢).

واستتبع ذلك مجموعة الآيات الإلهية التي أخذت مداها أيضاً في التأثير، ولم تكن مجرد أحداث عابرة، بدليل ظاهر وصفها بكلمة (مفصلات): ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرَّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (٦)﴾. وفي بيان مفاد الآية قال العلامة الطباطبائي:

(التفصيل: تفريق الشيء إلى أجزاء مفصولة منفصلة بعضها عن بعض، ولازم ذلك تميز كل بعض، وظهوره في نفسه فقوله: «آيَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ» يدل على أنها أرسلت إليهم لا مجتمعة ودفعة، بل متفرقة منفصلة بعضها عن بعض ظاهرة في أنها آيات إلهية مقصودة غير اتفاقية ولا جزافية. ومن الدليل على كون المفصلات بهذا المعنى قوله في الآية التالية: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرَّجْزُ قَالُوا﴾ الآية. الظاهر أن الآية كانت تأتيهم عن

١. سورة الأعراف: ١٢٧.

٢. سورة الأعراف: ١٣.

٣. سورة الأعراف: ١٣٣-١٣٦.

إخبار من موسى وإنذار، ثم إذا نزلت بهم ودهمتهم التجأوا إليه فسألوه أن يدعو لهم لتكشف عنهم، وأعطوه عهداً إن كشفت عنهم آمنوا به وأرسلوا معه بني إسرائيل، فلما كشفت نكثوا ونقضوا، وعلى هذا القياس^(١).

وما سبق يتلاءم مع ما جاء في التوراة من أن لجوء فرعون إلى موسى كان بعد كل آية على حدة، وإن لم يتضمن النص التوراتي ذكر اللجوء إلى موسى في الآيات الأولى.

٢. كما أن ظاهر قوله «تعالى»: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوءِ﴾ قد يدل أيضاً على أن الأمر استغرق وقتاً، وفي ذلك قال العلامة: (قوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوءِ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَشَفْنَا﴾، وهو يدل على أنه كان يضم إلى معاهدة أجل مضروب، كأن يقول موسى «عليه السلام»: إن الله سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا وترسلوا معي بني إسرائيل إلى أجل كذا، أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى، فلما كشف العذاب عنهم وحلّ الأجل المضروب، نكثوا ونقضوا عهدهم الذي عاهدوا الله وعاهدوا موسى عليه)^(٢).

٣. ثم إن استعمال كلمة ﴿يَنْكُثُونَ﴾ بصيغة المضارع بدلاً من (نكثوا) تدلّ على الاستمرارية بما يوحي بمعنى التكرار بلحاظ البعد الزمني وتنوع الآيات.

٤. قد ذكرت عند حديثي عن صدور الأمر الإلهي باتخاذ البيوت بمصر بعد واقعة السحرة، أن هذا من مؤشرات طول المدة التي مرت بعد تلك الواقعة، ولم تكن بضعة أسابيع أو شهور فحسب، وإلا كان الأمر شبه عبثي ومجهود ضائع ولربما غير حكيم ومن غير المنطقي أن يصدر عن الحكيم «تعالى».

١. الطباطبائي: الميزان، ج ٨، ص ١٢٣.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ٨، ص ٢٢٨.

• نتائج الفصل و خلاصته:

- تحدث القرآن عن مجمل تسع آيات جاء بها موسى إلى فرعون، بينما تحدثت التوراة عن عشر آيات، وفي ماهيتها اختلاف أيضاً من جهة وتوافق من جهة أخرى
- تحدّث بعض شراح التوراة عن وجود ارتباط بين بعض الآيات وبين معتقدات المصريين القدماء حول الآلهة، كعقيدتهم بالإلهة الضفدعة، وآلهة الشفاء والرزق وغير ذلك، حيث جاءت الآيات الإلهية لتبرهن لهم أسطورية تلك الآلهة وعجزها عن فعل شيء في مقابل ما نزل بهم من مصائب متعاقبة.
- في النص الحاضر للتوراة حديث عن قدرة السحرة (العرافين) على مواجهة الآيات الإلهية أو الإتيان بمثلهما، وهذا الادعاء لا يمكن قبوله، لمخالفته للغرض من نزول الآيات والحكمة منها.
- فسّر بعض علماء البيئة والأحياء وقوع الآيات بأنها آثار متعاقبة لبركان وقع في إحدى الجزر اليونانية، أو نتيجة المدّ الأحمر الذي أصاب مياه الأنهار.
- تذكر التوراة أن الله أمر بني إسرائيل باتخاذ مجموعة من الإجراءات قبيل الهجرة والخروج من مصر، وذلك من قبيل ذبح القرابين من الأغنام وأكل لحمها بطريقة معينة، وتلطّيح دمائها على قوائم الأبواب، وكيفية خبز عجينةهم، وغير ذلك. وقد بقيت مجموعة من هذه التعليمات سارية عند اليهود ضمن مراسيم معينة.
- اتُّخذ تاريخ الخروج من مصر عيداً لليهود، ورأساً للسنة.
- يظهر من القرآن الكريم أن المدة التي استغرقتها الآيات المتعاقبة امتدّت لسنوات، بينما يستظهر شراح التوراة أنها لم تمتد أكثر من بضعة أشهر على أفضل تقدير.

موسى والخضر

موسى والخضر

• موضوعات هذا الفصل:

- بيان للوصف القرآني حول مجريات أحداث اللقاء الذي تمّ بين النبي موسى وبين العبد العالم الذي تحدّث عنه الآيات من سورة الكهف.
- عرض ومناقشة مجموعة من الروايات الإسلامية التي تحدّثت عن اللقاء وأسبابه
- عرض ومناقشة آراء عدد من المفسرين والعلماء حول الغاية من اللقاء.
- بيان للسبب الذي من أجله تم عرض أحداث القصة في القرآن الكريم.
- هل موسى المذكور في القصة هو النبي موسى بن عمران؟
- تساؤلات وإجابات حول تفاصيل القصة.
- تأثير روايات القصاصين ومسلمة أهل الكتاب والصوفية على فهم القصة وتحديد الشخصيات والزمان والمكان، وعلى عموم الموروث الإسلامي في الأبواب المختلفة.

• مجموعة تساؤلات:

قبل الانتقال للحديث عن خروج النبي موسى «عليه السلام» مع بني إسرائيل وهجرتهم من مصر إلى أرض كنعان، نتوقف عند ما أشار إليه القرآن الكريم من لقاء جرى بين النبي موسى وبين رجلٍ وصفه الله «تعالى» بأنه قد آتاه من لدنه علماً، وعُرف لاحقاً في التراث الإسلامي باسم (الخضر).

هل العبد العالم في أحداث القصة القرآنية مع موسى، هو الخضر؟ بل هل موسى المذكور في الآيات هو النبي موسى بن عمران؟ ومن هو الخضر؟ هل هو حقيقة أم أسطورة؟ وهل هو من الأنبياء؟ هل هو النبي إيليا؟ أم هو مار جرجس الشهيد؟ أم جميعهم؟ أم أنه سواهم؟ ولماذا عُرف باسم الخضر؟ وفي أية فترة من الزمن عاش؟ وهل ما زال على قيد الحياة؟ وأين تمّ اللقاء بين الرجلين؟ ومتى؟ وماذا ورد بشأن الخضر في أخبار أهل الكتاب؟ هل التقى بالنبي محمد «صلى الله عليه وآله»؟ وهل للخضر لقاءات ببعض أئمة أهل البيت «عليهم السلام»؟ وما علاقته بالمهدي والمسيح «عليهما السلام» في آخر الزمان؟ هذه الأسئلة وأسئلة أخرى تنتظر الإجابة عليها، وقد أفردتُ لذلك كتاباً يحمل عنوان (ميثولوجيا الخضر)، واخترتُ هنا أن أتناول جانباً مما جاء في ذلك الكتاب بما يخدم هذا البحث حول سيرة النبي موسى «عليه السلام»، والذي أحتمل أن اللقاء بينهما قد وقع في الفترة التي عاد فيها النبي موسى إلى مصر بعد بعثته، وذلك بلحاظ خصوصيات اللقاء وأهدافه (التربوية)، لتكون حصّة من حصص تهيئة هذا النبي الكريم للنهوض بمسئولية القيادة للمرحلة القادمة بكل تحدياتها وصعوباتها، وهو ما سيّضح عند التوقف مع الآيات الشريفة التي تحدّثت عن هذا اللقاء وما وراءه.

وأما ما له علاقة بتحديد هويّة ذلك الرجل، ومدى صحة مقولة أنه الخضر، وتحديد هوية الخضر نفسه، فموضوعات يصعب استيعابها في هذا الفصل، ومن أحبّ الاطلاع على نتائج البحث بشأنها، وبشأن تفاصيل أخرى متعلّقة بها، فعليه بكتابي (ميثولوجيا الخضر)، وستكون في هذا الكتاب بعض الإشارات إلى ما سبق.

• عرض أحداث اللقاء:

يمكن إجمال القصة القرآنيّة الخاصة بلقاء موسى بالعبد العالم بالوصف التالي:

كان موسى «عليه السلام» في سفر مع فتاه^(١): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ^(٢) حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ^(٣) أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا^(٤)﴾^(٥) ودون أن تُفصح الآيات عن السبب، أخبره موسى أن أدنى غايته مجمع «ملتقى» البحرين، ولعل تحديد المكان جاء عن طريق الوحي، فكأنّ الله «تعالى» قد أوحى إليه أن يخرج في سفره هذا حتى يبلغ مجمع البحرين، فإن لم يجد غايته هناك من خلال تحقّق علامة ماء، فإنّ عليه أن يستمرّ في سفره حتى تتّضح له الغاية من خلال تلك العلامة. ولا تكشف الآيات عما إذا كان الوحي قد أخبر موسى عن طبيعة هذه العلامة أم أنها علامة فحسب.

وهكذا تستمر الرحلة، حتى إذا بلغا مجمع البحرين تحقّقت العلامة التي لم يلتفت إليها موسى، بل شاهدها الفتى لوحده.. لقد رأى أمراً عجباً.. رأى

١. فتاه: أي صاحبه أو خادمه. ولم يذكر القرآن اسم الفتى، وإن ذكرت بعض الروايات أنه يوشع بن نون الذي سيكون نبيّ بني إسرائيل من بعده.

٢. لا أبرح: أي لا أزال.

٣. مجمع البحرين: أي ملتقاهما.

٤. حُقُبًا: أي دهرًا وزماناً طويلاً.

٥. سورة الكهف: ٦٠.

السمة الميتة التي كانت بحوزتهما تعود إلى الحياة من جديد وتتمكن من الوصول إلى البحر، ومن ثم استطاعت هذه السمكة العجيبة أن تسبح مبتعدة: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا^(١)﴾ (٢).

ولا نعلم هل تحقق ذلك بالقفز أو الانزلاق إلى الماء؟ وهل كانت سمكة مجففة أم مملحة مما يتخذها المسافرون من اللحوم والأسماك كنوع من زاد الطريق؟ أم أنه قد تم اصطيادها من ساحل البحر لتكون طعاماً لهما لاحقاً؟

وعلى الرغم من أن وقوع ذلك قد أثار العجب عند الفتى، إلا أنه لم يُخبر موسى بما جرى، ولا تتحدث الآيات عن الأمر الذي شغله أو منعه عن ذلك، بل أجملت السبب بقول الفتى لاحقاً: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ^(٣)﴾. وليس في هذا دلالة على تفصيل ما شغله عن ذكر الحدث لموسى وكيفيته، علماً بأنه قد تكرر في القرآن مثل هذا التعبير، ففي قصة يوسف «عليه السلام»: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ^(٤)﴾، وفي قصة النبي موسى «عليه السلام»: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ^(٥)﴾ (٤)، فهل هو من جهة انتساب كل عمل سلبى إلى الشيطان الذي يرمز للشر، أم أن لوسوسة شيطان الجن دوراً في ذلك؟ الأمران محتملان، وقد عالجنا ما يخص ذلك ضمن قصة قتل النبي موسى لذلك الرجل في الجزء الأول من هذا الكتاب، فراجع.

١. سرّياً: أي مسلماً ومذهباً.

٢. سورة الكهف: ٦١.

٣. سورة الكهف: ٦٣.

٤. سورة القصص: ١٥.

وعلى كل حال، فقد تحققت العلامة عند مجمع البحرين، ولم يلتفت إليها موسى «عليه السلام»، ولعله بقي هناك لبعض الوقت كتصرف طبيعي لمن ينتظر موعداً، ولكنه لم يكن بالانتظار الكافي، فقد كان في عجلة من أمره تشوقاً للقاء. ولعل اتصاف النبي موسى بمثل هذا الاستعجال في اتخاذ القرار كان من الأمور التي أوجبت مثل هذا اللقاء مع العبد العالم بأمر من الله «تعالى»، ومن ثم الدخول في تلك التجارب المتتالية التي ستحدث عنها الآيات تباعاً.

وبدأت الرحلة من جديد، حتى إذا تجاوزا ذلك المكان وقطعا مسافة يبدو أنها كانت طويلة، أو شاقّة من حيث وعورة التضاريس، قرّر موسى «عليه السلام» الاستراحة وتناول الطعام الذي ما كان سوى تلك السمكة: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(١)، والنصب هو التعب والوهن. لقد تذكّر الفتى ما جرى عند مجمع البحرين، حيث أويا إلى صخرة للاستراحة، فأخبر موسى بذلك: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾^(٢)، فعلم موسى «عليه السلام» أنّ مبتغاه أصبح خلف ظهره، وأنّ عليهما العودة من جديد ومن ذات الطريق التي قديما منها إلى أن يصلا إلى مجمع البحرين حيث الصخرة التي أويا إليها: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(٣).

وهكذا تحقّق اللقاء عند تلك الصخرة، مع العبد العالم الذي نال من عند الله ما

١. سورة الكهف: ٦٢.

٢. سورة الكهف: ٦٣.

٣. سورة الكهف: ٦٤.

وُصف بأنه رحمة وعلم: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾^(١). ومن جديد يكتنف القصة غموض يرتبط هذه المرة بطبيعة الرحمة المقصودة هنا، وماهية العلم الذي امتاز به مما سنكتشفه لاحقاً من خلال تفاصيل الأحداث، وأنه لم يكن من نوع العلم الذي يحصل عليه الإنسان بالدراسة والتحصيل. ثم عرّض موسى على العبد العالم أن يتّبعه ليتعلّم منه ما يُحقّق له النضوج والرشد على المستوى المعرفي أو الأخلاقي أو الروحي.

وفي أي جانب من العلم والمعرفة بالتحديد تلخّص طلب موسى؟ لا ندري بالضبط، ولكن الغاية من الاتّباع هو تعلّم ما يُحقّق له رُشداً: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾^(٢).

ويبرز هنا السؤال التالي: هل كان العبد العالم على علم بأنه سيلتقي بالنبي موسى كي يعلمه من ذلك العلم الذي امتاز به، أم أنه نوع من التخطيط الإلهي الذي غاب عن ذلك العبد وكان موسى على دراية به؟ لأنّ افتراض علم العبد العالم بالغاية من اللقاء يستدعي أن لا يرفض هذا الطلب: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧﴾^(٣) وكيف تصوّر على ما لم تُحط به خبراً ۝٦٨﴾^(٤)، بل كان من المفترض به أن يقبل صحبة موسى في السفر تلقائياً كي يعلمه، لأنه إنما جاء لتعليمه، إلا أن يقال أنّ كلامه جاء لمجرد تنبيه النبي موسى على موطن الخلل الذي يريد الله «تعالى» له معالجته^(٤)، وأنه في نفسه قد

١. سورة الكهف: ٦٥.

٢. سورة الكهف: ٦٦.

٣. سورة الكهف: ٦٧-٦٨. وخيراً: أي معرفة.

٤. سنذكر لاحقاً أن موطن الخلل هو الطبيعة الانفعالية التي اتسم بها النبي موسى واستعجاله في الأمور، وهو ما لا يتناسب وموقع النبوة في القيادة.

وافق على تلك الصحبة.. بل إنه إنما قصد اللقاء لهذا الغرض لا لسواه، فكيف يرفضه؟
ويخبرنا القرآن الكريم أن موسى -ومن أجل إقناع العبد العالم بقبول اتباعه له-
أبدى استعداداً للصبر والتحمل وعدم عصيان أوامره مطلقاً: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ
اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ﴾^(١)، فوافق بناءً على هذا الوعد، شرطاً عليه أن لا
يسأله عن شيء، بل ينتظر التوضيح والتفسير لما سيصدر عنه من تصرفات: ﴿قَالَ فَإِنِ
اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ﴾^(٢) وهكذا بدأت
الرحلة ضمن هذا الشرط.

وكانت الرحلة البحرية أول محطات التدريب العملي التي خاضها النبي موسى بمعية
العبد العالم.. استقلَّ الاثنان سفينةً، فتفاجأ موسى بسلوك غريب صدر عن صاحبه..
لقد بادر إلى إحداث ضرر بالغ بالسفينة بخرقها وتعريضها للغرق بمن فيها وعلى حين
غفلة من الجميع!

لم يتحمّل موسى هذا المشهد المنافي في ظاهره للشرع والقانون والعرف والعقل.
فبادر للاحتجاج والمعارضة والاثّام بأنه قد جاء بتعدّد سافرٍ وفعلٍ فظيعٍ قبيح:
﴿فَانْظُرْ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِشُغْرِ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
إِمْرًا ۖ﴾^(٣) إلا أن هذا الاحتجاج قوبل من قِبَل العبد العالم بالتذكير بالوعد
الذي قطعه موسى له بأن يصبر ولا يحتج ولا يسأل: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ

١. سورة الكهف: ٦٩.

٢. ذكرًا: أي بياناً.

٣. سورة الكهف: ٧٠.

٤. إمراً: أي داهية عظيمة.

٥. سورة الكهف: ٧١.

صَبْرًا ﴿٧٢﴾^(١)... وهكذا، شعر النبي موسى «عليه السلام» بالحرَج فاعتذر إليه مبرراً ما صدر عنه بالنسيان وصعوبة تحمّل الموقف غير العادي: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي^(٢) مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾^(٣).

قَبْلَ الْعَبْدِ الْعَالَمِ اعْتِذَارَهُ، وَأَكْمَلَا رِحْلَتَهُمَا بَعْدَ النُّزُولِ مِنَ السَّفِينَةِ حَتَّى التَّقِيَا بَغْلَامًا.. وَمَجْدِّدًا بِأَدَارِ الرَّجُلِ إِلَى تَصَرُّفِ عِدْوَانِي فِي ظَاهِرِهِ، حَيْثُ قَتَلَ ذَلِكَ الْغْلَامَ الَّذِي لَمْ يَصْدُرْ عَنْهُ أَيْ تَصَرُّفٌ يَسْتَحِقُّ مَعَهُ الْقَتْلَ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ مَجْرَدُ غْلَامٍ صَغِيرٍ غَيْرٍ مَكْلَفٍ، وَمَهْمَا ارْتَكَبَ مِنْ جَرِيْمَةٍ فَإِنْ عَقُوبَتُهُ لَا تَبْلُغُ الْقَتْلَ.

لَمْ يَتَحَمَّلِ النَّبِيُّ مُوسَى السَّكُوتَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْفَظِيعِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّصَرُّفَ الَّذِي لَا يَقْبَلُهُ شَرَعٌ وَلَا عَقْلٌ وَلَا قَانُونٌ وَلَا عَرَفٌ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾^(٤).

وَوَاجِهَهُ الْعَبْدُ الْعَالَمُ بِالْوَعْدِ الْمَقْطُوعِ مِنْ جَدِيدٍ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾^(٥)... نعم، لقد سمع موسى هذا منه قبل انطلاقهما في الرحلة، إلا أنه لم يكن يتوقَّع أن الأمور ستجري بهذه الصورة، وأنه سيُفاجأ بمثل هذه المبادرات المستهجنة في ظاهرها والتي لا يتحمّلها صاحبُ ضمير، فضلاً عن نبيٍّ يخاف الله ويحب الخير للناس.

ولكن النبي موسى «عليه السلام» لم يكن يملك سوى أن يُقدِّم وعداً مجدداً

١. سورة الكهف: ٧١.

٢. ترهقني: أي تحمّلني.

٣. سورة الكهف: ٧٣.

٤. سورة الكهف: ٧٤.

٥. سورة الكهف: ٧٥.

بالصبر والتحمل وعدم السؤال عن غرائب ما يجري، فمن جهة كان بحاجة إلى هذه الرحلة التعليمية، ولأنها جاءت بأمرٍ من الله، وهو يريد أن يعرف إلى أين ستصل الأمور، وما النتائج التي سيجنيها في خاتمة المطاف.. ومن جهة أخرى فإنَّ عدم التزامه بالوعد الذي قطعه لصاحبه منذ البداية شكّل له حرجاً شديداً.. ولذا فقد أضاف من عند نفسه وعداً جديداً: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا الْمَوْقِفِ، فَلَا تُنْهِهِ الرَّحْلَةَ، وَلَا عُذْرِي بَعْدَهَا، وَلَنْ تَكُونَ مُلَاماً وَلَا مُطَالَباً بِشَيْءٍ: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (١).

قَبِلَ الْعَبْدُ الْعَالَمُ الْوَعْدَ الْمُسْتَجِدَّ، فَانْطَلَقَا إِيْتَاماً لِلرَّحْلَةِ الْغَرِيبَةِ، حَتَّى وَصَلَا قَرْيَةً وَقَدْ بَلَغَ بِهِمَا الْجُوعُ مَبْلَغَهُ، فَطَلَبَا الطَّعَامَ مِنْ أَهْلِهَا، إِلَّا أَنَّ أَوَّلَئِكَ الْقَوْمِ كَانُوا مِنَ الْبُخْلِ وَاللُّؤْمِ عَلَى دَرَجَةٍ امْتَنَعُوا مَعَهَا عَنْ تَقْدِيمِ الطَّعَامِ لِابْنَيْ السَّبِيلِ.

وَمَعَ هَذَا، حِينَ شَاهَدَ الْاِثْنَانِ جِدَاراً فِي نَفْسِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ وَهُوَ مَتَهَاوٍ يَكَادُ أَنْ يَتَهَدَّمَ، سَارَعَ الْعَبْدُ الْعَالَمُ لِإِصْلَاحِهِ وَإِقَامَتِهِ دُونَ طَلَبِ مَنْ أَحَدٍ وَمِنْ دُونِ أَيْ مُقَابِلٍ! وَلَا يَخْفَى أَنَّ إِقَامَةَ جِدَارٍ يَتَهَاوَى يَحْتَاجُ إِلَى بَذْلِ جَهْدٍ كَبِيرٍ مِمَّا يَسْتَنْزِفُ الْمَزِيدَ مِنْ طَاقَةِ الْإِنْسَانِ.

اسْتَغْرَبَ مُوسَى تَصَرُّفَ صَاحِبِهِ مِنْ جَدِيدٍ، وَثَارَ مُتَسَائِلاً فِي احْتِجَاجٍ، وَمُتَنَاسِياً الْوَعْدَ الْأَخِيرَ الَّذِي قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ: أَلَمْ يَكُنِ الْأَوَّلَى أَنْ يَطَالِبَ أَصْحَابَ هَذَا الْجِدَارِ بِالْأَجْرِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِإِصْلَاحِهِ؟ لَقَدْ كَانَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فِي أَمْسِّ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ الْأَجْرِ الَّذِي قَدْ لَا يَزِيدُ عَلَى طَعَامِ يَسْدَانِ بِهِ جُوعَهُمَا، فَلَمْ التَّبَرَّعْ بِعَمَلٍ يَزِيدُ مِنْ مَعَانَاتِهِمَا، وَيَكُونُ خِدْمَةً لِقَوْمٍ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْبُخْلِ وَاللُّؤْمِ؟!!

﴿فَانْظُرْ حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا ^(١) أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ^(٢) فَأَقَامَهُ ^(٣) قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ^(٤)﴾.

وهكذا حكم موسى «عليه السلام» على تلك الصُّحبة بالقطيعة: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ^(٥) مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ^(٦)﴾. لن أتركك بعد الآن غارقاً في الحيرة، بل سأنبؤك بحقيقة تلك التصرفات وما وراءها، وهو ما لم تصبر عليه طوال الرحلة.

وتوالت التوضيحات: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ^(٧)﴾. لقد كانت السفينة مصدر معيشتهم، وقد اتخذ الملك الظالم قراراً بضم كل سفينة صالحة للإبحار في ملكه أو لأسطول حُكمه، ومن هنا كان خرق السفينة يلحق بها ضرراً جزيئاً يكون مقبولاً ويمكن تعويضه بالمقارنة إلى ضَرَرِ غَصْبِهَا بِكُلِّهَا وحرمان أصحابها من مصدر رزقهم. ويبدو من وصف هذا الحاكم بأنه (ملك) أن المنطقة التي جرى فيها الحدث لا تتبع ملك فرعون الذي كان يعاصره النبي موسى، وهذا ما قد يفسر أيضاً التعب الشديد الذي كان قد عانى منه بسبب بُعد المسافة.

١. استطعما: أي طلبا الطعام.

٢. ينقض: أي يشرف على السقوط.

٣. فأقامه: أي فسّواه.

٤. سورة الكهف: ٧٧.

٥. تأويل: أي كشف خفايا الأمر وحقيقته الخافية.

٦. سورة الكهف: ٧٨.

٧. سورة الكهف: ٧٩.

وأما الغلام فكان ولدًا لأبوين مؤمنين، ولو أن الحياة امتدّت به لأرهبهما بطغيانه وكفره، ولذا فقد كان قتله بأمرٍ من الله رحمةً لهما: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (١).

ومن مزيد رحمته «تعالى» أنه سيرزقهما بولد آخر يتّصف بالبر وطهارة النفس وحسن السلوك: ﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ (٢) وَأَقْرَبَ رَحْمًا (٣) ﴿٨١﴾ (٤).

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين يعيشان في تلك القرية، وكان تحته كنزٌ لهما، والروايات وإن تضاربت في حقيقة ذلك الكنز المخبأ إلا أن بعضاً منها يتحدث عن كنز معنوي معرفي، لا عن كنز مادي، وبرأيي أنه تأويل بعيد عن الصحة.

وكان أبوهما صالحاً، فشملتها الرحمة الإلهية، فأمرني الله أن أقيمَه ليبقى الجدار صامداً مخفياً ذلك الكنز، حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا، وإلا فإنَّ تهديم ذلك الجدار الآن وانكشاف الكنز سيجعله نُهبَةً لأهل القرية وضياعاً لليتيمين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (٥). ولذلك فلم تكن المسألة خدمةً لأهل القرية الذين لا يعيشون قيمة العطاء ولا يستحقون الكرامة من الآخرين، بل رعايةً لهذين اليتيمين جزاءً لصلاح أبيهما.

وختم العبد العالم كلامه مؤكّداً أنَّ ما كان منه مخالفاً في ظاهره للشرع والقانون

١. سورة الكهف: ٨٠.

٢. زكاة: أي طهارة.

٣. أقرب رحماً: أي أشد وصلاً للقرابة والرحم.

٤. سورة الكهف: ٨١.

٥. سورة الكهف: ٨٢.

والعقل والعرف لم يكن تصرفاً شخصياً ليكون أمراً خاضعاً للنوازح الخاصة والأهواء الشخصية، وإنما صدر عنه ما صدر بأمرٍ من الله «تعالى»: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(١) وهكذا تجلّت الصورة الحقيقية للأحداث الغريبة التي عايشها النبي موسى في هذه الرحلة، ولكن بعد فوات الأوان، ولم يعد بالإمكان استمرار المصاحبة وتعلم المزيد، فكان الفراق.

• الروايات وسبب التخطيط للقاء:

نستعرض بدايةً ما جاء في بعض الروايات من الإشارة إلى سبب التخطيط للقاء، وسندرسها من خلال السند والمتن والدلالة، ومن ثمّ نخرج على كلمات بعض العلماء في رؤيتهم التحليلية للقصة.

١. تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إنما مثلٌ عليّ ومثلنا من بعده من هذه الأمة كمثل موسى النبي «عليه السلام» والعالم حين لقيه واستنطقه وسأله الصحبة، فكان من أمرهما ما اقتضاه الله لنبيه «صلى الله عليه وآله» في كتابه، وذلك أن الله قال لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) ثم قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣) وقد كان عند العالم علمٌ لم يُكتب لموسى في الألواح، وكان موسى يظن أن جميع الأشياء التي يحتاج إليها في تابوته، وجميع العلم قد كُتب له في الألواح، كما يظن هؤلاء الذين يدّعون أنهم فقهاء

١. سورة الكهف: ٨٢.

٢. سورة الأعراف: ١٤٤.

٣. سورة الأعراف: ١٤٥.

وعلماء أنهم قد أثبتوا جميع العلم والفقه في الدين مما تحتاج هذه الأمة إليه وصح لهم عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعلموه ولفظوه، وليس كل علم رسول الله علموه ولا صار إليهم عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» ولا عرفوه، وذلك أن الشيء من الحلال والحرام والأحكام يرد عليهم فيسألون عنه ولا يكون عندهم فيه أثر عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويستحيون أن ينسبهم الناس إلى الجهل، ويكرهون أن يسألوا فلم يجيبوا الناس فيطلبوا العلم من معدنه فلذلك استعملوا الرأي والقياس في دين الله وتركوا الآثار ودانوا الله بالبدع، وقد قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «كل بدعة ضلالة». فلو أنهم إذ سئلوا عن شيء من دين الله فلم يكن عندهم منه أثر عن رسول الله، ردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم من آل محمد «عليهم السلام». والذي منعهم من طلب العلم منا العداوة والحسد لنا، ولا والله ما حسد موسى العالم - وموسى نبي الله يوحى إليه - حيث لقيه واستنطقه وعرفه بالعلم، ولم يحسده كما حسدتنا هذه الأمة بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» على ما علمنا وما ورثنا عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولم يرغبوا إلينا في علمنا كما رغب موسى إلى العالم وسأله الصحبة ليتعلم منه العلم ويرشده، فلما أن سأل العالم ذلك، علم العالم أن موسى لا يستطيع صحبته ولا يحتمل عليه ولا يصبر معه، فعند ذلك قال العالم: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾^(١) فقال له موسى وهو خاضع له يستعطفه على نفسه كي يقبله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾^(٢) وقد كان العالم يعلم أن موسى لا يصبر على علمه، فكذلك والله يا إسحاق بن عمار حال قضاة هؤلاء وفقهائهم وجماعتهم اليوم، لا يحتملون والله علمنا

١. سورة الكهف: ٦٨.

٢. سورة الكهف: ٦٩.

ولا يقبلونه ولا يطيقونه ولا يأخذون به ولا يصبرون عليه، كما لم يصبر موسى على علم العالم حين صحبه، ورأى ما رأى من علمه، وكان ذلك عند موسى مكروهاً، وكان عند الله رضى وهو الحق، وكذلك عَلَّمْنَا عند الجهلة مكروه لا يؤخذ وهو عند الله الحق^(١). تقييم السند: الرواية مرسلة.

وخلاصة الفكرة في الرواية أن الله «عز وجل» أراد من ترتيب أمر هذا اللقاء أن يفهم النبي موسى «عليه السلام» أن ما لديه من العلم الذي تلقاه عبر الألواح لا يمثل كل المعارف والعلوم التي يحتاج إليها، وأن منها ما يحتاج إلى ارتباط بالغيب، ومنها ما يخزن أسراراً لا يمكن إدراكها بالقراءة الظاهرية السطحية. ثم ربط الإمام - إن صحّ الخبر - بين مفهوم القصة وبين واقع ارتباط الناس بالأئمة من أهل البيت «عليهم السلام» وهو تأويلٌ جميل وربطٌ للواقع بالنص القرآني، وقد اعتدنا عليه في مجموعة من أحاديثهم الخاصة بتفسير آيات القرآن.

إلا أنه يُلاحظ على الخبر نسبة جهل النبي موسى بحقيقة أن ما في الألواح لا يمثل كل العلوم والمعارف، ولا يتصور أن يكون «عليه السلام» قد توهم ذلك، على الأقل لمحدودية ما يمكن أن تحتويه من نصوص مكتوبة. وأما تصور أن الألواح هي التوراة فلا يعدو أن يكون خطأ شائعاً غلب على ظن الكثيرين، والأقوى أنها اشتملت على الوصايا العشر، قال «عز وجل»: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ۝١٤٥﴾^(٢).

ثم إن هذه الرواية تفترض أن اللقاء بالعبد العالم تمّ بعد الخروج والهجرة من مصر

١. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٠-٣٣٢.

٢. سورة الأعراف: ١٤٥.

مع بني إسرائيل، واللقاء الذي امتد أربعين ليلة مع الله «عز وجل»، وتلقّى الألواح وغير ذلك من العلوم الإلهية، بينما افترضت في بداية هذا الفصل أنّ اللقاء تمّ قبل الخروج من مصر مع بني إسرائيل، والله العالم بحقيقة الحال.

٢. تفسير العياشي: عن عبد الرحمن بن سيابة، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن موسى صعد المنبر وكان منبره ثلاث مرقا^(١))، فحدّث نفسه أن الله لم يخلق خلقاً أعلم منه، فأثاه جبرئيل فقال له: إنك قد ابتليت فانزل، فإن في الأرض من هو أعلم منك، فاطلبه. فأرسل إلى يوشع إني قد ابتليت فاصنع لنا زاداً وانطلق بنا... الخبر^(٢).
تقديم السند: الرواية مرسلة.

وهي قريبة من الرواية السابقة من حيث تحديد الغرض الإلهي من ترتيب اللقاء، وإن اختلفت من حيث أن الثانية حددت الموقف الذي تجلّى من خلاله تصوّر الخاطئ عند النبي موسى «عليه السلام».

٣. تفسير العياشي: عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله، عن أبيه «عليه السلام» قال: (بينما موسى قاعد في ملأ من بني إسرائيل إذ قال له رجل: ما أرى أحداً أعلم بالله منك، قال موسى: ما أرى. فأوحى الله إليه: بلى، عبدي الخضر، فسأل السبيل إليه: وكان له آية الحوت إن افتقده، فكان من شأنه ما قص الله^(٣)).
السند: الرواية مرسلة.

مجدداً تذكر الرواية أن الغرض من ترتيب اللقاء هو تصحيح التصور الخاطئ لدى

١. مرقا جمع المرقاة: أي الدرجة.

٢. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٢.

٣. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٤.

النبي موسى «عليه السلام» بخصوص أعلميته، وإن قدّمت تفصيلاً مختلفاً بعض الشيء عما جاء في الروایتين السابقتين.

٤. بحار الأنوار: (نقل أبو الفرج ابن الجوزي في المدهش في قوله «عز وجل»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ الآية، عن ابن عباس والضحاك ومقاتل قالوا: إن موسى «عليه السلام» لما أحكم التوراة وعلم ما فيها قال في نفسه: لم يَبْقَ في الأرض أحدٌ أعلم مني، من غير أن يتكلم مع أحد^(١)، فرأى في منامه كأن الله أرسل الماء بالماء حتى غرق ما بين المشرق والمغرب، فرأى فتاه على البحر فيها صُرْدَةٌ^(٢)، فكانت الصردة تجيء للماء الذي غرق الأرض فتنتقل الماء بمنقارها ثم تدفعه في البحر، فلما استيقظ الكليم هاله ذلك، فجاءه جبرائيل فقال: مالي أراك يا موسى كئيلاً؟ فأخبره بالرؤيا، فقال: إنك زعمت أنك استغرقت العلم كله فلم يبق في الأرض من هو أعلم منك، وإن لله عبداً علمك في علمه^(٣) كلما الذي حملته الصُرْدَةُ بمنقارها فدفعته في البحر، فقال: يا جبرئيل من هذا العبد؟ فقال: الخضر بن عاميل من ولد الطيب، يعني إبراهيم الخليل «عليه السلام». قال: من أين أطلبه؟ قال: اطلبه من وراء هذا البحر، فقال: من يدلني عليه؟ قال: بعض زادك. قالوا: فمن حرصه على رؤياه لم يستخلف في قومه، ومضى لوجهه وقال لفتاه يوشع: هل أنت موازري^(٤)؟ قال: نعم، قال: اذهب فاحتمل لنا زاداً. فانطلق يوشع فاحتمل أرغفة وسمكة عتيقة مالحه، سارا في البحر حتى خاضا وحلاً وطيناً، ولقيا تبعاً ونصباً حتى انتهيا إلى صخرة نائمة في البحر خلف بحر أرمنية يقال

١. هذا متعارض مع ما جاء في رواية سابقة من أنه صرح بذلك.

٢. الصردة: نوع من الطيور.

٣. أي مقارنةً بعلمه.

٤. موازري: أي معيني.

لتلك الصخرة: قلعة الحرس. فأتياها فانطلق موسى ليتوضأ فاقترح مكاناً فوجد عيناً من عيون الجنة في البحر فتوضأ منها وانصرف ولحيته تقطر ماء، وكان «عليه السلام» حسن اللحية، ولم يكن أحد أحسن لحية منه، فنفض موسى لحيته فوقعت منها قطرة على تلك السمكة المالحة، وماء الجنة لا يصيب شيئاً ميتاً إلا عاش، فعاشت السمكة ووثبت في البحر فسارت، فصار مجراها في البحر سرباً، ونسي يوشع ذكر السمكة ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَائِنَا﴾ الآية، فذكر له أمر السمكة فقال له: ذلك الذي نريده. فرجعا يقصّان^(١) أثرهما، فأوحى الله إلى الماء فجمد وصار سرباً على قامته موسى وفتاه، فجرى الحوت أمامهما حتى خرج إلى البر فصار مسيره لهما جادة، فسلكاها، فناداهما مناد من السماء: أن دعا الجادة^(٢)، فإنه طريق الشياطين إلى عرش إبليس، وخذا ذات اليمين!! فأخذ ذات اليمين حتى انتهيا إلى صخرة عظيمة وعندها مضى فقال موسى: ما أحسن هذا المكان ينبغي أن يكون لذلك العبد العالم، فلم يلبث أن جاء الخضر حتى انتهى إلى ذلك المكان والبقعة، فلما قام عليها اهتزت خضراً، قالوا: وإنما سمي الخضر لأنه لا يقوم على بقعة بيضاء إلا صارت خضراء، فقال موسى «عليه السلام»: السلام عليك يا خضر، فقال: وعليك السلام يا موسى، يا نبي بني إسرائيل. فقال: ومن أدراك من أنا؟ قال: أدراني الذي دلّك على مكاني. فكان من أمرهما ما كان وما قصة القرآن العظيم^(٣). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند.

بالإضافة إلى ضعف السند، لا بد أن ننتبه إلى أن الخبر ليس مروياً عن النبي أو إمام، كما أنه لا يخفى ما في الرواية من تفاصيل تقترب من الأساليب القصصية الأسطورية

١. يقصّان: أي يتتبعان.

٢. دعا الجادة: أي اترك الطريق.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٨٩-٢٩١.

التي ملأت التراث الإسلامي من خلال نشاط القصاصين، ولا تشير القصة القرآنية إلى شيء منها من قريب أو بعيد.

• آراء العلماء والمفسرين:

تساءل العلماء والمفسرون عن الغرض من الترتيب الإلهي للقاء بين النبي موسى والعبد العالم «عليهما السلام»، ونستعرض هنا بعضاً مما جاء في كتاباتهم على مر العصور:

١. علل الشرائع: نقل الشيخ الصدوق محاولة ابن طيفور لتفسير ذلك، قال: (سمعت أبا جعفر محمد بن عبدالله بن طيفور الدامغاني الواعظ بفرغانة يقول في حرق الخضر «عليه السلام» السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدران: تلك إشارات من الله «تعالى» لموسى «عليه السلام» وتعريضات إلى ما يريده من تذكيره لمن سبقه لله «تعالى» نبّهه عليها وعلى مقدارها من الفضل، ذكره بخرق السفينة أنه حفظه في الماء حين ألقته أمه في التابوت وألقت التابوت في اليم وهو طفل ضعيف لا قوة له، فأراد بذلك أن الذي حفظك في التابوت الملقى في اليم هو الذي يحفظهم في السفينة. وأما قتل الغلام فإنه «موسى» كان قد قتل رجلاً في الله «تعالى»، وكانت تلك زلة عظيمة عند من لم يعلم أن موسى «عليه السلام» نبي، فذكره بذلك مئة عليه حين دفع عنه كيد من أراد قتله به. وأما إقامة الجدار من غير أجر فإن الله «تعالى» ذكره بذلك فضله فيما أتاه في ابنتي شعيب حين سقى لهما وهو جائع ولم يبتغ على ذلك أجراً مع حاجته إلى الطعام، فنبهه الله «تعالى» على ذلك ليكون شاكراً مسروراً. وأما قول الخضر لموسى «عليه السلام»: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فإن ذلك كان جهة موسى «عليه السلام» حيث قال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ فموسى «عليه السلام» هو الذي حكم

بالمفارقة لما قال له: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإن موسى «عليه السلام» اختار سبعين رجلاً من قومه لميقات ربه فلم يصبروا بعد سماع كلام الله «تعالى» حتى تجاوزوا الحد بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(١) فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا، ولو اختارهم الله «تعالى» لعصمهم، ولما اختار من يُعلم منه تجاوز الحد، فإذا لم يصلح موسى «عليه السلام» للاختيار مع فضله ومحله فكيف تصلح الأمة لاختيار الإمام بآرائها؟ وكيف يصلحون لاستنباط الأحكام واستخراجها بقولهم الناقصة وآرائهم المتفاوتة وهمهم المتباينة وإراداتهم المختلفة؟! تعالى الله عن الرضى باختيارهم علواً كبيراً، وأفعال أمير المؤمنين «عليه السلام» مثلها مثل أفاعيل الخضر وهي حكمة وصواب وإن جهل الناس وجه الحكمة والصواب فيها^(٢).

٢. بحار الأنوار: نقل العلامة المجلسي عن الشيخ الصدوق أيضاً قوله: (إن موسى «عليه السلام» مع كمال عقله وفضله ومحله من الله «تعالى» لم يستدرك باستنباطه واستدلالة معنى أفعال الخضر «عليه السلام» حتى اشتبه عليه وجه الأمر فيه، وسخط جميع ما كان يشاهده حتى أخبر بتأويله، فرضي، ولو لم يُخبر بتأويله لما أدركه ولو بقي في الفكر عمره، فإذا لم يميز لأنبياء الله ورسله «صلوات الله عليهم» القياس والاستنباط والاستخراج، كان من دونهم من الأمم أولى بأن لا يجوز لهم ذلك)^(٣).

٣. مال بعض من تناول القصة بالشرح إلى أنها تهدف إلى غرض معنوي وتربوي مختلف، مع ادعاء أنها ليست من وحي الواقع، بل إنها مجرد مثال يحمل معنى رمزياً.

١. سورة البقرة: ٥٥.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٦٣.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٨٩.

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان»: (قيل: إن القصة أسطورة تخيلية صورت لغاية أن كمال المعرفة يورد الإنسان مشرعة عين الحياة ويسقيه ماءها وهو الحياة الخالدة التي لا موت بعدها أبداً والسعادة السرمدية التي لا سعادة فوقها قط).

ولم يرتض العلامة هذا الرأي فقال: (وفيه أنه تقدير من غير دليل، وظاهر الكتاب العزيز يدفعه، ولا خبر في القصة التي يقصها القرآن عن عين الحياة هذه إلا ما ورد في أقاويل بعض المفسرين والقصاصين من أهل التاريخ من غير أصل قرآني يستند إليه أو وجدان حسي لِعَيْنِ هذه صفتها في صقع من أصقاع الأرض)^(١).

٤. واعتبر البعض أن حادثة السفينة وخرقها رمزت للنبي موسى «عليه السلام» ما جرى له في طفولته حين أوحى الله لأُمّه بأن تلقيه في اليم، فوثقت الأم بذلك، فرعته يد العناية الإلهية حتى أعاده إليها كمرضعة له. وكان من المفترض به أن يستذكر عناية الله «تعالى» حين خرق العبد العالم السفينة ولا يحتج عليه.

وأن حادثة قتل الصبي رمزت بالنسبة إلى موسى حادثة قتله للقبطي، وكيف أن العناية الإلهية تدخلت من جديد لتنقذه من مكر المتربصين به السوء، وكان من المفترض به أن يثق بالإرادة الإلهية في هذه الحادثة أيضاً. وأخيراً فإن إقامة الجدار على الكنز ترمز إلى النتائج العظيمة التي سيحققها النبي موسى «عليه السلام» بمرور الوقت، وعليه أن يثق بالله في هذا الطريق^(٢).

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٣٨.

٢. اطلعت على هذا الرأي من خلال أحد الأصدقاء من العلماء ولا أذكره بالتحديد، كما لا أتذكر مصدر التحليل أكان من عند نفسه أم أخذه عن أحد.

• القول الأرجح عندي:

والذي أستقرُّه بشأن الغرض الإلهي من ترتيب اللقاء بينهما، أن الآيات وإن لم تذكر ما طبيعة العلم الذي تلقاه النبي موسى من العبد العالم، بل هل تلقى شيئاً من العلم «الإلقائي» أو «التدريسي» على يديه، أم أن ذلك تم من خلال المواقف الثلاثة التي عايشاها فقط لا غير.. إلا أن الإجابة على السؤال الخاص بغرض اللقاء يتركز في الأساس على ما جاء في الآية السابعة والستين من سورة الكهف والتي تحكي القصة: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. فمن يتتبع السيرة القرآنية للنبي موسى «عليه السلام» يجده صاحب شخصية انفعالية جداً، يتعجل ردود الفعل، ويصدر عنه -في الظروف الضاغطة- ما كان الأولى والأجدر به أن يتركه.

ويتضح ذلك من خلال الموارد التالية:

- ١- قتله القبطي وندمه: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦﴾^(١).
- ٢- قُرب تكرر نفس ردة الفعل بعد فترة وجيزة: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ...﴾^(٢).

- ٣- هروبه وهو يتلقى كلمات الله في بداية الوحي فيما حكاه القرآن الكريم دون أن يلتفت إلى الوراء: ﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ٣١﴾^(٣).

١. سورة القصص: ١٥-١٦.

٢. سورة القصص: ١٩.

٣. سورة القصص: ٣١.

٤- حين أمره الله بالذهاب إلى فرعون، كان أول ما طلبه من ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝﴾ (١). وفي ذلك دلالة على إدراكه للحالة الانفعالية السريعة التي ابتلي بها مما قد يُفسد عليه المهمة، ويؤثر على بيانه وتعبيره.

٥- ردة فعله العنيفة على أخيه حين عاد إلى بني إسرائيل وقد أخبره الله أنهم عبدوا العجل من بعده، دون أن يستعلم من أخيه ما جرى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ...﴾ (٢)، فلم تسلم منه الألواح التي تشتمل على كلمات الله: ﴿وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ...﴾ (٣).

٦- ردود فعله السريعة والمتكررة في أحداث قصته مع العبد العالم، على الرغم من عودته المتكررة بالتسليم وعدم السؤال. هذه هي الطبيعة الإنسانية التي يغالبها الأنبياء «عليهم السلام» في ترفيقهم في طريق الكمالات، من أجل أن يكونوا في مستوى المسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقهم في تلقي الوحي والعمل به وتبليغه وقيادة الناس وهدايتهم والتعامل مع التحديات الضخمة التي يواجهونها في دعوتهم، والضغط النفسية الهائلة التي لا يتحملها أي إنسان عادي لولا المدد الإلهي المستمر.

وقد تحدث القرآن عن بعض توجيهاته للنبي «صلى الله عليه وآله» لإعداداه في مواجهة هذه الظروف العصيبة ومنها قوله «عز وجل»: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ

١. سورة طه: ٢٥-٢٨.

٢. سورة الأعراف: ١٥٠.

٣. سورة الأعراف: ١٥٤.

إِلَّا قَلِيلًا ۖ نَّصَفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴿١﴾.

وقوله «عز وجل»: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿٢﴾.

وقوله «عز وجل»: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَدْقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٣﴾.

١. سورة المزمل: ١-١٠.

٢. سورة الحجر: ٩٤-٩٩.

٣. سورة الإسراء: ٧٣-٨٢.

وقوله «عز وجل»: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّل لِّكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ^(٣٤) وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٣٥)﴾^(١).

كما عبّر عن ذلك الإمام أمير المؤمنين علي «عليه السلام» حيث قال في شأن النبي «صلى الله عليه وآله»: (ولقد قرّن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره)^(٢).

ولعل الله «عز وجل» أراد للنبي موسى «عليه السلام» أن يتغلّب على هذه الحالة الانفعالية التي وإن كانت خالصة لوجه الله وللحق والعدالة، ولكنها لا تتناسب والمهمة المنوطة به، والعنوان الذي يحمله كنبى من أولي العزم، فكان لا بد وأن يعالجها.. فمرّ في تلك التجربة الحية المتفاعلة مع الناس على اختلافهم واختلاف الظروف، لتكشف له تلك الحقيقة في نهاية المطاف. وهذا لا يعني أن ما سبق يمثّل الغاية الوحيدة للقاء، ولكنني أستقرب أنها الغاية الرئيسة.

• الهدف من سرد القصة:

وهذا يجرّنا بالتبع إلى تساؤل آخر ليس ببعيد عما سبق: ما الغرض من سرد هذه القصة في سورة الكهف بعد استعراض قصة أصحاب الكهف والرقيم؟ سورة الكهف من السور المكية وجاءت في خضم التحدي الكبير الذي كان يعيشه

١. سورة الأنعام: ٣٣-٣٥.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

النبي محمد «صلى الله عليه وآله» في مواجهة مشركي قريش في عنادهم وجحودهم
وتحدّهم المستمر والمتكرر بمطالباتهم بنزول المعجز المادية بأنواعها على الرغم من
وقاحتهم التي كانوا لا يُخفونها حين يُعلنون أنهم لا يضمنون إيمانهم بها بسهولة:
﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ
نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا
كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِغِهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَيْلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي
السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْٓ هَلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا مَّرْسُولًا ۝﴾ (١)

يواجهونها، ونظرات الاستهزاء التي كانت تلاحقهم وهي تشكك في مصداقية النبي بارتباطه بالسماء، وكلمات الاستهزاء التي كانوا يُواجهون بها ليل نهار وهم في موقف الضعف دون أن تنتصر لهم السماء.. فمتى الفرج؟ وإلى متى الصبر؟

وهكذا تنزل الآيات من سورة الكهف لتحكي لهم قصة أصحاب الكهف والرقيم الذين اختاروا الإيمان والصبر والتوكل على الله «عز وجل» ثقةً به وتصديقاً بوعده، فكتب لهم حسن العاقبة، وهم في غفلةٍ عن التخطيط الإلهي الذي امتد طوال مئات من السنين لم تكن خاتمتها سوى الانتصار لهم ولو بعد حين، وتأكيداً لحقيقة أن الموت والحياة بيد الله، وأن الله الذي أيقظهم من ذلك السبات الطويل لقادر على أن يحيي الموتى يوم القيامة، وهي القضية الإيمانية التي كانت مثار جدل واسع وفتنة كبيرة في العهد الذي عادوا فيه إلى الحياة، فشاء الله أن ينتصر من خلاله للمؤمنين الذين كانوا يواجهون الفكر الضال الداعم لإنكار البعث والقيامة^(١).

وتأتي الآية الثامنة والعشرون من السورة لتطالب النبي بالاستقامة في هذا الطريق والصبر: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ۖ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾^(٢)، ثم تستطرد في طرح القضايا المختلفة لتُعرِّج بعدها على قصة موسى والعبد العالم، لتؤكد من جديد على أهمية الصبر والتوكل على الله والثقة بوعده وعدم الاعتماد في تحليل الأمور والمواقف ومجريات الأحداث على ظلامية الصورة

١. راجع ما ورد في الفصل الأول من كتاب (ميثولوجيا الخضر) حول قصتهم.

٢. سورة الكهف: ٢٨-٢٩.

الظاهرة وسوداويتها، لأن الله العليم الحكيم قد أخفى وراء ذلك حقائق لا يريد من خلاها إلا الخير.

هذا، ويمكن إضافة أمر آخر إلى ما سبق، وهو الأسلوب الوديع الذي يعبر عن روح التواضع للعلم والعلماء، من دون نظر إلى طبيعة المركز الاجتماعي أو الديني الذي يقف فيه العالم والمتعلم، وهو ما نلاحظه في كلمات النبي موسى مخاطباً العبد العالم قائلاً: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^(١)، وهي رسالة إلى المؤمنين وغيرهم كي يتلقوا العلم عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بكل تواضع وإقبال واهتمام ولا يعيشوا التعالي لمتعتهم بالقوة الاقتصادية أو الامتداد الاجتماعي أو الرفعة النسبية أو غير ذلك.

• إشكاليات وتساؤلات:

هذا، وقد احتار المفسرون في حقيقة الشخصيات المذكورة في هذه القصة القرآنية، فمن هو موسى المذكور فيها: أهو النبي موسى بن عمران «عليه السلام»، أم هو نبي آخر اسمه موسى بن ميثا؟

وعلى الأول كيف يمكن أن يكون على وجه الأرض من هو أعلم منه؟ لاسيما بلحاظ أنه رسول صاحب شريعة وكتاب مُنَزَّل، ومن المفترض أن يكون الأعم في زمانه، والمسدد من قبل الله «عز وجل» لمعرفة القضايا الغيبية ذات البعد الديني والشرعي، فكيف غابت عنه معرفة خبايا تصرفات العبد العالم؟

ثم متى كان هذا اللقاء؟ ومتى جرت الأحداث؟ قبل نبوته أو بعدها؟

وعلى الأول كيف يُتصور تحقق الوحي إليه بأن يلتقي بالعبد العالم في المكان المحدد وهو ليس بنبي بعد؟ أكان عن طريق الرؤيا أم بغير ذلك؟ وما الهدف من اللقاء في المقام الأول؟ أكان تعليمًا له أم تأديبًا إلهيًا أم عقوبة؟

ثم من هو العبد العالم؟ أهو الخضر أم شخص مجهول أم ملك في صورة إنسان؟ ومن هو الفتى المرافق لموسى؟ أهو يوشع بن نون وصي موسى أم شخص آخر؟ ولماذا عبّرت عنه الآية بعنوان الفتى؟ ألصغر سنّه أم لخدمته لموسى أم لغير ذلك؟

وهل القصة واقعية أم من صرّب الأمثال والقصص الرمزية؟

وأين هو مجمع البحرين؟ وما اسم القرية التي استطعما أهلها؟

وما حقيقة الكنز الذي كان تحت الجدار؟ أكان ماديًا أم معنويًا؟

وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي حاول المفسرون وأصحاب الحديث والمؤرخون الإجابة عليها، فكتبت أقلامهم الكثير، وشطحت تصوراتهم في كثير من الأحيان حتى تحوّلت القصة إلى ما يشبه الأسطورة. وأجمل في ما يلي جوانب مما دونوه حول تلك التساؤلات.

• موسى في القصة:

رفض البعض فكرة أن موسى المذكور في القصة هو النبي موسى بن عمران، قال العلامة الطباطبائي: (موسى الذي ذكر في القصة هو ابن عمران الرسول النبي أحد أولي العزم «عليهم السلام» على ما وردت به الرواية من طرق الشيعة وأهل السنة. وقيل هو أحد أسباط يوسف بن يعقوب «عليهما السلام» وهو موسى بن ميثا بن

يوسف، وكان من أنبياء بني إسرائيل). والدليل الذي تمسك به العلامة في رفضه لهذه المقولة: (ويُبعده أن القرآن قد أكثر ذكر اسم موسى حتى بلغ مائة ونيفاً وثلاثين، وهو يريد ابن عمران «عليه السلام»، فلو أريد بما في هذه القصة غيره لضم إليه قرينة صارفة)^(١).

ويبدو أن مسلمة اليهود الذين أقحموا مقولاتهم الإسرائيلية في مرويات المسلمين هم من وراء هذا الادّعاء، تعظيماً لنبيهم موسى «عليه السلام»، ورفضهم لكونه متعلماً على يد العبد العالم. ولما لم يتمكنوا من التصريح برفض القصة من أساسها زجّوا هذا القول من خلال الإسرائيليات.

ويدلّ على ذلك الرواية التالية التي رواها البخاري في صحيحه، كما رواها آخرون، واللفظ له: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا عمر وقال: أخبرني سعيد بن جبیر قال: (قلت لابن عباس: إن نوماً البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر. فقال: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب عن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: قام موسى النبي «صلى الله عليه وسلم» خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: رب وكيف لي به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مكثك فإذا فقدته فهو ثم... إلخ الخبر)^(٢).

وهكذا روى أحمد بن حنبل في مسنده: (حدثنا عبد الله، حدثني أبو عثمان عمرو بن محمد بن بكير الناقد، ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو يعني ابن دينار، عن سعيد

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٣٨.

٢. البخاري: الجامع الصحيح، ح ١٢٢.

بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوماً الشامي يزعم -أو يقول- ليس موسى صاحب خضر موسى بن إسرائيل. قال: كذب نواف عدو الله، حدثني أبي بن كعب عن النبي «صلى الله عليه وسلم» أن موسى «عليه السلام» قام في بني إسرائيل خطيباً فقالوا له: مَنْ أعلم الناس؟... إلخ الخبر^(١).

والذي يقوي القول بأن اليهود هم من وراء هذا الادعاء وأنها من الإسرائيليات هو التعرف على صاحب المقولة، أعني: نواف البكالي. ففي شرح صحيح مسلم للنووي: (قوله «إن نوماً البكالي» هكذا ضبطه الجمهور بكسر الموحدة وتخفيف الكاف، ورواه بعضهم بفتحها وتشديد الكاف. قال القاضي: هذا الثاني هو ضبط أكثر الشيوخ وأصحاب الحديث. قال: والصواب الأول وهو قول المحققين وهو منسوب إلى بني بكال، بطن من حمير، وقيل من همدان. ونواف هذا هو ابن فضالة، كذا قاله ابن دريد وغيره، وهو ابن امرأة كعب الأحبار. وقيل: ابن أخيه، والمشهور الأول. قاله ابن أبي حاتم وغيره. قالوا: وكنيته أبو يزيد. وقيل أبو رشد. وكان عالماً حكيماً قاضياً وإماماً لأهل دمشق^(٢). قوله «كذب عدو الله»: قال العلماء هو على وجه الإغلاظ والزجر عن مثل قوله، لا أنه يعتقد أنه عدو الله حقيقة، إنما قاله مبالغة في إنكار قوله لمخالفته قول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وكان ذلك في حال غضب بن عباس لشدة إنكاره، وحال الغضب تُطلق الألفاظ ولا تراد بها حقائقها، والله أعلم^(٣).

أما شارح صحيح البخاري -ابن حجر- فقد وضح المجال الذي تخصص فيه نواف

١. أحمد بن حنبل: المسند، ح ٢١٠١٣.

٢. ولذا لقب بالشامي في خبر ابن حنبل.

٣. النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج ١٥، ص ١٣٦.

البكالي الشامي، وهو الإسرائيليّات، قال في فتح الباري: (نوف، بفتح النون وبالفاء، والبكالي بفتح الموحدة وكسرهما وتخفيف الكاف، ووهم من شددها. منسوب إلى بكال بطن من حمير، ووهم من قال إنه منسوب إلى بكيل بكسر الكاف بطن من همدان، لأنهما متغايران. ونوف المذكور تابعي من أهل دمشق فاضل عالم لا سيما بالإسرائيليات، وكان ابن امرأة كعب الأحبار، وقيل غير ذلك)^(١).

ثم احتمل ابن حجر أن يكون ابن عباس قاصداً للإساءة لنوف لعلمه بأنه يُدخل الإسرائيليات في معارف الناس: (قال ابن التين: لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله، ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه وحقيقته غير مرادة. قلت: ويجوز أن يكون ابن عباس اتهم نوفاً في صحة إسلامه، فلهذا لم يقل في حق الحر بن قيس^(٢) هذه المقالة مع تواردهما عليها)^(٣).

• العبد العالم في القصة:

بمراجعة كتب التفسير والحديث والتاريخ يمكننا القول بأن اعتبار العبد العالم في القصة هو الخضر أمر يكاد يكون متفقاً عليه، قال العلامة الطباطبائي في «الميزان»: (العالم الذي لقيه موسى ووصفه الله وصفاً جميلاً بقوله: ﴿... عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾^(٤) ولم يسمّه، وَرَدَ في الروايات أن اسمه

١. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٩٤-١٩٥.

٢. الحر بن قيس هذا هو المذكور في حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس في صاحب موسى الذي سأل لقاءه فمر بهما أبي بن كعب فحدثهما بقصة موسى والخضر. وسنورد الخبر في الصفحات القادمة برواية البخاري.

٣. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٩٥.

الخضر، وكان نبياً من الأنبياء معاصراً لموسى «عليه السلام»، وفي بعضها أن الله رزقه طول الحياة فهو حيٌّ لم يمِت بعد، وهذا المقدار لا بأس به إذ لم يرد عقل أو نقل قطعي بخلافه، وقد طال البحث عن شخصية الخضر بين القوم كما في مطولات التفاسير وتكاثر القصص والحكايات في رؤيته، ومع ذلك لا تخلو الأخبار والقصص عن أساطير موضوعة أو مدسوسة^(١)، ومن الواضح أنَّ العلامة وإنْ نسب التسمية إلى الروايات إلا أنه لم يُشكَل عليها ولم يورد قولاً آخر يعارض هذه التسمية، وهو ما يقوّي القول بموافقته لهذا القول.

أما الأحاديث التي أشار إليها فإليك نماذج منها:

١. أمالي الصدوق عن ابن البرقي، عن أبيه، عن جده، عن الحسن بن علي ابن فضال، عن إبراهيم بن محمد الأشعري، عن أبان بن عبد الملك، عن الصادق جعفر بن محمد «عليهما السلام» قال: (إن موسى بن عمران «عليه السلام» حين أراد أن يفارق الخضر «عليه السلام» قال له: أوصني، فكان مما أوصاه أن قال له: إياك واللجاجة، أو أن تمشي في غير حاجة، أو أن تضحك من غير عجب، واذكر خطيئتك، وإياك وخطايا الناس)^(٢).

وقد ورد شبيه بهذا المضمون في «تفسير مقاتل»: (حدثنا عبيد الله قال: حدثني أبي عن الهذيل عن المسيب عن السدي ومقاتل عن حذيفة: أنه لما حان للخضر وموسى «عليهما السلام» أن يفترقا، قال له الخضر: يا موسى، لو صبرت لأتيت على ألف عجيبة أعجب مما رأيت، قال: فبكى موسى على فراقه. فقال موسى للخضر: أوصني يا نبي الله.

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٣٣٨.

٢. الصدوق: الأمالي، المجلس ٥٢.

قال له الخضر: يا موسى، اجعل همك في معادك، ولا تخض فيما لا يعينك، ولا تأمن الخوف في أمنك، ولا تيأس من الأمن في خوفك، ولا تذر الإحسان في قدرتك، وتدبر الأمور في عاقبتك. قال له موسى «عليه السلام»: زدني رحمك الله، قال له الخضر: إياك والإعجاب بنفسك، والتفريط فيما بقي من عمرك، واحذر من لا يغفل عنك. قال له موسى «عليه السلام»: زدني رحمك الله. قال له الخضر: إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعيرن أحداً من الخاطئين بخطاياهم بعد الندم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران.... إلخ الخبر^(١).

الملاحظ أن الخبر لم يُسند إلى النبي، كما أن المصدر هو تفسير مقاتل بن سليمان البلخي الذي قال عنه الذهبي: (كبير المفسرين، أبو الحسن، مقاتل بن سليمان البلخي. يروي -على ضعفه البيّن- عن: مجاهد، والضحاك... قال ابن المبارك -وأحسن^(٢) - : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة! قال ابن عيينة: قلت لمقاتل: «زعموا أنك لم تسمع من الضحاك. قال: كان يغلق عليّ وعليه باب^(٣). فقلت في نفسي: أجل، باب المدينة^(٤)».... قال وكيع: «كان كذاباً». وعن أبي حنيفة قال: «أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جُهم مُعطل، ومقاتل مُشبّه. مات مقاتل سنة نيف وخمسين ومائة. قال البخاري: مقاتل لا شيء ألبتة. قلت^(٥): أجمعوا على تركه^(٦). فأية قيمة تبقى لما ورد في تفسيره؟

١. مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل، ج ٢، ص ٣٤٤.

٢. أي أن الذهبي يستحسن قوله ابن المبارك.

٣. أي أنه ادّعى أنه تلقى منه العلم في مجالس خاصة لا يعلم عنها الناس.

٤. أي أن ابن عيينة يكذب مقاتلاً في ادّعائه هذا.

٥. هذا قول الذهبي.

٦. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج ٧، ص ٢٠١-٢٠٢.

٢. الصدوق: عن أبيه، عن سعد، عن الأصفهاني، عن المنقري، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن علي بن الحسين «عليهما السلام» قال: (كان آخر ما أوصى به الخضر موسى بن عمران «عليهما السلام» أن قال له: لا تعيّن أحداً بذنب، وإن أحب الأمور إلى الله «عز وجل» ثلاثة: القصد في الجدة، والعفو في المقدرة، والرفق بعباد الله، وما رفق أحد بأحد في الدنيا إلا رفق الله «عز وجل» به يوم القيامة، ورأس الحكم مخافة الله «عز وجل»^(١)).

٣. تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله «عليه السلام»: (إن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس يسأله عن سبي الذراري، فكتب إليه: أما الذراري فلم يكن رسول الله يقتلهم، وكان الخضر يقتل كافرهم ويترك مؤمنهم، فإن كنت تعلم ما يعلم الخضر فاقتلهم)^(٢).

ويلاحظ عليها أنها مجتزأة من رواية أطول جاء فيها أنه سأل ابن عباس عن أربعة أمور، منها ما جاء في الخبر السابق، والرواية رواها الشيخ الصدوق في «الخصال» هكذا: (حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد ابن الوليد «رضي الله عنه» قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد، وعبد الله ابني محمد بن عيسى، عن محمد بن أبي عمير، عن حماد بن عثمان الناب، عن عبيد الله بن علي الحلبي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: إن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس يسأله عن أربعة أشياء هل كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يغزو بالنساء؟ وهل كان يقسم لهن شيئاً؟ وعن موضع الخمس، وعن اليتيم متى ينقطع يئمه؟ وعن قتل الذراري. فكتب إليه ابن عباس: أما قولك

١. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ٥٤.

٢. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٥.

في النساء فإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان يحذيهن ولا يقسم لهن شيئاً^(١)، وأما الخمس فإننا نزعّم أنه لنا، وزعّم قوم أنه ليس لنا فصرنا، فأما اليتيم فانقطاع يتمه أشده وهو الاحتلام، إلا أن لا تؤنس منه رشداً فيكون عندك سفيهاً أو ضعيفاً فيمسك عليه وليه، وأما الذراري فلم يكن النبي يقتلها، وكان الخضر «عليه السلام» يقتل كافرهم ويترك مؤمنهم، فإن كنت تعلم منهم ما يعلم الخضر فأنت أعلم^(٢).

وهذه الرواية وإن كانت -وفق القراءة الأولية- معتبرة السند إلا أنه يلاحظ عليها ادّعاء رواية الإمام جعفر بن محمد الصادق «عليهما السلام» «ولد ٨٣ هـ» عن عبد الله بن عباس «ت ٦٨ هـ»، فهل روى الإمام عن ابن عباس فعلاً؟ ومن الوسيط بينهما؟ هذا كله إذا قلنا أن المراد من «أبي عبدالله» هنا هو الإمام جعفر الصادق كما هو المتبادر إلى الذهن.. فهل الأمر كذلك فعلاً؟

هذا ما دفعني للبحث أكثر حتى وصلت إلى نتيجة مفاجئة... فالخبر مروى عند أهل السنة في كتبهم عن أبي عبدالله أيضاً، ولكنه ليس الإمام جعفر الصادق، بل عالم المدينة أبو عبدالله يزيد بن هرمز المدني^(٣)!

ففي صحيح مسلم: (وحدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن إسماعيل ابن أمية، عن سعيد المقبري، عن يزيد بن هرمز قال: كتب نَجْدَةُ بنُ عامرٍ الحروريُّ إلى ابنِ عباسٍ يسأله عن العبدِ والمرأةِ يحضران المَغْنَمَ، هل يُقسَم لهما؟ وعن قتلِ الولدانِ؟ وعن اليتيم

١. أي يعطيهم شيئاً ما، ولم يحرمهم من الغنيمة.

٢. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ٥٤.

٣. تكرر مثل هذا الخلط في بعض الكتب بين (أبي جعفر) الإمام محمد الباقر وبين (أبي جعفر) الطبري صاحب التفسير، كما وقع في تفسير التبيان للشيخ الطوسي ومنه إلى كتاب مجمع البيان للطبرسي.

متى ينقطع عنه اليتيم؟ وعن ذوي القربى، من هم؟ فقال ليزيد: اكتب إليه. فلولا أن يقع في أحموقة ما كتبتُ إليه^(١). اكتب: إنك كتبتَ تسألني عن المرأة والعبد يحضران المغنم، هل يُقسم لهما شيء؟ وإنه ليس لهما شيء. إلا أن يُجذيا. وكتبتَ تسألني عن قتل الولدان؟ وإنَّ رسولَ الله «صلى الله عليه وسلم» لم يقتلهم. وأنت تقتلهم. إلا أن تعلمَ منهم ما علمَ صاحبُ موسى^(٢) من الغلام الذي قتله. وكتبتَ تسألني عن اليتيم، متى ينقطع عنه اسمُ اليتيم؟ وإنه لا ينقطع عنه اسمُ اليتيم حتى يبلغ ويؤنس منه رُشد. وكتبتَ تسألني عن ذوي القربى، من هم؟ وأنا زعمنا أننا هم. فأبى ذلك علينا قومنا^(٣)

فمن هو يزيد بن هرمز؟ قال المزي في «تهذيب الكمال»: (يزيد بن هرمز المدني، أبو عبد الله، مولى بني ليث وقيل مولى غفار وقيل مولى آل أبي ذباب الدوسيين، كان رأس الموالى يوم الحرة وهو والد عبد الله بن يزيد بن هرمز معلم مالك بن أنس... قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: فسمعت أبي يقول: يزيد بن هرمز هذا ليس بيزيد الفارسي، هو سواه. وكان ابن هرمز من أبناء الفرس الذين كانوا بالمدينة وجالسوا أبا هريرة... وقال غيره: مات في خلافة^(٤) عمر بن عبد العزيز^(٥)). فهل وقع تصحيف في سند رواية الشيخ الصدوق في «الخصال» بحيث نُسب الخبر إلى الإمام الصادق «عليه السلام» بينما الرواي شخص آخر يكتى أيضاً بأبي عبد الله، وهو يزيد بن هرمز؟

قد يستعجل القارئ ويحسم الأمر بالإيجاب، إلا أن روايتين أخريتين يرويهما مسلم

١. نجدة الحروري كان من رؤوس الخوارج.

٢. لاحظ أن اسم الخضر لم يُذكر في هذا الخبر.

٣. مسلم: صحيح مسلم، ح ١٨١٢.

٤. استمرت خلافة عمر بن عبد العزيز بين ٩٩ - ١٠١ هـ.

٥. المزي: تهذيب الكمال، ج ٣٢، ص ٣٠، ترجمة رقم ٧٠٦٢.

في صحيحه تجعلنا نتوقف مرة أخرى، فالروايتان عن هرمز بن يزيد أيضاً، ولكن الراوي عنه هذه المرة هو الإمام جعفر الصادق عن الإمام محمد الباقر!

والرواية الأولى كالتالي: حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا سليمان يعني ابن بلال عن جعفر بن محمد عن أبيه^(١) عن يزيد بن هرمز: (أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال. فقال ابن عباس: لولا أن أكنتم علماً ما كتبت إليه. كتب إليه نجدة: أما بعد، فأخبرني هل كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهن بسهم؟ وهل كان يقتل الصبيان؟ ومتى ينقضى يتم اليتيم؟ وعن الخمس لمن هو؟ فكتب إليه ابن عباس: كتبت تسألني هل كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يغزو بالنساء وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويؤخذ من الغنيمة، وأما بسهم فلم يضرب لهن. وإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يكن يقتل الصبيان فلا تقتل الصبيان^(٢). وكتبت تسألني متى ينقضى يتم اليتيم؟ فلعمري إن الرجل لتنت لحيته وإنه لضعيف الأخذ لنفسه ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتيم. وكتبت تسألني عن الخمس لمن هو وإننا كنا نقول هو لنا. فأبى علينا قومنا ذاك^(٣)).

والثانية هكذا: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق ابن إبراهيم كلاهما عن حاتم ابن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه عن يزيد بن هرمز: (أن نجدة كتب إلى

١. قال حسن أبو الأشبال الزهيري في بيان سند الخبرين السابقين: (...) حدثنا سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد - وهو ابن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب - عن أبيه عن يزيد بن هرمز... انظر: الزهيري: شرح صحيح مسلم، المحاضرة ١٠٠، ص ٨.

٢. لا ذكر هنا لقضية العبد العالم وقتل الأطفال.

٣. مسلم: صحيح مسلم، ح ٤٧٨٧.

ابن عباس يسأله عن خلال. بمثل حديث سليمان بن بلال غير أن في حديث حاتم وإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يكن يقتل الصبيان فلا تقتل الصبيان إلا أن تكون تعلم ما عليم الخضر من الصبي الذي قتل^(١).

وهكذا يعود اسم الإمام الصادق ليظهر من جديد في سند الرواية مع عدم انقطاع عن الراوي المباشر للخبر، فالإمام -بحسب المدّعى- يرويها عن أبيه عن يزيد ابن هرمز عن ابن عباس، مع اختلاف في المتن، فتارة يُستشهد بقضية العبد العالم وقتل الغلام، وتارة تخلو الرواية منها.

وعلى كل حال، فإنَّ أقصى ما يمكن قوله هو أن الإمام الصادق قد نقل جواب ابن عباس الذي تضمن تسمية العبد العالم باسم الخضر، وهو لا يمثل دلالة أكيدة على قبول الإمام بذلك.

والذي يزيد الأمر وهنا أن رواية يزيد بن هرمز الأولى لم تتضمن الاسم بل عبّر عنه ابن عباس بقوله: «صاحب موسى»، ولعلّ تعبير بعض رواة الخبر أو مثبتي الرواية في الكتب قد غلب على الأصل فصَحّفوا كلام ابن عباس وأبدلوا قوله: «صاحب موسى» بـ «الخضر»، والله أعلم.

٤. صحيح البخاري: (حدثنا أبو القاسم خالد بن خلي قاضي حمص قال: حدثنا محمد بن حرب قال: حدثنا الأوزاعي، أخبرنا الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس ابن حصن الفزاري في صاحب موسى فمر بهما أبيُّ بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في

١. مسلم: صحيح مسلم، ح ٤٧٨٨.

صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه هل سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يذكر شأنه فقال أبي: نعم، سمعت النبي «صلى الله عليه وسلم» يذكر شأنه يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال أتعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله «عز وجل» إلى موسى: بلى، عبدنا خضر... إلخ الخبر^(١).

٥. قريب منه ما في مسند أحمد بن حنبل: (ثنا محمد بن عباد المكي، ثنا عبد الله بن ميمون القداح، ثنا جعفر بن محمد الصادق، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: ماراني^(٢) رجلاً من بني فزارة في الرجل الذي اتبعه موسى «عليه السلام» فقلت: هو الخضر «عليه السلام». وقال الفزاري هو رجل آخر. فمرر بنا أبي بن كعب، قال ابن عباس: فدعوته فسألته: سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يذكر الذي تبعه موسى «عليه السلام»؟ قال: نعم. سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: بينما موسى جالس في ملأ من بني إسرائيل فقال له رجل: هل أحد أعلم بالله «عز وجل» منك؟ قال: ما أرى. فأوحى الله إليه بلى، عبيد الخضر... إلخ الخبر^(٣).

ونلاحظ هنا ورود اسم الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» من جديد في سند رواية لها علاقة بابن عباس وقضية صاحب موسى، وهذه المرة الإمام يروي الخبر عن ابن شهاب، وهو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، الملقب بالزهري والذي قال عنه الذهبي: (الإمامُ العَلَمُ، حافظُ زمانِهِ)^(٤) وهو أول من جمع

١. البخاري: الجامع المسند الصحيح، ح ٧٨.

٢. ماراني: أي جادلني، من الممارسة أي الجدل.

٣. أحمد بن حنبل: المسند، ح ٢١٣٠.

٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٢٦.

ودَوَّن الحديث في العهد الأموي من بين علماء أهل السنة.. والأمر فيه غرابة. وعلى كلٍّ، هل يكفي - تماشياً مع هذه الروايات - أن نأخذ الأمر مأخذ المسلمات، لاسيما وأن في أسانيدها كلام، وهي متضاربة في مضامينها، وليس كلها ينتهي إلى النبي أو الإمام؟ ففعل الأمر برمته مُحْتَلَقٌ قد تغلغل إلى تراث المسلمين، ولم يكتروا للتحقيق فيه، لأنه لا يمت إلى إيمان ولا شريعة، فأخذ مأخذه، وأصبح كأمر مسلم به غير قابل للنقاش، ورب مشهور لا أصل له. ويمكن لمن يود الاستزادة حول ذلك مراجعة كتابي (ميثولوجيا الخضر).

• أسئلة متفرقة:

حاول العلامة محمد باقر المجلسي في موسوعته «بحار الأنوار» تقديم إجابات متنوعة على عدد من الأسئلة المتعلقة بتفاصيل القصة وذلك بتجميع ما كتبه بعض المفسرين والعلماء في هذا الصدد إلى زمانه، وبدورنا ننقل ما ذكره إتماماً للفائدة، وإن كان في بعضه تكرار لما سبق.. قال:

قال الطبرسي في قوله «عز وجل»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾: أكثر المفسرين على أنه موسى بن عمران، وفتاه يوشع بن نون، وسمّاه فتاه لأنه صحبه ولازمه سفرأ وحضر للتعلم منه. وقيل: لأنه كان يخدمه.

وقال محمد بن إسحاق: يقول أهل الكتاب: إن موسى الذي طلب الخضر هو موسى بن ميثا بن يوسف، وكان نبياً في بني إسرائيل قبل موسى ابن عمران، إلا أن الذي عليه الجمهور أنه موسى بن عمران.

﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ معناه: لا أزال أمضي وأمشي فلا أسلك طريقاً

آخر حتى أبلغ ملتقى البحرين: بحر فارس وبحر الروم^(١). وقال محمد بن كعب: هو طنجة، وروي عنه إفريقية.

أقول: قال البيضاوي: وقيل: البحرين موسى وخضر «عليهما السلام»، فإن موسى كان بحر علم الظاهر، وخضر كان بحر علم الباطن! وروي أن موسى خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبة بليغة فأعجب بها فقبل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا. فأوحى الله إليه: بلى عبدنا الخضر، وهو بمجمع البحرين. وكان الخضر في أيام إفريدون، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى.

وقيل: إن موسى سأل ربه: أيُّ عبادك أحب إليك؟ فقال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأني عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأني عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى. قال: إن كان في عبادك أعلم مني فادلني عليه، قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتلك^(٢)، فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ أي مجمع البحرين و﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف أضيف إليه على الاتساع، أو بمعنى الوصل ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى أن يطلبه ويتعرف حاله، ويوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وروي أن موسى رقد فاضطرب الحوت المشوي ووثب في البحر معجزة لموسى أو الخضر.

١. الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط، ولكن يبقى السؤال: هل كان يلتقي هذا البحرين في زمن

ما؟ وهل كان ذلك -على فرض صحته- متحققاً على عصر النبي موسى؟

٢. أي أداة الكيل.

وقيل: توَضُّأ يوشع من عين الحياة فانتضح الماء عليه فعاش ووثب في الماء. وقيل: نسيا تفقد أمره وما يكون منه إِمَارَةً على الظفر بالمطلوب ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝١١﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلماً من قوله: ﴿وَسَارِبٍ بِالتَّهَارِ﴾^(١). وقيل: أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه^(٢).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين ﴿قَالَ لِقَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ ما نتغدى به ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝١٢﴾ قيل: لم ينصب حتى جاوز الموعد، فلما جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقي عليه الجوع والنَّصَب. وقيل: لم يعي موسى في سفرٍ غيره، ويؤيده التقييد باسم الإشارة ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ﴾ ما دهاني^(٣) ﴿إِذْ أَوْيَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى. وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ فقدته أو نسيت ذكره بما رأيت منه. ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان، ولعله نسي ذلك لانجذاب شرايره إلى جناب القدس^(٤)، وإنما نسبته إلى الشيطان هضماً لنفسه، أو لأن عدم احتمال القوة للجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يعد من نقصان ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝١٣﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسرب، أو اتخذاً عجباً، والمفعول الثاني هو السرب.

وقيل: هو مصدر فعله المضمر، أي قال يوشع في آخر كلامه أو موسى في جوابه:

١. سورة الرعد: ١٠.

٢. هكذا في النسخة المطبوعة والمخطوطة من البحار، والصواب «كالطافي عليه» كما في المصدر، من طفا يطفو: علا فوق الماء ولم يرسب، ومنه السمك الطافي وهو الذي يموت في الماء فيعلو ويظهر.

٣. دهاني: أي أصابني.

٤. الشراشر: عروق متصلة بالقلب، وفي التعبير دلالة على المحبة والوله والشوق إلى الله.

عجباً!! تعجباً في تلك الحال. وقيل: الفعل لموسى، أي اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً.

﴿قَالَ ذَلِكَ﴾ أي أمر الحوت ﴿مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ نطلب، لأنه أمانة المطلوب ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ فرجعا في الطريق الذي جاء فيه ﴿قَصَصًا ٦٦﴾ أي يتبعان آثارهما اتباعاً، أو مقتصين حتى أتيا الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ الجمهور على أنه الخضر واسمه بلياً بن ملكان، وقيل: اليسع، وقيل: إلياس. ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ هي الوحي والنبوة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عَلِمًا ٦٧﴾ مما يختص بنا ولا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب.

﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ٦٨﴾ علماً ذا رشد، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه فيما بعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ٦٩﴾ أي كيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر فأساً فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ٧٠﴾ أتيت أمراً عظيماً من أمر الأمر: إذا عظم.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيت أو بشيء نسيت، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه، أو بنسياني إياها، وهو اعتذار بالنسيان أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذه مع قيام المانع لها. وقيل: أراد بالنسيان الترك، أي لا تؤاخذني بما تركت من

وصيتك أول مرة. وقيل: إنه من معاريض الكلام، والمراد شيء آخر نسيه.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ﴾ ولا تغشني عسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على المنسي، فإن ذلك يعسر علي متابعتك.

﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي بعدما خرجا من السفينة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل: قتل عنقه. وقيل: ضرب برأسه الحائط. وقيل: أضجعه فذبحه.

والفاء للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تروٍّ واستكشاف حال، ولذلك قال: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرة من الذنوب.

﴿شَيْئًا نُّكَرًا ۖ﴾ أي منكراً ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۖ﴾ أي قد وجدت عذراً من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات. وعن رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب).

قوله: ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قرية أنطاكية. وقيل: أبله بصرة. وقيل: باجروان إرمينة. وأضافه وضيفه: أنزله.

﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ يداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة للمشاركة ﴿فَأَقَامَهُ﴾ بعمارته أو بعمود عمده به. وقيل: مسح بيده فقام! وقيل: نقضه وبناءه ﴿قَالَ لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ تحريصاً على أخذ الجعل لينتعشا به، أو تعريفاً بأنه فضول لما في «لو» من النفي، كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه.

﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ لمحاويج وهو دليل على أن المسكين يطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفه. وقيل: سُمُوا مساكين لعجزهم عن دفع الملك، أو لزمانتهم^(١)، فإنها

١. أي كانوا من ذوي الإعاقة.

كانت لعشرة إخوة: خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر.

﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ قدامهم أو خلفهم وكان رجوعهم عليه. وقرئ: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩).

﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يغشاهما ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) لنعمتهما بعقوبه فيلحقهما شرًا، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بعلته فيرتدا بإضلاله أو بممالأته على طغيانه وكفره حباً.

﴿أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أن يرزقهما بدله ولداً ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿أَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨١) رحمة و عطفاً على والديه. قيل: ولدت لهما جارية فتزوجها نبي فولدت نبياً هدى الله به أمة من الأمم.

﴿لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ قيل: اسمهما أصرم وصريم.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ من ذهب أو فضة، روي ذلك مرفوعاً. وقيل: من كتب العلم. وقيل: كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه: عجب لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟! وعجب لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟! وعجب لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟! وعجب لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟! وعجب لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليهما؟! لا إله إلا الله محمد رسول الله (١).

• مع العلامة الطباطبائي:

وهكذا نجد العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» يطرق هذا الباب مشيراً إلى بعض الروايات التي تحاول الإجابة على مجموعة من التساؤلات الخاصة بتفاصيل

القصة. ففي ما يخص تحديد موقع مجمع البحرين قال: (منها ما يتحصل من رواية ابن بابويه والقي أن مجمع البحرين من أرض الشامات وفلسطين بقرينة ذكرهما أن القرية التي ورداها هي الناصرة التي تنسب إليها النصارى، وفي بعضها أن الأرض كانت آذربيجان وهو يوافق ما في الدر المنثور عن السدي أن البحرين هما الكر والرس حيث يصبان في البحر، وأن القرية كانت تسمى باجروان، وكان أهلها لثاماً. وروي عن أبي أنه أفريقية، وعن القرظي أنه طنجة، وعن قتادة أنه ملتقى بحر الروم وفارس).

وحول تحديد طبيعة الكنز الخاص باليتيمين قال: (قد تكاثرت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الكنز الذي كان تحت الجدار كان لوحاً مكتوباً فيه الكلمات، وفي أكثرها أنه كان لوحاً من ذهب، ولا ينافيه قوله في هذه الرواية: «ما كان ذهباً ولا فضة». لأن المراد به نفي الدينار والدرهم كما هو المتبادر. والروايات مختلفة في تعيين الكلمات التي كانت مكتوبة على اللوح، لكن أكثرها متفقة في كلمة التوحيد ومسألتي الموت والقدر. وقد جمع في بعضها بين الشهادتين كما رواه في الدر المنثور عن البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب في قول الله «عز وجل»: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: «كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله. عجباً لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح؟ وعجباً لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك؟ وعجباً لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن؟ وعجباً لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟»^(١).

ومن نصوص الروايات التي أشار إليها العلامة في إجاباته السابقة:

١. تفسير علي بن إبراهيم: أبي، عن محمد بن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي

١. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٥٤ - ٣٥٩.

عبد الله «عليه السلام» أنه قال: (كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب فيه مكتوب: بسم الله لا إله إلا الله محمد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، عجبت لمن يعلم أن الموت حق كيف يفرح؟! عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يفرق؟! عجبت لمن يذكر النار كيف يضحك؟! عجبت لمن يرى الدنيا وتصرّف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟!)^(١).

٢. الصدوق في «علل الشرائع» عن القطان، عن السكري، عن الجوهري، عن ابن عمار، عن أبيه، عن جعفر بن محمد «عليهما السلام» أنه قال في ضمن خبر طويل: (ولم يكن ذلك الكنز بذهب ولا فضة، ولكن كان لوحاً من ذهب فيه مكتوب: عجب لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟! عجب لمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟! عجب لمن أيقن أن البعث حق كيف يظلم؟! عجب لمن رأى الدنيا وتصرّف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟!) «وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا» كان بينهما وبين هذا الأب الصالح سبعون أباً، فحفظهما الله بصلاحه)^(٢).

٣. الحميري في قرب الإسناد: ابن عيسى، عن البنزطي، عن الرضا «عليه السلام» قال: (كان في الكنز الذي قال الله: «وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا» لوح من ذهب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟! وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟! وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن إليها؟! وينبغي لمن غفل عن الله ألا يتهم الله «عز وجل» في قضائه ولا يستبطؤه في رزقه)^(٣).

١. القمي: تفسير القمي: ص ٤٠١.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٦١-٦٢.

٣. الحميري: قرب الإسناد، ص ٣٧٥.

٤. الصدوق في «الخصال» عن أبيه، عن سعد، عن محمد بن عبد الحميد، عن العلاء، عن محمد، عن أبي جعفر «عليه السلام» في قول الله «عز وجل»: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾. قال: (والله ما كان من ذهب ولا فضة، وما كان إلا لوحاً فيه كلمات أربع: إني أنا الله لا إله إلا أنا، ومحمد رسولي، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح قلبه؟! وعجبت لمن أيقن بالحساب كيف تضحك سنُّه؟! وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يستبطئ الله في رزقه؟! وعجبت لمن يرى النشأة الأولى كيف ينكر النشأة الآخرة؟!)(١).

٥. الكليني عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد ابن خالد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (سألته عن قول الله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾. فقال: أما إنه ما كان ذهباً ولا فضة وإنما كان أربع كلمات: إني أنا الله لا إله إلا أنا، من أيقن بالموت لم يضحك سنُّه، ومن أقر بالحساب لم يفرح قلبه، ومن آمن بالقدر لم يخش إلا ربه)(٢).

وهكذا تطرقت الأخبار لتحديد شخصية الفتى المرافق لموسى، قال العلامة الطباطبائي: (الفتى الذي ذكره الله وأضافه إلى موسى قيل هو يوشع بن نون وصيه، وبه وردت الرواية، قيل: سُمِّي فتى لأنه كان يلازمه سفرأً وحضراً، أو لأنه كان يخدمه)(٣).

أما الروايات التي تطرقت لذلك فمن نماذجها ما يلي:

١. بحار الأنوار: (وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر «عليه السلام» في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ﴾ وهو يوشع بن نون)(٤).

١. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ١١٢.

٢. الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٤٨.

٣. الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٣٣٨.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٨٦.

٢. تفسير العياشي عن أبي حمزة، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (كان وصي موسى بن عمران يوشع بن نون، وهو فتاه الذي ذكره الله في كتابه)^(١).

• أعلمية العبد العالم:

بالإضافة إلى التساؤلات السابقة حول تفاصيل القصة، فقد أثارت بعض جوانبها إشكالات على مستوى بعض المفردات العقدية، من قبيل أعلمية العبد العالم مع وجود الحجّة عليه في ذلك الزمان، أي النبي موسى، وعن تقبّل فكرة اتّباع الأفضل للمفضول، وكيف يمكن التفكيك بين الحجّة وبين الاتّباع، وغير ذلك مما نقله العلماء في كتبهم عن حوارات دارت بين علماء من مذاهب مختلفة، أو حوارات افتراضية في معرض بحث بعض المسائل العقدية. وفي الأسطر التالية نماذج من ذلك. قال العلامة المجلسي: (يمكن أن يكون في البشر من هو أعلم منه)^(٢)، أو المعنى أنه كان الغرض تعليم موسى، لا كون الخضر حجة عليه وأفضل منه وكون موسى «عليه السلام» رعيّة له. بل كان واسطة، كالملك)^(٣).

وفي تفسير العياشي عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كان موسى أعلم من الخضر)^(٤).

وفيه عن هشام أيضاً، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كان سليمان أعلم من آصف، وكان موسى أعلم من الذي اتّبعه)^(٥).

١. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٥٦.

٢. أي من النبي موسى.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٩١.

٤. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٠.

٥. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٤.

أما السيد المرتضى علم الهدى فقد توسّع في استعراض الإشكالات حول القصة والردود عليها، وبدوري أذكرها مع إعادة ترتيبها بما يُيسّر ربط السؤال بالإجابة، قال: الإشكال الأول: كيف يجوز أن يتبع موسى «عليه السلام» غيره ويتعلم منه وعندكم أن النبي لا يجوز أن يفتقر إلى غيره؟

الجواب: أما العالم الذي نعتّه الله في هذه الآيات فلا يجوز إلا أن يكون نبياً فاضلاً، وقد قيل: إنه الخضر «عليه السلام»، وأنكر أبو علي^(١) ذلك وزعم أنه ليس بصحيح، قال: لأن الخضر يقال: إنه كان نبياً من أنبياء بني إسرائيل الذين بعثوا بعد موسى «عليه السلام»، وليس يمتنع أن يكون الله «عز وجل» قد أعلم هذا العالم ما لم يعلمه موسى «عليه السلام» وأرشد موسى «عليه السلام» إليه ليتعلم منه، وإنما المنكر أن يحتاج النبي في العلم إلى بعض رعيته المبعوث إليهم، وأما أن يفتقر إلى غيره ممن ليس له برعية فجائز، وما تعلّمه من هذا العالم إلا كتعلمه من الملك الذي يهبط إليه بالوحي، وليس في هذا دلالة على أنه كان أفضل من موسى في العلم، لأنه لا يمتنع أن يزيد موسى «عليه السلام» عليه في سائر العلوم التي هي أفضل وأشرف مما علمه الإشكال الثاني: كيف يجوز أن يقول له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ والاستطاعة عندكم هي القدرة، وقد كان موسى «عليه السلام» على مذهبكم قادراً على الصبر؟

الجواب: وأما نفي الاستطاعة فإنما أراد بها أن الصبر لا يخف عليك، وأنه يثقل على طبيعتك، كما يقول أحدنا لغيره: إنك لا تستطيع أن تنظر إلي، وكما يقول للمريض

١. محمد بن عبد الوهّاب بن سلام الجبائي البصري، المعروف بأبي علي الجبائي. شيخ المعتزلة في عصره، ولد سنة ٢٣٥ هـ/٨٤٩ م في مدينة جُبِّي في محافظة خوزستان، وتوفي في البصرة سنة ٣٠٣ هـ/٩١٦ م.

الذي يجهد الصوم وإن كان عليه قادراً: إنك لا تستطيع الصيام ولا تطيقه، وربما عُبِّرَ بالاستطاعة عن الفعل نفسه، كما قال الله «عز وجل» حكايةً عن الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١) فكأنه على هذا الوجه قال له: إنك لن تصبر ولن يقع منك الصبر، وإن كان إنما نفى القدرة على ما ظنه الجهال، لكان العالم وهو في ذلك سواء، فلا معنى لاختصاصه بنفى الاستطاعة. والذي يدل على أنه إنما نفى عنه الصبر لا الاستطاعة قول موسى «عليه السلام» في جوابه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾، ولم يقل: ستجدني إن شاء الله مستطيعاً، ومن حق الجواب أن يطابق الابتداء، فدل جوابه على أن الاستطاعة في الابتداء هي عبارة عن الفعل نفسه الإشكال الثالث: كيف قال موسى «عليه السلام»: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، فاستثنى المشية في الصبر، وأطلق فيما ضمَّنه من طاعته واجتناب معصيته؟

الجواب: قوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فهو أيضاً مشروط بالمشية وليس بمطلق على ما ذكر في السؤال، فكأنه قال: ستجدني صابراً ولا أعصي لك أمراً إن شاء الله، وإنما قدم الشرط على الأمرين جميعاً، وهذا ظاهر في الكلام.

الإشكال الرابع: كيف قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾ و﴿شَيْئًا نُّكْرًا﴾ وما أتى العالم منكراً على الحقيقة؟

الجواب: فأما قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾ فقد قيل: إنه أراد شيئاً عجباً، وقيل: إنه أراد شيئاً منكراً، وقيل: إن الأمر أيضاً هو الداهية فكأنه قال: جئت داهية. وقد ذهب بعض أهل اللغة إلى أن الأمر مشتق من الكثرة من أمر القوم: إذا كثروا، وجعل عبارة

عما كثر عجبه، وإذا حملت هذه اللفظة على العجب فلا سؤال فيها، وإن حملت على المنكر كان الجواب عنها وعن قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا﴾ واحداً، وفي ذلك وجوه: منها: أن ظاهر ما أتيت المنكر ومن يشاهده ينكره قبل أن يعرف علته.

ومنها: أن يكون حذف الشرط فكأنه أراد: إن كنت قتلتها ظالماً لقد جئت شيئاً نكراً.

ومنها: أنه أراد أنك أتيت أمراً بديعاً غريباً، فإنهم يقولون فيما يستغربونه ويجهلون علته: إنه نكر ومنكر، وليس يمكن أن يدفع خروج الكلام مخرج الاستفهام والتقرير دون القطع، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَخْرَقْتُهَا لَتُغْرَقَ أَهْلُهَا﴾ وإلى قوله: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ومعلوم أنه إن كان قصد بحرق السفينة إلى التغريق فقد أتى منكراً، وكذلك إن كان قتل النفس على سبيل الظلم.

الإشكال الخامس: ما معنى قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ وعندكم أن النسيان لا يجوز على الأنبياء؟

الجواب: أما قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ فقد ذكر فيه وجوه ثلاثة:

أحدها أنه أراد النسيان المعروف، وليس ذلك بعجب مع قصر المدة، فإن الإنسان قد ينسى ما قرب زمانه لما يعرض له من شغل القلب وغير ذلك.

والوجه الثاني أنه أراد: لا تؤاخذني بما تركت، ويجري ذلك مجرى قوله «عز وجل»: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي﴾ أي ترك، وقد روي هذا الوجه عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: قال موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ يقول: بما تركت من عهدك.

والوجه الثالث: أنه أراد: لا تؤاخذني بما فعلته مما يشبه النسيان، فسماه نسياناً للمشابهة كما قال المؤذن لإخوة يوسف «عليه السلام»: ﴿إِنكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(١) أي إنكم تشبهون السراق، وكما يتأول الخبر الذي يرويه أبو هريرة، عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (كذب إبراهيم ثلاث كذبات: في قوله: سارة أختي، وفي قوله: بل فعله كبيرهم هذا، وفي قوله: إني سقيم)^(٢) والمراد بذلك -إن كان هذا الخبر صحيحاً- أنه فعل ما ظاهره الكذب. وإذا حملنا هذه اللفظة على غير النسيان الحقيقي فلا سؤال فيها، وإذا حملناها على النسيان في الحقيقة كان الوجه فيها أن النبي إنما لا يجوز عليه النسيان فيما يؤديه أو في شرعه، أو في أمر يقتضي التنفير عنه، فأما فيما هو خارج عما ذكرناه فلا مانع من النسيان، ألا ترى أنه إذا نسي أو سها في مأكله أو مشربه على وجه لا يستمر ولا يتصل فينسب إلى أنه مغفل أن ذلك غير ممتنع.

الإشكال السادس: لِمَ نَعَت موسى «عليه السلام» النفس بأنها زكية ولم تكن كذلك على الحقيقة؟

الجواب: وأما وصف النفس بأنها زكية فقد قلنا إن ذلك خرج مخرج الاستفهام لا على سبيل الإخبار، وإذا كان استفهاماً فلا سؤال على هذا الموضع. وقد اختلف المفسرون في هذه النفس فقال أكثرهم: إنه كان صبيّاً لم يبلغ الحلم، وإن الخضر وموسى «عليهما السلام» مرّا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر منهم غلاماً فأضجعه وذبحه بالسكين، ومن ذهب إلى هذا الوجه يجب أن يحمل قوله: ﴿زَكِيَّةٌ﴾ على أنه من

١. سورة يوسف: ٧٠.

٢. الخبر كما في صحيح مسلم ح ٢٣٧١ كالتالي: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وواحدة في شأن سارة».

الزكاء الذي هو الزيادة والنماء، لا من الطهارة في الدين، من قولهم: زكت الأرض يزكو إذا زاد ريعها. وذهب قوم إلى أنه كان رجلاً بالغاً كافراً، ولم يكن يعلم النبي موسى «عليه السلام» باستحقاقه للقتل، فاستفهم عن حاله، ومن أجاب بهذا الجواب إذا سئل عن قوله «عز وجل»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ يقول: لا يمتنع تسمية الرجل بأنه غلام على مذهب العرب وإن كان بالغاً.

الإشكال السابع: ولم قال: ﴿فَخَشِينَا﴾؟ فإن كان الذي خشيه الله «عز وجل» ما ظنّه قوم فالخشية لا تجوز عليه «تعالى»، وإن كان هو الخضر فكيف يستبيح دم الغلام لأجل الخشية والخشية لا تقتضي علماً ولا يقيناً!

الجواب: أما قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فالظاهر يشهد أن الخشية هي من العالم لا منه «عليه السلام»، والخشية ههنا قيل: إنها العلم كما قال الله «عز وجل»: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾^(١) وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾^(٢) وقوله «عز وجل»: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾^(٣) وكل ذلك بمعنى العلم، وعلى هذا الوجه كان يقول: إنني علمت بإعلام الله «عز وجل» لي أن هذا الغلام متي بقي، كفر أبواه، ومتى قُتل، بقيا على إيمانهما، فصارت تبقيته مفسدة ووجب اختراعه، ولا فرق بين أن يميتته الله «تعالى» وبين أن يأمر بقتله.

وقد قيل: إن الخشية ههنا بمعنى الخوف الذي لا يكون معه يقين ولا قطع، وهذا يطابق جواب من قال: إن الغلام كان كافراً مستحقاً للقتل بكفره، وانضاف إلى

١. سورة النساء: ١٢٨.

٢. سورة البقرة: ٢٢٩.

٣. سورة التوبة: ٢٨.

استحقاقه ذلك بالكفر خشية إدخال أبويه في الكفر وتزيينه لهما. وقال قوم: إن الخشية ههنا هي الكراهية، يقول القائل: فرقت بين الرجلين خشية أن يقتتلا، أي كراهية لذلك، وعلى هذا التأويل والوجه الذي قلنا إنه بمعنى العلم لا يمتنع أن يضاف الخشية إلى الله «عز وجل».

الإشكال الثامن: فإن قيل: فما معنى قوله «عز وجل»: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾^(١) والسفينة البحرية تساوي المال الجزيل؟ وكيف يسمى مالها بأنه مسكين، والمسكين عند قوم شر من الفقير؟

الجواب: أما قوله: ﴿لِمَسَاكِينَ﴾ ففيه غير وجه:

منها أنه لم يعن بوصفهم بالمسكنة: الفقر، وإنما أراد عدم الناصر وانقطاع الحيلة كما يقال لمن له عدو يظلمه ويتهمه: إنه مسكين ومستضعف وإن كان كثير المال واسع الحال، ويجري هذا المجرى ما روي عنه «عليه السلام» من قوله: مسكين رجل لا زوجة له. وإنما أراد وصفه بالعجز وقلة الحيلة وإن كان ذا مال واسع.

ووجه آخر وهو أن السفينة للبحري الذي لا يتعيش إلا بها ولا يقدر على التكسب إلا من جهتها، كالدار التي يسكنها الفقير هو وعياله ولا يجد سواها، فهو مضطر إليها ومنقطع الحيلة إلا منها، وإذا انضاف إلى ذلك أن يشاركه جماعة في السفينة حتى يكون له فيها الجزء اليسير، كان أسوأ حالاً وأظهر فقراً. ووجه آخر أن لفظة المساكين قد قرئت بتشديد السين، وإذا صحت هذه الرواية فالمراد بها البخلاء، وقد سقط السؤال.

الإشكال التاسع: كيف قال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ومن كان

وراءهم قد سلموا من شره ونجوا من مكروهه، وإنما الحذر مما يستقبل؟

الجواب: أما قوله «عز وجل»: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ فهذه اللفظة يعبر بها عن الأمام والخلف معاً، فهي ههنا بمعنى الأمام، ويشهد بذلك قوله «عز وجل»: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾^(١) يعنى من قدمه وبين يديه، وقال الشاعر:

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم

ولا شبهة في أن المراد بجميع ذلك: القدم، وقال بعض أهل العربية: إنما صلح أن يعبر بالوراء عن الأمام إذا كان الشئ المخبر عنه بالوراء يعلم أنه لا بد من بلوغه ثم سبقه وتحليفه. ووجه آخر: أنه يجوز أن يريد أن ملكاً ظالماً كان خلفهم وفي طريقهم عند رجوعهم على وجه لا انفكاك لهم منه ولا طريق لهم غير المرور به، فخرق السفينة حتى لا يأخذها إذا عادوا عليه.

ويمكن أن يكون وراءهم على وجه الاتباع والطلب، والله أعلم بمراده^(٢).

كما أثار العلامة السيد محمد حسين فضل الله في تفسيره بعض الملاحظات والإجابات حول مدى علم النبي في سعته وشموله، وما إذا كان من الضروري أن يملك علم كل شيء، أو أن المسألة تقتصر على ما أراد الله له أن يعلمه في ما يختص بتبليغ رسالته وما تحتاجه من معرفة التفاصيل؟

وأشار إلى رأي البعض القائلين بضرورة إحاطة النبي بعلم كل شيء، بما في ذلك مفردات العلوم الطبيعية، والقضايا الجزئية، لأن النبي يمثل الشخص الذي يجب على

١. سورة إبراهيم: ١٦.

٢. المرتضى: تنزيه الأنبياء، باب تنزيه موسى عليه السلام.

كل الناس أن يطيعوه ويقتدوا به، فلا بد من أن يكون أعلم الجميع، لأن العقل لا يجوّز إمامة الجاهل للعالم، ولو في الموارد الخاصة.

ثم تطرق للرأي الآخر القائل بأن العقل لا يفرض -في مسألة القيادة والإمامة والطاعة- إلا أن يكون الشخص الذي يتحمل هذه المسؤوليات محيطاً بالجوانب المتصلة بمسؤولياته، في ما لا يحيط به الناس إلا من خلاله، أما الجوانب الأخرى من جزئيات حياتهم العامة، أو من مفردات علوم الحياة والإنسان، أو من خفايا الأمور البعيدة عن عالم المسؤولية، أما هذه الجوانب، فلا دليل على ضرورة إحاطته بها، ولا يمنع العقل أن يكون لشخص حق الطاعة في بعض الأمور التي يحيط بها، على الناس الذين يملكون إحاطة في أشياء أخرى لا يحيط بها ولا تتعلق بحركة المسؤولية.

ثم احتمل إمكانية الاستشهاد بقصة النبي موسى والعبد العالم كدليل على صحة هذا الرأي الذي يميل إليه، كما يميل إليه بعض متقدّمي العلماء، لأنه يلتقي بالجوّ القرآني الذي يتحدث عن الأنبياء بطريقة معينة بعيدة عما اعتاده الناس في نظرهم إليهم من خلال الأسرار الخفية والكمال القريب من المطلق^(١).

• خلاصة نتائج ميثولوجيا الخضر:

بعد هذا الاستعراض لشرح الآيات وما يتعلّق بها من أمور غامضة والتي حاولت النصوص وسعى المفسّرون إلى تأويلها وتطبيقها، بيّنت في الفصول اللاحقة من كتابي (ميثولوجيا الخضر) مدى انطباق كون العبد العالم في القصة هو من يُطلق عليه اسم الخضر، لاسيما بلحاظ أخذ أكثر المفسّرين وعلماء الإسلام ذلك مأخذ التسليم، ثم يتلوه بحث حول صورة الخضر وحقيقته وتاريخه في التراث الديني والشعبي، بل وحتى

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٤، ص ٣٦٤.

مستقبله وفق بعض النصوص، والتداخل الحاصل بين عدّة شخصيات في المحكي عن شخصيته وتاريخه وسيرته ومستقبله، والمقام -في هذا الكتاب- لا يسمح بتفصيل القول في ذلك، ويمكن للقارئ العزيز مراجعة المصدر المشار إليه، ولكن نوجز تلك الأمور في النقاط التالية:

١. العبد الصالح الذي تحدّث عنه الآيات «٦٠ - ٨٢» من سورة الكهف هي شخصية حقيقية عاشت في زمن النبي موسى «عليه السلام» والأصل في عمر الإنسان أن لا يتجاوز متوسط العمر الطبيعي، وأما ما كان على خلاف ذلك فبحاجة إلى دليل قوي.

٢. الخضر شخصية حقيقية عاشت في زمن الفترة بين عهدي النبي عيسى ابن مريم والنبي محمد بن عبدالله، ومات مقتولاً وهو المعروف لدي المسيحيين باسم القديس مار جرجس «سانت جورج»، والذي تمّت أسطرته من خلال قصة إنقاذه لإحدى الأميرات من التنين [انظر اللوحات ٥٤-٦٣].

٣. في العهد الإسلامي تمّ دمج الشخصيتين السابقتين -العالم الذي التقى بالنبي موسى والقديس مار جرجس- في شخصية واحدة وقُدّمت باسم الخضر، ونُسب إليه طول العمر ولقاءات مدّعاة بالنبي وآله وأقطاب تصوّف وشخصيات أخرى، علاوة على دور مساند -في آخر الزمان- يقوم من خلاله بإعانة الإمام المهدي المنتظر «عليه السلام» لإقامة دولته. بالإضافة إلى الكثير من الأساطير الموروثة عن الثقافات والديانات الهندية والعربية واليونانية والفارسية، فتضخّمت صورته وأحاطت به هالة من القدسيّة الفريدة.

٤. كما تداخلت شخصية الخضر أحياناً بالنبي إيليا الذي يحظى بمكانة مميزة لدى



اللوحة رقم ٥٤ : قبر الشهيد القديس مار جرجس (الخضر) - اللد - فلسطين



اللوحة رقم ٥٥ : دير مار جرجس في القلط - بين القدس وأريحا - فلسطين



اللوحة رقم ٥٦ : مقام لمار جرجس (الخضر) في صافيتا - سورية



اللوحة رقم ٥٧ : دير مار جرجس في محافظة حمص - سورية



اللوحة رقم ٥٨ : كنيسة مار جرجس (الخضر) في البترون - لبنان



اللوحة رقم ٥٩ : كنيسة القديس الشهيد مار جرجس - مصر القديمة



اللوحة رقم ٦٠ : كنيسة القديس جرجس (الخضر) - أثيوبيا



اللوحة رقم ٦١ : منظر علوي لكنيسة القديس جرجس - أثيوبيا



اللوحة رقم ٦٢ : لوحة فنية تمثل القديس جورج (الخضر)

وهو يقتل التنين لإنقاذ الأميرة



اللوحة رقم ٦٣ : تمثال القديس جورج (الخضر) وهو يقتل التنين - بريطانيا

اليهود والنصارى، ويؤمنون ببقائه على قيد الحياة إلى هذا اليوم، وأنه صعد في عربة نارية إلى السماء. ولذا نجد بعض المقامات المنسوبة للخضر ومار جرجس وإيليا النبي في نفس الوقت، كما يتم التعبير عن الخضر أحياناً بإيليا النبي [انظر اللوحات ٦٤-٦٦]، بينما يتم التمييز بينهما في بعض المرويات الإسلامية، وإن اشتركا معاً في الخلود وتصادقا بمرور الزمان [انظر اللوحة ٦٧].

٥. من الصعب تقديم صورة دقيقة وأكيدة عن المسار التاريخي لبدء وكيفية طرء هذه المتغيرات ضمن التراث الإسلامي، ولكن ربما يكون السيناريو التالي متناغماً مع مجموعة من الشواهد التي عرضناها خلال الفصول السابقة من الكتاب:

عرف العرب -في العهد القريب من عصر البعثة- أساطير العديد من الشعوب



اللوحة رقم ٦٤ : صعود النبي إيليا في عربة نارية، والنبي إيشع يناديه متوسلاً



اللوحة رقم ٦٥ : كهف إيليا من الأماكن المقدسة لدى اليهود - فلسطين



اللوحة رقم ٦٦ : رسم يعود إلى القرن الثالث عشر -روسيا -
صعود النبي إيليا إلى السماء في عربة، والنبي إيلشع في الأسفل



اللوحة رقم ٦٧ : الخضر والنبي إلياس عند نبع الحياة حيث يجدهما الإسكندر

«الإسكندر نامه» من الفن الفارسي - القرن الخامس عشر - شيراز

والثقافات والديانات الشرقية والغربية، وكانوا يتشوّقون -بل ويدفعون من أموالهم- لسماع حكايا القصّاصين الذين كانوا يمتنون ذلك كسباً للرزق، ويدورون بين المدن والقرى العربية لهذا الغرض. كما مثل بعض أهل الكتاب -ولاسيما الأخبار والرهبان- الرافد الثاني للقصص الممتزجة بالعديد من الأساطير والخرافات نتيجة التحريف الذي أصاب كتبهم المقدّسة، سواء على مستوى النص أو التفسير أو الكتب الأخرى التي دوّنها كبار أخبارهم ورهبانهم كنصوص مساندة أو شارحة ومفسّرة للكتب المقدسة.

ومع بعثة النبي «صلى الله عليه وآله»، قدّم القرآن الكريم قصصاً واقعية لأنبياء وأمم وشخصيات اشتركت أحياناً مع ما كان يسمعه العرب الجاهليون من قبل، وافترقت في موارد أخرى، وصحّحت الأخطاء ورفعت الأوهام، وأكّدت على أنها تمثّل الحقيقة القادمة من عند الله «عز وجل» فهو علاّم الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية وبذا هجر العربي المسلم القصّاصين، ووجد مصدراً موثقاً به بديلاً عن مصادر أهل الكتاب، ولكن لفترة وجيزة، حيث سرعان ما تبدّل الأمر بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعاد القصّاصون ومن أسلم من أخبار ورهبان أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليمارسوا دورهم السابق، وبغطاء رسي في بعض الأحيان، الأمر الذي فتح المجال لهؤلاء للاستفادة من القصص القرآنية كمنطلق لتقديم مادتهم الحكواتية المستغرقة في الخيال، والمتلاعببة في تقديم التفاصيل، من حيث التحديد الزمني والمكاني وتسمية الشخصيات ورسم معالمها وغير ذلك من أمور تشويقية ومُعنونة باسم «القصة القرآنية» ومدعومة ببعض الآيات، بل وبإدعاء صدور هذا النص التفصيلي عن النبي أو الصحابي أو الإمام، لإيهام الناس بصحة محتواها وكسب ثقتهم.

وكان من بين تلك القصص المثيرة وذات الأبعاد الغيبية والخارقة: قصة النبي موسى «عليه السلام» والعبد العالم الذي لم يُسمَّه القرآن الكريم ولا تحدّث عن التحديد الزمني - بالنسبة إلى المراحل التي مرّ بها النبي موسى في حياته - ولا التحديد المكاني الخاص بأحداثها. وأمامنا عند هذه النقطة احتمالان:

الأول: أن تكون محيَّلة مسلمة أهل الكتاب قد انطلقت باستغلال اسم «الخضر» الذي مثّل صياغةً معرّبة لاسم «جرجس» الذي عرفه المسيحيون من قبل كشخصية مقدسة، لتقديمه اسماً لشخصية العبد الصالح في القصة القرآنية.

الثاني: قيام القصاصين باستغلال شخصية «الرجل الأخضر» الباحث عن الخلود وصاحب العمر الطويل ضمن الأساطير الشرقية القديمة، ومن بينها ما جاء في التراث السومري في بلاد ما بين النهرين، والذي امتلك قدرات خارقة بل وتحوّل إلى إله - بحسب بعض الأساطير والأدبيات - وارتباط ذلك بأسطورة الإلهة (نانشه/ نانسي) التي تُمثّل في صورة سمكة، وهي تعينه في الإبحار بحثاً عن نبتة الخلود [انظر اللوحة ٦٨]، وتداخل ذلك مع الأسطورة السومرية الخاصة بجلجامش، ليكون مجموع ذلك سبباً لتسمية صاحب النبي موسى بالخضر أو الرجل الأخضر الذي لم يمت حتى اليوم، وهذه هي دلالة اللون الأخضر، حيث لون الحياة، مع كل ما يمتاز به ذلك الرجل الغريب صاحب العلم الغيبي والعلاقة الخاصة برب العالمين.

وعلى كل حال، سواء استقرّبنا الاحتمال الأول أو الثاني، فقد أُفجِم هذا الاسم ضمن التراث الإسلامي، وأُحييت الشخصية بالعديد من الأساطير، ثم استساغ القصاصون والوُضّاعون الكيفية التي قدّمت بها هذه الشخصية للناس وتفاعلهم معها، فراكمو عليها الكثير من الأساطير والحكايات التي نسجوها من وحي خيالاتهم حول الخضر



اللوحة رقم ٦٨ : الخضر ونبع الخلود وفق التصور الفني في العهد الإسلامي
وفي الإطار رمز الإلهة (نانشه/نانشي) كما صوّرها السومريون

وتاريخه في الأمم السالفة وفي عهد النبي وما بعده من العهد القريب، بل وفي المستقبل البعيد المرتبط بنهاية العالم وآخر الزمان.

وبدأت تلك القصص -التي أخذت مسمى أحاديث- تغزو المصنّفات عبر القرون من خلال بعض النفعيين والغلاة والضعفاء، وعن طريق الكتب والمصنّفات المجهولة المصدر أو المؤلّف، أو تلك التي نسبت إلى مصنّفين معروفين إلا أن نسبة تلك النسخ إليهم لم تثبت، لاسيّما بلحاظ التسامح بشأن النصوص ذات الطابع التاريخي والتي لا علاقة لها بالتشريع أو الجانب العقدي.

وبدخول التصوّف على الخط، دخلت موروثاتهم القصصية التي جاءوا بها من الهند وبلاد فارس واليونان وغيرها، لتشكّل رافداً آخر لتضخيم صورة هذه الشخصية وإضفاء الكثير من الطابع الأسطوري عليها من خلال التفاصيل تارة، ومن خلال القصص الخيالية تارة ثانية، ومن خلال ادعاء الرؤى والمنامات واللقاءات الخاصة المنعقدة مع هذه الشخصية التي تُعتبر عندهم من أهم أولياء التصوف، لاسيّما بلحاظ طول عمره المدّعى، وعلمه الخاص الذي يفيض به على من يشاء.

كما عمل المتصوّفة على تأكيد وزيادة حالة التداخل في الشخصية الأسطورية للرجل الأخضر، مع شخصية النبي إيليا وقصته الغريبة في سفره مع يوشع النبي كما هي مروية عند اليهود، ثم النهاية الغريبة للقصّة والتي أخذت عنوان البقاء على قيد الحياة إلى آخر الزمان ثم العودة المرتقبة مع المسيح المخلّص، ثم مع شخصية القديس مار جرجس الذي يشترك مع الرجل الأخضر -الخضر- في العنوان والاسم فقط دون سائر الخصوصيات، لاسيّما بلحاظ سعي المتصوفة أحياناً إلى المزج بين الديانات وأتباعها من خلال ادعاء أن الاعتقاد بالإله عند كل الديانات، السماوية منها والأرضية، هو اعتقاد

واحد، سواء أكان بصورة صنم أم كائن حي أم موجود غيبي أم غير ذلك، ومحاولة تقديم رؤية تصالحية -إن صح التعبير- وإن على حساب بعض المبادئ والأسس الإيمانية، بل وإن أدى ذلك إلى تقديم دين جديد كما هو الأمر بالنسبة إلى دين اليزيدية.

وهكذا أضحت الصورة النهائية لكل هذا التداخل هي وحدة شخصية الرجل الأخضر «الخضر» وعنوانه، وكذلك تداخل القصص والمزارات والمقامات والتصور العام في ذهنية المسلمين والمسيحيين وحتى اليهود الذين تمازجوا في بيئة واحدة في المنطقة، كما امتدّت في بعض مناطق الشرق - مثل سيريلانكا - لتشارك شخصيته مع شخصية أسطورية أو إله مزعوم عرفه السكان المحليون وارتبطوا به ارتباطاً مقدساً [انظر اللوحات ٦٩ - ٧٦].

وبذا تتكشف لنا حقيقة مهمة تتمثل في حجم التلاعب الموجود في التراث الإسلامي على مستوى الوضع والتحرّيف والإضافة والادعاء على الرواة والمؤلفين والعلماء، واختلاط الحقيقة بالأسطورة بشكل يصعب معه التمييز بينهما.. وتغدو الخرافة من المقدّسات، وعقائد الهندوس ومبادئ البوذية من أصول الإسلام العميقة التي لا يفهمها إلا المقربون! إنّ هذه الحقيقة المرّة التي نبّه إلى خطورتها جملة من العلماء والمحقّقين والمفكرين، السابقين والمعاصرين، تستدعي الإصرار على بذل الجهود التحقيقية الدقيقة للتراث الإسلامي الذي نعتزّ به ونريد أن نخلّصه مما علق به من شوائب.

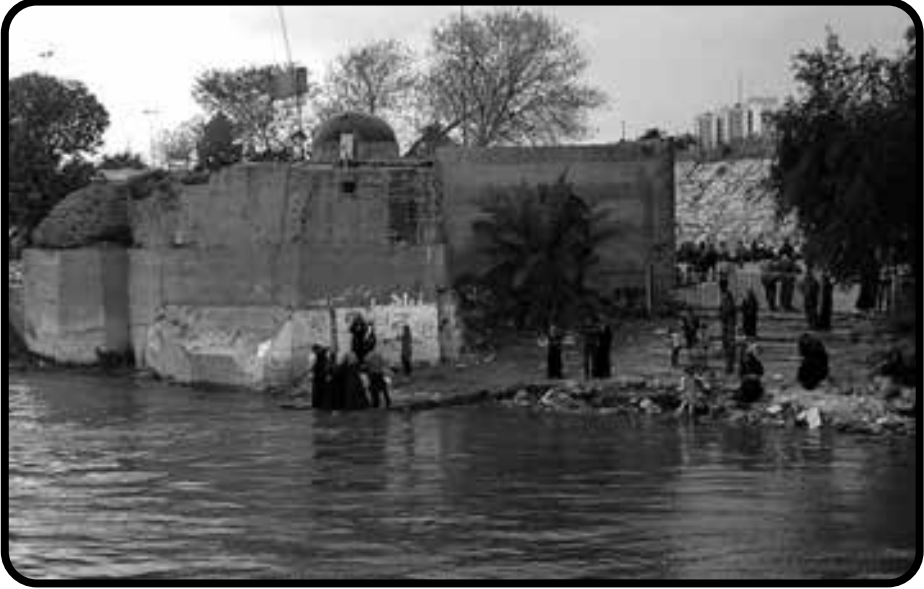
وللأسف، فإنّ أكثر المؤسسات التحقيقية المعاصرة تُعنى بتحقيق مصادر الكتاب ومضمونه والمقارنة بين النسخ والخطوط، ونادراً ما تخطو خطوة أخرى تعتمد فيها على الأسلوب التحليلي العلمي لدراسة الموضوعات المختلّفة التي قد تكشف عن شخصيات أسطورية طالما اعتبرناها ولدت وعاشت وتركت أثراً، وليس ذاك إلا في



اللوحة رقم ٦٩ : صورة لمقام الخضر في فيلكا قبل هدمه - الكويت



اللوحة رقم ٧٠ : صورة أحدث لمقام الخضر في فيلكا قبل هدمه - الكويت



اللوحة رقم ٧١ : مقام خضر إلياس في بغداد حيث تُقدّم النساء النذور للحمل



اللوحة رقم ٧٢ : مقام الخضر في لواء الإسكندرون - تركيا



اللوحة رقم ٧٣ : مقام الخضر في بهكر - الباكستان



اللوحة رقم ٧٤ : مقام الخضر في سمرقند - أوزباكستان



اللوحة رقم ٧٥ : معبد قرية كاتراجاما - سيريلانكا والطاويس حول البوابة



اللوحة رقم ٧٦ : خلف المعبد، مسجد الخضر في قرية كاتراجاما - سيريلانكا

مُخَيَّلَة مُخْتَلَقِيهَا، أَوْ أَحْدَاثٍ وَهْمِيَّةٍ عَاتَبَرْنَاهَا مِنْ صُورِ الْبَطُولَةِ أَوْ الْخِيَانَةِ، وَهِيَ لَيْسَتْ سِوَى حِكَايَةٍ مِنْ حِكَايَاتِ الْقَصَاصِينَ، أَوْ مَنَامٍ مِنْ مَنَامَاتِ الْحَالِمِينَ.

• نَتَائِجُ الْفَصْلِ وَخِلَاصَتُهُ:

○ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ لَمْ تَتَطَرَّقْ لِذِكْرِ طَبِيعَةِ الْعِلْمِ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّبِيُّ مُوسَى مِنَ الْعَبْدِ الْعَالِمِ، وَهَلْ كَانَ مِنْ صَنْفِ الْعِلْمِ «الْإِلْقَائِي» أَمْ اقْتَصَرَ الْأَمْرُ عَلَى الدَّرُوسِ الْمُسْتَوْحَاةِ مِنْ خِلَالِ الْمَوَاقِفِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَاشَاهَا فَقَطْ، وَلَعَلَّ الْغُرْضَ مِنَ اللَّقَاءِ يَرْتَكِزُ فِي الْأَسَاسِ عَلَى مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ «تَعَالَى»: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فَمَنْ يَتَّبِعُ السِّيْرَةَ الْقُرْآنِيَّةَ لِلنَّبِيِّ مُوسَى «عَلَيْهِ السَّلَامُ» يَجِدُهُ صَاحِبَ شَخْصِيَّةٍ انْفِعَالِيَّةٍ، يَتَعَجَّلُ رَدُّودَ الْفِعْلِ، وَيَصْدُرُ عَنْهُ -فِي الظُّرُوفِ الضَّاعِطَةِ- مَا كَانَ الْأَوَّلَى وَالْأَجْدَرُ بِهِ أَنْ يَتْرَكَهُ، وَهُوَ مَا لَا يَنْتَاسِبُ وَمَوْقِعُهُ الْقِيَادِي، وَكَيْفِيَّةُ إِدَارَتِهِ لِلْأُمُورِ فِي الْمَرَحَلَةِ الْقَادِمَةِ.

○ وَلَرُبَّمَا مِنْ بَيْنِ الْأَسْبَابِ لِعَرْضِ أَحْدَاثِ الْقِصَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَوْجِيهِ رِسَالَةٍ إِلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَاءَلُونَ عَنْ سَبَبِ عَدَمِ نَزُولِ الْآيَاتِ الْمُبْصِرَةِ الْمَادِيَّةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفَتْرَةِ الْمَكِّيَّةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ التَّحْدِيَّاتِ الْقَائِمَةِ، وَضَغْطِ الْمَشْرِكِينَ بِطَلْبِ مِثْلِ تِلْكَ الْآيَاتِ، فَجَاءَتْ الْقِصَّةُ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ وَرَاءَ الظُّوَاهِرِ أُمُورًا وَمَصَالِحَ قَدْ تَخْفَى عَلَيْكُمْ، وَيَجِبُ الصَّبْرُ وَالتَّحَمُّلُ فِي طَرِيقِ الرِّسَالَةِ، وَتَسْلِيمُ الْأَمْرِ لِلَّهِ، تَوَكُّلاً عَلَيْهِ وَثِقَةً بِحُكْمَتِهِ «سُبْحَانَهُ».

○ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ أَنَّ مُوسَى الْمَذْكُورَ فِي الْقِصَّةِ هُوَ النَّبِيُّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، وَلَيْسَ شَخْصِيَّةً أُخْرَى، وَلَعَلَّ لِبَعْضِ مُسَلِّمَةِ الْيَهُودِ دَوْرٌ فِي مُحَاوَلَةِ تَحْرِيفِ الْحَقِيقَةِ لِشُعُورِهِمْ بِأَنَّ الْقِصَّةَ تُسَيِّئُ إِلَى شَخْصِهِ.

○ لم يوضح القرآن الكريم حقيقة شخصية العبد العالم الذي رافقه النبي موسى في رحلته، وهناك شبه إجماع على تسميته الخضر، ولي رأي مخالف لذلك وفقاً للبحث الروائي، ولما وراء هذه التسمية وكيف تغلغت الفكرة إلى التراث الإسلامي وصارت من المسلمات، فلروايات القصاصين ومسلمة أهل الكتاب والصوفية تأثير كبير على فهم هذه القصة وتحديد الشخصيات والزمان والمكان، وعلى عموم الموروث الإسلامي في الأبواب المختلفة. وقد تداخلت عدة شخصيات حقيقية وأسطورية في شخصية الخضر وفق ما توصلتُ إليه في بحثي هذا.

٨

الخروج

الخروج

• موضوعات هذا الفصل:

- عرض لوصية النبي يوسف بإخراج جثمانه من مصر إلى أرض كنعان، وكيفية تنفيذ ذلك من قبل النبي موسى.
- منطقياً، تاريخياً، حسابياً، وعلى مستوى النص، هل يصح ما جاء في التوراة من أن عدد من خرج مع النبي موسى من الرجال قد تجاوزوا الستمائة ألف؟
- محطات الخروج بحسب وصف التوراة.
- مقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم وفي التوراة حول مشهد انفلاق البحر وغرق فرعون وجنوده.
- عرض ونقد لمجموعة من الأساطير التي غزت كتب التفسير والحديث والتاريخ حول انفلاق البحر، من قبيل روايات دور فرس جبريل في إغواء خيول فرعون وجنوده والتسبب في غرقهم، وروايات امتناع البحر عن الانفلاق، وغير ذلك.

○ النظريات المطروحة حول مسار الخروج، ومحاولة تحديد المسطح المائي الذي انفلق، وغرق فيه فرعون وجنوده.

○ مناقشة ادعاء قبول توبة فرعون قبل موته.

• مدخل لأحداث ووقائع الخروج:

انتقلت التوراة بعد عرض الوصايا والتشريعات التي تناولناها في الفصل السابق للحديث عن الوقائع المتعلقة بالخروج (الهجرة)، سواء فيما يخص بني إسرائيل أو فرعون وجنوده، وبيّنت أنّ كلّ ما أخبر به موسى «عليه السلام» من قَبْل وقوع، بدءً من منتصف ليلة الخروج حين مات كلّ بكر من غير بني إسرائيل، وارتفع صراخ الناس كما أنّ التوراة قدّمت بعض ملامح مسار الخروج والهجرة من خلال ذكر أسماء بعض المواقع الجغرافية التي مرّ بها بنو إسرائيل بمعونة النبي موسى «عليه السلام»، وكذلك الطريق الذي تجنّبوا سلوكه لأسباب معيّنة، وهو ما قدّم نوعاً من المساعدة للباحثين في سعيهم لاكتشاف طريق الخروج والهجرة، والبحر/ اليم/ المسطح المائي الذي عبروه وغرق فيه فرعون وجنوده، علاوة على تحديد موضع العبور إلى الضفة الشرقية من ذلك المسطح المائي.

ولكن على الرغم من ذلك، فإنّ هذه المساعدة ليست تامّة لعدة أسباب سنتوقف عندها لاحقاً بشيء من التفصيل، ومن بينها اختفاء تلك المواضع من الخارطة الحديثة، وتبدّل أسماء بعض المواقع، وانحسار مياه البحر الأبيض المتوسط، واختفاء بعض المسطحات المائية في الدلتا شمال مصر، وغير ذلك من العوامل الجيولوجية والتاريخية والجغرافية.

ومن هنا وقع الاختلاف بين أولئك الباحثين، وسعى كلٌّ منهم إلى تقديم نظريته وأدلته من الكتاب المقدس، وكتب التاريخ، والخرائط، والآثار، والمعلومات الجيولوجية، وغير ذلك. وسأبين في خواتيم هذا الفصل مجموعة من تلك النظريات، وسأتوقف عند نظريتين منهما -على وجه التحديد- لجدارتهما بالاهتمام والتفصيل.

في المقابل، فإنّ القرآن الكريم ساكتٌ عن بيان شيء من التفاصيل الجغرافية لحدث الخروج والهجرة، ولكنه يشتمل على بعض الإشارات التي يمكنها أن تساعد في تكوين عن تصوّر جانب من هذا الحدث.

ففي القرآن الكريم ما يدلّ على أن بداية هجرة موسى وبني إسرائيل كانت ليلاً: الدخان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ... فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّا نَتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِقُونَ ﴿٢٤﴾﴾^(١).

كما وأن حركة فرعون للملاحقة بدأت في الصباح مع إشراقة الشمس: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٦﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٨﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٥٩﴾﴾^(٢).

وفي البين احتمالان:

الاحتمال الأول: الآية تشير إلى أن خروج فرعون وجنوده من المدينة كان مع إشراقة

١. سورة الدخان: ١٧-٢٤.

٢. سورة الشعراء: ٥٢-٥٩.

الصباح، وتحديد المدة التي استغرقوها والمسافة التي قطعوها إلى أن وصلوا إلى حيث يتواجد النبي موسى وبنو إسرائيل يعتمد على تحديد ماهية وموقع المسطح المائي الذي سينفلق لاحقاً بالنظر إلى موقع مدينة بررعسميس التي استقر بنا كونها المدينة التي يستقر فيها فرعون. وعلى هذا الاحتمال الأول، فإن التدقيق في دلالة الآيات يكشف عن أنَّ الملاحقة لم تتم في صبيحة الليلة التي خرج فيها موسى وبنو إسرائيل من المدينة، بل ربما بعد ذلك بيوم أو أكثر، والدليل على ذلك أن فرعون أرسل في المدائن لحشر القوات، وهذا يستغرق وقتاً زمنياً كما لا يخفى، لربما بضعة أيام، وهو ما يتوافق مع السردية التوراتية في تحديد مسار موسى وبنو إسرائيل في الهجرة، حيث اتجهوا جنوباً قرابة ٥٠ كم أو أكثر، ثم شرقاً، ثم شمالاً، وهذه الحركة تمت بمعية النساء والأطفال وغيرهم، ولا شك أن هذه الحركة تكون بطيئة نحو ما مقارنة بحركة العسكريين، خاصة مع وصف التوراة بأن الجنود خرجوا بمركباتهم.

الاحتمال الثاني: الآية تشير إلى أن بدء حركة فرعون وجنوده لملاحقة موسى وبنو إسرائيل عند المسطح المائي كانت مع إشراقة الصباح، أي أن القوات وصلت بالقرب من ذلك المسطح المائي ليلاً، وانتظرت إلى أن أشرقت الشمس، ومن ثم بدأت في محاولة العبور إلى الضفة الأخرى، ولكنها غرقت. وقد جاء في ضمن الوصف التوراتي للحدث ما يتوافق مع هذا الاحتمال كما سيأتي معنا لاحقاً.

• جثمان النبي يوسف:

وتذكر التوراة أن النبي موسى اصطحب معه عظام النبي يوسف، وذلك تطبيقاً لوصية الأخير التي أوصى بها حال خروج بنو إسرائيل من مصر، وتركهم هذه الديار في المستقبل، وهو ما تحقق في ذلك الظرف: (٢٤) وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: «أَنَا أَمُوتُ، وَلَكِنَّ

اللَّهُ سَيَفْتَقِدُكُمْ وَيُضْعِدُكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ». ٢٥ وَاسْتَحْلَفَ يُوسُفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: «اللَّهُ سَيَفْتَقِدُكُمْ فَتُضْعِدُونَ عِظَامِي مِنْ هُنَا». ٢٦ ثُمَّ مَاتَ يُوسُفُ وَهُوَ ابْنُ مِئَةٍ وَعَشْرِ سِنِينَ، فَحَنَطُوهُ وَوَضَعَهُ فِي تَابُوتٍ فِي مِصْرَ^(١)، والاحتفاظ بجثمان يوسف «عليه السلام» في تابوت بعد تحنيطه متوافق مع ما هو دارج في ثقافة أهل مصر، ولا سيما الشخصيات المبرزة منهم، وفي الصفحة التالية لوحتان تشملان على نموذجين من التوابيت، والأول من العصر الذي سبق عصر النبي يوسف، وهو عصر الدولة الوسطى [انظر اللوحتين ٧٧-٧٨].

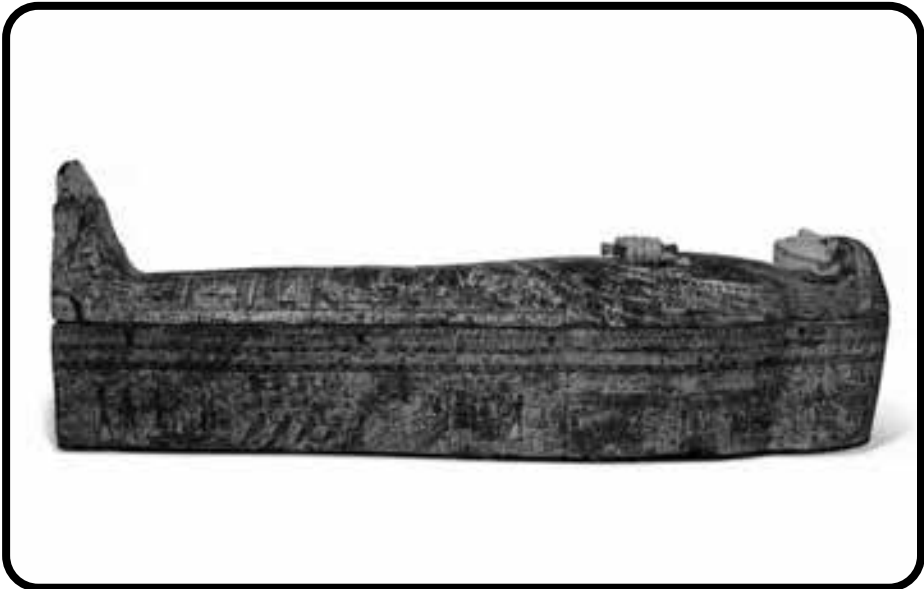
ويتميّز عصر الدولة الوسطى السابق لعصر الانتقال الثاني (وهو العصر الذي عاش فيه النبي يوسف) بانتشار التوابيت الخشبية المزينة بالعديد من الرسومات الهندسية والنقوش الهيروغليفية التي تنقل ما يُعرف بنصوص الأهرامات، أو نصوص التوابيت. وفي الأسرة الحادية عشرة ضمن الدولة الوسطى، ظهرت النواويس^(٢) المصنوعة من ألواح الحجر الجيري ناصع البياض المحفور عليها مناظر للحياة اليومية. وذلك مثل ناووس الملكة (عاشيت) الزوجة (الثانوية) للملك (منتوحتب الثاني) من عهد الأسرة الحادية عشرة [انظر اللوحة ٧٩]. وفي نهايات عصر الانتقال الثاني حيث عاش النبي يوسف في قسم منه، ظهرت أيضاً التوابيت التي تأخذ الشكل الآدمي، والتي تكون مزخرفة بالعديد من الرسومات مع التركيز على إظهار الوجه واليدين والمجوهرات وتصنيف الشعر. ومن أبرز نماذجها تابوت الملك كاموس/كامس، الفرعون الأخير من أسرة طيبة السابعة عشر، منتصف القرن ١٦ ق.م [انظر اللوحة ٨٠].

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٥٠، ٢٤-٢٦.

٢. الناووس عبارة عن تابوت حجري.



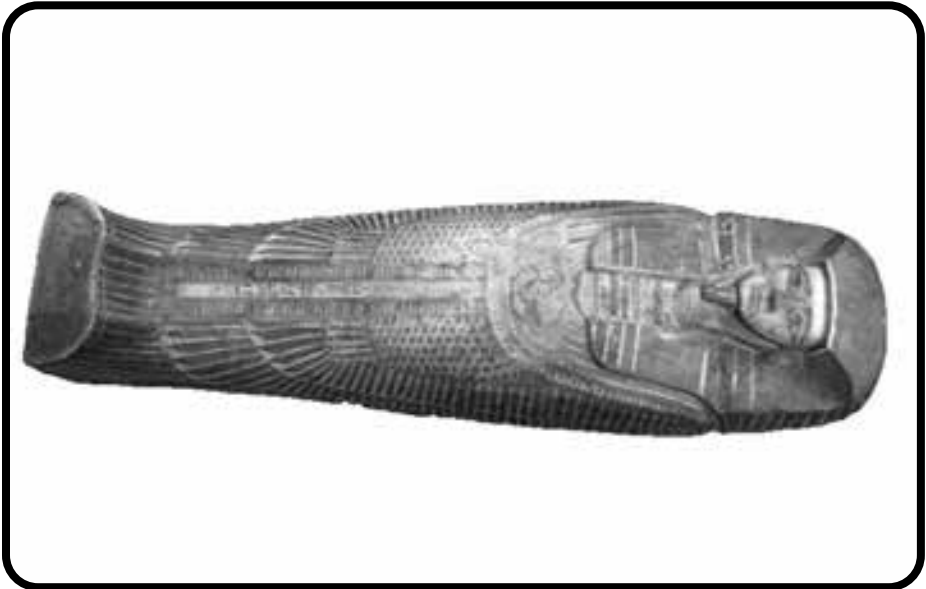
اللوحة رقم ٧٧ : نموذج من توايت عصر الدولة الوسطى - تابوت خنومنخت



اللوحة رقم ٧٨ : نموذج آخر من التوايت المعروفة في مصر في عصور مختلفة



اللوحة رقم ٧٩ : ناووس الملكة (عاشيت) حجري - الأسرة ١١



اللوحة رقم ٨٠ : تابوت بالشكل الآدمي

من هنا، لا نستطيع أن نعيّن -بالدقة- طبيعة وشكل التابوت الذي صُنع للنبي يوسف «عليه السلام»، ولكن من المستبعد أن يكون من النواويس الحجرية لصعوبة نقلها. وعلى أي حال، تتحدث التوراة عن قيام موسى «عليه السلام» بتنفيذ وصية يوسف «عليه السلام» بنقل رفاتة إلى أرض فلسطين ليدفن فيها، وهي مدفن آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب «عليهم السلام»: (١٩) وَأَخَذَ مُوسَى عِظَامَ يُوسُفَ مَعَهُ، لَأَنَّهُ كَانَ قَدِ اسْتَحْلَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَحْلِفُ قَائِلًا: «إِنَّ اللَّهَ سَيَقْتَدُكُمْ فَتَضَعُدُونَ عِظَائِي مِنْ هُنَا مَعَكُمْ»^(١).

حالياً، في شرقيّ مدينة نابلس (بالعبرية: شكيم/شخيم) في الضفة الغربية، يوجد ما يُعرف بعنوان (قبر يوسف) على بعد ١٠٠ متر من البوابة التاريخية للمدينة القديمة. ويعتقد بعض علماء الآثار أن عمر هذا القبر لا يتجاوز بضعة قرون، وأنه مقام لشيخ مسلم اسمه يوسف الدويكات توفي خلال عصر الدولة العثمانية. ويصرّ اليهود في المقابل أنّ ما جاء في وصف موقع قبر يوسف «عليه السلام» في شرح سفر التكوين، يتوافق مع الموقع الحالي لهذا القبر [انظر اللوحات ٨١-٨٥].

إذ ينصّ (سفر التكوين رابا) المدوّن ما بين ٣٠٠-٥٠٠ م، أن موقع الدفن في شكيم (نابلس) وبأمر سابق من يوسف، حيث أن هذا المكان كان مسقط رأسه، ومنه بيع كعبد أيام صباه. ولكن في بعض المصادر اليهودية الأخرى أنه مدفون في صفد، كما أنه وفقاً للنص (الهاجادي) المتألف من قصص وأساطير ومواعظ وتراث حاخامي، فقد تم دفنه في الخليل. فهذه ثلاثة مواقع تذكرها المصادر اليهودية [انظر اللوحة ٨٦].

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ١٩.



اللوحة رقم ٨١ : موقع المرقد المنسوب للنبي يوسف من بوابة مدينة نابلس



اللوحة رقم ٨٢ : صورة قديمة للمرقد المنسوب للنبي يوسف بالقرب من نابلس



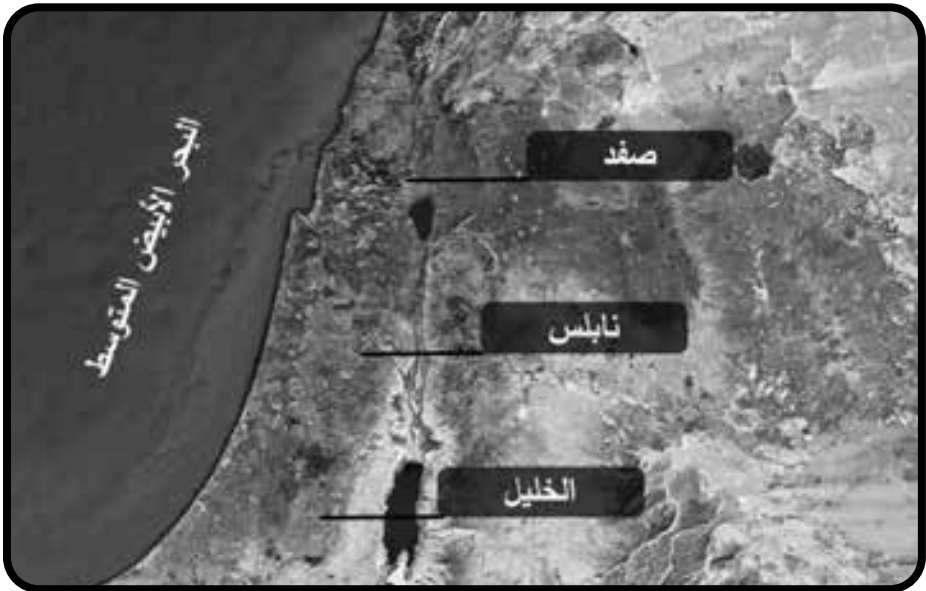
اللوحة رقم ٨٣ : صورة حديثة للمرقد المنسوب للنبي يوسف - نابلس



اللوحة رقم ٨٤ : زيارة مرقد النبي يوسف من قبل اليهود - نابلس



اللوحة رقم ٨٥ : صورة للقبر المنسوب للنبي يوسف - نابلس



اللوحة رقم ٨٦ : المدن الثلاث التي اختلف في كونها موضع دفن النبي يوسف

• عدد بني إسرائيل:

عند وصف النصّ التوراتي لطريق الهجرة من مصر، تعرّض لبيان عدد من خرج مع النبي موسى، وجاء النصّ كالتالي: (٣٧ ... نَحْو سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الْأَوْلَادِ. ٣٨ وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضًا مَعَ غَنَمٍ وَبَقَرٍ، مَوَاشٍ وَافِرَةٌ جَدًّا)^(١).

وفق السردية التوراتية، من الصعب قبول هذا الرقم، فقد دخل بنو إسرائيل أرض مصر في ضيافة النبي يوسف وعددهم سبعون نفساً: ٥. وَكَانَتْ جَمِيعُ نَفُوسِ الْخَارِجِينَ مِنْ صُلْبِ يَعْقُوبَ سَبْعِينَ نَفْسًا. وَلَكِنْ يُوسُفُ كَانَ فِي مِصْرَ^(٢). وقد بيّنا في الجزء الأول من الكتاب أن جدّ موسى -بحسب التوراة- هو لاوي بن يعقوب، ثم ابنه قهات، ثم عيرام (عمران)، ثم موسى. أي بين موسى وأبناء يعقوب أب (عيرام) وجدّ واحد فقط (قهاث). فنحن نتكلم عن أربعة أجيال فحسب (أي جيل النبي موسى ووالده وجده ثم لاوي) كان عدد بني إسرائيل في الجيل الأول ٧١ فرداً، ونضيف إليهم عدة زوجات، ثم صار عدد الرجال منهم بعد ثلاثة أجيال فقط ٦٠٠ ألف! وإذا أضفنا إليهم النساء والأطفال، فإن العدد سيقارب المليون على أقل تقدير! ولنلاحظ أيضاً أن النص التوراتي أعلاه يشير إلى أن رُكِبَ بني إسرائيل عند الخروج من مصر قد التحق به (لفيف كثير)، أي من غير بني إسرائيل، وهو ما يزيد من العدد الإجمالي للمهاجرين. ولنحاول تحليل مقولة أن عدد بني إسرائيل قد تضاعف خلال هذه الأجيال المحدودة بهذا الشكل الكبير، ولنفترض أن العدد في سنة صفر (أي سنة دخول الجيل الأول أرض مصر) هو مائة فرد، فإذا به بعد ثلاثة أجيال قد أصبح مليون نسمة.

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٣٧-٣٨.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١، ٥.

معادلة النمو السكاني كالتالي^(١): $Gr = N / t$ ، أي أن معدل النمو يساوي ناتج تقسيم الفارق بين العدد الحالي للسكان وعددهم السابق، ويُقسَّم ذلك على المدة الزمنية. وفي فرضنا السابق تكون النتيجة كالتالي: (١٠٠٠٠٠٠ فرد - ١٠٠ فرد) ÷ ١٠٠ سنة = ٩٩٩٩، وهذا الرقم خيالي حتماً.

ويمكن أن نكوّن تصوراتنا حول النمو السكاني في ذلك الزمان من خلال البيان التالي: تم تقدير عدد سكان الكرة الأرضية في سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، من قبل الموقع المختص بالنمو السكاني: www.worldometers.info بما مجموعه ٢٧ مليون نسمة، وبعد ألف سنة، أي سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بلغ المجموع التقديري لمجموع سكان الكرة الأرضية ٥٠ مليون نسمة، أي أقل من الضعف. وبعد ذلك بخمسمائة سنة بلغ المجموع التقديري ١٠٠ مليون نسمة، أي الضعف^(٢)، فكم صار عدد بني إسرائيل (ومن دخل معهم مصر ومجموعهم قرابة المائة) بعد ثلاثة أجيال فقط؟ المفروض أن لا يتجاوز عددهم بضع مئات.

نعم، في الجزء الأول من كتابي هذا، ذكرت أن في البين احتمال وجود خلل في عدد الأجيال، وأن التوراة اختصرت نسب النبي موسى، ولم تذكر بعض أجداده، فبحسب النص التوراتي، فإنَّ الفارق الزمني بين دخول بني إسرائيل لمصر وخروجهم منها ٤٣٠ سنة: (٤٠) وَأَمَّا إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ فَكَانَتْ أَرْبَعَ مِئَّةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً.

1. <https://study.com/academy/lesson/population-growth-rate-definition-formula-examples.html#:~:text=What%20is%20the%20formula%20for,is%20the%20period%20of%20time>.

2. <https://www.worldometers.info/world-population/world-population-by-year/>

٤١ وَكَانَ عِنْدَ نِهَآيَةِ أَرْبَعِ مِئَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ، أَنَّ جَمِيعَ أَجْنَادِ الرَّبِّ خَرَجَتْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ^(١).

ولكن حتى على هذا الفرض، فإن العدد لا يمكن أن يتضاعف إلى الرقم المذكور في التوراة، أي ما يقارب المائة شخص في المجموع إلى ما يتجاوز المليون نسمة في غضون ٤٣٠ سنة، لاسيما بلحاظ الظروف الصعبة التي عاشوها في فترة من وجودهم في مصر، قتلاً للأطفال الذكور، وتسخييراً للأحياء منهم في أشد الظروف.

وأقصى ما يمكن ادعاؤه هنا أنّ عدد بني إسرائيل كان كبيراً مقارنةً بسكان المدينة (العاصمة) التي كان يستقرّ فيها فرعون، وأنّ عددهم تجاوز عدد أصحاب الأرض، لا في كل مصر بحدودها الممتدة، وأنّ تنامي أعدادهم هدد الأمن الداخلي بنظر فرعون والمصريين، وهو ما شكّل مبرراً كافياً لفرعون كي يُصدر أمره باستضعافهم وتسخيرهم، والسعي لتقليل نسلهم، خوفاً من تحالفهم وانضمامهم إلى أعداء (الدولة) في أية حرب مستقبلية، وعودة مصر من جديد للوقوع تحت نير الاحتلال: (١٠). هَلُمَّ نَحْتَالْ لَهُمْ لِيَلَّا يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنْ الْأَرْضِ^(٢).

ويشير الكاتب أحمد سعد الدين إلى أمر اعتبره السبب وراء تضخيم عدد المهاجرين مع النبي موسى، حيث افترض أن ذلك جاء بغرض الإشارة إلى (حقوقهم المزعومة والكاذبة والتي يتبجح بها اليهود في العصر الحديث... لإشعار الناس بأنهم كانوا يمثلون جزء كبيراً من سكان مصر في ذلك الوقت، وبالتالي يبررون أحقيتهم في تواجدهم على

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٤٠-٤١.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١، ١٠.

أرض مصر أو على جزء منها... كما أطلوا الفترة التي مكثها بنو إسرائيل في مصر فجعلوها أكبر من فترة إقامتهم الحقيقية التي تُعدّ فترة قصيرة جداً في عمر الزمان، وبالطبع فإن هدفهم من ذلك إشعار قارئ التوراة بأنهم ظلوا فترة طويلة من الزمان ماكثين في تلك الأرض، ومثّلوا جزءاً أساسياً من التركيبة البشرية التي عاشت على تلك الأرض، وهو الأمر الذي نستطيع نفهه بمنتهى اليسر والسهولة إذا علمنا أن فترة إقامتهم المؤقتة لم تبلغ القرنين من الزمان، بل أقل من ذلك بكل تأكيد^(١).

بالطبع، يأتي كلامه هذا توافقاً مع ما طرحه من أن فرعون المعاصر لموسى «عليه السلام» كان من الهكسوس، ولم يكن من المصريين القدماء، وعصر الهكسوس الذين هاجر فيه بنو إسرائيل من أرض كنعان إلى مصر لم يتجاوز ٢٠٠ سنة على أفضل تقدير. ورأيه هذا لا يتوافق مع البحث الذي قدّمته في الموسم السابق لتحديد هوية فرعون موسى «عليه السلام» والذي استقرت فيه كونه رمسيس الثاني الذي عاش بعد عصر النبي يوسف «عليه السلام» بأكثر من ثلاثة قرون، بما يجعل الرقم المذكور في التوراة محتماً، وإن واجه إشكالية أن سلسلة النسب بين موسى ويعقوب (إسرائيل) والواردة في التوراة ستكون قصيرة جداً بالنسبة إلى طول المدة الفاصلة بين العصرين، ولذا احتملت سقوط أسماء من أجداد موسى عن الذكر في التوراة، وإلا فإن ما ذكره الكاتب سعد الدين سيكون أقرب للقبول بلحاظ عدد الأجيال الفاصلة بينهما، والله أعلم.

وأما القرآن الكريم فقد ذكر على لسان فرعون أن بني إسرائيل المهاجرين من أرض مصر بمعية موسى «عليه السلام» والذين قرّر ملاحقتهم (شرذمة قليلون): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿فَإَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾

١. سعد الدين: فرعون ذو الأوتاد، ص ٥٤٢.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرِّذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥١﴾^(١). قال ابن منظور: (الشَّرِّذِمَةُ: القِطْعَةُ من الشيء، والجمع شَرَاذِمٌ... والشَّرِّذِمَةُ: القليل من الناس، وقيل: الجماعة من الناس القليلة)^(٢).
 فهل تشير الآية الشريفة إلى واقع عددهم بغض النظر عن أي شيء، أم كان نسبة ومقارنة بعدد جنود فرعون؟ وهل كان توصيفاً حقيقياً أم من باب الاستهانة والتحقير؟
 طرح العلامة ابن عاشور الاحتمالات، ويبدو أنه يميل إلى القول بأن عددهم كان بالفعل كبيراً ويصل إلى ٦٠٠ ألف، ولكن هذا العدد مقارنة بعدد جنود فرعون كان قليلاً! قال: (الشردمة: الطائفة القليلة من الناس، هكذا فسرهُ المحققون من أئمة اللغة، فإتباعه بوصف ﴿قَلِيلُونَ﴾ للتأكيد، لدفع احتمال استعمالها في تحقير الشأن، أو بالنسبة إلى جنود فرعون، فقد كان عدد بني إسرائيل الذين خرجوا ستمائة ألف، هكذا قال المفسرون وهو موافق لما في سفر العدد من التوراة في الإصحاح السادس والعشرين. و ﴿قَلِيلُونَ﴾ خبر ثان عن اسم الإشارة، فهو وصف في المعنى لمدلول ﴿هَؤُلَاءِ﴾، وليس وصفاً لشردمة، ولكنه مؤكّد لمعناها، ولهذا جيء به بصيغة جمع السلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة)^(٣).

بالطبع، فإن ما ذكره سفر الخروج هو أن هذا عدد الرجال البالغين فقط دون النساء والأطفال، وهذا أول خطأ وقع فيه ابن عاشور، علاوة على أن أقوال المفسرين ليس بحجة لأنهم لم يعتمدوا على دليل يُرْكَن إليه، وعادةً ما كانوا يأخذون عن مسلمة أهل الكتاب، وأولئك كانوا ينقلون لهم المعلومات عن مصادرهم الكتابية، فالمال واحد في

١. سورة الشعراء: ٥٢-٥٤.

٢. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٧٥.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ١٣٠.

نهاية المطاف. ولذا فالأرجح -عندي- أن القرآن يخطئ بشكل غير مباشر، ما جاء في التوراة الحاضرة من أن عددهم كان بهذه الضخامة التي كما ذكرنا لا تتناسب مع النمو السكاني من مائة نسمة تقريباً إلى هذا الرقم في غضون أربعة قرون على أفضل تقدير.

وانتبه الألوسي في روح المعاني إلى خطأ هذا الرأي، ونقل ما روي عن السدي حول عدد بني إسرائيل وعدد جنود فرعون، وصرح بأن الأرقام مبالغ فيها: (وقد بالغ اللعين في قتلهم حيث ذكرهم أولاً باسم دال على القلة وهو [شرذمة]، ثم وصفهم بالقلة، ثم جمع القليل، للإشارة إلى قلة كل حزب منهم^(١)، وأتى بجمع السلامة -وقد ذكر أنه دال على القلة- واستقلهم بالنسبة إلى جنوده. فقد أخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، أن موسى «عليه السلام» خرج في ستمائة ألف وعشرين ألفاً لا يُعَدّ فيهم ابن عشرين، لصغره، ولا ابن ستين لكبره، وتبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان، وقيل: أرسل فرعون في أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور^(٢)، مع كل ملك ألف، وخرج هو في جمع عظيم، وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل، كل رجل على حصان، وعلى رأسه بيضة، وهم كانوا على ما روي عن ابن عباس ستمائة ألف وسبعين ألفاً، وأنا أقول: إنهم كانوا أقل من عساكر فرعون، ولا أجزم بعدد في كلا الجمعين، والأخبار في ذلك لا تكاد تصح، وفيها مبالغات خارجة عن العادة، والمشهور عند اليهود أن بني إسرائيل كانوا حين خرجوا من مصر ستمائة ألف رجل خلا الأطفال، وهو صريح ما في التوراة التي بأيديهم^(٣)).

١. أي كل سبط من أسباطهم.

٢. ملك مسور: مُمَلَّك، قدير.

٣. الألوسي: روح المعاني، ج ١٩، ص ٨٣.

ثم طرح رأياً آخر حول المراد من «قَلِيلُونَ» وأنها ليست للتأكيد بل لوصفهم بالذلة: (وَجُوزَ أَنْ يَرَادَ بِالْقَلَّةِ الذَّلَّةُ، لَا قَلَّةَ الْعَدَدِ، بَلْ هِيَ) أي قلة العدد (مستفادة من «شَرِذِمَةٌ» يعني أنهم لقلتهم أذلاء لا يبالى بهم، ولا يتوقع غلبتهم)^(١).

• المحطة الأولى، سُكُوت:

ننتقل الآن للحديث عن محطات السفر التي مرَّ أو نزل بها بنو إسرائيل عند هجرتهم وخروجهم من مصر، وأولى هذه المحطات (سُكُوت) סֻכּוֹת، وبالعبدية (سخته/ سكتة סוכה) تعني (مظلات)، وهي -بحسب التوراة- أول موضع نزل فيه بنو إسرائيل بعد خروجهم من المدينة التي كانوا يعيشون فيها: (٣٧ فَارْتَحَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعْمَسِيسَ إِلَى سُكُوتَ...) ^(٢). واختلف الشراح... هل هذه الكلمة للدلالة على القيام بالتظليل عند النزول في منطقة ما من أرض مصر، أم كانت في البين مدينة مصرية بالفعل تحمل هذا الاسم أو ما يقرب منه، من قبيل (تيكوت) و(تكو)؟

بحسب كتاب (الإسماعيلية بوابة مصر الشرقية) فإنه: (قد وردت بالقوائم المصرية مدينة، تحمل اسماً يطابق الاسم التوراتي سكوت، بالصياغة تيكوت وتكو، بحسبانها مدينة لمقاطعة من مقاطعات الوجه البحري، وورد ذكرها في بردية أنستاسي من الأسرة ١٩ «بحسبانها تقع على الحدود، ويسكنها أقوام من الأجانب»)^(٣).

وأشار الكاتب المصري (السيد القمني) إلى أن اسم المدينة بالفعل (سكوت) ويعود

١. الألوسي: روح المعاني، ج ١٩، ص ٨٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٢، ٣٧.

٣. مجموعة مؤرخين: الإسماعيلية بوابة مصر الشرقية، لجنة صياغة التاريخ بالحزب الوطني الديمقراطي بالإسماعيلية، مطبعة الفجر الإسماعيلية، ١٩٦٠م، ص ٩٧.

إلى إله اسمه (سكوت) وأن المدينة كانت تقع في تل المسخوطة، وأنه قد تم العثور على لوحة لبطلميوس الثاني، محفوظة الآن بالمتحف المصري عليها النص التالي: (وفي الشهر الثالث من العام السادس من حكم جلالته) أي حوالي ٢٨٠ ق.م. «حفروا قناة» لإدخال السرور على قلب أبيهم آتوم الإله العظيم، «والإله الحي سكوت»، وبقصد إحضار إلهة مديرية «خنت يابت»^(١).

وفي قاموس الكتاب المقدس أنها كانت على مسافة سفر يوم من بررعسميس^(٢). فإن صح هذا فهي على بعد ٤٠ - ٥٠ كم تقريباً من المدينة [انظر اللوحة ٨٧].

وفي البين رأي أنها كانت تقع ضمن وادي طميلات بالقرب من مدينة الإسماعيلية، وبالقرب منها بحيرة التمساح. وفي الوادي أنقاض للعديد من المستوطنات المصرية القديمة [انظر اللوحين ٨٨-٨٩].

ومن الطبيعي أن التغيرات الجيولوجية والجغرافية ومسميات المناطق وطرق السفر والتنقل تؤثر في تكوين تصوّرات دقيقة وأكيدة في تحديد مواقع المدن والطريق الذي سلكه موسى «عليه السلام» ومعه بنو إسرائيل، وسيؤثر أيضاً على تحديد اليمّ الذي عبره وغرق فيه فرعون، وهل هو لسان للبحر الأحمر (خليج السويس أو خليج العقبة)، أم نفس البحر الأحمر، أم الأبيض المتوسط، أم إحدى تفرّعات نهر النيل التي كانت سبعة في ذلك الزمان، لا اثنتين كما هو الوضع الحالي، أم في بحيرة أو مستنقع ماء كبير جداً من بين المستنقعات الموجودة في المنطقة القريبة من أواريس؟

١. السيد القمني: النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة، ج١، ص ٢٥٨.

2. https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/12_S/S_093_02.html



اللوحة رقم ٨٧ : موقع وادي طميلات وسكوت من مدينة بررعسيس



اللوحة رقم ٨٨ : مواقع بررعسيس ووادي طميلات والإسماعيلية



اللوحة رقم ٨٩ : موقع وادي طميلات من البحيرات المرة وبحيرة التمساح

ولأحمد سعد الدين في كتابه (فرعون ذو الأوتاد) حديث مفصل عن هذه التغيرات إذ يذكر -والعهدة عليه- أن الأبحاث الجيولوجية تدل على أن خليج السويس كان يمتد في العصور القديمة حتى بحيرة التمساح، ثم انحسرت مياهه جنوباً في العصور اللاحقة إلى البحيرات المرة، وأن فرعي النيل (البيلوزي) و(التانيسي) كانا يمرّان بهذه المنطقة، ويخترقان برزخ السويس. يمر الأول بالقرب من محطة (التينة) الحالية عند (بالوطة) الواقعة في شمال سيناء، على بعد ٢٥ كم جنوب مدينة بورسعيد الحالية، والثاني عند النقطة المعروفة بالكيلو ٩، على قناة السويس، وكانا يصبان في البحر الأبيض المتوسط، الأول عند (بيلوز) أو (بالوطة) حالياً، والثاني عند فم (أم فرج)، وكلا المصبين شرقي مدينة بورسعيد [انظر اللوحة ٩٠].

وعندما انحسرت مياه الخليج نحو الجنوب، خلفت وراءها سلسلة من المغايز



اللوحة رقم ٩٠: موقع قناة السويس وميناء بورسعيد وبالوطة وبحيرة التمساح

والمستنقعات والبرك التي كانت تملؤها المياه الضحلة، فصارت (هيروبوليس / سُّكُوت) من دون ميناء على البحر الأحمر، ففقدت بذلك جزءً من صفتها التجارية وأهميتها الملاحية، ولم تحتفظ إلا بأهميتها الاستراتيجية، كجزء من القلاع التي كانت تُكوّن سور مصر الشرقي، وتمتد عبر البرزخ شمالي سيناء إلى غزة.

أما في العصر البطلمي المتأخر، في حدود القرن الأول قبل الميلاد، فقد نشأ ميناء جديد على الرأس الجديد لخليج السويس، يسمى (أرسينوي أن) أو (كليوباتريس) وكان هذا الميناء ناحية السيرابيوم^(١) التي تقع شمال البحيرات المُرّة.

١. السيرابيوم اسم يطلق على كل معبد أو هيكل ديني مخصص لعبادة (سيرابيس)، وهي عبادة ظهرت في مصر في العصر الهيلينستي (بدأ هذا العصر في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد واستمر في الشرق الأوسط لمدة ٣٠٠ سنة)، وهذه العبادة تجمع بين إلهين من آلهة مصر القديمة وهما أوزوريس وأيبس.

ثم استمر انحسار خليج السويس نحو الجنوب، مرة أخرى، وانفصلت البحيرات المرة عن الخليج، فنشأ ميناء البحر الأحمر الجديد، الذي سُمِّي (كليزما) في العصر الروماني، وهو العصر الذي بدأ من أواخر القرن الأول قبل الميلاد إلى الفتوحات الإسلامية، وهو الذي حوّر العرب اسمه إلى (القلزم)، وسمّوا به كذلك البحر الأحمر فقالوا: بحر القلزم. وفي القرن العاشر الميلادي، نشأت ضاحية جديدة جنوبي القلزم عُرفت باسم (السويس)، ما لبث أن ضُمَّت إليها القلزم القديمة، وحلّت محلّها، وأصبحت ميناء مصر على البحر الأحمر.

وبذلك، كان موقع سُكّوت تحدده علاقة اليابسة بالماء، أي نقطة انتهاء الماء من طرف خليج السويس الشمالي ونقطة بدء اليابسة، فعندما كان طرف الخليج عند مدخل وادي طميلات في العصر المصري القديم، كانت سُكّوت هي الشجر والمخزن التجاري، إضافة إلى كونها إحدى قلاع سور مصر الشرقي.

وأضاف سعد الدين أن في البين تشابهاً يُلاحظ بين الاسم (سُكّوت) والاسم الحالي لموقع (تل المسخوطة) في وادي طميلات^(١).

ويرى بعض الباحثين أن (تل المسخوطة) هو الموقع الثاني الذي وصله موسى ومعه بنو إسرائيل بعد سُكّوت، وأن الاسم القديم للموقع هو (إيثام/بيتوم/فيثوم)، وستحدث عنه لاحقاً. فإن صحّ ذلك، فلا بد أن سُكّوت تقع إلى الغرب منها بكيلومترات قليلة، حيث لم يستدع الوصول إليها بعد سُكّوت سفر يوم على الأقدام.

وقد يكون هذا الرأي أصح بلحاظ أن التعبير الوارد في التوراة عن (إيثام) أنها

١. سعد الدين: فرعون ذو الأوتاد، ص ٥٨٩-٦٠٥.

على طرف البرية: (٢٠) وَارْتَحَلُوا مِنْ سَكُوتَ وَنَزَلُوا فِي إِيْثَامَ فِي طَرْفِ الْبَرِّيَّةِ^(١)، فما سبقها برية وليس ميناء. وعلى العموم، فإن تل المسخوطة منطقة أثرية في محافظة الإسماعيلية بالقرب من أبو صوير. وهي ترجع لعصر الفراعنة والهكسوس [انظر اللوحين ٩١-٩٢].

ولليهود عيد باسم عيد (العُرْش/المظلة/ المظلات المتخذة من سعف النخيل) يُحتفل به في ١٥ من شهر تشرى، ويرتبط بالزراعة والحصاد، ولكن اتخذ أيضاً لإحياء ذكرى وصول بني إسرائيل إلى سَكُوت (المظلات). ويستمر هذا العيد سبعة أيام، ومن مراسيمهم عمل عريشة (مظلة) من سعف النخيل للدلالة الرمزية على الحدث [انظر اللوحة ٩٣].

ومن الواضح أن تاريخ الحدث يجب أن يكون في شهر نيسان العبري لا في تشرى، لأن خروج بني إسرائيل تم في ١٤ نيسان، ولكن حيث تم في التقويم الجديد وضع رأس سنة جديد (رأس السنة المدنية) في تشرى بدلاً من نيسان (رأس السنة الكنسية)، لذا تغير موعد هذا العيد، وجاء بعد عيد الغفران.

• المحطة الثانية، إيْثَام:

أو بيتوم أو فيثوم، وذلك بحسب ما جاء في التوراة: (٢٠) وَارْتَحَلُوا مِنْ سَكُوتَ وَنَزَلُوا فِي إِيْثَامَ فِي طَرْفِ الْبَرِّيَّةِ^(٢). ذكرت مسبقاً أن بعض الباحثين اعتبروا أن تل المسخوطة هو موقع هذه المدينة، بينما ذهب آخرون إلى احتمال كونها في موقع تل الرطابة / الرتبة، الذي يشتمل أيضاً على آثار مدينة قديمة، أو هي نفس الإسماعيلية أو كانت

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ٢٠.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ٢٠.



اللوحة رقم ٩١ : حفريات في تل المسخوطة بحثاً عن الآثار



اللوحة رقم ٩٢ : من جداريات وآثار تل المسخوطة



اللوحة رقم ٩٣ : العريش / المظلة / سكوت رمزي يُقام في عيد العرش

تقع بالقرب منها [انظر اللوحة ٩٤]. وقد اختلف في تسبب سميتها بهذا الاسم:

١. راجعة إلى (بر/بي أتوم) أي (بيت أتوم) مثل (بر/ بي رعمسيس) Per-Atum Pi-?Atōm، حيث (أتوم) إله من آلهة المصريين، وهذا بيته.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: (اسم مصري معناه [بيت أتوم إله الشمس الغاربة] إحدى مدينتي المخازن اللتين بناهما بنو إسرائيل في أرض جاسان لفرعون أثناء عبوديتهم في مصر [سفر الخروج ١: ١١]. وكانت الثانية تُدعى رعمسيس. ويظن بعضهم أن الحفريات التي قام بها [إدوارد نافيل] في تل المسخوطة تدل على أنها هي نفسها فيثوم. وهي واقعة إلى الجنوب من القناة العذبة الجارية في وادي الطميلات من الزقازيق إلى الإسماعيلية. وكان فيها هيكل للإله أتوم. وتُثبت قدمها كتاباتٌ من الأسرة السادسة



اللوحة رقم ٩٤ : المواقع المحتملة لمدينة إيثام

وبقايا قطع كتابات من الأسرة الأولى. والجدير بالذكر أن بعض اللّبنات مصنوعة بدون تبين [خر ٥: ١٠-١٢]. وضمن الأسوار عدد من الغرف مستطيلة الشكل مستقلة الواحدة عن الأخرى ولا منفذ لها إلا من فوق، مما يدل على أنها كانت مخازن [سفر الخروج ١: ١١] ولكن بعضهم يعتبرون هذه الغرف أساسات فقط. ودعيت فيثوم في عهد البطالسة هيرونبوليس [مدينة الأبطال]. وقد اتجهت الآراء مؤخراً إلى اعتبار تل الرطابة المدينة المنشودة. ويقع هذا التل في وادي الطميلات أيضاً على بعد تسعة أميال غربي تل المسخوطة. ووجد [فليندرس بيتري] في تل الرطابة آثار من المملكة الوسطى ومن أيام رعمسيس الثاني والثالث^(١) [انظر اللوحات ٩٥-٩٧].

كما جاء في دائرة المعارف أن الاسم في الأصل: (كلمة مصرية معناها [بيت أتوم،

1. <https://www.drghaly.com/articles/display/14642>



اللوحة رقم ٩٥ : حفريات قديمة في تل المسخوطة



اللوحة رقم ٩٦ : من آثار تل المسخوطة ويلاحظ أن البناء من الطوب والطين



اللوحة رقم ٩٧ : استعمال الطوب واللبن في البناء وليس الحجارة

أي بيت إله الشمس الغاربة. وكانت إحدى مدينتي المخازن اللتين بناها بنو إسرائيل لفرعون تحت نظام التسخير في أيام عبوديتهم في مصر، والمدينة الأخرى هي رعمسيس [سفر الخروج ١: ١١]. ويدور الجدل منذ أكثر من قرن، حول تحديد موقعي المدينتين. وحيث أن اسم [فيثوم] مشتق من الاسم الفرعوني [بيت - الإله - أتوم]، فلا بد أنه كان هناك معبد لعبادة هذا الإله. واشتغل بنو إسرائيل في بناء مدينة مخازن لهذا المعبد. وهناك مدينة مخازن للمعبد الجنائزي لرمسيس الثاني في طيبة، مازالت في حالة جيدة، وهي عبارة عن حجرات مستطيلة، سقوفها عبارة عن عقود على شكل نصف الكرة، مما يعطينا فكرة عن مدن المخازن التي سخر فرعون بني إسرائيل في بنائها. والموقعان المرجحان لمدينة [فيثوم] مازالا موضع جدال بين العلماء. والموقعان هما [تل الرطابة]، و[تل المسخوطة]، وكلاهما يقعان في وادي الطميلات الذي يمتد من دلتا النيل إلى

بحيرة التمساح. وقد أسفر التنقيب في كلا الموقعين في السنوات الأخيرة عن وجود آثار لاستيطان أسيويين من فلسطين وسورية فيهما. ولاحتمال وجود علاقة بين الاسم العربي [تل المسخوطة] والاسم العبري [سُكُوت] المذكورة في [سفر الخروج ١٢: ٣٧، ١٣: ٢٠] كإحدى المحطات التي مر بها بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر) أصبح من المرجح أن يكون [تل الرطابة] هو أكثر المواقع احتمالاً لموقع [فيثوم]، وأن [تل المسخوطة] هو موقع [سكوت]. ولعل مواصلة التنقيب في [تل الرطابة] يكشف عن دلائل تثبت صحة هذا الرأي^(١). ولكن ترتيب وصف مسار الخروج من سُكُوت أولاً إلى فيثوم ثانياً، يعني أن فيثوم إلى الشرق من سُكُوت، فكيف (يكون [تل الرطابة] هو أكثر المواقع احتمالاً لموقع [فيثوم]، وأن [تل المسخوطة] هو موقع [سكوت]) والحال أن تل الرطابة إلى الغرب من تل المسخوطة؟ أي على عكس ذلك تماماً.

٢. الاحتمال الثاني لمصدر الاسم أنه تحوير لكلمة قبطية هي (أتيوم) أي تخوم البحر.

٣. والاحتمال الثالث أنها كلمة غير مصرية تعني في الكنعانية والعبرية (حصن).

والتعبير الوارد في التوراة أن إيثام/فيثوم (بطرف البرية) قد يعني أنهم وصلوا إلى منطقة حضرية، أو بحرية: (وَنَزَلُوا فِي إِيثَامَ فِي طَرْفِ الْبَرِّيَّةِ).

وجاءت العبارة التالية في التوراة لتأكيد القيادة الإلهية للرحلة، وأن الجمع كانوا محفوظين مُقَادِينَ بعين الله: (٢١) وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودٍ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَلَيْلًا فِي عَمُودٍ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ. لِكَيْ يَمْشُوا نَهَارًا وَلَيْلًا. ٢٢ لَمْ يَبْرَحْ عَمُودُ السَّحَابِ نَهَارًا وَعَمُودُ النَّارِ لَيْلًا مِنْ أَمَامِ الشَّعْبِ^(٢).

1. <https://www.drghaly.com/articles/display/14642>

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ٢١-٢٢.

• المحطة الثالثة، فم الحيروث:

بدأ الإصحاح ١٤ كالتالي: (١) وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢ «كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْجِعُوا وَيَنْزِلُوا أَمَامَ فَمِ الْحِيرُوثِ بَيْنَ مَجْدَلِ وَالْبَحْرِ، أَمَامَ بَعْلَ صَفُون. مُقَابِلَهُ تَنْزِلُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ»^(١).

فم الحيروث פִּי הַחִירוֹת تمثل المحطة اللاحقة في طريق خروج بني إسرائيل من مصر حسب ما جاء في سفر الخروج، ويفهم من الوصف التوراتي السابق أنها منطقة: (بَيْنَ مَجْدَلِ وَالْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، أَمَامَ بَعْلَ صَفُون). وهي آخر محطة خيم فيها موسى وبنو إسرائيل قبل عبور اليم وهلاك فرعون، ومن الصعب تحديد موقعها الجغرافي.

المهم أنه بعد أن خرج موسى «عليه السلام» باتجاه الجنوب، اتجه شرقاً نحو أرض الفلسطينيين - كما يفرضه المنطق - ومرّ على سكوت وإيثام ليقطع الماء باتجاه الجهة الأخرى من اليابسة، فإذا به يؤمر بالعودة شمالاً لينزل الركب: (أَمَامَ فَمِ الْحِيرُوثِ بَيْنَ مَجْدَلِ وَالْبَحْرِ)... فما السبب؟ (٣) فَيَقُولُ فِرْعَوْنُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: هُمْ مُرْتَبِكُونَ فِي الْأَرْضِ. قَدْ اسْتَعْلَقَ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ). أي أن الغاية من ذلك هي إدخال حالة من الثقة المفرطة بالنفس لدى فرعون، بتصور أن موسى ومن معه تائهون في الأرض، وقد أضاعوا طريقهم في البر، فصاروا يتخبّطون في مسيرهم. هذه الثقة المفرطة ستدفع فرعون إلى أن يطمع أكثر في ملاحقتهم وبجيش جرّار للقضاء عليهم تماماً، فيُنزل الله عليهم غضبه ويمحقهم: (٤). وَأَشَدُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ حَتَّى يَسْعَى وَرَاءَهُمْ، فَأَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ جَيْشِهِ، وَيَعْرِفُ الْمَضْرِيُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ»^(٢).

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١-٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ٣-٤..

وهذا يذكرنا بمشهد مشابه تصفه سورة الأنفال حول أحداث معركة بدر الكبرى، بين النبي «صلى الله عليه وآله» وأصحابه من جهة، وبين قريش بطغيانها من جهة أخرى، وقد أخذ الخوف من قلوب المسلمين كل مأخذ حيث صاروا يستغيثون الله «تعالى» ليتدخل في الموقف، فقد كانت هذه هي التجربة القتالية الكبيرة الأولى التي سيخوضونها دون استعداد مسبق لها، وبفارق مشهود من حيث العدد والعدة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبِدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ (١).

لقد كانت الإرادة الإلهية في أن يلتقي الجيشان، وأن يقع القتال، وأن ينتصر النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون، وينزل الغضب الإلهي على قريش، ولذا تمت تهيئة الظروف لتحقيق كل ذلك: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

ثم دخلت العوامل النفسية والمادية أيضاً التي هيأها الله لنصرة النبي والمسلمين:

١. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ...﴾ (٣).

٢. ﴿... وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (٤).

٣. ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَلَقِيَ فِي قُلُوبِ

١. سورة الأنفال: ٩.

٢. سورة الأنفال: ٤٢.

٣. سورة الأنفال: ١١.

٤. سورة الأنفال: ١١.

الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ... ﴿١٢﴾ (١).

٤. ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١٣﴾ (٢).

٥. ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿١٤﴾ (٣).

٦. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿١٥﴾ (٤).

٧. ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١٦﴾ (٥).

لقد تراوحت العوامل النفسية بين الشعور بالبطر والتفاخر، والثقة المفرطة بالنفس، والاستهانة بالمسلمين، ثم انقلبت إلى حالة من الرعب المفاجئ في ساحة المعركة بعد بدء القتال. وجانب مما جاء في الآيات السابقة يتناغم مع ما جاء في التوراة حول التدخل الإلهي -معنوياً ومادياً- في رحلة الهجرة الموسوية لتحقيق الإرادة الإلهية بإهلاك فرعون وجنوده ونجاة موسى ومن معه.

١. سورة الأنفال: ١٢.

٢. سورة الأنفال: ١٣.

٣. سورة الأنفال: ١٤.

٤. سورة الأنفال: ١٥.

٥. سورة الأنفال: ١٦.

وهكذا، بعد أن كان قرار فرعون أن يترك موسى ومن معه ليغادروا أرض مصر بسبب الآيات المتتالية الضاربة بقوة، إذا به يتراجع ويتخذ قرار الملاحقة: (ه) فَلَمَّا أُخْبِرَ مَلِكُ مِصْرَ أَنَّ الشَّعْبَ قَدْ هَرَبَ، تَغَيَّرَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ وَعَبِيدِهِ عَلَى الشَّعْبِ. فَقَالُوا: «مَاذَا فَعَلْنَا حَتَّى أَظْلَقْنَا إِسْرَائِيلَ مِنْ خِدْمَتِنَا؟» ٦ فَشَدَّ مَرْكَبَتُهُ وَأَخَذَ قَوْمَهُ مَعَهُ. ٧ وَأَخَذَ سِتٍّ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ مُنْتَخَبَةٍ وَسَائِرِ مَرْكَبَاتِ مِصْرَ وَجُنُودًا مَرْكَبِيَّةً عَلَى جَمِيعِهَا. ٨ وَشَدَّدَ الرَّبُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ حَتَّى سَعَى وَرَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ خَارِجُونَ بِيَدٍ رَفِيعَةٍ^(١).

• المواجهة والإغراق في القرآن:

عندما وصل موسى «عليه السلام» ومن معه من المهاجرين إلى اليم، لاحظ لهم علامات الملاحقة من قبل فرعون وجنوده من خلال ما يتصاعد من غبار، ويرتفع من جعجة المركبات. ولاشك أن تلك اللحظات كانت عصبية جداً بلحاظ أن بني إسرائيل صاروا بين فكي كماشة، اليم واحتمال الغرق فيه من جهة، والسلاح الفتاك للجنود من جهة أخرى.

وقد تحدث القرآن الكريم في أكثر من سورة عن هذه اللحظات الحاسمة في المواجهة بين موسى «عليه السلام» وفرعون، وذلك بعد أن قرر الطاغوت أن يلاحق المهاجرين ويقضي عليهم أو أن يعيدهم إلى سلطته وجبروته. وهذا الحديث القرآني جاء تارة من خلال إشارة إجمالية، وأخرى بشيء من التفصيل. وفي القسمين دلالات لغوية ترشدنا إلى بعض خصوصيات هذا المشهد، وكيف تجلّت فيه قدرة الله «تعالى» مرة أخرى، ولكن الفارق هذه المرة أن الآية الإلهية كانت حاسمة وخاتمة للصراع بين الطرفين:

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ٥-٨.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ... فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرَكُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥٩﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ ﴿٦١﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ (١).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (٢).

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (٧٠)﴾ (٣).

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٧١﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (٤).
﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (٥).

وهناك آيات أخرى تتحدث عن إهلاك فرعون وجنوده ولكن بصورة إجمالية دون

١. سورة الشعراء: ٥٣-٦٨.

٢. سورة القصص: ٣٨-٤٠.

٣. سورة الزخرف: ٥٥-٥٦.

٤. سورة الدخان: ٢٣-٢٤.

٥. سورة الذاريات: ٤٠.

توضيح عن كيفية ذلك، كما في قوله «تعالى»: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾^(١).

من مجموع ما جاء في الآيات السابقة يمكن استخلاص الصورة التالية للأحداث:

١. كانت ملاحقة فرعون وجنوده لبني إسرائيل كي يستفزهم من الأرض: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾^(٢)... فما معنى ذلك؟

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (فَزَّ: الْفَاءُ وَالزَّاءُ أَصِيلٌ يَدُلُّ عَلَى خَفَّةٍ وَمَا قَارَبَهَا. تَقُولُ: فَزَّهُ وَاسْتَفَزَّهُ، إِذَا اسْتَحَفَّهُ. قَالَ اللَّهُ «تعالى»: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(٣)، أَي يَحْمِلُونَكَ عَلَى أَنْ تَخَفَّ عَنْهَا. وَأَفَزَهُ الْخَوْفُ وَأَفَزَعَهُ بِمَعْنَى. وَقَدْ اسْتَفَزَّ فَلَانًا جَهْلُهُ. وَرَجُلٌ فَزَّ: خَفِيفٌ^(٤)).

وقال ابن منظور في لسان العرب: (فَزَّهُ فَزًّا وَأَفَزَّهُ: أَفَزَعَهُ وَأَزْعَجَهُ وَطَيَّرَ فَوَادَهُ... وَاسْتَفَزَّهُ مِنْ الشَّيْءِ: أَخْرَجَهُ. وَاسْتَفَزَّهُ: حَتَلَهُ حَتَّى أَلْقَاهُ فِي مَهْلَكَةٍ. ... وكذلك قوله «عز وجل»: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾... وقال أبو إسحق:.... أي ليقتلونك، وقال أهل اللغة: كادوا لَيَسْتَحِفُّوكَ إِفْرَاعًا يَحْمِلُكَ عَلَى خُفَةِ الْهَرَبِ^(٥)).

ويبدو لي أن لا معنى للملاحقة بغرض الإخراج من الأرض، فهم في طريقهم للخروج، ولا للإخراج بخفة، أي بسرعة نتيجة الفزع، فهو متحقق أيضاً سلفاً، فلا بد أن يكون المراد غير المعنى الحقيقي، بحيث يكون الاستفزاز من الأرض كناية عن

١. سورة المزمل: ١٦.

٢. سورة الإسراء: ١٠٣.

٣. سورة الإسراء: ٧٦.

٤. ابن فارس: مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٤٤٠.

٥. ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ١٧٨.

القتل والتشريد، وهذا ما فهمه أبو إسحاق - كما جاء في لسان العرب - بخصوص النبي «صلى الله عليه وآله»، والألوسي في قصة موسى «عليه السلام»، قال: (وأصل الاستفزاز الإزعاج، وكنتى به عن إخراجهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾... ويلزم إخراجهم من ذلك قتلهم واستئصالهم، وهو المراد)^(١).

٢. لما اقترب فرعون وجنوده من بني إسرائيل بشكل كبير بحيث صار بمقدور كل من الطرفين أن يرى الآخر، وصار بنو إسرائيل بين فكي كمشاة، دخل الرعب في قلوبهم، وفزعوا من إمكانية إدراكهم وقتلهم أو القبض عليهم من جهة، ومن دخول البحر وإمكانية الغرق فيهم من جهة أخرى، إلا أن موسى «عليه السلام» طمأنهم - وبشكل قاطع - بأن الإرادة الإلهية ستتدخل لمنع كل ذلك، وأن الله «تعالى» سيهدي موسى إلى الطريقة التي من خلالها سيخلصه وقومه من الموقف العصيب: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿١١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٢﴾﴾^(٢)

وهذا يعني أن موسى «عليه السلام» - إلى تلك اللحظات - لم يكن يعرف ما الذي سيجري، وما السبيل إلى الخلاص، ولكنه كان على ثقة تامة بالله «سبحانه» وبوعده بالنجاة.

٣. حينذاك، جاء الأمر الإلهي باستخدام العصا - التي انقلبت من قَبْل إلى حَيَّة وثعبان ثم عادت إلى طبيعتها الأولى - بأن يضرب بها البحر: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾﴾^(٣).

١. الألوسي: روح المعاني، ج ١٥، ص ١٨٦.

٢. سورة الشعراء: ٦١-٦٢.

٣. سورة الشعراء: ٦٣.

٤. شَقَّ الله البحر وفلقه بحيث تمايز شَقَّاه وافترقا (أو تمايزت الشقوق وافترقت طرقاً بحسب بعض الروايات)، وكان كل فريق مرتفعاً جداً حتى شُبَّه بالطود العظيم. قال ابن منظور: (الطَوْدُ: الجبل العظيم... والطَوْدُ: الهَضْبَةُ... والطايدِي: الثابت) (١).

ولعل خصوصية استعمال كلمة الطود هنا لبيان مدى ثبات كل فِلق منها، على الرغم من أن طبيعة الماء تفرض الحركة وعدم الثبات. وهذا الثبات ضروري لبعث الاطمئنان في نفوس العابرين في وسط هذا المشهد الرهيب والعجيب: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣)، ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ (٧٧) (٢).

٥. وظهرت اليابسة بين الفريقين بحيث استطاع بنو إسرائيل العبور إلى الضفة الأخرى مشياً دون أن أن تغطس أرجلهم في الطين أو يتعرضوا للترحلق أو ما شابه. وكانت هناك رسائل تطمين إلهية أيضاً لموسى بأن فرعون وجنوده لن يلحقوا بهم ولن يدركوهم، وأن كل أسباب الخشية الأخرى منتفية، سواء الغرق أو الكائنات الحية التي يمكن أن تلحق الضرر بالسائرين على قاع البحر بعد انكشافه، أو الكهوف والقيعان الطينية التي يمكنها أن تبتلع الإنسان، أو يغوص فيها فتستحيل حركته أو تجعل الحركة خلالها ثقيلة، وكذلك المعوقات المؤذية كالحجارة الحادة وأمثالها: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ (٧٧) (٣).

١. ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٢٧٠.

٢. سورة طه: ٧٧.

٣. سورة طه: ٧٧.

٦. نَجَّى اللَّهُ «تعالى» موسى «عليه السلام» وكل من كان معه من الغرق ومن فرعون وجنوده: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٥) ﴿١﴾.

٧. أغرق الله فرعون و (من معه/آله/جنده) أجمعين: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (١٣) ﴿٢﴾.

وفي سورتي القصص والذاريات تعبير آخر عن هذا الإغراق، وذلك باستعمال كلمة (نبذ)، قال «تعالى»: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)، وقال «تعالى»: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٤). قال ابن منظور: (النَّبَذُ: طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك. نَبَذْتُ الشيء أَنَبَذُهُ نَبْذًا إِذَا أَلْقَيْتَهُ مِنْ يَدِكَ... ونَبَذَ الشيء أَيضًا إِذَا رَمَيْتَهُ وَأَبْعَدْتَهُ) (٥).

فهو ليس مجرد طرح وإلقاء للشيء، بل فيه إعراض عنه رمياً وإبعاداً له وتخلّص منه، ويُعبّر عن ذلك لما لا يُعتدّ به، أو لما يكون غير مرغوب فيه، أو غير مرضي عنه. و(المليم) هو الذي يجعل غيره لائماً عليه، أي وهو مذنب ذنباً يلومه الله عليه، أي يؤاخذه به. والمعنى أنه مستوجب العقاب.

٨. وقع الإغراق حال كون بني إسرائيل قد عبروا إلى الجهة الأخرى من المسطح المائي وكانوا في مواجهة فرعون وجنوده، فشاهدوا ما حدث، قال «تعالى»: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ

١. سورة الشعراء: ٦٥.

٢. سورة الإسراء: ١٠٣.

٣. سورة القصص: ٣٨-٤٠.

٤. سورة الذاريات: ٤٠.

٥. ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ٥١١.

الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ^(١)، وقال «تعالى»: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٣٣﴾ ... وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ... ﴿١٣٦﴾﴾ ^(٢).

٩. لما تمكّن الغرق من فرعون، وعلم أن لا نجاة له منه، أعلن إيمانه بوحداية الإله الذي آمن به بنو إسرائيل، كما أعلن أنه مسلم أمره إليه «تعالى»: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٠﴾ آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ^(٣).

قال العلامة الطباطبائي حول الآيات السابقة وكلام فرعون قبيل هلاكه: (وقد وصف) أي فرعون (الله بالذي آمنتم به بنو إسرائيل، ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم، وهو مجاوزة البحر، والأمان من الغرق، ولذلك أيضاً جمع بين الإيمان والإسلام، ليزيل بذلك أثر ما كان يصير عليه من المعصية، وهو الشرك بالله والاستكبار على الله) ^(٤).

وفي هذا إشارة أيضاً إلى أن فرعون قد أقرّ أخيراً أن الآلهة المزعومة وهمية عاجزة عن فعل شيء، على الرغم من أن الآيات السابقة التي عانى منها قد كشفت له هذه الحقيقة أيضاً: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣٦﴾ وَجَحَدُوا بِهَا

١. سورة البقرة: ٥٠.

٢. سورة الأعراف: ١٣٦-١٣٨.

٣. سورة يونس: ٩٠-٩٢.

٤. الطباطبائي: الميزان، ج ١٠، ص ١١٧.

وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ (١).

وقد بينت من قبل أن تلك الآيات كانت تضرب فرعون وقومه كتحدٍّ لما زعموه لألهتهم من قدرات وربوبية تختص بتلك العناوين.

١٠. أخرج الله «تعالى» بدن فرعون من البحر، فلم يُبتلع ويختف إلى الأبد، بل ظهر مجدداً على الرغم من عودة المياه بقوة إلى وضعها السابق واختفاء الفلق (الفلق) الشاهقة، وما استتبع ذلك من تلاطم الأمواج بقوة كبيرة بحيث تدفع الأجسام إلى الغرق في الأعماق. وكان ذلك لغاية رسالية: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿١٥﴾﴾ (٢).

وللعلامة الطباطبائي رأي بخصوص التعبير الوارد في الآية في قوله «تعالى»: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ إذ اعتبر البعض أن من الخطأ افتراض كون ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من (النجاة)، والصحيح أن يقال أن ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من (النجوة)، أي الأرض المرتفعة، بينما اعتبر هو أن كون المراد من الكلمة (النجاة) - على الرغم من موت فرعون - أمرٌ ممكن.

قال: (فمعنى ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نُخْرِجُ بَدَنَكَ مِنَ الْيَمِّ وَنُنَجِّيهِ، وهو نوع من تنجيتك - لما بين النفس والبدن من الاتحاد القاسي بكون العمل الواقع على أحدهما واقعاً بنحوٍ على الآخر - ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾، وهذا بوجه نظير قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، فإن الذي يُعاد إلى الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام، فليست نسبة الإعادة إلى الإنسان إلا لما بين نفسه وبدنه من الاتحاد. وقد ذكر المفسرون أن الإنجاء والتنجية لما كان دالاً بلفظه على سلامة الذي

١. سورة النمل: ١٣-١٤.

٢. سورة يونس: ٩٢.

أُنْجِيَ إِنْجَاءً، كَانَ مَفَادُ قَوْلِهِ: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أَنْ يَكُونَ فِرْعَوْنُ خَارِجاً مِنَ الْيَمِّ حَيًّا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مَيِّتاً، فَالْمُتَعِينَ أَخَذَ قَوْلُهُ: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ مِنَ النُّجُوءِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُرْتَفَعَةُ الَّتِي لَا يعلوها السَّيْلُ، وَالْمَعْنَى الْيَوْمَ نَخْرُجُ بِدَنِّكَ إِلَى نُجُوءٍ مِنَ الْأَرْضِ. وَرَبِّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ إِنْ الْمُرَادُ بِالْبَدَنِ الدَّرْعُ، قَدْ كَانَ لِفِرْعَوْنَ دَرَعٌ مِنْ ذَهَبٍ يُعْرَفُ بِهِ، فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ فَوْقَ الْمَاءِ بِدَرَعِهِ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلْفَهُ آيَةٌ وَعِبْرَةٌ، وَرَبِّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ إِنْ التَّعْبِيرُ بِالنُّجُوءِ تَهَكُّمٌ بِهِ. وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ تَكَلَّفٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ وَإِنَّمَا قِيلَ ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بِيَدْنِكَ وَمَعْنَاهُ نُنَجِّي بِدَنِّكَ، وَالبَاءُ لِلآلِيَةِ أَوْ السَّبَبِيَّةِ...^(١).

هذه خلاصة الأحداث الخاصة بهذا المشهد الأخير من المواجهة بين موسى وفرعون بحسب السردية القرآنية، ولنتقل إلى الوصف التوراتي لهذا المشهد، ثم -بعد ذلك- لعرض بعض ما رُوي في كتب المسلمين حوله، واكتشاف مدى تأثير المرويات والأساطير الإسرائيلية على الصورة المقدَّمة من خلالها.

• الوصف التوراتي للمشهد:

نعرض الوصف التوراتي للمشهد مقسماً على نقاط كالتالي:

١. كانت نقطة التقاء الجمعيين عند البحر أو المسطح المائي عند (فم الحيروث): (٩) فَسَعَى الْمِصْرِيُّونَ وَرَاءَهُمْ وَأَذْرَكُوهُمْ. جَمِيعُ خَيْلٍ مَرْكَبَاتٍ فِرْعَوْنَ وَفُرْسَانِهِ وَجَيْشِهِ، وَهُمْ نَازِلُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ عِنْدَ فِمِ الْحَيْرُوثِ، أَمَامَ بَعْلَ صَفُونِ^(٢)، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن هذا المشهد دون تسمية الموضع.

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٠، ص ١١٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٩.

٢. عاش بنو إسرائيل حالة من الرعب وهم يشاهدون مركبات الجنود تكاد تدركهم، والبحر أمامهم: (١٠) فَلَمَّا اقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ رَفَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عُيُونَهُمْ، وَإِذَا الْمِصْرِيُّونَ رَاحِلُونَ وَرَأَوْهُمْ. فَفَزِعُوا جِدًّا، وَصَرَخَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ (١).

وألقوا باللائمة على موسى بإخراجهم من مصر وتعريضهم للقتل، واعتبروا أن الحياة مع الذل أفضل لديهم من الموت في الصحراء، وهو يُشبه قولهم المنقول في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

تضيف التوراة: (١١) وَقَالُوا لِمُوسَى: «هَلْ لَأَنَّهُ لَيْسَتْ قُبُورٌ فِي مِصْرَ أَخَذْتَنَا لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ؟ مَاذَا صَنَعْتَ بِنَا حَتَّى أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ؟ ١٢ أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي كَلَّمْنَاكَ بِهِ فِي مِصْرَ قَائِلِينَ: كُفَّ عَنَّا فَتَخْدِمِ الْمِصْرِيِّينَ؟ لَأَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ نَخْدِمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ» (٣).

٣. طمأنهم موسى بأن الله سيخلصهم من هذا الوضع الخطير، لأنه يثق بالله الذي وعده بذلك: (١٣) فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «لَا تَخَافُوا. قِفُوا وَانْظُرُوا خَلَاصَ الرَّبِّ الَّذِي يَصْنَعُهُ لَكُمْ الْيَوْمَ. فَإِنَّهُ كَمَا رَأَيْتُمُ الْمِصْرِيِّينَ الْيَوْمَ، لَا تَعُودُونَ تَرَوْنَهُمْ أَيْضًا إِلَى الْأَبَدِ. ١٤ الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصُمُّونَ» (٤).

وقد مر معنا أثناء الوصف القرآني للأحداث خلاصة هذا الموقف العصيب، وكان

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١٠.

٢. سورة الأعراف: ١٢٩.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١١-١٢.

٤. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١٣-١٤.

كالتالي: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^(١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٦﴾^(٢).

٤. ونجد في السردية التوراتية إضافة تتعلق بتوبيخ إلهي موجّه إلى موسى على الرغم من أن الشكوى والخوف وعدم الثقة بالوعد الإلهي لم يصدر منه، بل من قومه! وقيل بل إن العتاب الإلهي جاء بلحاظ أن الوقت وقت العمل لا وقت التفرّغ للدعاء: (١٥) فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا^(٣).

ونجد في عدد من الشروحات اليهودية والتعليقات على التوراة أن الآية التوراتية السابقة تدلّ على أن موسى وقف ودعا الله في تلك اللحظات، إما بعد صراخ بني إسرائيل أو معهم، ولذا وُجّهت إليه هذه الكلمات الإلهية.

على سبيل المثال، الحاخام الفرنسي الرّابي (شلومو يتسحاقي)، وبالعبرية שלמה צחקי، وباللاتينية Salomon Isaacides (ت ١١٠٥م) ويُعرف اختصاراً باسم (راشي: ר"ש)، وتُعدّ إسهاماته الأهم بين اليهود الإشكناز في دراسة التوراة، واشتهر بكتابة تفسير شامل للتلمود، بالإضافة إلى تفسير شامل للتنخ. يُعتبر راشي بمثابة الأب لكل التفسيرات التي تلت تفسيره للتلمود. قال: (لم يذكر أنه صلى إلى الله في هذا الشأن، لكن هذا يعلمنا أن موسى قام يصلي. فقال له القدوس المبارك: «ليس وقت الصلاة الطويلة الآن عندما يقع إسرائيل في ضيق»)^(٤).

١. سورة الشعراء: ٦١-٦٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١٥.

3. <https://www.sefaria.org/Exodus.14.15?lang=bi&with=Commentary&lang2=en>

وقال الحاخام والمؤرخ والأستاذ الجامعي الإيطالي الأصل (امبرتو كاسوتو)، وبالعبرية משה דוד קאסוטו، وباللاتينية Umberto Cassuto والمعروف أيضاً باسم (موشيه ديفيد كاسوتو) Moshe David Cassuto في كتابه (تعليق على كتاب الخروج) Commentary on the Book of Exodus: (ويجب الافتراض أن موسى شارك أيضاً في الصلاة المذكورة في الآية ١٠ (وَصَرَخَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ)؛ فقليل له الآن: لا حاجة لك بمواصلة الصلاة؛ لقد حان وقت العمل)^(١).

وفي المقابل، نجد من مفسري التوراة من المسيحيين من لا يوافق على ذلك، معتبراً أن موسى «عليه السلام» كان صامتاً، ولكنه كان يتفاعل مع صرخات بني إسرائيل بقلبه وأحاسيسه، وفي ذلك قال القمص أنطونيوس فكري: (مع أن الكتاب لم يذكر أن موسى قد صرخ، بل كان يبعث في الشعب روح الرجاء في الخلاص، لكن كان هناك صراخ في قلبه، وسمع الله صراخه، لأنه كان أعلى من صرخات الشعب غير المؤمنة والمملوءة رعباً، لكن صراخ موسى كان صراخ المؤمن الذي يطلب من الله أن يتدخل وينقذ شعبه)^(٢).

٥. وجاء التوجيه الإلهي لموسى «عليه السلام» باتخاذ الإجراء الذي من شأنه أن يقلب الموقف لصالحه ومن معه: (١٦) وَارْقَعْ أَنْتَ عَصَاكَ وَمَدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ وَشَقَّهُ، فَيَدْخُلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ. ١٧ وَهَآ أَنَا أَشَدُّ قُلُوبَ الْمِصْرِيِّينَ

1. <https://www.sefaria.org/Exodus.14.15?lang=bi&with=Commentary&lang2=en>

2. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/02-Sefr-El-Khoroug/Tafseer-Sefr-El-Khroug__01-Chapter-14.html

حَتَّى يَدْخُلُوا وَرَاءَهُمْ، فَأَتَمَّجَدُ بِفِرْعَوْنَ وَكُلِّ جَيْشِهِ، بِمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ. ١٨ فَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حِينَ أَتَمَّجَدُ بِفِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ»^(١).

واختصر القرآن الكريم ذلك في قوله «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ۖ﴾^(٢)، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ...﴾^(٣).

٦. ثم بدأت التوراة في وصف ما جرى بعد صدور هذا الأمر الإلهي، وما الذي أدى إلى انفلاق البحر، والمدة الزمنية التي استغرقت تمام ذلك: (١٩) فَانْتَقَلَ مَلَائِكُ اللَّهِ السَّائِرُ أَمَامَ عَسْكَرِ إِسْرَائِيلَ وَسَارَ وَرَاءَهُمْ، وَانْتَقَلَ عَمُودُ السَّحَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ وَوَقَفَ وَرَاءَهُمْ. ٢٠ فَدَخَلَ بَيْنَ عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ وَعَسْكَرِ إِسْرَائِيلَ، وَصَارَ السَّحَابُ وَالظَّلَامُ وَأَصَاءُ اللَّيْلِ. فَلَمْ يَقْتَرِبْ هَذَا إِلَى ذَاكَ كُلِّ اللَّيْلِ^(٤).

أي أن انتقال السحاب من الأمام إلى الخلف أدى إلى أن تكون السماء مضيئة جهة بني إسرائيل، ومظلمة فوق فرعون وجنوده، مما أجبرهم على التوقف وعدم الاستمرار في الملاحقة، ثم دخل الليل (٢١) وَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ، فَأَجْرَى الرَّبُّ الْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ الْبَحْرَ يَابِسَةً وَأَنْشَقَّ الْمَاءُ^(٥).

إذاً، فانفلاق البحر -بحسب هذا- لم يقع في لحظات بسيطة، بل استغرق ساعات،

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١٦-١٨.

٢. سورة طه: ٧٧.

٣. سورة طه: ٧٧.

٤. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١٩-٢٠.

٥. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٢١.

وكان بفعل الريح الشديدة التي هبّت من المشرق لساعات ممتدّة، وهذا يعني أن الفلق الحاصل في البحر امتدّ من الشرق إلى الغرب.

ما جاء في وصف هذا المقطع حيث تقول الآية التوراتية: (وَأَنْتَقَلَ عَمُودُ السَّحَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ وَوَقَفَ وَرَاءَهُمْ)، وكذلك ما يخصّ كيفية انفلاق البحر انعكسا على تصوّرات الفنانين وهم يرسمون المشهد بريشتهم [انظر اللوحات ٩٨-١٠١].

٧. في هذه الأثناء، كان فرعون وجنوده في حالة خوف وذهول من المشهد، وقد توقفوا عن المطاردة أمام هبوب الرياح والظلام، لاسيّما بلحاظ تجاربهم السابقة ضمن الضربات (الآيات) الإلهية التي آذتهم بشدة من قبل، وخافوا هنا من تكرار التجارب المرة، ولذا توقفوا بانتظار هدوء الرياح العاصفة: (٢٢) فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ^(١).

ولا نجد لهذا الوصف التفصيلي أثراً في القرآن الكريم، وقد يكون ذلك بسبب الاختصار، وليس بالضرورة أن يكون ذلك بسبب وقوع تحريف في هذا المقطع من التوراة: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٣ وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ ٦٤﴾^(٢).

واللافت هنا استعمال القرآن ذات الكلمة العبرية التي استعملت في التوراة للدلالة على سير بني إسرائيل على (اليابسة)، ففي النص العبري: (ויבאו בני ישראל בתוך הים ביבשה והמים להם חומה מימין ומשמאלם)، وبالحروف اللاتينية:

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٢٢.

٢. سورة الشعراء: ٦٣-٦٤.



اللوحة رقم ٩٨ : يلاحظ وجود عمود السحاب خلف بني إسرائيل



اللوحة رقم ٩٩ : يلاحظ أيضاً وجود عمود السحاب خلف بني إسرائيل



اللوحة رقم ١٠٠ : تصور لانفلاق البحر



اللوحة رقم ١٠١ : تصور آخر لانفلاق البحر

VYB'aV BNY-YShUr'aL BThVK HYM BYBShH VHM YM LHM ChVMH
MYMYNM VMShM'aLM^(١).

فكلمة (בִּיבְשָׁה : بِيَابَشَه) مكونة من حرف الجر (ב : الباء) وكلمة (יבשה : يَابَشَه) أي يابسة. قال «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾^(٢).

وقد ذكرتُ في أكثر من مناسبة -ومنها في الجزء الأول من هذا الكتاب- أن القرآن الكريم يرسل أحياناً إشارات إلى اليهود بأن مصدر القرآن الكريم هو ذاته مصدر التوراة، وهو الله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾^(٣) وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ... ﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾^(٤٧) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ... ﴿٨٩﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُنُومُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ...﴾^(٩١) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ... ﴿١١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ...﴾^(١٢٧) ﴿٤٧﴾^(٦).

ولعله لهذا السبب -أيضاً- استعمل خصوص كلمة (اليم) المستعملة في التوراة

1. <https://www.hebrewoldtestament.com/B02C014.htm#V22>

٢. سورة طه: ٧٧.

٣. سورة البقرة: ٤٠-٤١.

٤. سورة البقرة: ٨٧-٨٩.

٥. سورة البقرة: ٩١-١٠١.

٦. سورة النساء: ٤٧.

العبرية عند الحديث عن المسطح المائي الذي فلقه الله لموسى وبني إسرائيل، واستعمل كلمة (بَكَّة) للدلالة على أرض البيت الحرام كما استعمل ذات الكلمة في مزامير (زبور) داود... وغير ذلك من الموارد التي أشرت إلى بعض منها في كتي السابقة ضمن عرض قصص القرآن الكريم وسير الأنبياء بصورة مقارنة بين القرآن الكريم وكتب اليهود والمسيحيين.

٨. وبحسب التوراة، فإنَّ هلاك فرعون وجنوده تمَّ بعدة إجراءات إلهية:

أ. (١٧) وَهَآ أَنَا أَشَدُّ قُلُوبَ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى يَدْخُلُوا وَرَاءَهُمْ....) وفعلاً، أقدم فرعون وجنوده على اقتحام الفلق الحاصل في البحر على الرغم من كل ما سبق، ومن غرابة الوضع الحاصل: (٢٣) وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى وَسْطِ الْبَحْرِ^(١).

ب. (٢٤) وَكَانَ فِي هَزِيعِ الصُّبْحِ أَنَّ الرَّبَّ أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ فِي عَمُودِ النَّارِ^(٢) وَالسَّحَابِ، وَأَزْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيِّينَ، ٢٥ وَخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّى سَاقَوْهَا بِثِقَلَةٍ. فَقَالَ الْمِصْرِيُّونَ: «نَهْرُبُ مِنْ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ الرَّبَّ يُقَاتِلُ الْمِصْرِيِّينَ عَنْهُمْ»^(٣). وهذا يعني أنَّ ما جرى لمركباتهم وهم في وسط الفلق الحاصل في البحر جعلهم يدركون أخيراً ويقتنعون أن موسى على حق، أو أن (إله موسى) قوي أو أقوى من آلهتهم، ولذا فإنه سيهلكهم في تلك اللحظات التي وقفوا فيها عاجزين عن إدراك موسى وقومه، وبات الوضع خطيراً، فربما تعود المياه إلى وضعها السابق في أية لحظة، وهم يكابدون

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١٧ و ٢٣.

٢. لربما المراد بذلك البروق والصواعق.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٢٤-٢٥.

المشقات لتحريك خيولهم وعرباتهم. ولذا بدأوا يُحدثون أنفسهم بالتمرد على فرعون والنجاة بأنفسهم، إلا أن الله لم يمهلهم، فقد حانت اللحظة التي سيتم فيها القضاء عليهم، وذلك بعد أن عبر كل بني إسرائيل إلى الضفة الشرقية بسلام: (٢٦) فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ». ٢٧ فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إِلَى حَالِهِ الدَّائِمَةِ، وَالْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إِلَى لِقَائِهِ) أي هاربون من الماء الذي رجع فجأة إلى وضعه السابق (فَدَفَعَ الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ. ٢٨ فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلَا وَاحِدٌ) (١).

٩. ويُفهَم من مقارنة (هَزِيعِ الصُّبْحِ) بكلمة (إِقْبَالِ الصُّبْحِ) أن الأحداث لم تستغرق وقتاً طويلاً، إذ تم ذلك من الفجر إلى بداية الصباح. قال القمص أنطونيوس فكري: (هزيع الصباح، ويسمى محرس الصباح. وهذه الكلمة جاءت من تغيير الحراس ٤ مرات في الليل. فكان الليل يبدأ من الساعة ٦ مساءً حتى الساعة ٦ صباحاً لمدة ١٢ ساعة تقسم إلى أجزاء كل منها ٣ ساعات. وهناك نوبة حراسة لكل ثلاث ساعات. والنوبة تسمى هزيع أو محرس [نوبة حراسة]، وآخر هزيع فيهم يسمى هزيع الصباح أو محرس الصباح) (٢).

١٠. ويتفق القرآن الكريم مع السردية التوراتية حين تتحدث عن نجاة موسى وكل من كان معه، وهلاك فرعون وكل من كان معه: (٣٠) فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٢٦-٢٨.

2. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/02-Sefer-El-Khoroug/Taf-seer-Sefer-El-Khoroug__01-Chapter-14.html

مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتًا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ^(١).
 قال «تعالى»: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾^(٢)،
 ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾^(٣).

١١. ويختتم هذا الإصحاح ومشهد العبور بالإشارة إلى أن ما جرى أدى إلى أن صدق بنو إسرائيل برسالة موسى ووحداية الله: (٣١) وَرَأَى إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ، فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعِبْدِهِ مُوسَى^(٤).

وفي هذا إشارة واضحة إلى أَنَّ مَنْ خرج مع موسى «عليه السلام» لم يكونوا بأجمعهم من المؤمنين بعد بالتوحيد وبالرسالة الموسوية، وإنما خرجوا للتخلص من الأوضاع العصبية التي كانوا يعيشونها في ظل الاضطهاد الفرعوني، بصوره المختلفة، وأملًا في الحصول على الوعد الإلهي لهم بنعيم الأرض المباركة المليئة بالخيرات، وأن يتخلصوا من تسلط الحكام (الغرباء) عليهم، فيحكموا أنفسهم بأنفسهم، ويُنشئوا دولتهم، ولذا نجدهم كما مر معنا من قبل - يتذمرون من الخروج مع موسى بعد أن شاهدوا فرعون وجنوده وقد لحقوا بهم، معتبرين أن الحياة مع الذل أولى من الموت مع موسى في هذه الصحراء، ومثل هذا المنطق لا يصدر عن الإنسان المؤمن بالرسول والرسالة والذي من المفترض أن يضحي من أجل ذلك، وأن يرى في وعد الله «تعالى» بنعيم الآخرة أولوية بالنسبة إليه.

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٣٠.

٢. سورة الشعراء: ٦٥-٦٦.

٣. سورة الزخرف: ٥٥.

٤. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٣١.

وهذه الجزئية -من جديد- نُحِيلُنَا إلى الأحداث قبيل معركة بدر الكبرى، إذ يروي مسلم في صحيحه: (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» شَاوَرَ جِبْنَ بَلْعَهَ إِقْبَالَ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّاَنَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخْضَنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ^(١) لَفَعَلْنَا...)^(٢).

وفي تفسير ابن كثير: (قال عبد الله -هو ابن مسعود- «رضي الله عنه»: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عُذِلَ به، أتى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٣)، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يُشْرِقُ لذلك، وسره بذلك)^(٤).

والقرآن -في تقييمه لموقف بني إسرائيل- يذكر الأمر بنحوين، أولهما الشناء على صبرهم إلى أن أهلك الله الطاغوت وجنوده: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(٥).

١. قالوا: بَرْكِ الْغِمَادِ، موضع إلى الجنوب الغربي من مكة المكرمة على مسافة مسير خمس ليال بناحية الساحل، وهذا يعني أنه على بُعد ٢٥٠ كم تقريباً عن مكة المكرمة، ويُذكر كنايةً عن البُعد.

٢. صحيح مسلم، ح ١٧٧٩.

٣. سورة المائدة: ٢٤.

٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٧.

٥. سورة الأعراف: ١٣٧.

ولاشك أن ما أشرنا إليه مسبقاً من تدمرهم لا يتنافى مع المشهد العام القاضي بصبرهم من خلال العوامل الذاتية، ومن خلال ما كان يزرعه فيهم موسى «عليه السلام» من الأمل والدعوة إلى الصبر: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ (١).

وثانيهما، ضحالة واهتزاز إيمانهم بالتوحيد، وانعكاسه على سلوكياتهم، وهم يمثلون الجيل الذي عاش في وسط كل المظاهر الشركية التي تربط الإيمان الروحي بالمادة من خلال أوهام وأساطير ومنحوتات وتمائيل وأصنام وأوثان ملأت عليهم حياتهم، فصارت جزء لا يتجزأ من قناعاتهم وتصوراتهم: ﴿... وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩٢﴾ (٢).

ولذا نجدهم وفي فترة زمنية قصيرة- يتطلعون إلى أن يأتي لهم موسى «عليه السلام» بإله آخر سوى الله «تعالى»، يكون مجسماً في صورة صنم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ (٣).

ثم يُحَقِّقُونَ أمنيَتهم هذه عندما غاب عنهم موسى «عليه السلام»، فصنعوا لأنفسهم

١. سورة الأعراف: ١٢٨-١٢٩.

٢. سورة البقرة: ٩٣.

٣. سورة الأعراف: ١٣٨-١٤٠.

عجلاً يعبدونه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿١٤٩﴾.... قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿١٥٠﴾﴾ (٢)

وأما التوراة، فإنها تحدثت في الإصحاح اللاحق عن الاحتفال الذي أقامه بنو إسرائيل بعيد نجاتهم، وكلمات الأنشودة التي ترنموا بها (ورقصوا عليها) وعلى وقع الضرب على الدفوف، وستتناول كل هذه المسائل في الجزء الثالث من الكتاب بإذن الله «تعالى» في القسم الخاص بسيرة موسى «عليه السلام» بعد الخروج إلى الوفاة.

• المواجهة والإغراق في مرويات المسلمين:

تناولت المرويات الإسلامية هذا المشهد من أحداث المواجهة بين النبي موسى «عليه السلام» وفرعون من خلال كتب التفسير والحديث والتاريخ وقصص الأنبياء بكثيرٍ من التفاصيل الغريبة والمتأثرة -عادةً- بأساطير اليهود، مع شيء بسيط من التغيير والإضافة والحذف. وسيتبين لنا من خلال الأمثلة التي نقدّمها في الصفحات التالية مدى هذا التأثير الذي لا يخصّ هذا المشهد، بل اعتدنا عليه في غالبية قصص الأنبياء، وكان للقصاصين من مسلمة اليهود وغيرهم التأثير الكبير في صناعة هذا التشويه والتزوير والتحريف.

وقد كانت عودة القصاصين إلى المشهد الإسلامي كمصدر من مصادر صناعة (الثقافة) عند المسلمين عن طريق توظيف القصص القرآني. فبعد أن تمّ منعهم من

١. سورة الأعراف: ١٤٨.

٢. سورة طه: ٨٨-٩١.

القصص على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» ثم أبي بكر وقسم من خلافة عمر، عادوا من خلال هذا المسوّغ.

ففي سير أعلام النبلاء: (عن مُحمّد بن عبد الرحمن: أن تميمًا) أي تميم الداري وهو من مسلمة النصارى الوافدين من فلسطين (استأذن عمر في القصص سنين، ويأبى عليه، فلمّا أكثر عليه، قال: ما تقول؟ قال: أقرأ عليهم القرآن، وأمرهم بالخير، وأنّها هم عن الشر. قال عمر: ذلك الذبح) وفي رواية: الريح (ثم قال: عِظ قبل أن أخرج للجمعة. فكان يفعل ذلك. فلما كان عثمان استزاده فزاده يوماً آخر)^(١).

وقد دخلت قصصهم الموضوعية وعظائمهم في كتب التفسير والحديث والتاريخ وغير ذلك، ونال بعضهم شهرة في زمانه وسعة تأثير حتى كان عدد حضور بعض المجالس بالآلاف! ومن الآثار السلبية التي نتجت عن هذا الأمر:

أ) تخريب معالم الدين ومفاهيمه - بما في ذلك القصص والمفاهيم القرآنية - حينما خاض فيه الجاهلون من القصاصين الذين امتنوا الوعظ اعتماداً على حُسن أصواتهم وأدائهم المؤثّر في النفوس، دون امتلاك معرفة دينية رصينة، أو القصاصين الباحثين عن المال أو الساعين للتخريب في الدين عن عمد. ومن نماذج ذلك إقحام القصة الإسرائيلية حول داود وزوجة القائد العسكري «أوريا الحثي» الواردة في التناخ، سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١١، مع بعض الزيادات كما هي عادة القصاصين والكذابين من مسلمة اليهود والنصارى.

ب) التلاعب في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي وضعاً وإضافةً وتحريفاً. يتحدّث كتاب (المعرفة والتاريخ) عن أبي الهيثم سليمان العتوّاري الذي كان أحد أشهر الوعاظ

١. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٤٤٢.

في مصر أيام بني أمية، وكان يُجيد التأثير والتجيش ونزع العبرات والآهات، ويُقدّم خدماته لقاء المال والحظوة، ولذلك قَدِم مصر، فأقام بها يلتمس الرزق والمعاش، ومما جاء فيه: (كان أبو الهيثم قاصّ الجماعة بمصر أيام بني أمية، فلما جاء عمّال بني العباس عزّله عن القصص، فاشتدّ ذلك عليه وقال: ما لكم تعزلوني؟! إنما أنا قاصّ، فإن قلتُم لي زد في قصصك زدْتُ، وإن قلتُم قصّر قصرتُ؛ فما لكم تعزلوني؟)^(١).

ج) تشويه صورة الوعظ والواعظين، ففي حين يُراد من الوعظ ربط الناس بالله وتذكيرهم بالآخرة ودعوتهم إلى العبادات والأعمال الصالحة، نجد أن فئة من القصاصين امتهنوا الوعظ واستعملوا القصص المختلقة والمحرّفة، ولكن غايتهم من كل ذلك هو الثراء أو تلبية شهواتهم، فكانوا بثّس الأسوة، وكانوا سبباً للنظرة السلبية لدى البعض للدين والمتديّنين. ذُكر عن الواعظ ابن نُجّة الأنصاري (ت ٥٩٩هـ) ما يلي: (اقتنى ابن نُجّة أموالاً عظيمة، وتنعم تنعماً زائداً، بحيث أنه كان في داره عشرون جارية للفراش، تساوي كلّ واحدة ألف دينار وأكثر. وكان يُعمل له من الأطعمة ما لا يُعمل للملوك، أعطاه الخلفاء والملوك أموالاً جزيلة. قال: ومع هذا مات فقيراً، كفّنه بعض أصحابه)^(٢).

د) إثارة الفتن الطائفية من خلال قصصهم والضرب على الوتر العاطفي. في سنة ٣٨٩هـ على عهد الشيخ المفيد حدثت في بغداد فتنة عظيمة بين السنة والشيعة، وتدخل الوزير البويهّي عميد الجيوش أبي علي الحسين بن أبي جعفر بأمر الخليفة القادر بالله العباسي لإخمادها: (ومنع القصاص من الوعظ.... وراسل القادر عميد

١. الفسوي: المعرفة والتاريخ، ج ٢، ص ٣٩٦.

٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٣٩٦.

الجيش في معنى القصاص والوعاظ فردّهم وشُرط عليهم ألا يتكلّموا فيما يوجب الفتنة، واستقامت الأمور^(١).

هـ) توظيف الدعاية السياسية من قِبَل القُصّاص الوعّاظ وبأمر من الحُكّام والولاة بهدف إثارة الفتن متى ما شاء الحاكم أو الوالي ذلك، تحقيقاً لسياسة (فرّق تُسد)، وغيرها من الغايات. والشواهد كثيرة، ومن بينها ما جاء في قضية العُتوّاري التي ذكرناها في النقطة الثانية.

و) وضع الأحاديث والروايات والأخبار على لسان النبي «صلى الله عليه وآله» أو الصحابة أو الأئمة «عليهم السلام» واختلاقها. حتى أُلُفّت كتب خاصة بذلك، ومنها مثلاً كتاب (تحذير الخواص من أكاذيب القصّاص) لجلال الدين السيوطي.

وحيث أن الناس تستهويهم القصص الغريبة وما لم يسمعوها به من قِبَل، لأنه من نسج الخيال، ولقدرتهم على إثارة المشاعر الحزينة، لذا فقد نجح القصّاصون في اجتذاب الناس إليهم. ومن غريب الأمر أنه عندما يسعى بعض العلماء للتصدّي لأكاذيبهم، تجد أن الناس يميلون إلى مقولات القصّاصين! ففي كتاب (الموضوعات) لابن الجوزي: (والقاص يروي للعوام الأحاديث المُنكرة، ويذكر لهم ما لو شَمَّ ريح العلم ما ذكره، فيخرج العوام من عنده يتدارسون الباطل فإذا أنكر عالم قالوا: قد سمعنا هذا بأخبرنا وحَدَّثنا)^(٢).

وفي ما يلي مجموعة من مرويات المسلمين في ما يخصّ مشهد ملاحقة فرعون للنبي موسى ومن معه، ثم ما استتبع ذلك من فلق البحر وغرق فرعون وجنوده.

١. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٥٧٩.

٢. ابن الجوزي: الموضوعات، ج ١، ص ١١.

• أسطورة عدد بني إسرائيل:

تناغمًا مع ما جاء في التوراة الحاضرة من تضخيم لعدد مَنْ خرج مع موسى من بني إسرائيل، وبالتالي عدد جنود فرعون أيضاً، جاءت بعض أخبار ومرويات المسلمين لتكرّر ذات الأسطورة، ولربما فاقتها في بعض التفاصيل.

١. من بين ذلك ما رواه الطبري في تاريخه عن السدي، قال: (وكان موسى على ساقية بني إسرائيل، وكان هارون أمامهم يقدمهم، فقال المؤمن لموسى: يا نبي الله، أين أمّرت؟ قال: البحر، فأراد أن يقتحم، فمنعه موسى. وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل، لا يُعدّون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره، وإنما عدّوا ما بين ذلك سوى الذرية). وهذا شبيه بالنص التوراتي حول عدد الخارجين مع موسى، وقد ناقشنا هذه الجزئية من قبل، والذي يختلف هنا عن السردية التوراتية وُصف الرجال بالمقاتلين، وهو ما لا نجد له أثراً في التوراة، ولا يصحّ أن يكونوا من المقاتلين، حيث أنّ أوضاعهم كمستعبدين ومضطهّدين ومسخرين لأعمال البناء والزراعة وما شابه لا يسمح لهم بأن يكونوا كذلك. ويُكمل الطبري نقلاً عن السدي سرّد قصته، قال: (وتبعهم فرعون، وعلى مقدمته هامان، في ألف ألف وسبعمائة حصان)^(١). لاحظ هذا العدد المهول من الخيول، أكثر من مليون حصان! وبالطبع أكثر من مليون فارس، عدا المُشاة من الجنود، والله أعلم كم هو عددهم في مخيّل السدي، وهذا الرقم الخيالي جزء من أسلوب القصّاصين ومن اعتُبروا من «المفسّرين» لتشويق السامعين والقراء، بل ونجد أحياناً أن بعضهم يلجأ إلى الدخول في مزادة مع مَنْ سبقه من القصّاصين و«المفسّرين»، في رفع الأعداد وتضخيم الأرقام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً!

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٢٤٥.

٢. ونجد مثل هذا التهويل في الأرقام في رواية كتاب (الاختصاص) المنسوب للشيخ المفيد: (عن عبد الله بن جندب، عن أبي الحسن الرضا «عليه السلام» قال: كان على مقدّمة فرعون ستمائة ألف ومائتي ألف، وعلى ساقته ألف ألف)^(١)، أي مليون وثمانمائة ألف.

• أسطورة الماذيانة:

كلمة (ماذيانة)، كلمة معرّبة فارسية الأصل، تشير إلى الأنثى من الخيل. جاء في قاموس (دهخدا) فارسي-فارسي: [ماديان. لفظ مفرد است، جمع نيست، بمعنى يك اسپ ماده، وحاجت به الحاق لفظ اسپ ندارد. پس اسپ ماديان گفتن خطا باشد]^(٢)، وترجمة ذلك بأن كلمة (ماديان) تُطلق على المفرد، لا الجمع، وتعني الواحد من الفرس، أي أنثى الخيل، ولا داعي لإحلاق كلمة «اسپ» - أي حصان أو خيل - قبلها، ولذا فإن عبارة «اسپ ماديان» عبارة خاطئة.

واستعمال كلمة (ماذيانة) في الروايات التالية -مع وجود المرادف العربي لها- أمرٌ غريب، وقد يدلّ على وجود يدٍ فارسية الأصل في إدخال هذه المفردة، ولربما يقال أن ذلك بسبب التأثير الثقافي عند المسلمين العرب بالبيئة الفارسية وثقافتها بحيث غابت المفردة العربية -الخاصة بأنثى الخيل- عن الألسن في بعض محاوراتهم وأحاديثهم، وغلبت الكلمة المعرّبة عن الفارسية. وسيأتي معنا في تنمة الأسطورة لماذا ذُكر خلّو جيش فرعون من أنثى الخيل.

وعلى كلّ حال، فإنّ ورود هذه المفردة في أكثر من رواية، حتى في ما روي عن الإمام

١. المفيد: الاختصاص، ص ٢٦٦.

٢. ماديان <https://abadis.ir/fatofa/>

جعفر الصادق «عليه السلام» عند الحديث عن هجرة وخروج موسى «عليه السلام» وبني إسرائيل من مصر وغرق فرعون - كما سيأتي معنا- رأس خيط ومؤيد قوي يؤكد لما ذكرناه مسبقاً من أن الوضّاع نسبوا إلى الأئمة وبعض الصحابة، ولاسيما ابن عباس، نفس الإسرائيليات والأساطير، وبثوها في كتب المسلمين من المذاهب المختلفة، وبنفس المضمون والعبارات، ولكن مع شيء بسيط من الاختلاف غير المؤثر في عموم الصورة المقدّمة من خلالها.. والله أعلم من الذي كان يقف وراء هذا المخطّط الخبيث؟

١. الرواية الأولى نجدها في تاريخ الطبري، وهي ذات الرواية التي جئنا بجزء منها ضمن الكلام عن أسطورة عدد بني إسرائيل، قال: (وتبعهم فرعون، وعلى مقدمته هامان، في ألف ألف وسبعمائة حصان، ليس فيها ماذيانة). لماذا الإشارة إلى خلّو الخيول من أية ماذيانة؟ سيتبيّن ذلك تدريجياً في ثنايا سرد أحداث القصة.

قال السّدي: (وذلك حين يقول الله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ٥٥﴾ -يعني بني إسرائيل- ﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ٥٦﴾، يقول: قد حدّرنا فأجمعنا أمرنا ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ﴾، فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد ردفهم، قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ٦١﴾^(١). ﴿قَالُوا﴾ يا موسى، ﴿أُودِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ كانوا يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا، ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾^(٢)، اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا! ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ٦١﴾، البحر من بين أيدينا وفرعون من خلفنا، قال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٦٢﴾، يقول:

١. سورة الشعراء: ٥٣-٦١.

٢. سورة الأعراف: ١٢٩.

سيكفيني، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩).

هنا، تظهر خطورة ما في هذه الإسرائيليات والأساطير، وذلك حيث يتم إقحام الآيات القرآنية، مع شيء من التفسير والبيان ضمن تفاصيل القصة، وذلك لإقناع المتلقي بأن ما سبق الآيات الشريفة وما يليها منسجم مع مضمون الآيات، وأنه مأخوذ عن القرآن ومصادر المعرفة الإسلامية الأصيلة، وهو أسلوب اعتمده مُسلمة أهل الكتاب وذريتهم ممن امتهنوا تفسير القرآن كمحمد بن كعب القرظي، أو سرد التاريخ والقصص النبوية كوهب بن منبه وكعب الأحبار، ونجحوا في ذلك.

وأكمل السدي سرد قصته إلى أن صار يتحدث عن تمرّد خيول الجنود عن الاقتحام خوفاً من الماء: (فنزّل جبرئيل على مازيانة، فشمت الحُصن ريح المازيانة فاقتحمت في أثرها، حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم...) (٢).

هنا تبين لنا لماذا ذكرت المازيانة من قبل في بداية الأسطورة... لقد أراد صاحبها أن يوجّه القصة توجيهاً غرائزياً يرتبط بالخيول، ليُدخل عنصر إثارة من مخيلته، من خلال ربط بين خلق من عالم الغيب (جبريل) وخلق من عالم الشهادة (الخيول)، وإقحام عنصر الغريزة الحيوانية التي تتسبب في هلاك الكم الهائل من الجنود بمعية فرعون... فيا لها من محيطة أسطورية لا تقلّ أبداً عن خيال كتاب الأفلام الهوليودية في هذا الزمان!

١. سورة الأعراف: ١٢٩.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٦.

٢. تاريخ الطبري: عن محمد بن كعب القرظي^(١)، عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي، قال: (حُدِّثَ أَنَّهُ لَمَّا دَخَلْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، أَقْبَلَ فِرْعَوْنَ وَهُوَ عَلَى حِصَانٍ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ^(٢)، حَتَّى وَقَفَ عَلَى شَفِيرِ الْبَحْرِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حَالِهِ، فَهَابَ الْحِصَانُ أَنْ يَتَقَدَّمَ، فَعَرَضَ لَهُ جَبْرِئِيلُ عَلَى فَرَسٍ أَنْثَى وَدِيقٍ^(٣)).

يُلاحظ هنا تجنّب هذا القاص ذكر اللفظ الفارسي المعرّب [المأذيانة]، ولكن الفكرة هي ذاتها، وسنعرف لاحقاً الأصل الإسرائيلي لهذه الأسطورة.

قال الليثي: (فَقَرَّبَهَا مِنْهُ فَشَمَّهَا الْفَحْلُ، وَلَمَّا شَمَّهَا قَدَمَهَا، فَتَقَدَّمَ مَعَهُ الْحِصَانُ عَلَيْهِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَى جَنْدَ فِرْعَوْنَ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَدْ دَخَلَ دَخَلُوا مَعَهُ، وَجَبْرِئِيلُ أَمَامَهُ، فَهُمْ يَتَّبِعُونَ فِرْعَوْنَ، وَمِيكَائِيلُ عَلَى فَرَسٍ خَلْفَ الْقَوْمِ يَشْحَذُهُمْ يَقُولُ: الْحَقُوا بِصَاحِبِكُمْ، حَتَّى إِذَا فَصَلَ جَبْرِئِيلُ مِنَ الْبَحْرِ لَيْسَ أَمَامَهُ أَحَدٌ، وَوَقَفَ مِيكَائِيلُ عَلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى لَيْسَ خَلْفَهُ أَحَدٌ، طَبَّقَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ، وَنَادَى فِرْعَوْنَ حِينَ رَأَى مِنْ سُلْطَانِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مَا رَأَى، وَعَرَفَ ذُلَّهُ وَخَذَلَتْهُ نَفْسُهُ، نَادَى أَنْ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٤)).

٣. قصص الأنبياء للراوندي: اقتحمت أسطورة [المأذيانة] مرويات الكتب الشيعية، ومن مصادرها ما جاء عن كتاب القطب الراوندي عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»، ونأخذ منها موضع الشاهد: (... ثم خرج موسى «عليه السلام» ببني

١. سليل بني قريظة من يهود المدينة، امتنن تفسير القرآن الكريم، وأدخل فيه وفي السيرة النبوية الشيء الكثير مما لا أصل له.

٢. أي من الذكور... تمهيداً لذكر دور المأذيانة!

٣. أي سميكة البطن، ولا يخفى ما يريد الإشارة إليه إيحاءً بالإثارة للخيول.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٢٩٦.

إسرائيل يريد أن يقطع بهم البحر فأنجى الله موسى ومن معه، وغرق فرعون ومن معه، فلما صار موسى في البحر اتبعه فرعون وجنوده فتهيب فرعون أن يدخل البحر، فمثل جبرئيل على ماديانه، وكان فرعون على فحل، فلما رأى قوم فرعون الماديانه اتبعوها، فدخلوا البحر وغرقوا...^(١).

٤. وهكذا نجد في تفسير القمي الإشارة إلى ذات الأمر بأسلوب مختلف، قال: (عن أبان بن عثمان، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: وأقبل فرعون وجنوده، فلما انتهى إلى البحر قال لأصحابه: ألا تعلمون أني ربكم الأعلى قد فرج لي البحر؟ فلم يجسر أحد أن يدخل البحر وامتنعت الخيل منه لهول الماء، فتقحم فرعون حتى جاء إلى ساحل البحر، فقال له منجّمه: لا تدخل البحر، وعارضه فلم يقبل منه، وأقبل على فرس حصان، فامتنع الفرس أن يدخل الماء، فعطف عليه جبرئيل وهو على ماديانه فتقدمه ودخل، فنظر الفرس إلى الرمكة^(٢) فطلبها، ودخل البحر واقتحم أصحابه خلفه، فلما دخلوا كلهم حتى كان آخر من دخل من أصحابه وآخر من خرج من أصحاب موسى، أمر الله الرياح فضربت البحر بعضه ببعض، فأقبل الماء يقع عليهم مثل الجبال....^(٣)).

٥. وفي رواية (الاختصاص) المنسوب للشيخ المفيد والتي مرّت معنا حول تضخيم الأعداد في القصة: (عن عبد الله بن جندب، عن أبي الحسن الرضا «عليه السلام» قال: ولما صار موسى في البحر أتبعه فرعون وجنوده، قال: فتهيب فرس فرعون أن

١. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ١٩٥.

٢. الرمكة: الفرس التي تتخذ للتزواج والتناسل.

٣. القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ١٢١-١٢٢.

يدخل البحر، فتمثل له جبرئيل على ماديانة، فلما رأى فرس فرعون الماديانه أتبعها فدخل البحر هو وأصحابه فغرقوا^(١).

ونجد الأصل الأسطوري لقصة الماديانة في الموسوعة المعروفة بعنوان (فصول الراي أليعازر) Pirke De-Rabbi Eliezer / Chapters of Rabbi Eliezer، وهي عبارة عن مجموعة تفاسير وشروح وروايات خاصة ببيان قصص الكتاب المقدس. وفقاً للموسوعة اليهودية، فقد تم تأليف (فصول الراي أليعازر) في إيطاليا من قبل هذا الراي -الشهير في الوسط اليهودي- وذلك ما بين القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. ينقسم العمل إلى ٥٤ فصلاً، وبدورها تنقسم إلى سبع مجموعات.

ينقل الراي أليعازر عن الحاخام عكيفا قوله أن بني إسرائيل تقدّموا لدخول بحر القصب، لكنهم تراجعوا إلى الوراء، خوفاً من أن تغمرهم المياه. هنا، قدّس سبط يهوذا اسم الله ودخلوا البحر أولاً.... وأراد المصريون أن يتّبعوا بني إسرائيل، لكنهم رجعوا خوفاً من أن تغمرهم المياه بعد رجوع البحر إلى وضعه الطبيعي. وظهر (الله) أمامهم كرجلٍ راكب على ظهر فرس.... رأى حصان فرعون فرس الله، فصهل وركض وراءها إلى البحر^(٢)!

وإذا كانت هذه الأسطورة اليهودية قد تجرأت على الذات الإلهية، وأنه «تعالى» كان راكب الفرس، فإنّ مسلمة اليهود لم يتجرّأوا على ادّعاء ذلك، ولذا خفّفوا من وطأة الأمر، وبدّلوا الذات الإلهية بجبريل!

١. المفيد: الاختصاص، ص ٢٦٦.

2. Pirke De-Rabbi Eliezer, chapter 42.

• أسطورة امتناع البحر:

قال السدي في ضمن الرواية الأولى التي جاء بها الطبري: (فتقدم هارون ف ضرب البحر فأبى البحر أن يفتح، وقال: مَنْ هذا الجبار الذي يضربني! حتى أتاه موسى فكناه أبا خالد، وضربه)^(١).

الملاحظة الأولى على الرواية أن الأمر الإلهي -بحسب القرآن الكريم والتوراة أيضاً- كان متوجهاً لموسى وليس لهارون كي يتقدم بدءً ويضرب البحر، ليمرّد عليه ويرفض الاستجابة للضربة، قال «تعالى»: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(٢)، وفي التوراة: (١٥) فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا. ١٦ وَارْفَعْ أُنْتِ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ وَشَقَّهُ، فَيَدْخُلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ»^(٣).

ثم هل تتم آيات الله بهذه الصورة بحيث تتمرّد المخلوقات على الإرادة الإلهية المتحققة من خلال الآيات؟ وهل الخلق المطيع لله يتمرّد على إرادته؟ ولماذا كنى موسى البحر؟ ولماذا كناه بخصوص أبي خالد؟ كلها سخافات وأساطير أضيفت إلى هذا المشهد الذي تتجلى فيه آية من آيات الله «تعالى»، وعبثت به يد القصاصين ومسلمة اليهود جُرأةً على الله «سبحانه».

• أسطورة الفلوق والنوافذ:

لا نجد في القرآن الكريم ولا في النص التوراتي لأحداث القصة أثراً لانفلاق البحر

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٢٤٦.

٢. سورة الشعراء: ٦٣.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ١٥-١٦.

بعدد أسباط بني إسرائيل، بحيث يصبح عددها اثني عشر فلماً. نعم، نجد ذلك في القرآن الكريم عند الكلام عن استخراج الماء العذب للأسباط بعددهم وذلك بعد عبور البحر بمدة، قال «تعالى»: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ﴾^(١)، وأما ما يخص فلق البحر فلا أثر فيه للانقسام بعدد الأسباط.

١. قال السدي في ضمن الرواية الأولى التي جاء بها الطبري: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ﴾^(٢)، يقول: كالجبل العظيم، فدخلت بنو إسرائيل، وكان في البحر اثنا عشر طريقاً، في كل طريق سبط، وكأن الطرق إذا انفلقت بمجران. فقال كل سبط: قد قُتِل أصحابنا. فلما رأى ذلك موسى دعا الله فجعلها لهم قناطر كهيئة الطيخان^(٣)، فنظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعاً؛ ثم دنا فرعون وأصحابه، فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقاً قال: ألا ترون البحر فَرِقَ مني^(٤)، وقد تفتّح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم! فذلك قول الله: ﴿وَأَرْزَلْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ۖ﴾^(٥)، يقول: قربنا ثَمَّ الآخرين؛ هم آل فرعون^(٦). فالمسألة -إذاً- بحسب هذه الأسطورة لا تتوقف عند حدّ التقسيم، بل وتتجاوز ذلك لتتحدث عن كيفية تحوّل جدران المياه إلى ما يشبه

١. سورة البقرة: ٦٠.

٢. سورة الشعراء: ٦٣.

٣. طيخان جمع طاق: ما جُعل من الأبنية كالقوس في القناطر والنوافذ.

٤. فرق مَيّ: فرع مَيّ.

٥. سورة الشعراء: ٦٤.

٦. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٢٤٦.

الممرات التي تُفَتَّح فيها النوافذ بحيث يمكن لمن يمرّ من خلال إحداها أن يرى الآخرين في سائر الممرات.

وسياًقي معنا عند الحديث عن شخصية العجوز الإسرائيلية (سارح) وعلاقتها بعظام النبي يوسف، أن فكرة شفافية الحواجز المائية وتشكيل النوافذ موجودة في التراث اليهودي، ولذا فإنّ هذه المرويات الإسلامية إنما تأثّرت بها، ونقلت عنها.

٢. وتكرّر الأسطورة في الموروث الروائي الإسلامي، ولكن هذه المرّة في كتاب تفسير القمي عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»، قال: (عن أبان بن عثمان، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(١) أي كالجبل العظيم، ف ضرب له في البحر اثنا عشر طريقاً، فأخذ كل سبط في طريق، فكان الماء قد ارتفع وبقيت الأرض يابسة طلعت فيها الشمس فيبست كما حكى الله «عز وجل»: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾^(٢) ودخل موسى وأصحابه البحر، وكان أصحابه اثني عشر سبطاً، ف ضرب الله لهم في البحر اثني عشر طريقاً، فأخذ كل سبط في طريق، وكان الماء قد ارتفع على رؤوسهم مثل الجبال، فجزعت الفرقة التي كانت مع موسى في طريقه فقالوا: يا موسى أين إخواننا؟ فقال لهم: معكم في البحر، فلم يصدّقوه، فأمر الله البحر فصارت طاقات حتى كان ينظر بعضهم إلى بعض ويتحدّثون....)^(٣).

١. سورة الشعراء: ٦٣.

٢. سورة طه: ٧٧.

٣. القمي: تفسير القمي، ج١، ص ١٢١-١٢٢.

• أسطورة مَقْل البحر:

من التفاصيل التي أضيفت إلى قصة انفلاق البحر وغرق فرعون وجنوده، ما له علاقة بدور جبريل في محاولته منع فرعون من الإقرار بالتوحيد والإيمان برسالة موسى وذلك من خلال ملء فمه بمَقْل البحر^(١) أي بالوحل المأخوذ من ذلك الموضع!

١. نجد ذلك في الرواية الأولى للطبري عن السدي: (حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم، وتفرد جبرئيل بفرعون بمَقْلٍ من مَقْل البحر، فجعل يُدسُّها في فيه، فقال حين أدركه الغرق: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)، فبعث الله إليه ميكائيل يعيّره، قال: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣)).

ومن أين علم السدي أو راوي الأسطورة الذي نقل عنه السدي أن ميكائيل هو القائل، وليس في القرآن الكريم ما يدل على ذلك؟ إنها ليست سوى الجراءة على كلام الله «تعالى» وكتابه، وهي من التأويل (التفسير) بالرأي المنهجي عنه.

وأكمل السدي: (فقال جبرئيل: يا محمد، ما أبغضتُ أحداً من الخلق ما أبغضتُ رجلين: أما أحدهما فمن الجن، وهو إبليس حين أبى أن يسجد لآدم، وأما الآخر فهو فرعون حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٤)، ولو رأيتني يا محمد، وأنا آخذ مَقْل البحر فأدخله في فم فرعون مخافة أن يقول كلمة يرحمه الله بها)^(٥).

١. مَقْل البحر: أي موضع المغاص من البحر. والمراد هنا خصوص طين ووحل قاع البحر.

٢. سورة يونس: ٩٠.

٣. سورة يونس: ٩١.

٤. سورة النازعات: ٢٤.

٥. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٢٤٦.

٢. ودخلت أسطورة وضع جبريل شيئاً من طين ووحل قاع البحر في فم فرعون، كما مرّ معنا في أسطورة السدّي، ضمن التراث الروائي الشيعي، وذلك من خلال روايتين في تفسير القمي عن الإمام الصادق «عليه السلام»، الأولى تنتم للرواية التي عن أبان بن عثمان: (..... فلما دخلوا كلهم حتى كان آخر من دخل من أصحابه وآخر من خرج من أصحاب موسى أمر الله الرياح فضربت البحر بعضه ببعض، فأقبل الماء يقع عليهم مثل الجبال، فقال فرعون عند ذلك: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) فأخذ جبرئيل كفّاً من حمأة فدسّها في فيه ثم قال: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢)).

وفي الرواية الأخرى للقمي تنتم أكثر غرابة: (عن الصادق «عليه السلام»، قال: ما أتى جبريل رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلا كثيباً حزيناً، ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلما أمر الله «سبحانه» بنزول هذه الآية، نزل عليه وهو ضاحك مستبشر، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ما أتيتني يا جبرئيل إلا وتبينتُ الحزنَ في وجهك حتى الساعة؟ قال: يا محمد، لما أغرق الله فرعون قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣) فأخذتُ حمأة فوضعتها في فيه، ثم قلت له: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤) وعملت ذلك من غير أمر الله، ثم خفت أن تلحقه الرحمة من الله ويعذبني على ما فعلت، فلما كان الآن، وأمرني الله أن أؤدي إليك ما قلته أنا لفرعون، آمنت وعلمت أن ذلك كان لله رضا)^(٥).

١. القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ١٢٢-١٢٤.

٢. القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ٣١٦.

فهذه الرواية اشتملت على جزئية إضافية غريبة تتلخص في حزن جبريل قرابة ١٩٠٠ سنة لجهله بمصيره، وخوفه من كونه قد ارتكب أمراً أغضب الله «تعالى» به عندما فعل ما فعل، لاحتمال قبول توبة فرعون بتلك الكلمات التي أطلقها، ولم يكتشف جبريل الحقيقة إلا بنزول الآية الشريفة!

تأتي هذه الأسطورة في حين ينص القرآن الكريم بحق ملائكة الله -وجبريل من سادتهم- على التالي: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٩﴾﴾^(١)، وعن خصوص جبريل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾^(٢).

وقد طُرح تساؤل على موقع الشيخ محمد صالح المنجد^(٣) حول: (صحة هذا الحديث القدسي عندما غرق فرعون وجاء جبريل لدس الطين في فمه كي لا تدركه الرحمة، قال الله «عز وجل» لجبريل: [يا جبريل، وعزّي وجلالي لو استغاثني واستغفرتني لغفرت له] هل لهذا النص أصل صحيح؟ وليس المقصود قصة جبريل ودس الطين في فم فرعون التي أخرجها الترمذي وغيره، إنما سؤالي عن أصل الحديث القدسي، وقد نُشر في بعض المقاطع والمنتديات).

وجاء الجواب كالتالي: (الحمد لله. فإن الحديث الذي أورده السائل في دس جبريل الطين في فم فرعون حديث ثابت، أخرج الترمذي في [سننه: ٣١٠٧]، وأحمد في [مسنده:

١. سورة الأنبياء: ٢٦-٢٨.

٢. سورة التكوين: ١٩-٢١.

٣. عالم مقيم في المملكة العربية السعودية، والموقع بعنوان (الإسلام سؤال وجواب).

[٢١٤٤]، من حديث ابنِ عَبَّاسٍ «رضي الله عنه» أَنَّ النَّبِيَّ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» قَالَ: «لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةً أَنْ تُذَرِكُهُ الرَّحْمَةُ». والحديث صححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة: ٢٠١٥». وفي تخريج المسند، ط الرسالة [٤٧-٤٥/٤]^(١): أَنَّ الصَّحِيحَ وَقَفَهُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢)، وكأنه أشبهه.

أما ما ذكره السائل من صحّة ما يذكر من أن الله قال لجبريل حينئذ: «يا جبريل، وعزّي وجلالي لو استغاثني واستغفرتني لغفرت له»، فهذا لا يصح، ولم يرد بإسناد أصلاً، وإنما ذكره السيوطي في «معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٣٦٩/٢» فقال: «وقيل: إن فرعون لما عاين العذاب أراد الإيمان في حال الغرق، فرفع جبريل الطين وجعله في فيه، حتى استغاث بجبريل سبعين مرة، فلم يُعْثَ، فعاتبه الله، وقال لجبريل: استغاث بك فرعون سبعين مرة فلم تغثه، وعزّي وجلالي لو استغاث بي لأغثته». اهـ^(٣).

وما دام ليس له إسناد، فإنه لا حجة فيه، ولا عبرة به. ثم إنه منكر من حيث المعنى، فإن فرعون آمن حيث لا ينفع الإيمان، فإن الله «تعالى» قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس/٩٠]. ومثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه، وقد قال الله «تعالى»: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾^(٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ^(٥) ﴿٨٥﴾

١. أي طبعة الرسالة، ج٤، ص ٤٥-٤٧.

٢. أي ليس مروياً عن النبي.

٣. أي انتهى النقل.

[غافر/٨٥، ٨٤]. ولما قال فرعون ذلك قال الله: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس/٩١]. فقد يتبين أن غرقه لا علاقه له بموسى «عليه السلام»، ولا جبريل «عليه السلام»، بل لكونه مات كافراً، ولم يؤمن بالإيمان النافع.

إلا أنه قد ورد نحو ذلك، ولكن في شأن قارون، وليس في شأن فرعون. وهو ما أخرجه ابن أبي شيبة في [مصنفه: ٣١٨٤٣]، والطبري في [تفسيره: ٣٣٤/١٨]، وابن أبي حاتم في [تفسيره: ١٧١٥٦]، والحاكم في [المستدرک: ٣٥٣٦]، جميعاً من طريق الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبیر، زاد بعضهم «وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ»، عن ابن عباس، قال: «لَمَّا أَتَى مُوسَى قَوْمَهُ فَأَمَرَهُمْ بِالزَّكَاةِ، فَجَمَعَهُمْ قَارُونُ فَقَالَ: هَذَا قَدْ جَاءَكُمْ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَبِأَشْيَاءٍ تُطِيقُونَهَا، تَحْتَمِلُونَ أَنْ تُعْطَوْهُ أَمْوَالُكُمْ؟ قَالُوا: مَا تَحْتَمِلُ أَنْ نُعْطِيَهُ أَمْوَالَنَا فَمَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى أَنْ تُرْسَلَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَأْمُرَهَا أَنْ تَرْمِيَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَجْنَادِ وَالنَّاسِ بِأَنَّهُ أَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا، فَفَعَلُوا، فَرَمَتْ مُوسَى «عَلَيْهِ السَّلَامُ» عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، فَدَعَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ «تَعَالَى» إِلَى الْأَرْضِ أَنْ أَطِيعِيهِ، فَقَالَ لَهَا مُوسَى «عَلَيْهِ السَّلَامُ»: خُذِيهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى رُكْبِهِمْ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى! قَالَ: خُذِيهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى حُجْرِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى! فَقَالَ: خُذِيهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى! قَالَ: فَأَخَذَتْهُمْ فَغَيَّبَتْهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ «تَعَالَى» إِلَى مُوسَى «عَلَيْهِ السَّلَامُ»: يَا مُوسَى، سَأَلَكَ عِبَادِي وَتَضَرَّعُوا إِلَيْكَ فَأَبَيْتَ أَنْ تُجِيبَهُمْ، أَمَا وَعِزَّتِي لَوْ أَنَّهُمْ دَعَوْنِي لَأَجَبْتُهُمْ». وفي لفظ عند الطبري في [تفسيره]: «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا مُوسَى: اسْتَغَاثَ بِكَ فَلَمْ تُغِثْهُ، أَمَا لَوْ اسْتَغَاثَ بِي لَأَجَبْتُهُ وَلَا عِشْتُهُ». يقصد قارون.

وهذا إسناد ضعيف إلى عبد الله بن عباس «رضي الله عنه»، حيث فيه الأعمش،

وهو مدلس، وقد عنعن الحديث، بل تدليسه من أسوء أنواع التدليس، وهو تدليس التسوية حيث يحذف الراوي الضعيف في الإسناد كله، وليس شيخه فقط. وقد نص الخطيب البغدادي على أن الأعمش كان ممن يفعل ذلك فقال كما في «الكفاية: ٣٦٤»: «وَرَبَّمَا لَمْ يُسْقِطِ الْمَدْلَسُ اسْمَ شَيْخِهِ الَّذِي حَدَّثَهُ، لَكِنَّهُ يُسْقِطُ مِمَّنْ بَعْدَهُ فِي الْإِسْنَادِ رَجُلًا يَكُونُ ضَعِيفًا فِي الرَّوَايَةِ، أَوْ صَغِيرَ السَّنِّ وَيَحْسُنُ الْحَدِيثَ بِذَلِكَ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ الْأَعْمَشُ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَبَقِيَّةُ بَنِي الْوَلِيدِ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هَذَا».

ولو صحَّ إسناده لما جاز الاحتجاج به، لأنه وإن كان مما لا مجال فيه للرأي، إلا أن عبد الله بن عباس كان يأخذ عن كعب الأحبار، ولذا يتوقف في مثل ذلك لأنه احتمال أن يكون مما أخذه عن بني إسرائيل.

قال العراقي في «شرح التبصرة والتذكرة: ٢٠٠/١» في حديثه عما قاله الصحابي مما لا مجال فيه للرأي، قال: «فإنَّه وإنْ كان لا يقال مثله من جهة الرأي، فلعلَّ بعض ذلك سمعه ذلك الصحابيُّ من أهل الكتاب، وقد سمع جماعة من الصحابة من كعب الأحبار، ورووا عنه كما سيأتي، منهم العبادلة». اهـ، والعبادلة هم: «عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص». ومما يجب التنبيه عليه أنه هذا الأثر المروي عن ابن عباس «رضي الله عنه»، قد روي من طريقين غير طريق ابن عباس في قصة هلاك قارون بالفاظ منكرة جداً، ومن ذلك ما يلي:

الطريق الأول: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره: ١٧١٥٧»، والطبري في «تاريخه: ٤٤٧/١» من طريق جعفر بن سليمان الضبي، ثنا علي بن زيد، قال: سمعت عبد الله

بَنَ الْحَارِثُ بْنُ نَوْفَلٍ الْهَاشِمِيُّ، وساقه بنحوه، وذكر فيه: «فَلَمَّا حُسِفَ بِهِ قِيلَ لَهُ: يَا مُوسَى مَا أَفْظَكَ، أَمَا وَعِزَّتِي لَوْ إِنِّي دَعَا لَرَحْمَتِهِ». وهذا إسناد لا يصح، فيه علي بن زيد بن جدعان، قال النووي في «تهذيب الأسماء واللغات: ٣٤٤/١»: «وهو ضعيف عند المحدثين». ثم هو مرسل لأنه من رواية عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال العلائي في «جامع التحصيل: ٣٤٤»: «ولا صحبة له، بل ولا رؤية؛ وحديثه مرسل قطعاً».

ثم فيه معنى منكر، حيث فيه اتهام لنبي الله موسى «عليه السلام» بالفظاظة، وهذا لا يليق بنبي من أولي العزم من الرسل؛ لا سيما والمقام مقام عداوة وانتقام من قارون، عدو الله، العاتي عليه، الكافر به !!

الطريق الثاني: أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ: ٤٠٢/١»، والواحي في «٤٠٩/٣»، من طريق الليث عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شَهَابٍ، قال أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَوْفٍ الْقَارِي عَامِلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى دِيَوَانَ فِلَسْطِينَ أَنَّهُ بَلَغَهُ.. ثم ساقه بنحوه، وفيه: «فأوحى الله إليه: يا موسى، ما أغلظ قلبك، أما وعزتي وجلالي لو بي استغاث لأغثته».

وهو منقطع كما ترى، فهو عن عبد الله بن عوف القاري أنه بلغه، وعبد الله بن عوف من التابعين، قال ابن منده: «وهو من تابعي أهل الشام في الطبقة الثالثة وكان عامل عمر بن عبد العزيز». اه، كذا نقله عنه ابن حجر في «الإصابة: ١٥٦/٥».

والحاصل: أن الأثر لم يرد أصلاً في فرعون، وإنما ورد نحوه في قصة هلاك قارون، ولا تصح أيضاً، فنرجو من إخواننا المسلمين عموماً، ومن الدعاة خصوصاً، التثبت قبل النقل أو النشر. والله أعلم^(١).

ولأسطورة تدخّل جبريل لمنع فرعون من الإيمان جذور إسرائيلية، وإن اختلفت من حيث وسيلة تحقيق ذلك، حيث تذكر الأسطورة الإسرائيلية أن تدخّل جبريل كان عبر سلسلة حديدية خنق بها فرعون بعد أن أعلن إيمانه بالله! ففي كتاب (أساطير اليهود) The Legends of the Jews لمؤلفه لجنسبرغ Louis Ginzberg، ما ترجمته: (ولما رفع بنو إسرائيل أصواتهم للتسبيح عند شواطئ البحر الأحمر، سمعها فرعون وهو يتدافع هنا وهناك، وأشار بإصبعه نحو السماء ونادى: [إني أوّمن بك يا الله، أنت الصالح، وأنا وشعبي الأشرار، وأعترف الآن أنه لا إله في العالم غيرك]. وبدون تأخير لحظة، نزل جبرائيل ووضع سلسلة حديدية حول عنق فرعون، وأمسكه بإحكام، وخاطبه قائلاً: [يا شرير! قلت بالأمس: من هو الرب حتى أسمع لصوته؟ والآن أنت تقول: الرب بار]. فألقاه في لجة البحر، وهناك عدّبه خمسين يوماً ليعرّفه قدرة الله)^(١).

• أسطورة التمثيل بجثة فرعون:

قال السدي كما في رواية الطبري: (وقالت بنو إسرائيل: لم يغرق فرعون، الآن يدركنا فيقتلنا، فدعا الله موسى: فأخرج فرعون في ستمائة ألف وعشرين ألفاً، عليهم الحديد فأخذه بنو إسرائيل يمثلون به، وذلك قول الله لفرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾^(٢)؛ يقول: لبني إسرائيل آية)^(٣).

وهل سمح لهم موسى بالتمثيل بالجثة؟ وهل هذا من خُلق الأنبياء؟ وأيهما الآية: رَفَعَتْ خَوْفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أم بقاء جثة فرعون واكتشافها من قِبَل مَنْ كَانَ عَلَى السَّاحِلِ

1. <https://www.originalsources.com/Document.aspx?DocID=Z7MT6SJ-F71AJ8K2>

٢. سورة يونس: ٩٢.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٢٤٦.

مِنْ قوم فرعون هو الآية؟ في رأيي أَنَّ الاحتمال الأول لا يصدق عليه ذلك، لأنَّ بني إسرائيل قد شهدوا آية انفلاق البحر وغرق فرعون وجنوده، وأما مَنْ جاء لاحقاً من قوم فرعون فهم الذين كانوا بحاجة إلى مثل ذلك. كما أن تعبير ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ لا يناسب أن يكون لبني إسرائيل، إذ لا يصدق عليهم هذا العنوان.

• أسطورة العجوز وعظام يوسف:

ذكرتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ النص التوراتي يُخبر عن تنفيذ موسى لوصية يوسف «عليهما السلام» بإخراج جثمانه من مصر ونقله للدفن في أرض كنعان. ولكن دخلت على الخط -ضمن الموروث الروائي الإسلامي- أسطورة إسرائيلية مفادها أن موضع جثمان يوسف كان مجهولاً، وأن عجوزاً من بني إسرائيل كانت الوحيدة التي تعرف مكان التابوت والجثمان المحفوظ فيه، إذ كانت ممَّن عاصر يوسف، وبقيت على قيد الحياة إلى حين الخروج من مصر، وأنها اشترطت على النبي موسى عدة أمور في مقابل أن تُقدِّم له المعلومة! فلنستعرض -أولاً- نماذج ممَّا جاء بخصوص ذلك، ثم نُقدِّم الدليل على الأصل الإسرائيلي لهذا الخبر.

١. في علل الشرائع للشيخ الصدوق: (عن ابن فضال، عن أبي الحسن «عليه السلام» أنه قال: احتبس القمر عن بني إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى أن أخرج عظام يوسف من مصر، ووعدته طلوع القمر إذا أخرج عظامه، فسأل موسى عمَّن يعلم موضع قبر يوسف فقليل له: ها هنا عجوز تعلم علمه. فبعث إليها فأتي بعجوز مقعدة عمياء، فقال لها: أتعرفين موضع قبر يوسف؟ قالت نعم، قال: فأخبريني به. قالت: لا، حتى تعطيني أربع خصال: تطلق لي رجلي^(١)، وتعيد إليَّ بصري، وتعيد إليَّ شبابي، وتجعلني معك

١. أي أن تتمكن من السير مجدداً.

في الجنة. قال: فكبر ذلك على موسى. قال: فأوحى الله «عز وجل»: يا موسى، اعطها ما سألت، فإنك إنما تعطي على فعل. فدلّته عليه، فاستخرجه من شاطئ النيل في صندوق مرمر، فلما أخرجه طلع القمر، فحمله إلى الشام، فلذلك تحمّل أهل الكتاب موتاهم إلى الشام^(١).

٢. وفي كتاب (قرب الإسناد) للحميري قصة مشابهة ولكنها اقتصرت على طلب العجوز أمرين فقط لا أربعة: (عن البنزطي، عن الرضا «عليه السلام» قال: ما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها، ولقد أوحى الله «تبارك وتعالى» إلى موسى «عليه السلام» أن يُخرج عظام يوسف منها، فاستدلّ موسى على من يعرف القبر، فدلّ على امرأة عمياء زمينة^(٢)، فسألها موسى أن تدلّه عليه، فأبت إلا على خصلتين: فيدعو الله فيذهب بزمانتها، ويصيرها معه في الجنة في الدرجة التي هو فيها، فأعظم ذلك موسى «عليه السلام»، فأوحى الله إليه: وما يعظم عليك من هذا، أعطها ما سألت. ففعل، فوعده طلوع القمر، فحبس الله القمر حتى جاء موسى لموعده، فأخرجه من النيل في سَفَط^(٣) مرمر، فحمله موسى^(٤).

٣. وفي نفس المصدر مع بعض الاختلاف في التفاصيل والتقاء في الفكرة العامة، ولكن تقلّصت طلبات العجوز هذه المرّة إلى طلب واحد فقط، وهو أن تكون مع موسى في نفس درجته في الجنة، فكان لها ذلك: (عن صفوان الجمال، عن الصادق

١. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٢٩٦.

٢. أي معاقبة.

٣. السَفَط: فُقّة، وعاء مصنوع من أغصان الشجر أو القصب تُوضع فيه الفاكهة ونحوها، وكذلك الوعاء الذي يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء. فهو نو من أنواع الحاويات.

٤. الحميري، قرب الإسناد، ص ٣٧٥.

«عليه السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إن الله «تبارك وتعالى» أوحى إلى موسى أن يحمل عظام يوسف «عليه السلام»، فسأل عن قبره فجاءه شيخ فقال: إن كان أحد يعلم فقلنا، فأرسل إليها فجاءت فقال: أتعلمين موضع قبر يوسف؟ فقالت: نعم، قال: فدليني عليه ولك الجنة، قالت: لا والله لا أدلك عليه إلا أن تحكمني. قال: ولك الجنة، قالت لا والله لا أدلك عليه حتى تحكمني، قال: فأوحى الله «تبارك وتعالى» إليه: ما يعظم عليك أن تحكّمها؟ قال: فلك حكمك، قالت: أحكم عليك أن أكون معك في درجتك التي تكون فيها^(١).

٤. وفي كتاب (الدعوت) لقطب الدين الراوندي رواية أخرى: (عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: كان النبي «صلى الله عليه وآله» إذا سئل شيئاً، فإذا أراد أن يفعل قال: نعم، وإذا أراد أن لا يفعل سكت، وكان لا يقول لشيء لا، فأتاه أعرابي فسأله فسكت، ثم سأله فسكت، ثم سأله فسكت، فقال «صلى الله عليه وآله» كهيئة المسترسل: ما شئت يا أعرابي؟ فقلنا: الآن يسأل الجنة، فقال الأعرابي: أسألك ناقة ورحلها وزاداً، قال: لك ذلك، ثم قال «صلى الله عليه وآله»: كم بين مسألة الأعرابي وعجوز بني إسرائيل، ثم قال: إن موسى لما أمر أن يقطع البحر فانتهى إليه ضربت وجهه الدواب ورجعت، فقال موسى: يا رب مالي؟ قال: يا موسى، إنك عند قبر يوسف، فاحمل عظامه، وقد استوى القبر بالأرض فسأل موسى قومه: هل يدري أحد منكم أين هو؟ قالوا: عجوز لعلها تعلم، فقال لها: هل تعلمين؟ قالت: نعم، قال: فدلينا عليه، قالت: لا والله حتى تعطيني ما أسألك، قال: ذلك لك، قالت: فإني أسألك أن أكون معك في الدرجة التي تكون في الجنة. قال: سلي الجنة، قالت: لا والله إلا أن أكون معك، فجعل

موسى يراد فأوحى الله أن أعطاها ذلك فإنها لا تنقصك، فأعطاها ودلته على القبر. تعطيني ما أسألك، قال: ذلك لك، قالت: فإني أسألك أن أكون معك في الدرجة التي تكون في الجنة. قال: سلي الجنة، قالت: لا والله إلا أن أكون معك، فجعل موسى يراد فأوحى الله أن أعطاها ذلك فإنها لا تنقصك، فأعطاها ودلته على القبر. فأخرج العظام وجاوز البحر^(١).

هذه الأسطورة التي رويت بصيغ مختلفة، ولكن مدلولها واحد، لها جذورها في المدراس اليهودي، أي التعليقات والشروح على التوراة، وهي تتحدث عن امرأة عجوز اسمها (سارح بنت أشير ابن النبي يعقوب). ذكر اسمها في الآية ١٧ من الإصحاح ٤٦ من سفر التكوين من التوراة، وفي الآية ٤٦ من الإصحاح ٢٦ من سفر العدد من التوراة أيضاً، وذلك ضمن سرد أسماء ذرية النبي يعقوب (إسرائيل).

يتحدث المدراس عن جمال سارح الشديد وحكمتها، فعندما اجتمع يوسف مع إخوته وأرسلهم إلى أرض كنعان ليحضروا أباهم يعقوب إليه في مصر، أوصاهم بعدم مفاجأة والدهم المسن^(٢). استدعى الإخوة سارح وطلبوا منها أن تجلس أمام يعقوب وتعزف له على القيثارة وتُغني بكلمات يكتشف معها أن يوسف لا يزال حياً.

وعزفت سارح بشكل جيد، وغنت بلطف: (يوسف عمي لم يمت، بل هو حي ويملك كل أرض مصر). لقد عزفت هكذا ليعقوب ثلاث مرات، فملاً الفرح قلبه، وحلّ عليه روح الله، وأحسّ بصدق كلامها.

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٢٧، نقلاً عن كتاب الدعوات للراوندي.

2. <https://jwa.org/encyclopedia/article/serah-daughter-of-asher-mid-rash-and-Aggadah>

قال لها: (استمري في العزف لي، فقد شجعتني بكل ما قلتيه). وبينما هو يكلمها، جاء إليه بنوه بجيول ومركبات وألبسة ملكية، والعبيد يركضون أمامهم، قائلين له^(١): (نبشره، أن يوسف حي بعد، وهو يملك كل أرض مصر). فلما رأى يعقوب كل ما أرسله يوسف، علم أنهم يتكلمون بالصدق. وفرح جداً: (فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: «كَفَى! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ. أَذْهَبُ وَأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ»)^(٢).

وقد دخلت سارح مصر مع السبعين نفرًا من بني إسرائيل. وأسند إليها الحاخامات دوراً مهماً في مساندة النبي موسى «عليه السلام»، وذلك حين بينت أن موسى هو المخلص الذي بُشِّر به من قبل ليكون خلاص بني إسرائيل من مصر على يديه. وكان سر الخلاص هذا قد أعطي لإبراهيم، وإبراهيم لإسحاق، وإسحاق ليعقوب، ويعقوب ليوسف، ويوسف لأشير، وأشير لابنته سارح!

ولما جاء موسى وهارون إلى شيوخ بني إسرائيل ونفذوا أمامهم الآيات، ذهبوا إلى سارح وقالوا لها: «لقد جاء إلينا رجل وعمل عجائب كذا وكذا». فأنكرت في البداية أن يكون هو المخلص، ولكن لما بينوا لها المزيد أقرت بأنه هو المبشر به، (فَأَمِنَ الشَّعْبُ عَلَى الْفُورِ بِإِلَهُمُ وَرَسُولِهِ) (فَأَمِنَ الشَّعْبُ. وَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ افْتَقَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ نَظَرَ مَذَلَّتَهُمْ خَرُّوا وَسَجَدُوا)^(٣).

وبحسب الرواية المدراسية^(٤)، ساعدت سارح موسى على الوفاء بالقسم الذي أقسمه

1. Sefer ha-Yashar, Vayigash, chap. 14

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٤٥، ٢٨.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٤، ٣١.

4. Mekhilta de-Rabbi Ishmael, Masekhta Vayehi Beshalah, Petihtah; BT Sotah 13a.

بنو إسرائيل ليوسف بحمل عظامه. فعندما بات بنو إسرائيل مستعدين لمغادرة مصر، كانوا مشغولين بأخذ الغنائم، وكان موسى هو الوحيد الذي يتابع أمر عظام يوسف. فبحث عن تابوته في كل أرض مصر فلم يجده. وكانت سارح هي الوحيدة من ذلك الجيل التي ما زالت على قيد الحياة، وبحسب التوراة، فقد تجاوز عمرها ٤٠٠ سنة! فذهب إليها موسى فقال: (هل تعلمين أين دفن يوسف؟ فأجابت: لقد وضعوه هنا. صنع له المصريون تابوتاً من حديد وأغرقوه في النيل لتتبارك مياحه).

ثم ذهب موسى إلى النيل، ووقف على الضفة وصرخ: (يوسف، يوسف، قد جاء الوقت للقسم الذي حلف الله لأبينا إبراهيم، أنه سيفدي أولاده. أكرم الرب إله إسرائيل ولا تؤخر فداك لأننا تباطأنا لأجلك. إذا أظهرت نفسك، فسيكون الأمر جيداً؛ وإلا فإننا بريئون من يمينك) أي إذا لم ترفع نعشك، نخرج من مصر ونتركك هنا. ارتفع تابوت يوسف على الفور إلى السطح وأخذ موسى. دفع هذا الحاخامات إلى التصريح بأن سارح أسلمت «الأمين إلى الأمين» منذ أن سلمت يوسف لموسى عندما خرج بنو إسرائيل من مصر^(١).

وفي البين رواية عند اليهود تشير إلى طول عمر سارح بما يتجاوز -هذه المرة- حاجز السبعمئة سنة، إذ تدّعي أنها استمرت على قيد الحياة حتى زمن الملك داود!! أي بعد ٣٠٠ سنة تقريباً من عصر موسى! وأنها هي المرأة الحكيمة التي دار بينها وبين القائد العسكري (يوآب) -الذي كان في خدمة الملك داود- حوار وأشارت عليه بالرأي الحكيم الذي جاء بنتيجة إيجابية: (١٦) فَنَادَتْ امْرَأَةً حَكِيمَةً مِنَ الْمَدِينَةِ: «إِسْمَعُوا. إِسْمَعُوا. قُولُوا لِيُؤَابَ تَقَدَّمْ إِلَى هَهُنَا فَأُكَلِّمَكَ». ١٧ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «أَأَنْتَ

1. Gen. Rabbah 94:9

يُؤَابُ؟» فَقَالَ: «أَنَا هُوَ». فَقَالَتْ لَهُ: «اسْمَعْ كَلَامَ أَمَتِكَ». فَقَالَ: «أَنَا سَامِعٌ». ١٨ فَتَكَلَّمْتُ قَائِلَةً: «كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ أَوَّلًا قَائِلِينَ: سَوَالًا يَسْأَلُونَ فِي آبَل. وَهَكَذَا كَانُوا انْتَهَوْا. ١٩ أَنَا مُسَالِمَةٌ أَمِينَةٌ فِي إِسْرَائِيلَ. أَنْتَ طَالِبٌ أَنْ تُمِيتَ مَدِينَةً وَأُمًّا فِي إِسْرَائِيلَ. لِمَاذَا تَبْلُعُ نَصِيبَ الرَّبِّ؟». ٢٠ فَأَجَابَ يُوَابُ وَقَالَ: «حَاشَايَ! حَاشَايَ أَنْ أَبْلَعَ وَأَنْ أَهْلِكَ. ٢١ الْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ. لِأَنَّ رَجُلًا مِنْ جَبَلِ أَفْرَايِمَ اسْمُهُ شَبَعُ بْنُ بِكْرِي رَفَعَ يَدَهُ عَلَى الْمَلِكِ دَاوُدَ. سَلَّمُوهُ وَحْدَهُ فَأَنْصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ». فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِيُوَابَ: «هُوَذَا رَأْسُهُ يُلْقَى إِلَيْكَ عَنِ السُّورِ». ٢٢ فَآتَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى جَمِيعِ الشَّعْبِ بِحِكْمَتِهَا فَقَطَعُوا رَأْسَ شَبَعِ بْنِ بِكْرِي وَأَلْقَوْهُ إِلَى يُوَابَ، فَضَرَبَ بِالْبُوقِ فَأَنْصَرَفُوا عَنِ الْمَدِينَةِ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى خِيَمَتِهِ. وَأَمَّا يُوَابُ فَرَجَعَ إِلَى أُورُشَلِيمَ إِلَى الْمَلِكِ^(١).

وفي التفسير الحاخامي أنها قالت ليوآب: (أنا من بني إسرائيل الذين نزلوا مع يعقوب إلى مصر. أكملتُ عدد إسرائيل إلى السبعين نفساً التي نزلت إلى مصر)^(٢).

بل بحسب إحدى التفاسير اليهودية للنصوص القديمة^(٣)، فإنَّ سارح لم تمت أبداً، حيث غادرت هذه الدنيا ودخلت جنة عدن وهي على قيد الحياة، مثل أخنوخ، وإيليا، وبثيا ابنة فرعون، وغيرهم ممن تذكرهم المصادر اليهودية المختلفة.

وتذكر بعض المصادر أن سارح ساهمت في حلِّ خلافٍ (علميٍّ أكاديميٍّ) برز بين الحاخامات حول آية من آيات سفر الخروج، فقد كان الرابي يوحانان جالساً في بيت

١. الكتاب المقدس: سفر صموئيل ٢، الإصحاح ٢٠، ١٦-٢٢.

2. Eccl. Rabbah 9:18:2.

3. Kallah Rabbati 3:23; Masekhet Derekh Erez, 1:18; for the various traditions, see L. Ginzberg, Legends of the Jews, vol. 5, chap. 18, 95–96, n. 67.

المدرّاش يشرح الآية: (وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ)^(١)، فطرح في البين سؤال: كيف يمكن أن يصبح الماء بمثابة جدار؟ وأجاب عنه الراي بأن الماء كان نوعاً من الشبكة المنيعّة. وظهرت سارح وقالت: (كنتُ هناك، ولم تكن المياه كشبكة، بل كنوافذ شفافة!) وبهذا يتّضح المصدر الإسرائيلي لقصة (الطاقات) التي تشكّلت في الحواجز المائية عند عبور بني إسرائيل، والتي ذكّرتها بعض المرويات الإسلامية كما مرّ معنا من قَبْل.

• أسطورة ما بين الكلمتين:

روى الصدوق في الخصال بالسند عن أبي جميلة^(٢)، عن زرارة، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (أُمِلِيَ اللَّهُ «عز وجل» لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة، ثم أخذهُ اللَّهُ نكال الآخرة والأولى، وكان بين أن قال اللَّهُ «عز وجل» لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ وبين أن عرفه اللَّهُ الإجابة، أربعين سنة. ثم قال: قال جبرئيل: نازلت ربي في فرعون منازل شديدة، فقلت: يا ربّ تدعه وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ فقال: إنما يقول هذا عبد مثلك)^(٣).

قال المجلسي في بحاره: (لعل المراد بالكلمتين قوله «تعالى»: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ وأمره بإغراق فرعون، أو قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾. وعن وهب^(٤) عن ابن عباس قال: قال موسى «عليه السلام»: أمهلت

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٤، ٢٢.

٢. قيل عنه: ضعيف متهم بوضع الحديث، وكان نخاساً يبيع الرقيق.

٣. الصدوق: الخصال، ج ٢، ص ٤.

٤. مرجع الرواية وهب بن منبه... اليهودي.

فرعون أربعمئة سنة وهو يقول: أنا ربكم الأعلى، ويجحد رسلك، ويكذب بآياتك! فأوحى الله «تعالى» إليه: إنه كان حسن الخلق، سهل الحجاب^(١)، فأحببت أن أكافيه^(٢).

ووردت هذه الرواية عن ابن عباس في الدر المنثور للسيوطي، مع تغير في موضع عبارتين فقط: (وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: قال موسى «عليه السلام»: يا رب أمهلت فرعون أربعمئة سنة وهو يقول: أنا ربكم الأعلى، ويكذب بآلائك، ويجحد رسلك. فأوحى الله إليه: أنه كان حسن الخلق، سهل الحجاب، فأحببت أن أكافئه^(٣)).

• أساطير الشعبى بالجملة!

تعودنا من الشعبى في كتابه (عرائس المجالس) أن يجمع مختلف الأساطير في سردية واحدة، وأن يضيف إليها الكثير من التفاصيل التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولربما يتفرد بها دون غيره ممن روى القصة، أيًا كانت. وقد وضعت بين يدي القارئ بعض ما سرده الشعبى حول قصة موسى «عليه السلام» منذ وفوده على فرعون إلى ما قبل خروجه من مصر، ضمن النقاط التي عالجتها من قبل. ونكمل سرديته حول الأحداث الخاصة بالخروج، قال:

(وسرى موسى بقومه متوجهين إلى البحر وهم ستمائة ألف وعشرون ألفاً لا يعدّ فيهم ابن سبعين سنة لكبره، ولا ابن عشرين سنة لصغره، وهم المقاتلة سوى الذرية، وكان موسى «عليه السلام» على الساقة، وهارون على المقدمة، فلما فرغت القبط من

١. أي يدخل الناس عليه بسهولة.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٢٩.

٣. السيوطي: الدر المنثور، ج ٣، ص ١٨٢.

دفن أبكارهم وبلغهم خروج بني إسرائيل قال فرعون: هذا عمل موسى قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأموالنا، ثم خرجوا ولم يرضوا أن ساروا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالنا معهم، فنأدى في قومه كما قال الله «سبحانه»: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۖ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۖ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۖ﴾^(١)، ثم تبعهم فرعون بجنوده وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف، كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وبيده حربة.

وقال ابن جريج^(٢): أرسل فرعون في أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور^(٣) مع كل ملك ألف، ثم خرج فرعون خلفهم في الدَّهْم^(٤) وكانوا مائة ألف رجل، كل واحد منهم راكباً حصاناً أدهم، فكان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم، وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت، كما قال الله «سبحانه»: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ...﴾^(٥) ورأت بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا: يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر؟ هذا البحر أمامنا، إن دخلناه غرقنا، وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا، ولقد ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا.....﴾^(٦) فقال موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّارِضَ لِلَّهِ يَوْمِئِذٍ مِّنْ يَشَاءٍ مِّنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۖ﴾^(٧)، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ

١. سورة الشعراء: ٥٣-٥٦.

٢. جُرَيْج. اسم علم مذكر تصغير لجورج. وهو رومي الأصل، فالرواية من الروايات الكتابية أيضاً.

٣. الْمُسَوَّرُ مِنَ الْمُلُوكِ: المسوَّد المملوك.

٤. الدَّهْم: العدد الكثير.

٥. سورة الشعراء: ٦٠-٦١.

٦. سورة الأعراف: ١٢٩.

٧. سورة الأعراف: ١٢٨.

يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾. قالوا: فلما انتهى موسى «عليه السلام» إلى البحر هاجت الريح ترمي بموج كالجبال، فقال له يوشع بن نون: يا مُكَلَّمُ الله، أين أُمِرت وقد غشنا فرعون والبحر أمامنا؟ فقال موسى: ههنا، فخاض يوشع الماء وجاز البحر، ما يوارى حافر دابته الماء، وقال خربيل^(٢): يا مُكَلَّمُ الله، أين أُمِرت؟ قال: ههنا، فكبح فرسه بلجامه، حتى طار الزبد من شذقيه ثم أقحمه البحر فرسب في الماء، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك، فلم يقدرُوا، فأوحى الله «سبحانه» إلى موسى: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ...﴾ ﴿١٣٠﴾^(٣) فضرب فلم يُطِعه^(٤)، فأوحى الله إليه: أَنْ كُنْته، فضرب موسى بعصاه ثانياً وقال: انفلق أبا خالد! فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، فإذا خربيل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لِبْدُهُ^(٥)، وظهر في البحر اثنا عشر طريقاً لا ثني عشر سبطاً، لكل سبط طريق، وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبساً.

وعن عبد الله بن سلام^(٦) أَنَّ موسى لما انتهى إلى البحر قال: [يا من كان قبل كل شيء، والمكوّن لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً].

وعن عبد الله قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إنه قال عند ذلك: [اللَّهُمَّ لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم]. قالوا:

١. سورة الأعراف: ١٢٩.

٢. المفترض أنه اسم مؤمن آل فرعون.

٣. سورة الشعراء: ٦٣.

٤. مرّت معنا رواية السدي في تاريخ الطبري بمثل هذه الزيادة، ولكن نسبةً إلى هارون.

٥. اللَّبْدُ: ما يوضع تحت السرج.

٦. شخصية يهودية، فالرواية مجدداً من الإسرائيليات.

فخاضت بنو إسرائيل البحر، كُلُّ سبط في طريق، وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم، لا يرى بعضهم بعضاً، فخافوا وقال كل سبط: قد قُتل إخواننا، فأوحى الله «سبحانه» إلى جبال الماء: أَنْ تَشَبَّكِي! فصار الماء شبكات، ينظر بعضهم إلى بعض، ويسمع بعضهم كلامَ بعض، حتى عبروا البحر سالمين.

ولما خرجت ساقية عسكر موسى من البحر، وصلت مقدمة عسكر فرعون إليه، وأراد موسى أن يعود البحر إلى حاله الأولى فأوحى الله «سبحانه» أن: ﴿اٰتٰرْكُ الْبَحْرِ رَهْوَآ اِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُوْنَ﴾ (١) فلما وصل فرعون قال لقومه: انظروا إلى البحر قد انفلق لهيبتى حتى أدرك أعدائي وعبيدي، ولم تكن في خيل فرعون أنثى، فجاء جبرئيل على فرس أنثى وعليه عمامة سوداء (٢) وتقدّمهم وخاض البحر، وظن أصحاب فرعون أنه منهم، فلما سمعت الخيول ريحها اقتحمت البحر في أثرها، وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يشحذهم، ويقول لهم: الحقوا بأصحابكم، فلما أراد فرعون أن يسلك طريق البحر نهاه وزيره هامان وقال: إني قد أتيت هذا الموضع مراراً، ومالي عهد بهذه الطرق، وإني لا آمن أن يكون هذا مكرّاً من الرجل، يكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا، فلم يطعه فرعون وذهب حاملاً على حصانه أن يدخل البحر، فامتنع ونفر حتى جاء جبرئيل على رمكة بيضاء، فخاض البحر فتبعها حصان فرعون، فلما توافوا في البحر وهم أولهم بالخروج، أمر الله البحر فالتطم عليهم فأغرقهم أجمعين بمرأى من بني إسرائيل.

قالوا: فلما سمعت بنو إسرائيل صوت النظام البحر قالوا لموسى: ما هذه الوجبة (٣)؟

١. سورة الدخان: ٢٤.

٢. إضافة جديدة لأسطورة الماذيانة. ولا بد أنه أراد بذلك إسعاد العباسيين بشعارهم (الأسود).

٣. الوجبة: السقطة مع الهدّة.

فقال لهم: إن الله «سبحانه» قد أهلك فرعون وكل من كان معه، فقالوا: إن فرعون لا يموت، لأنه خُلِقَ خَلْقَ مَنْ لَا يَمُوت، ألم تر أنه كان يلبث كذا وكذا يوماً لا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه الإنسان؟ فأمر الله «سبحانه» البحر، فألقاه على نجوة من الأرض وعليه درعه حتى نظر إليه بنو إسرائيل.

ويقال: لو لم يُخرجه الله «تعالى» ببدنه لشكّ فيه بعض الناس، فبعث موسى جُنْدَيْن عظيمين من بني إسرائيل، كلّ جند اثنا عشر ألفاً، إلى مدائن فرعون، وهي يومئذ خالية من أهلها لم يبق منهم إلا النساء والصبيان والزمنى والمرضى والهرمى، وأمر على الجند يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، فدخلوا بلاد فرعون فغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم، وحملوا من ذلك ما استقلّت به الحمولة عنها، وما لم يطيقوا حملها باعوه من قوم آخرين، فذلك قوله «تعالى»: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۖ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۖ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢٨)، ثم إن يوشع استخلف على قوم فرعون رجلاً منهم، وعاد إلى موسى بمن معه سالمين غانمين^(٢).

• مسار الهجرة:

انتقلت التوراة بعد عرض الوصايا والتشريعات التي تناولناها في الفصل السابق للحديث عن الوقائع المتعلقة بالخروج، سواء فيما يخصّ بني إسرائيل أو فرعون وجنوده، وبيّنت أنّ كلّ ما أخبر به موسى «عليه السلام» من قبل وقوع، بدءاً من منتصف ليلة الخروج حين مات كلّ بكر من الأنعام والبشر سوى من كان من بني إسرائيل.

١. سورة الدخان: ٢٥-٢٨.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٥٢-١٥٥.

وتوقع بنو إسرائيل أن يقودهم موسى نحو الشرق باتجاه أرض كنعان (فلسطين) كما وعدوا بذلك من قبل، وذلك عبر ما كان يُعرف باسم (طريق حورس الحربي)، ولكنهم تفاجأوا بغير ذلك... فما هو المسار الذي اتخذته موسى بتوجيه إلهي؟ ولماذا؟ وما هو البحر/اليم الذي فلقه الله تعالى لهم، فعبروه، بينما غرق فيه فرعون وجنوده؟

• احتمالات مسار الخروج:

تحدّث التوراة عن سلوك بني إسرائيل طريقاً غير الطريق المعهود للسفر بحسب المدينة التي خرجوا منها، وهي بحسب التوراة رعمسيس أي بررعمسيس أو من خصوص أواريس، وذلك بأمرٍ وهدايةٍ من الله: (١٧) وَكَانَ لَمَّا أُطْلِقَ فِرْعَوْنُ الشَّعْبَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْدِهِمْ فِي طَرِيقِ أَرْضِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: «لِتَلَّا يَنْدَمَ الشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ»^(١)، أي أنهم إذا سلكوا الطريق المعهود للسفر، وهو طريق حورس الحربي، فسيفقتلون مع الحرس الموجودين في الطريق، وهم ليسوا على استعداد لذلك، أو بمعنى أنهم إذا توجهوا إلى منطقة حضرية، فسيدخلون في صراعات عسكرية مع أصحاب الأرض والممالك الموجودة في فلسطين، وهم ليسوا على استعداد لذلك، ولذا تمت هدايتهم لسلوك طريق آخر يقودهم إلى برية سيناء بين لساني البحر الأحمر: (١٨) فَأَدَارَ اللَّهُ الشَّعْبَ فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةٍ بَحْرٍ سُوْفٍ^(٢).

وخط مسيرهم وإن ذكر -إجمالاً- في التوراة من خلال ذكر أسماء بعض المناطق والمحطات التي مروا بها، إلا أنّ المفسرين والباحثين اختلفوا في تحديد مواضعها، كما اختلفوا في أسماء الأماكن وفقاً للخرائط الحالية، لاسيّما مع التغيرات التي حدثت

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ١٧.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ١٨.

خلال أكثر من ٣٠٠٠ سنة بانزياح الأنهار واختفاء المسطحات المائية الضخمة، وتبدل مواقع بعض المدن، واندثار أخرى، وقد بينت ذلك في بدايات هذا الفصل.

ومن هنا، ظهرت العديد من الاحتمالات والتحليلات والنظريات الساعية لاكتشاف خط مسار الخروج، وماهية المسطح المائي الضخم الذي عبره النبي موسى وبنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده. وفي ما يلي عددٌ من تلك الاحتمالات المطروحة من قبل الباحثين بحسب موضع العبور خلال المسطح المائي المفترض^(١):

١. ساحل البحر الأبيض المتوسط: تفترض هذه النظرية أن موسى مع بني إسرائيل انطلقوا من أواريس، واتجهوا شمالاً، ثم شرقاً، وعبروا مسطحاً مائياً تابعاً للبحر الأبيض المتوسط، حيث غرق فيه فرعون وجنوده لاحقاً، ومن ثمّ أتموا المسير نحو سيناء شرقاً، إلى أن استقرّوا في المنطقة الشمالية [انظر اللوحة ١٠٢].

٢. بحيرة البلاح: بحسب هذه النظرية، فقد خرج بنو إسرائيل من أواريس، واتجهوا جنوباً، ثم شرقاً، ثم عادوا شمالاً إلى أن وصلوا إلى مسطح مائي ضخم مندثر ولم يعد له وجود، وهو (بحيرة البلاح)^(٢) فانفلقت لهم البحيرة، وعبروها من الغرب إلى الشرق، وغرق فيها فرعون وجنوده، ثم اتجه بنو إسرائيل جنوباً في سيناء بمحاذاة خليج السويس، أي اللسان الغربي الواقع شمال البحر الأحمر إلى أن وصلوا إلى مستقرّهم بالقرب من جبل الطور [انظر اللوحة ١٠٣].

١. للمزيد راجع:

www.bereaninsights.org/nugget-series/the-six-main-theories-on-the-exodus-route/

٢. -جزيرة البلاح الحالية تقع في جانب من هذه البحيرة.



اللوحة رقم ١٠٢ : مسار تقريبي للخروج وفق النظرية الأولى



اللوحة رقم ١٠٣ : مسار تقريبي للخروج وفق النظرية الثانية

٣. البحيرات المرة: تتفق هذه النظرية -إجمالاً- مع النظرية السابقة سوى في نقطة العبور والمستطح المائي، حيث اعتبرت أن موضع ذلك المستطح هو البحيرات المرة، وليس بحيرة البلاح المندثرة، علماً بأن البحيرات المرة تقع بين مدينتي السويس والإسماعيلية [انظر اللوحة ١٠٤].

٤. شمال خليج السويس: مجدداً تتفق هذه النظرية -إجمالاً- مع النظريتين السابقتين، سوى في نقطة العبور والمستطح المائي، حيث اعتبرت أن نقطة العبور كانت في شمال خليج السويس، أي اللسان الغربي المنبثق من شمال البحر الأحمر، وذلك جنوب مدينة السويس الحديثة [انظر اللوحة ١٠٥].

٥. نوبيع: تختلف هذه النظرية عن النظريات السابقة بشكل كبير، حيث تعتبر -أولاً- أن مقصد النبي موسى وبني إسرائيل كان باتجاه جبل اللوز في الجزيرة العربية، وليس موضعاً من شبه جزيرة سيناء. وثانياً، فإن نقطة العبور كانت عبر خليج العقبة، أي اللسان المائي الشرقي المنبثق من شمال البحر الأحمر، عند مدينة نوبيع، ومنها إلى داخل الجزيرة العربية حيث جبل اللوز الواقع إلى الشمال الشرقي من (مدين) والتي تسمى اليوم (البدع)، وقد تحدّثنا عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب لكونها المدينة التي لجأ إليها النبي موسى «عليه السلام» بعد هروبه من مصر [انظر اللوحة ١٠٦].

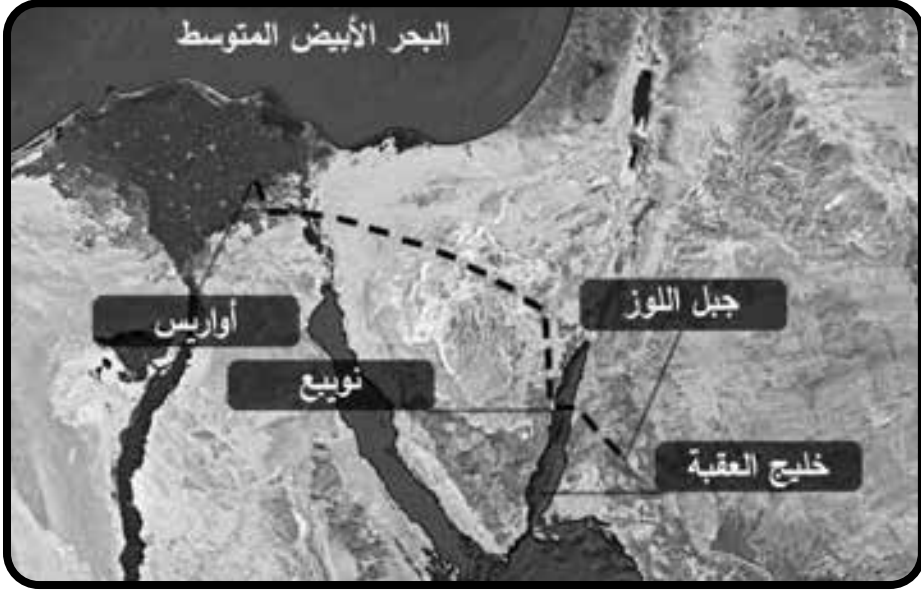
٦. بحيرة قارون: تأتي هذه النظرية أيضاً على خلاف كل ما سبق، حيث تفترض أن النبي موسى «عليه السلام» وبني إسرائيل كانوا في منخفض (الفيوم)، فواجهتهم بحيرة قارون التي كانت جزءاً من (يم سوف) الكبير. ويذكر الدكتور مراد الدش أستاذ الجيولوجيات بجامعة عين شمس بمصر أن الفيوم كانت بمثابة الخزان المائي الذي أنقذ مصر في فترات جفاف النيل، حيث كانت البحيرة تمتلئ بالمياه عند ارتفاع منسوب



اللوحة رقم ١٠٤ : مسار تقريبي للخروج وفق النظرية الثالثة



اللوحة رقم ١٠٥ : مسار تقريبي للخروج وفق النظرية الرابعة



اللوحة رقم ١٠٦ : مسار تقريبي للخروج وفق النظرية الخامسة

النيل في الفيضانات، وتظل المياه مخزونة في برك ومستنقعات، مما يؤكد أن الفترات التي انتقل فيها مركز الحكم إلى الفيوم كانت فترات المجاعات.

ولا تكتفي هذه النظرية بتحديد المسطح المائي الذي تم عبوره، بل وتوائم ذلك مع عصر تواجد النبي يوسف «عليه السلام» بمصر، وهو عصر (سنوسرت الثاني) وكذلك (أمنمحات الثالث) ودوره في شق قناة (فم الهوارة) لتخزين المياه في منخفض الفيوم، كما قام ببناء مبنى عظيم يتكوّن من ١٦٠٠ حجرة إلى الجنوب من هرم هوارة، وأن الرحالة الإغريق والرومان عندما زاروا المنطقة أجمعوا على روعة المبنى، وأنه كان أروع بناء على الأرض، وكان يُعرف عندهم باسم (لابرنت: أي قصر التيه)، وكان هذا المبنى قد خُصّص على عهد النبي يوسف «عليه السلام» لتوزيع الحبوب والغلال على

أقاليم مصر خلال السبع سنوات العجاف. وذهب الدكتور الدشّ إلى أن النبي يوسف «عليه السلام» أسكن أسرته في الفيّوم، على حدود الصحراء، حيث كانوا رعاة أغنام، وساعده في حفظ خزائن مصر، وعملوا على استقدام العمالة (الآسيوية)^(١) لإنجاز عددٍ من المشاريع الكبيرة.

وأضاف أنّ بني إسرائيل ساعدوا الهكسوس القادمين من فلسطين لاحتلال وحُكم الجانب الشرقي من دلتا مصر، وعاصمته (أواريس)، فصارت لبني إسرائيل اليد الطولى في الشمال المصري ككل، ولاسيما في الجانب الاقتصادي، وأُطلق على البحيرة التي كانوا يقيمون بجوارها (بحر / يم يوسف)، الذي تحوّر إلى (يم سوف)، ثم تغيّر اسمها إلى بحيرة قارون. وحيث قام الملك المصري (أحمس) بطرد الهكسوس، اضطهد بني إسرائيل المتواجدين في منخفض الفيوم بالقرب من بحر يوسف، وهناك وُلد موسى «عليه السلام»، وفي ذلك الماء ألقته أمه والتقطه آل فرعون، وعاصر الملك تحتمس الثاني، وهو ذاته المقتول على يد موسى عندما وكزه [انظر اللوحة ١٠٧].

ويستمر الدكتور الدشّ في سرد تفاصيل نظريته إلى أن تعرّض للطريق الذي سلكه بنو إسرائيل، وهو طريق بريّة بحر يوسف، ثم ساروا بين مجدل والبحر، حيث وقع الخسف في البحيرة مما مكّن بني إسرائيل من العبور عبر الفوالق، وعندما لحق بهم فرعون وجنوده، عادت المياه إلى وضعها السابق قبل الخسف، فغرقوا بأجمعهم، كما أدّى الخسف الذي حصل في المنطقة إلى القضاء على قارون الذي كان يسكن على ضفاف البحيرة، وذلك عندما رفض الخروج مع بني إسرائيل حرصاً على أمواله وكنوزه

١. يراد بذلك عادةً العمالة المستقّمة -بالأسر والخطف وغير ذلك- من بلاد الشام وأنحاء من الجزيرة العربية.



اللوحة رقم ١٠٧ : موقع الفيوم وبحيرة قارون بالنسبة إلى أواريس

واستشهد الدكتور الدش على صحّة نظريّته ببعض الشواهد الجيولوجية الخاصة بوجود الفوالق في البحيرة وغير ذلك^(١).

وأثقف عند نظريتين من النظريات السابقة لتمييزهما من وجهة نظري:

• نظرية هوفميير:

النظرية الأولى التي نتوقّف عندها هي نظرية عالم الآثار والمصريّات المعاصر الدكتور جيمس هوفميير James K. Hoffmeier، والتي تتوافق مع ما أشرنا إليه تحت عنوان النظرية الثانية، حيث ذكر أنه كان لمصر طريقان للسفر نحو أرض الفلسطينيين، الأول طريق حورس الحربي، والآخر الذي يتّجه نحو بئر السبع جنوب

١. سعد الدين: فرعون ذو الأوتاد، ص ٦٧٩-٦٨٢.

فلسطين، وأن موسى ومن معه سلكوا هذا الطريق بحسب الوصف التوراتي لمواقع النزول واتجاهات الحركة. وأشار هوفميير إلى أنّ المنطق يفرض أيضاً أن يسلكوا غير طريق حورس، وذلك بلحاظ وجود عشرة حصون في تلك الأراضي ما بين مدينتي بررعمسيس وغزة، مما يعني وجود قوات وحاميات عسكرية جاهزة للانقضاض على من شاءوا في أية لحظة.

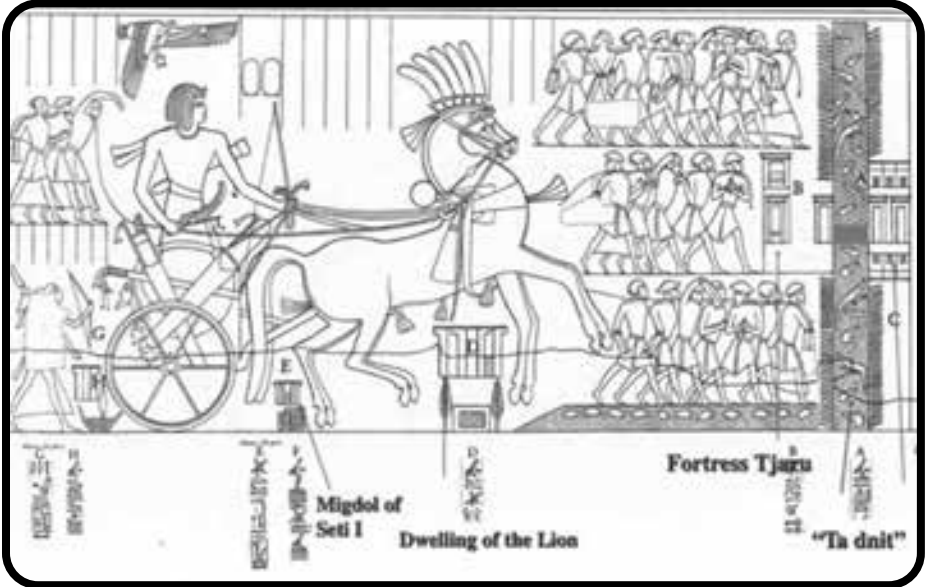
وذكر هوفماير أن اللوحات الأثرية والحملات التنقيبية بيّنت آثار أول حصنين ضخمين، كما أظهرت فرعاً نهرياً بينهما قد اندرس، وكان وسيلة من وسائل حماية الحدود، لاسيّما وقد امتلأ بالتماسيح، كما أن المسطحات المائية في المنطقة وموقع ساحل البحر الأبيض المتوسط قد تغيّر في تلك المنطقة عما هو عليه الآن بعد أكثر من ثلاثة آلاف سنة. وأيد هوفماير كلامه هذا بمجموعة من الصور والخرائط [انظر اللوحتين ١٠٨-١١٤].

ثم نبّه هوفميير إلى وجود عدة أدلة أثرية وجيولوجية تبين أنه كان هناك مسطح مائي ضخم شمال الحصنين الكبيرين اللذين أشرنا إليهما والواقعين في طريق حورس الحربي، وذلك إلى الشرق من بررعمسيس، وهما حصن حبة ١، وحبة ٢، وأن هذا المسطح المائي كان معروفاً بوجود القصب فيه بكثرة، كما دلّت على ذلك بردية (أنستازي الثالثة)، وكما تشير إلى ذلك التوراة عند الحديث عن إحدى الآيات (الضربات) العشر التي جاءت على يد موسى حين هبت ريح غربية: (١٩) *فَرَدَّ الرَّبُّ رِيحًا غَرْبِيَّةً شَدِيدَةً جِدًّا، فَحَمَلَتِ الْجُرَادَ وَطَرَحَتْهُ إِلَى بَحْرِ سُوفٍ*^(١). وهذا المسطح المائي قد ذُكر في عهد الرعامسة باسم (با تجوفي) *pa-tjufy / p3 twfy* أي بحر القصب، ولكنه

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٠، ١٩.



اللوحه رقم ١٠٨ : جدارية تُظهر والد رمسيس الثاني منتصراً في طريق حورس



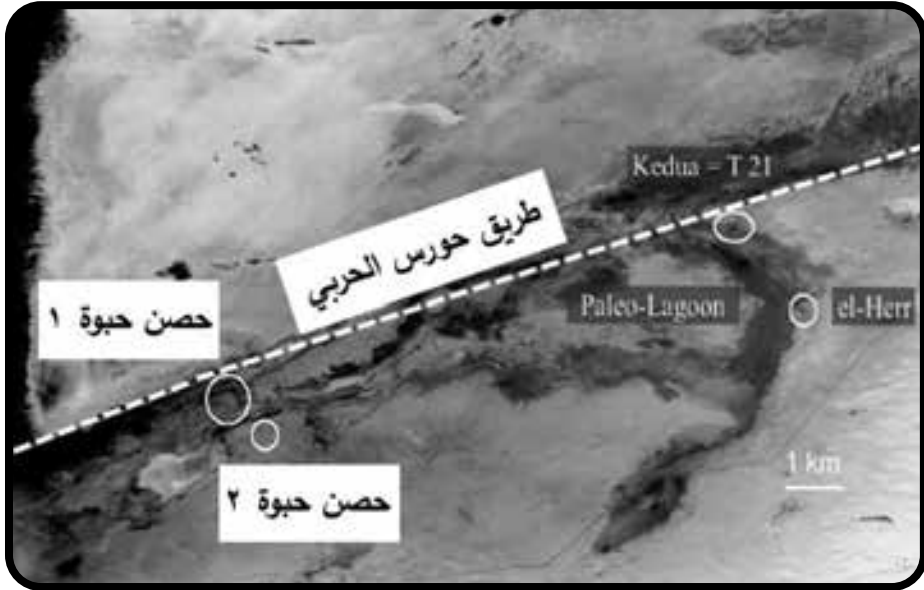
اللوحه رقم ١٠٩ : الجدارية بعد إعادة رسمها ويظهر فيها حصان وممرائي



اللوحة رقم ١١٠ : منظر علوي لأحد الحصنين المشار إليهما في الجدارية



اللوحة رقم ١١١ : منظر للحصن الآخر ويلاحظ سمك جدار الحصن



اللوحة رقم ١١٢ : صورة جوية قديمة تظهر الحصنين وطريق حورس



اللوحة رقم ١١٣ : خريطة هوفميير لتصوير طريق حورس والمسطحات المائية



Fig. 1 Map of the eastern Delta and a reconstruction of the ancient environment and Nile branches.

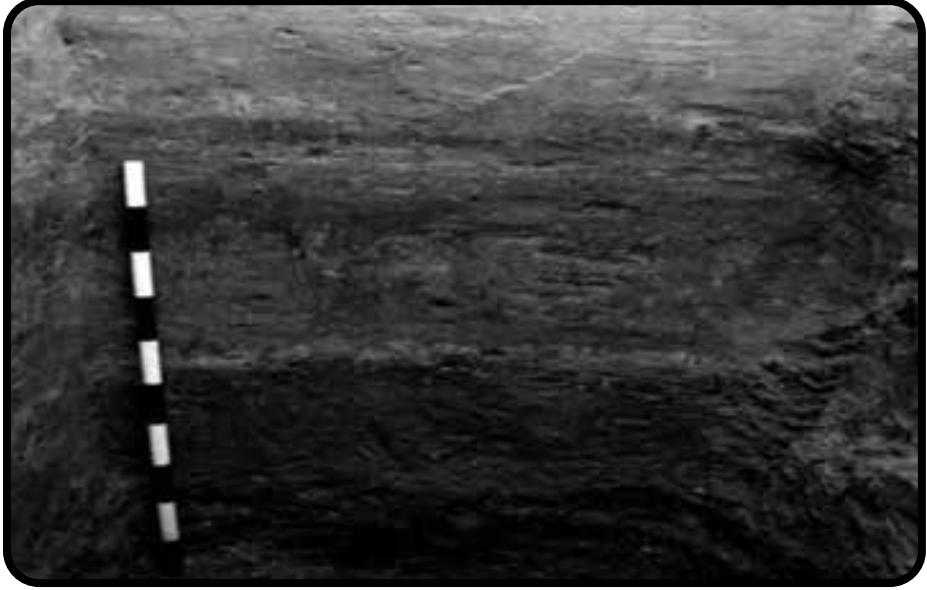
اللوحة رقم ١١٤ : طريق حورس من بررعمسيس باتجاه فلسطين

اختفى اليوم، وبقيت آثاره عند حفر طبقات الأرض السطحية، ويدل عليه تغيير لون التربة إلى السواد [انظر اللوحة ١١٥].

وأضاف هوفميير إلى أنّ ما يُعرف اليوم باسم بحيرة البلاح (المنذرة) وما حول جزيرة البلاح هو من بقايا ذلك المسطح المائي الضخم [انظر اللوحة ١١٦].

واعتبر هوفميير أن في البين خطأ في الترجمة اليونانية للتوراة والمأخذة من العبرية، حيث فهموا أن المراد من (ימה סוף ים سوف) وبالترجمة العربية للتوراة (بحر سوف) هو البحر الأحمر، وأن الصحيح لغوياً أن تُترجم إلى (بحر القصب). وأن المسطح المائي (با تجوفي^(١)) كان مليئاً بالقصب، وهو ما يُلاحظ في المنطقة الواقعة غرب قناة

١. يلاحظ نوع من التشابه بين كلمة (تجوفي tjufy) و(سوف) من حيث النطق.



اللوحة رقم ١١٥ : يلاحظ هنا تغيّر لون التربة إلى السواد كلما نزلنا إلى الأسفل



اللوحة رقم ١١٦ : موقع جزيرة البلاح

السويس، بينما نجد أن الضفة الشرقية للقناة عبارة عن أرض جرداء، وذلك بسبب التصحر والتغيرات المناخية والجيولوجية.

وبحسب ترجمة New Jerusalem للكتاب المقدس، فقد جاءت الترجمة لاسم المسطح المائي كالتالي: Sea of Reeds أي بحر القصب:

And Yahweh changed the wind into a west wind, very strong, which carried the locusts away and swept them into the Sea of Reeds. There was not one locust left in the whole of Egypt.

وأضاف أنه تمّ العثور على بردية تعود إلى ما بين سنة ١١٥٠-١١٠٠ ق.م وتشتمل على قائمة طويلة بأسماء المدن من جنوب مصر إلى شمالها، ويبدأ السرد بجزيرة (بيجه) جنوب أسوان، ويستمر صعوداً إلى الشمال إلى أن يصل إلى مدينة بررعمسيس، ورقمها ٤١٠، و برقم ٤١٧ مدينة تنيس، و ٤١٨ جاءت باسم (با تجوفي) نسبةً للمسطح المائي (بحيرة القصب)، وآخر مدينة في مصر برقم ٤١٩، هي تجارو Charu والذي كان حصناً على طريق حورس العسكري. أي أن المسطح المائي يأتي جنوب الحصن [انظر اللوحة ١١٧].

يضاف إلى كلام هوفمير أن بحيرة البلاح المندثرة أطلق عليها المصريون القدماء اسم (المستنقع البري)، وفي العصر البطلمي، كان هناك ميناء على تلك البحيرة في منطقة (أبو صيفي) بالقنطرة شرق. وإلى جنوب تلك البحيرة تقع بحيرة التمساح. وتدلّ المصادر التاريخية والدراسات الجيولوجية إلى أن بحيرة التمساح كانت ممتدة للغرب حتى أبو صوير وتل المسخوطة، وكان لها ميناء على تلك البحيرة وتقع حالياً في امتداد قناة السويس [انظر اللوحة ١١٨].



اللوحة رقم ١١٧ : موضع يَم سوف ومسار الخروج بحسب تصور هوفميير



اللوحة رقم ١١٨ : موقع بحيرة التمساح وقناة السويس

هذا، وليس هوفميير بأول من أشار إلى وجود هذا المسطح المائي المندثر وكونه البحر أو اليم الذي انفلق لموسى، وأنه كان يسمّى بحر القصب Sea of Reeds، فقد نشأت نظرية بحر القصب هذه خلال القرن التاسع عشر، ولربما كان (ماتياس جاكوب شليدن) Matthias Jacob Schleiden هو أول من ذكر خطأ كون البحر الأحمر هو البحر المذكور في التوراة، وأن الصحيح كونه المسطح المائي الذي أطلق عليه باللغة الألمانية اسم (شيلفميير)، وهو نفس المصطلح الذي استخدمه (مارتن لوثر) في ترجمته الألمانية للكتاب المقدس. وفي عام ١٨٧٨، ذكر عالم المصريات (هاينريش بروغش) Heinrich Karl Brugsch أنّ البحر الأحمر ليس هو (يم سوف) المذكور في التوراة، وأنه البحيرة المسماة في المصادر (سيربونيس). وقد دافع العديد من العلماء البارزين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عن القول بأن البحر الأحمر ليس هو المشار إليه في التوراة، بل مسطح مائي مندثر، بما في ذلك أندرو كريشتون Andrew Crichton، وكارل ريتز Carl Ritter، ولايمان كولمان Lyman Coleman، وكان من بين مؤيدي هذه النظرية كبير مهندسي قناة السويس إدوارد نافيل Edouard Naville^(١).

• نظرية فريتز:

النظرية الثانية التي نتوقف عندها تختلف عن سائر النظريات بلحاظ مقترحها حول مستقرّ بني إسرائيل، وبالتالي المسطح المائي الذي انفلق. فبحسب الدكتور في الجغرافيا البيئية (جلين فريتز) Dr. Glen Fritz مؤلف كتاب (بحر الخروج

1. <https://doubtingthomasresearch.com/problems-modern-exodus-red-sea-theories/>

المفقود: تحليل جغرافي حديث) The Lost Sea of the Exodus: A Modern Geographical Analysis فإنّ الكتاب المقدس والروايات التاريخية الأخرى تشير -بوضوح- إلى أنّ خليج العقبة هو (يم سوف) المشار إليه كمسطح مائي عبره بنو إسرائيل هروباً من فرعون وجنوده، وأن مقصد موسى وبني إسرائيل كان جبل اللوز. وذكر أن في البين عدة أدلة على ذلك، ومن بينها أن خليج العقبة عميق جداً، يصل عمقه في بعض الأماكن إلى أكثر من ١٠٠٠ متر، ولذا فهو أنسب -بهذا اللحاظ- ليكون بديلاً عن البحيرات قليلة العمق التي أشير إليها في بعض النظريات السابقة، فنصّ التوراة يظهر أن ذلك المسطح المائي كان عميقاً جداً: (٨) وَبَرِيجْ أَنْفِكَ تَرَكَمَتِ الْمِيَاءُ. انْتَصَبَتِ الْمَجَارِي كَرَابِيَّةٍ. تَجَمَّدَتِ اللَّجَجُ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ^(١).

وهكذا، فإنّ سفر إشعياء يشير في موضعين منه إلى نفس الفكرة، ففي الإصحاح ٥١ منه يقول النصّ: (١٠) أَلَسْتُ أَنْتِ هِيَ الْمُنْشَقَّةُ الْبَحْرِ، مِيَاةَ الْعُمْرِ الْعَظِيمِ، الْجَاعِلَةَ أَعْمَاقَ الْبَحْرِ طَرِيقًا لِعُبُورِ الْمَفْدِيَّينِ؟^(٢)، وفي الإصحاح ٦٣ منه يقول النصّ: (١١) ثُمَّ ذَكَرَ الْأَيَّامَ الْقَدِيمَةَ، مُوسَى وَشَعْبُهُ: أَيْنَ الَّذِي أَصْعَدَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ مَعَ رَاعِي غَنَمِهِ؟ أَيْنَ الَّذِي جَعَلَ فِي وَسْطِهِمْ رُوحَ قُدْسِهِ، ١٢ الَّذِي سَيَّرَ لِيَمِينِ مُوسَى ذِرَاعَ مَجْدِهِ، الَّذِي شَقَّ الْمِيَاةَ قُدَّامَهُمْ لِيَصْنَعَ لِنَفْسِهِ اسْمًا أَبَدِيًّا، ١٣ الَّذِي سَيَّرَهُمْ فِي اللَّجَجِ، كَفَرَسٍ فِي الْبَرِّيَّةِ فَلَمْ يَعْثُرُوا؟^(٣).

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٥، ٨. وفي هذا المقطع تشابه من حيث الدلالة مع ما جاء في القرآن الكريم من أن كل فرق أصبح كالطود العظيم، حيث ذكرنا أن كلمة طود تدل على الرسوخ والثبات وليس فقط الارتفاع بالتشبيه بالجبل أو الهضبة.

٢. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٥١، ١٠.

٣. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٦٣، ١١-١٣.

واعتبر الدكتور فريتز أنّ ممّا يُضعِف النظريات التي اعتبرت أنّ المسطح المائي كان إحدى البحيرات أو المستنقعات المائية شرق الدلتا المصرية، هو نفس تسميتها بـ (يم سوف)، إذ أنّ الأدلة التي استُدلّ بها على كونها تشير إلى (بحر القصب) -على اعتبار أنّ كلمة (سوف) تعني القصب- أدلة غير مقنعة ولا تصمد أمام النقد، وأنّ محاولتهم ترجمة كلمة (سوف) إلى (قصب) ترجمة غير سليمة، وكان الأجدر بهم -بحسب فريتز- أن يترجموها إلى (البردي) لا القصب، والبردي لم يكن ينمو في تلك المنطقة.

وإحدى العقبات الرئيسة أيضاً -بحسب الدكتور فريتز- أمام تصحيح تلك النظريات هي حقيقة أنّ بعض البحيرات التي نراها على الخريطة اليوم لم تكن موجودة في العصور القديمة. فبحيرتا التمساح والمنزلة عبارة عن مسطحات مائية ظهرت إلى الوجود بعد تاريخ الخروج بفترة طويلة، كما أنّ الامتداد التدريجي لدلتا النيل إلى البحر الأبيض المتوسط هو ما أدّى إلى إنشاء بحيرة المنزلة، وتُظهر الآثار التي تعود إلى ما قبل ٣٥٠٠ سنة أنّ ساحل البحر الأبيض المتوسط في الدلتا كان يمتد جنوباً، ولذا من الخطأ افتراض وجود مستنقعات في تلك المنطقة^(١).

• تشابه الهجرتين:

وهنا ملاحظة أودّ الإشارة إليها، حيث مرّ معنا أنّ التوراة تحدّثت عن سلوك بني إسرائيل طريقاً غير الطريق المعهود للسفر بحسب المدينة التي خرجوا منها، وذلك بأمرٍ وهداية من الله: (١٧) وَكَانَ لَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ الشَّعْبَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْدِهِمْ فِي طَرِيقِ أَرْضِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: «إِلَّا لَا يَنْدَمَ الشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا

1. <https://doubtingthomasresearch.com/problems-modern-exodus-red-sea-theories/>

إِلَى مِصْرَ»^(١)، أي أنهم إذا سلكوا الطريق المعهود للسفر، وهو طريق حورس الحربي، فسيفقتلون مع الحرس الموجودين في الطريق، وهم ليسوا على استعداد لذلك، أو أنهم إذا توجهوا إلى منطقة حضرية، فسيدخلون في صراعات عسكرية مع أصحاب الأرض والممالك الموجودة في فلسطين، وهم ليسوا على استعداد لذلك، ولذا تَمَّت هدايتهم لسلوك طريق آخر يقودهم إلى برية سيناء بين لساني البحر الأحمر: (١٨) فَأَدَارَ اللَّهُ الشَّعْبَ فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةٍ بَحْرٍ سُوْفٍ^(٢).

وقد يقال أن سلوكهم هذا الطريق كان أيضاً لخداع فرعون وجنوده الذين لربما تصوّروا أن من المنطقي لمن يريد أن يتجه إلى أرض كنعان (فلسطين)، فلا بد أن يسلك طريق حورس الحربي، أي إلى الشرق من أورائس وبررعسميس، فإذا بموسى ومن معه يسلكون طريقاً مختلفة عميقاً نحو الجنوب، ومن ثمَّ يتوجهون شرقاً نحو سيناء، ليعبروا باتجاه الضفة الأخرى، وهو ذات الأسلوب الذي اعتمده النبي «صلى الله عليه وآله» حين هجرته، حيث لم يتجه إلى الشمال من مكة المكرمة، بلحاذ كونها واقعة جنوب المدينة، بل اتجه جنوباً حيث غار ثور، ثم التفت إلى الشمال في غير طريق السفر المعتاد عليه في ذلك الزمان [انظر اللوحتين ١١٩-١٢٠].

ومن المحتمل جداً أن يُقال أن من الصعب تصحيح هذا التحليل بلحاذ فارق العدد ضمن هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» وهجرة موسى مع المئات أو الآلاف من قومه، حيث أن طبيعة حركة هذا العدد، والآثار التي يتركونها من ورائهم، ستبين بوضوح الطريق الذي سلكوه نحو الأرض الموعودة.

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ١٧.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣، ١٨.



اللوحة رقم ١١٩ : موقع المدينة المنورة بالنسبة إلى مكة المكرمة



اللوحة رقم ١٢٠ : موقع غار ثور بالنسبة إلى مكة المكرمة

• توبة فرعون:

وتبقى هنا مسألة أثارها بعض المفسرين والعرفاء حول الكلمات الأخيرة التي أطلقها فرعون قبل موته، حيث قال كما أخبر بذلك القرآن الكريم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾^(١)، إذ اعتبر هؤلاء أن فرعون كان صادقاً في تلك الكلمات، ولذا فإن الله «تعالى» قَبِلَ توبته، ومن هنا نجد أن القرآن الكريم -بحسب هؤلاء- يذكر (آل فرعون) في آيات العذاب، لا خصوص فرعون، وأن هذه إشارة واضحة إلى استثناء فرعون من العذاب، بما يدل على قبول توبته. والآيات التي يشيرون إليها كالتالي:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٩٠﴾﴾^(٢).

﴿كَذَابِ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٩١﴾﴾^(٣).

﴿كَذَابِ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾^(٤).

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٩٣﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٩٤﴾﴾^(٥).

١. سورة يونس: ٩٠.

٢. سورة البقرة: ٥٠.

٣. سورة آل عمران: ١١.

٤. سورة الأنفال: ٥٤.

٥. سورة غافر: ٤٥-٤٦.

وهنا نموذج مما قيل حول صحة إيمان فرعون وقبوله. قال محي الدين ابن عربي في كتابه (فصوص الحكم): (ولما وجده آل فرعون في اليمّ عند الشجرة، سمّاه فرعون: موسى، والمو هو الماء بالقبطية، والسّا هو الشجرة، فسماه بما وجده عنده، فإن التابوت وقف عند الشجرة في اليم، فأراد قتله، فقالت امرأته -وكانت مُنْطَقَةً بالنطق الإلهي- فيما قالت لفرعون، إذ كان الله «تعالى» خلقها للكمال كما قال «عليه السلام» عنها حيث شهد لها ولريم بنت عمران بالكمال الذي هو للذكران، فقالت لفرعون في حق موسى إنه ﴿قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾، فبه قرّت عينها بالكمال الذي حصل لها كما قلنا، وكان قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق، فقبضه طاهراً مطهراً ليس فيه شيء من الخبث، لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام، والإسلام يَجِبُ ما قبله، وجعله آية على عنايته «سبحانه» بمن شاء حتى لا ييأس أحد من رحمة الله، فإنه ﴿لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١). فلو كان فرعون ممن يئس ما بادر إلى الايمان)^(٢).

قال محمود الغراب في كتابه (شرح كلمات فصوص الحكم) تحت عنوان (إيمان فرعون): (قوله «تعالى»: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٣)، [لعل] كلمة ترجّ، والترجّي من الله إذا ورد واقع بلا شك، ولهذا قال العلماء إن كلمة [عسى] من الله واجبة، فعَلِمَ الله أنه يتذكر، والتذكر لا يكون إلا عن علم سابق منسي، فالترجي من الله واقع كما قالوا في [عسى]، فإن [لعل] و[عسى] كلمتا ترجّ، ولم يقل «تعالى» لموسى وهارون [لعله يتذكر أو يخشى في ذلك المجلس ولا بد]، ولا خلصه

١. سورة يوسف: ٨٧.

٢. ابن عربي: فصوص الحكم، ص ٢٠١.

٣. سورة طه: ٤٤.

للاستقبال الأخرائي، فإن الكل يخونه في ذلك الموطن ، فجاء بفعل الحال الذي يدخله الاحتمال بين حال الدنيا وبين استقبال التأخير للدار الآخرة ، وذلك لا يكون مخلصاً للاستقبال إلا بالسين أو سوف، ولما كان [لعل] و[عسى] من الله واجبتين.

وقد ترجى من فرعون التذکر والحشية، فلا بد أن يتذكر فرعون ذلك في نفسه وأن يخشى، والذي ترجى من فرعون وقع، لأنّ ترجیه «تعالی» واقع ، فآمن فرعون وتذکر وخشي كما أخبر الله، فإن تلك الحميرة ما زالت معه تعمل في باطنه -مع الترجي الإلهي الواجب وقوع المترجي- ويتقوى حكمها إلى حين انقطاع يأسه من أتباعه وحال الغرق بينه وبين أطماعه، فلجأ إلى ما كان مستتراً في باطنه من الذلة والافتقار، ليتحقق عند المؤمنين وقوع الرجاء الإلهي كما أخبر الله، فقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأظهر حالة باطنه وما كان في قلبه من العلم الصحيح بالله، فهذا يدلّك على قبول إيمانه، لأنه لم ينص إلا على ترجي الذكر والحشية، لا على الزمان، إلا أنه في زمان الدعوة، ووقع ذلك زمان الدعوة في الحياة الدنيا...

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لما علم فرعون الحق وأثبت في كلامه بأن موسى «عليه السلام» مرسل بقوله ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ لَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فإنه ما جاء من نفسه لأنه دعا إلى غيره، فبقيت تلك الحميرة عند فرعون تختمر بها عجين طينته، وما ظهر حكيها ولا اختمر عجينه إلا في الوقت الذي قال فيه ﴿آمَنْتُ﴾، فتلفظ باعتقاده الذي معه ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، وما سمى الله، ليرفع اللبس والشك، إذ قد علم الحاضرون أن بني إسرائيل ما آمنوا إلا بالإله الذي جاء موسى وهارون من عنده إليهم. فلو قال «آمنت بالله» وهو قد قرر أنه ما علم لقومه من إله غيره، لقالوا لنفسه

شهد، لا للذي أرسل موسى إلينا، كما شهد الله لنفسه، فرفع هذا اللبس بما قاله. عند ذلك أخذ جبريل حال البحر فألقمه في فم فرعون حتى لا يتلفظ بالتوحيد^(١). ويمكن أن يقال في الردّ على هذا الادّعاء:

١. ذكر (آل فرعون) لا يعني استثناء فرعون منهم لمجرد أنه قال في اللحظات الأخيرة من حياته ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)، وتدّل على ذلك عدة أمور، منها:

أ) أن قراءة الآية في سياقها يكشف الموقف من تلك الكلمة التي أطلقها فرعون، قال «تعالى»: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣) آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿١٢﴾﴾^(٣).

فمن الواضح أنّ كلام فرعون لم يُقبل منه لأن إقراره جاء متأخراً وفي وقت لا ينفع فيه الندم والتراجع بعد كل العصيان والطغيان والجحود الذي أصرّ عليه عن علم وعمد.

ب) قال الله «تعالى» في بيان التوبة المقبولة: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

١. غراب: شرح كلمات فصوص الحکم، ٣٨٩-٣٩٠.

٢. سورة يونس: ٩٠.

٣. سورة يونس: ٩٠-٩٢.

إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ (١).

في الآيتين السابقتين صورتان متقابلتان للتوبة، الأولى عند حضور الموت، وهي التوبة المرفوضة بدليل قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ...﴾ (١٨)، والثانية عند المبادرة إلى التوبة حال الحياة بدليل قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ (١٧).

وكأن الآيات تقول: لا تُسَوِّفِ التوبة منتظرًا اللحظات الأخيرة من حياتك حين تجد أن لا هروب من الموت، فتعلن حينها أنك تائب إلى الله.. فلا توقيت الموت معروف، ولا كفيته التي قد تُفاجأ من خلالها بقبض الروح في لمح البصر، ولا التوبة في ذاتها مقبولة في تلك اللحظات لو سنحت لك الفرصة.

وهكذا نجد البيان التالي للتوبة غير المقبولة، وهي تخص نماذج من الأمم الماضية ممن عاشوا تجربة مشابهة لتجربة فرعون، حتى إذا جاءت لحظة الحقيقة أعلنوا إيمانهم... فهل قُبِلَ ذلك منهم؟ الآيات تكشف ذلك: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعْهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (٢).

(ج) لقد قرن الله «تعالى» التوبة بالإصلاح عندما يتحدث عنها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

١. سورة النساء: ١٧-١٨.

٢. سورة غافر: ٨٢-٨٥.

تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾^(١)، وقال «تعالى»: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾^(٢)، وقال «تعالى»: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٩٦﴾﴾^(٣). وهل يستطيع من أيقن بالموت وأيس من الحياة في اللحظات الأخيرة منها أن يعمل الصالحات ويصلح ما أفسد؟

(د) تدل مجموعة من الروايات على عدم قبول توبة فرعون، ومن بينها ما في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا: ابن عبدوس، عن ابن قتيبة، عن حمدان بن سليمان، عن إبراهيم بن محمد الهمداني قال: (قلت للرضا «عليه السلام»: لأي علة أغرق الله فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده؟ قال: لأنه آمن عند رؤية البأس والايمن عند رؤية البأس غير مقبول، وذلك حكم الله «تعالى ذكره» في السلف والخلف، قال الله «عز وجل»: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿٨٥﴾﴾^(٤)، وقال «عز وجل»: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا... ﴿١٥٨﴾﴾^(٥)، وهكذا فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فقل له: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية... ﴿٩٢﴾﴾، وقد كان فرعون

١. سورة آل عمران: ٨٩.

٢. سورة النحل: ١١٩.

٣. سورة الفرقان: ٧١.

٤. سورة غافر: ٨٤-٨٥.

٥. سورة الأنعام: ١٥٨.

من قرنه إلى قدمه في الحديد قد لبسه على بدنه، فلما غرق ألقاه الله «تعالى» على نجوة من الأرض^(١) ببدنه ليكون لمن بعده علامة، فيرونه مع تثقله بالحديد على مرتفع من الأرض، وسبيل الثقيل أن يرسب ولا يرتفع، فكان ذلك آية وعلامة، ولعلّة أخرى أغرقه الله «عز وجل»، وهي أنه استغاث بموسى لما أدركه الغرق ولم يستغث بالله، فأوحى الله «عز وجل» إليه: يا موسى لم تغث فرعون لأنك لم تخلقه، ولو استغاث بي لأغثته^(٢)، ومثل هذه الرواية يكون مقبولا لتوافقه مع ظاهر ما جاء في القرآن الكريم حول هذه المسألة.

هـ) وأثار الفخر الرازي المسألة في صورة إشكال كالتالي^(٣): آمن فرعون ثلاث مرات أولها قوله: ﴿آمَنْتُ﴾ وثانيها قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وثالثها قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٤)، فما السبب في عدم القبول، والله «تعالى» متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال: إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الإقرار؟ وأجاب -تسلماً بعدم قبول توبته- بأن العلماء قد ذكروا في ردّ هذا الإشكال وجوهاً مختلفة، هي:

الوجه الأول: أنه إنما آمن عند نزول العذاب، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول، لأن عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء، وفي هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُأْسَنَا﴾^(٥).

١. أي مرتفع من الأرض.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ص ٣١.

٣. الرازي: مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ٢٩٥-٢٩٦.

٤. سورة غافر: ٨٥.

الوجه الثاني: هو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحداية الله «تعالى»، والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية، وعلى هذا التقدير، فما كان ذكر هذه الكلمة مقروناً بالإخلاص، فلهذا السبب ما كان مقبولاً.

الوجه الثالث: هو أن ذلك الإقرار كان مبنيّاً على محض التقليد، ألا ترى أنه قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهاً، فهو أقرّ بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقرّوا بوجوده، فكان هذا محض التقليد، فلهذا السبب لم تُصَرَّ الكلمة مقبولة منه، ففرعون كان من الدهريّة^(١)، وكان من المنكرين لوجود الصانع «تعالى»، ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته، إلا بنور الحجج القطعية، والدلائل اليقينية، وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد، لأنه يكون ضمّاً لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق.

الوجه الرابع: رأيتُ في بعض الكتب أنّ بعض أقوامٍ من بني إسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل، فلما قال فرعون ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ انصرف ذلك إلى العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت، فكانت هذه الكلمة في حقّه سبباً لزيادة الكفر^(٢).

الوجه الخامس: أن اليهود كانت قلوبهم مائلة إلى التشبيه والتجسيم، ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه «تعالى» حلّ في جسد ذلك العجل ونزل فيه، فلما كان الأمر كذلك وقال فرعون ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فكأنه

١. أي من المنكرين لوجود الإله الخالق الصانع، وأن الدهر أوجد الموجودات.

٢. من الواضح أن هذا الوجه -والوجه الخامس الآتي- ضعيفان، بل غير مقبولين.

آمن بالإله الموصوف بالجسمية والخلول والنزول، وكلُّ مَنْ اعتقد ذلك كان كافراً، فلهذا السبب ما صحَّ إيمان فرعون.

الوجه السادس: لعلَّ الإيمان إنما كان يتم بالإقرار بوحدانية الله «تعالى»، والإقرار بنبوة موسى «عليه السلام»، فههنا لما أقرَّ فرعون بالوحدانية ولم يقرَّ بالنبوة، لا جرم لم يصحَّ إيمانه. ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا إله إلا الله، فإنه لا يصحَّ إيمانه إلا إذا قال معه وأشهد أن محمداً رسول الله، فكذا ههنا.

الوجه السابع: روى صاحب «الكشاف»^(١) أن جبريل «عليه السلام» أتى فرعون بفتيا فيها: [ما قول الأمير في عبدٍ نشأ في مال مولاه ونعمته، فكفر نعمته وجحد حقّه، وادّعى السيادة دونه؟]. فكتب فرعون فيها: يقول [أبو العباس الوليد بن مصعب]^(٢) جزاء العبد الخارج على سيّده، الكافر بنعمته، أن يغرق في البحر]. ثم إن فرعون لما غرق رفع جبريل «عليه السلام» فتياه إليه^(٣).

قال المجلسي في البحار تعليقاً على كلام الرازي: (والأول هو الأظهر كما دلّ عليه الخبر، إذ التوبة لا يجب على الله قبوله عقلاً إلا بما أوجب على نفسه من قبول توبة عباده تفضلاً، وقد أخبر في الآيات الكثيرة بعدم قبول التوبة عند رؤية البأس، فلا إشكال في عدم قبول توبته عند معاينة العذاب)^(٤).

١. أي صاحب تفسير الكشاف، وهو جار الله الزمخشري.

٢. تفترض هذه الرواية أن اسم فرعون هو الوليد بن مصعب، وأن لقبه أبو العباس.

٣. وفي نسخة: (فلما ألجمه الغرق، ناوله جبريل خطّه، فعرفه). فالمراد هو أن جبريل أظهر لفرعون الجواب الذي كان قد أجاب به من قبل.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٣٢.

• نهاية المرحلة:

بهذا، نكون قد وصلنا إلى نهاية الجزء الثاني من كتاب (الكليم موسى بن عمران) والذي غطى المرحلة الممتدة من بعثته «عليه السلام» إلى خروجه وعبوره اليمّ -مع بني إسرائيل- وما جرى لفرعون وجنوده حيث غرقوا بأجمعهم في ذلك اليم في واحدةٍ من آياتٍ إلهيةٍ عديدة، توالى طوال تلك الفترة، ولكنّ فرعون أصرّ على الكفر والطغيان والتحدّي، ودخل في حالةٍ من العناد والاستكبار إلى أن هلك، لتبدأ مرحلة جديدة من سيرة الكليم موسى بن عمران، تبدأ من حين أن حظّت قدماءه على أرض سيناء إلى وفاته، وهو ما سنتناوله في الجزء الثالث من هذا الكتاب بإذن الله «تعالى».

• نتائج الفصل و خلاصته:

○ تحدثت التوراة عن تنفيذ النبي موسى لوصية النبي يوسف بإخراج جثمانه من أرض مصر ونقله إلى أرض كنعان في تابوت، حيث مدفن آبائه يعقوب وإسحاق وإبراهيم، وقد امتزج هذا الحدث بالأساطير في التراثين اليهودي والإسلامي، علماً بأن القرآن الكريم لم يتحدث عن هذه الجزئية.

○ منطقياً، تاريخياً، حسابياً، وعلى مستوى النص، لا يصح ما جاء في التوراة من أن عدد من خرج مع النبي موسى من الرجال قد تجاوزوا الستمائة ألف؟!

○ ذكرت التوراة أن مسار خروج بني إسرائيل تضمّن المناطق التالية: سكّوت، إيثام، وفم الحيروث، وقد اختلف شراح التوراة والباحثون في تحديد هذه المواقع من أرض مصر، وهو ما سينعكس على آرائهم حول ماهية المسطح المائي الذي انفلق لموسى ومن أين وإلى أين تمّ العبور.

- توافقت التوراة الحاضرة والقرآن الكريم - أحياناً- في وصف مشهد ملاحقة فرعون وجنوده لموسى وبني إسرائيل وما استتبع ذلك من أحداث.
- بالتحقيق والأدلة يمكن القول بصورة جازمة أن أسطورة الماذيانة المتعلقة بدور فرس جبريل في إغواء خيول فرعون وجنوده والتسبب في غرقهم، وروايات امتناع البحر عن الانفلاق، ومحاوله جبريل منع فرعون من التوبة ثم ندمه على ذلك، وقصة العجوز العمياء، كلها روايات دخيلة وموضوعة ذات جذور يهودية.
- في البين عدة نظريات حول مسار الخروج، وتحديد المسطح المائي الذي انفلق، وهل هو فرع من نهر النيل، أم خليج السويس، أم خليج العقبة، أم مستنقع كبير مندثر، أم ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولكل نظرية أدلثها، ويصعب حسم المسألة لعدم وجود أدلة مادية قوية وحاسمة لأيٍّ منها، وهي في مجملها معتمدة على الوصف التوراتي ومحاوله الاستنتاج والتحليل من خلال المعطيات الجيولوجية والجغرافية.
- ادعاء البعض قبول توبة فرعون قبل موته ادعاء باطل لا يستند إلى دليل، بل الدليل القرآني قائم على خلافه.

مصادر الكتاب

المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. ابن أبي جمهور الإحسائي، محمد بن علي؛ عوالى اللثالى العزىزية فى الأحادىث الدىنىة؛ قم إىران: مطبعة سىء الشهءاء، ١٩٨٣-١٩٨٥.
٤. ابن الجوزى، عبد الرحمن بن على؛ الموضوعات؛ المءىنة المنورة - السعوءىة: المكتبة السلفىة، ١٣٨٦-١٣٨٨ هـ، ط ١.
٥. ابن عاشور، محمد الطاهر؛ التحرىر والٱنوىر؛ ٱونس: الءار ٱونسىة للنشر، ١٩٨٤م.
٦. ابن قىم الجوزىة، أبى عبد الله محمد بن أبى بكر؛ بءاع الفواءى؛ بىروت - لبنان: ءار الكٱب العلمىة، ١٩٩٤م.
٧. ابن كٱىر، إسماعىل بن عمر الءمشقى؛ ٱفسىر القرآن العظىم؛ الرىاض - السعوءىة: ءار طىبة، ١٤٢٠ هـ، ط ٢.
٨. أبو الأشبال الزهىرى آل منءوه المنصورى المصرى، حسن؛ شرح صءىح مسلم؛ ٢٠١٩م.
٩. أبو الحسن الأزءى البلىخى، مقاتل بن سلىمان بن بشىر؛ ٱفسىر مقاتل بن سلىمان؛ بىروت لبنان: ءار إءىاء التراث العربى، ١٤٢٣ هـ، ط ١.
١٠. أبو زكرىا النووى، محىى الءىن بىحى بن شرف؛ المنهاج شرح صءىح مسلم بن الءجاج؛ بىروت لبنان: ءار إءىاء التراث العربى، ١٣٩٢ هـ، ط ٢.
١١. أبو يوسف الفسوى، يعقوب بن سفىان بن جوان الفارسى؛ المعرفة والٱارىخ؛ بىروت لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ط ٢.

١٢. أبوالحسين، أحمد بن فارس بن زكريا؛ معجم مقاييس اللغة؛ بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.
١٣. أبي النضر العياشي، محمد بن مسعود؛ التفسير؛ طهران إيران: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤٢١هـ، ق، ط ١.
١٤. الإفريقي، محمد بن مكرم بن علي بن منظور؛ لسان العرب؛ تصوير وزارة الأوقاف السعودية عن طبعة الأميرية ببولاق، ١٣٠٠ هـ ق.
١٥. الألوسي، محمود بن عبد الله؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ ق، ط ١.
١٦. الأنصاري القرطبي، محمد بن أحمد؛ الجامع لأحكام القرآن؛ القاهرة - مصر: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤ هـ ق، ط ٢.
١٧. باقر، طه؛ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة حضارة وادي النيل؛ بيروت - لبنان: دار الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م.
١٨. البخاري، محمد بن إسماعيل؛ الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)؛ مصر: دار التأصيل للبحث العلمي والترجمة والنشر مركز البحوث وتقنية المعلومات، ١٤٣٣ هـ ق، ط ١.
١٩. البروجدي، حسين؛ جامع أحاديث الشيعة؛ قم إيران: مطبعة المهر، ١٤١٥ هـ ق.
٢٠. الجلال السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر؛ الدر المنثور في التفسير المأثور؛ بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣٢ هـ ق.
٢١. حسن، سليم؛ موسوعة مصر القديمة؛ وندسور المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي سي آي سي، ٢٠١٧م.
٢٢. الحميري، محمد بن عبدالله؛ قرب الإسناد؛ طهران - إيران: مطبعة نينوي الحديثة.
٢٣. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان؛ سير أعلام النبلاء؛ بيروت - لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ ق، ط ٣.
٢٤. سعد الدين، أحمد؛ فرعون ذو الأوتاد؛ القاهرة مصر: دار الكتاب العربي، ٢٠١٩م، ط ٣٠.

٢٥. الشريف الرضي، محمد بن الحسين؛ نهج البلاغة؛ قم - إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤٠٨ هـ، ق، ط ١.
٢٦. الشريف المرتضى علم الهدى، علي بن الحسين؛ تنزيه الأنبياء، النجف العراق: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٠.
٢٧. شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزُّ أُوغلي؛ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان؛ دمشق سوريا: دار الرسالة العالمية ٢٠١٣م، ط ١.
٢٨. الشنقيطي، محمد الأمين؛ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن؛ المدينة المنورة السعودية، ٢٠٠٥م.
٢٩. الشيباني، أحمد بن حنبل؛ المسند؛ بيروت - لبنان: مطبعة الرسالة، ١٤٢١ هـ، ق.
٣٠. الشيرازي، ناصر مكارم؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ قم إيران: مؤسسة البعثة، ١٩٩٢م.
٣١. الصدوق، محمد بن علي؛ الأمالي؛ النجف-العراق: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٩ هـ، ق.
٣٢. الصدوق، محمد بن علي؛ علل الشرائع؛ بيروت - لبنان: دار المرتضى، ١٤٢٧ هـ، ق، ط ١.
٣٣. الصدوق، محمد بن علي؛ عيون أخبار الرضا؛ قم - إيران: جابجانه دار العلم، ١٣٧٧ هـ، ق.
٣٤. الطباطبائي، محمد حسين؛ الميزان في تفسير القرآن؛ إيران - قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٧ هـ، ط ٥.
٣٥. الطبرسي، الفضل بن الحسن؛ مجمع البيان في تفسير القرآن؛ بيروت - لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٥م، ط ١.
٣٦. الطبري، محمد بن جرير؛ تاريخ الأمم والملوك؛ مصر: دار المعارف، ١٣٨٧ هـ، ق، ط ٢.
٣٧. الطبري، محمد بن جرير؛ جامع البيان في تأويل القرآن؛ القاهرة، مصر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤٢٢ هـ، ق، ط ١.
٣٨. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ مصر: المكتبة السلفية، ١٣٨٠ هـ، ق.
٣٩. عمر، أحمد مختار؛ معجم اللغة العربية المعاصرة؛ القاهرة مصر: عالم الكتب ١٤٢٩ هـ، ق.

٤٠. الغفار، عبدالرسول؛ شبهة الغلو عند الشيعة؛ بيروت - لبنان: دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.
٤١. الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسن؛ التفسير الكبير؛ بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ.ق.
٤٢. فضل الله، محمد حسين؛ من وحي القرآن؛ بيروت - لبنان: دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣.
٤٣. قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله؛ قصص الأنبياء؛ قم إيران: مؤسسة الهادي، ١٤١٨ هـ.ق، ط ١.
٤٤. القمني، سيد؛ النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة؛ وندسور المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي سي آي سي، ٢٠٢١م.
٤٥. القمي، علي بن إبراهيم؛ تفسير القمي؛ قم - إيران: مؤسسة الإمام المهدي ١٤٣٥ هـ.ق، ط ١.
٤٦. الكليني، محمد بن يعقوب؛ الكافي؛ بيروت: لبنان: منشورات الفجر، ٢٠٠٧م، ط ١.
٤٧. المجلسي، محمد باقر؛ بحار الأنوار لدرر أخبار الأئمة الأطهار؛ بيروت - لبنان: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ.ق.
٤٨. مجموعة محرين؛ التفسير التطبيقي للكتاب المقدس؛ المعادي - مصر: مساتر ميديا، ٢٠١١، ط ٢.
٤٩. مجموعة مؤرخين؛ الإسماعيلية بوابة مصر الشرقية؛ الإسماعيلية مصر: مطبعة الفجر الإسماعيلية، ١٩٦٠م.
٥٠. المزي، يوسف بن عبد الرحمن؛ تهذيب الكمال؛ بيروت - لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ هـ.ق، ط ١.
٥١. المفيد، محمد بن محمد بن محمد بن النعمان؛ الاختصاص؛ قم - إيران: النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة.
٥٢. المقدسي، المطهر بن طاهر؛ البدء والتاريخ؛ مصر- بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ٢٠١٣ م.

٥٣. النويري، أحمد بن عبد الوهاب؛ نهاية الإرب في فنون الأدب؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ، ط ١.
٥٤. النيسابوري، مسلم بن الحجاج؛ المسند الصحيح (صحيح مسلم)؛ الرياض - السعودية: دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٦ هـ، ط ٢.
٥٥. اليعقوبي، أحمد بن إسحق؛ تاريخ اليعقوبي؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ، ط ١.

المصادر الأجنبية

1. A. H. Jones, "Hāmān", in J. D. McAuliffe (Ed.), Encyclopaedia Of The Qur'an, 2002, Volume II, op. cit..
2. C. Jacq (Trans. J. M. Davis), Egyptian Magic, 1985, Aris & Phillips Ltd. & Bolchazy-Carducci Publishers: Chicago.
3. Elizabeth Frood, Biographical Texts From Ramessid Egypt, 2007, Society of Biblical Literature.
4. Encyclopaedia Of Islām: A Dictionary Of The Geography, Ethnography And Biography Of The Muhammadan Peoples, 1936, Volume III, E. J. Brill: Leyden & Luzac & Co.: London.
5. J. P. Allen, Middle Egyptian - An Introduction To The Language And Culture Of Hieroglyphs, 2010, Cambridge University Press: Cambridge (UK).
6. K. A. Kitchen, Pharaoh Triumphant: The Life And Times Of Ramesses II, King Of Egypt, 1982, Aris & Phillips Ltd.: Warminster (England).
7. K. Sethe, Urkunden Der 18. Dynastie: Historisch-Biographische Urkunden, 1909, Volume IV, J. C. Hinrichs'sche Buchhandlung: Leipzig, IV 1077.
8. Pirke de Rabbi Eliezer, 1916, K. Paul, Trench, Trubner & Company.
9. Robinson, George Essential Judaism: A Complete Guide to Beliefs, Customs & Rituals. 1st ed. New York City: Atria. Books, 2001.
10. Silverstein, Adam (2008). "Haman's transition from the Jahiliyya to Islam". Jerusalem Studies in Arabic and Islam. 34: Retrieved January 11, 2023.
11. Sir. F. Petrie, Religious Lie In Ancient Egypt, 1924, Constable & Company Ltd.: London

مواقع الإنترنت

1. abadis.ir
2. biblehub.com
3. call-of-hope.com
4. doubtingthomasresearch.com
5. islamqa.info
6. islamstory.com
7. jwa.org
8. st-takla.org
9. study.com
10. thebiblehistoryguy.com
11. time.com
12. www.almaany.com
13. www.bereaninsights.org
14. www.bible.com
15. www.bibleref.com
16. www.drghaly.com
17. www.hebrewoldtestament.com
18. www.hebrewoldtestament.com
19. www.ifcj.or
- www.islamic-awareness.org
- www.originalsources.com
- www.originalsources.com
- www.sefaria.org
- www.stmark-kw.net
- www.worldometers.info

الكتب

١. آفاق الجمعة: روح وفكر... ٣ أجزاء
٢. أبو الأنبياء
٣. أبيض.. أسود
٤. أحبك يا ربي: كتيب للأذكار مخصص للأطفال
٥. أحكام الحدث الأكبر
٦. أحكام الدماء الثلاثة
٧. أحكام المريض والمصاب
٨. أخلاقيات الطب وآدابه
٩. أخلاقيات المهن الحقوقية وآدابها
١٠. إضاءات على فكر الفقيه المجدد السيد فضل الله
١١. أطلس واقعة الطف
١٢. إليك يا ابنتي (مترجم إلى اللغة التركية)
١٣. إليك يا ولدي (مترجم إلى اللغة التركية)
١٤. إمام ومأموم... حُكم الجماعة عند الاختلاف المذهبي
١٥. بسايتين الإيمان: ٤ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة المتوسطة
١٦. التفاحة الفاسدة
١٧. حروب الردة: الحقيقة والأساطير
١٨. الدرة الثمينة في أعمال مكة والمدينة
١٩. الدليل: مرشد الزائرين للعتبات المقدسة في إيران

٢٠. الدينار والدرهم.. دراسة تاريخية وفقهية
٢١. رسالة المسجد
٢٢. زوجتي العزيزة
٢٣. زوجي العزيز
٢٤. زينة الحياة
٢٥. حقائق الإيمان: ٥ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة الابتدائية
٢٦. السيرة العسكرية لأمر المؤمنين علي
٢٧. السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد
٢٨. الشعائر الحسينية
٢٩. شهداء على أرض فخ
٣٠. صلاة الجمعة
٣١. طريق سعادتي، صدر بثلاث لغات (العربية - الإنجليزية - الهندية)
٣٢. الغناء في ميزان الشرع
٣٣. الفتوحات الإسلامية... دراسة تاريخية وشرعية
٣٤. فراس: قصة للأطفال
٣٥. فك لغز الأسباط... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٣٦. الكليم موسى بن عمران .. الجزء الأول
٣٧. لا فتى إلا علي
٣٨. للشباب فقط
٣٩. ليالي عاشوراء (١٠ أجزاء)
٤٠. المآثم الحسينية... أهداف وتطلعات
٤١. محطات في الفكر والسياسة والأدب
٤٢. المرأة والستر الشرعي

٤٣. المسيح عيسى ابن مريم
٤٤. المعجم المصور للمصطلحات الفقهية
٤٥. مفاهيم حركية من وحي القرآن (في مجلدين)
٤٦. من هدي الإمام المجتبي... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٤٧. من هدي أمير المؤمنين... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٤٨. من هدي الزهراء... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٤٩. من هدي سيد الشهداء... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٥٠. من هدي النبي الأكرم... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٥١. المنبر الحسيني: أفكار ورؤى الفقيه المجدد السيد فضل الله
٥٢. منتقى الجمان من مفاتيح الجنان
٥٣. منتقيات (١٠ أجزاء)
٥٤. المنهج الرسالي في التفسير القرآني عند السيد محمد حسين فضل الله
٥٥. ميثولوجيا الخضر
٥٦. وداع الأحبة

تطبيقات الأجهزة اللوحية والهواتف المحمولة

١. آيات الأحكام
٢. المرشد لأحكام الحج
٣. مؤلفاتي
٤. وصية
٥. الولاء
٦. وهم الإلحاد

